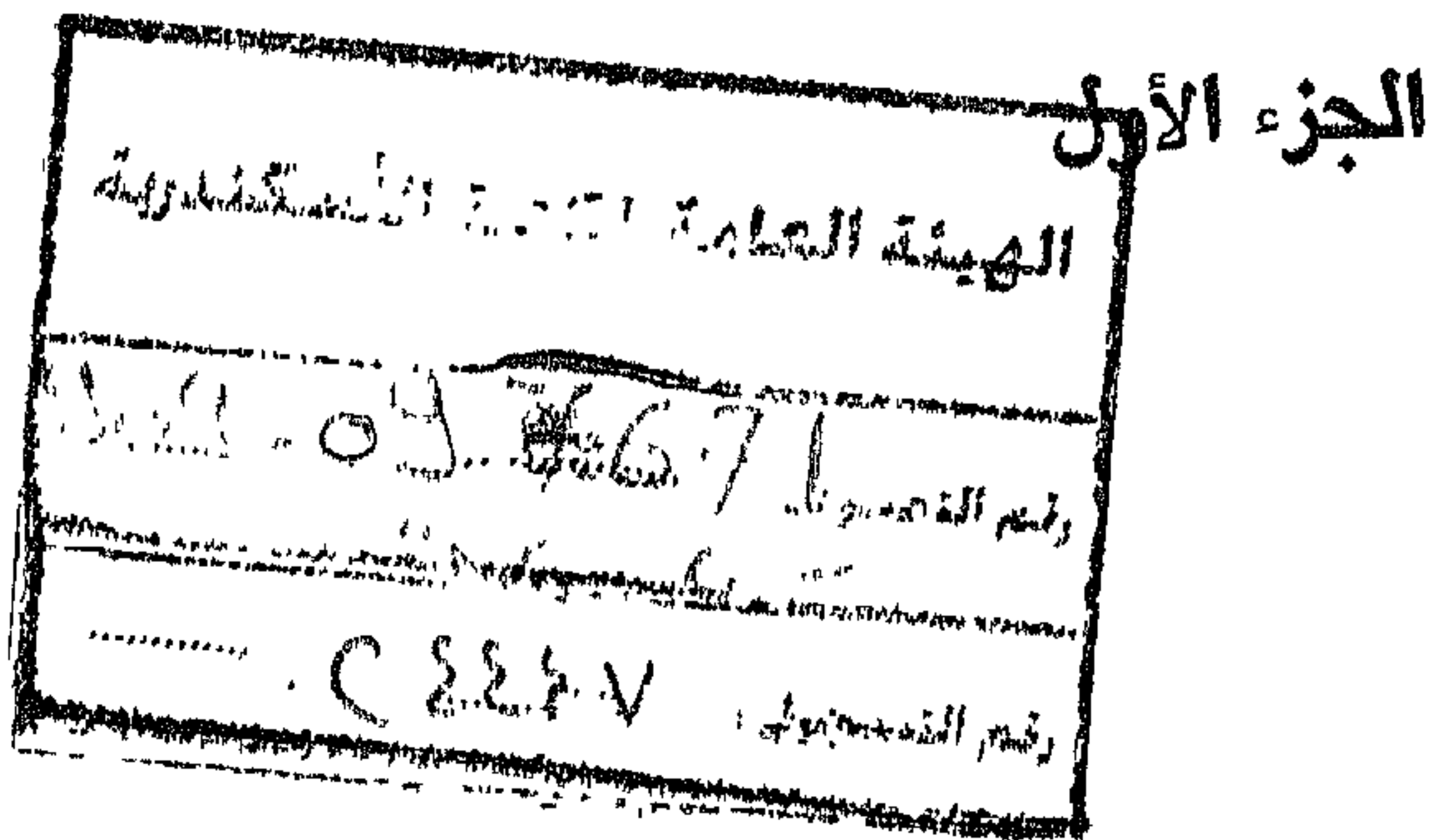


قِيمُ حَضَائِرِيَّةٍ فِي الْفُرَّانِ الْكَبِيرِ عَالَمًا مَاقِبَلِ الْقِرَآتِ

تأليف
توفيق محمد سبع



دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب 61 هليوبوليس

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفه ، فقد ضمنى مجلس مع لفيف من الأخوة ذات ليلة - وكنا حين نلتقى نتحدث في كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويلا فيما بيننا ، وكان لنا صديق مفتون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقرأ من أفكار حول الغرب وتقدمه ، ونهضته العلمية الشاملة .. وينهى حديثه بعبارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها .. حتى عرف بها .. وهى قوله : لا بد أن نكون منصفين - ونعترف بأننا استفدنا الكثير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا فى هذه الأفكار ونؤكد له أن حضارة أوروبا مقتبسة من حضارة المسلمين .. يوم أتاحت لهم فرص التلاقى مع الشرق فى فترات من الزمن أخصبها فترة الفتح الأندلسى الاسلامى .. الذى جعل أوروبا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا، وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التى ارتادها لفيف من الدارسين الأوربيين .. وتلك حقيقة يقترنون هم بها .. بل ويتغنون بآثارها !!

هذا هو القول الحق !!

كنت أجلس بين المتناقشين صامتا لا أتكلم ، هارئا لا أتوثب - ولكن ععلى كان يشتعل ، وذهنى كان يستوعب آراء

هؤلاء وهؤلاء .. كان يرتب المقدمات ويستلخص النتائج ، في
عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ..

وقلت لنفسي : لم لا أكتب في موضوع كهذا .. لأوقع
الحييف عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها؟! ثم عقدت العزم
وانطلقت في المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد .. حتى امتلأت ..
ثم جاشت هذه الأفكار في نفسي وتحفزت للظهور .. فاعتمدت
على الله !! وشرعت أكتب .. وكان مقدرًا أن أصدر جزءًا واحدًا ،
أستوحى مادته من القرآن .. ولكن القدر هيا فرصة الإقامة
بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرًا .. فكان ذلك
مددًا غمرني بما لم أكن أتوقع من فكر ومعرفة .. وأمام هذا
الإلهام الغامر كتب جزأين وقدمتهما الى مجمع البحوث
الإسلامية بالأزهر الشريف ..

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفور له المرحوم الدكتور
محمد عبد الرحمن بيصار أمين المجمع يومذاك .. والذي صار
فيما بعد شيخًا للأزهر - حتى أصدر أمره بتقديم الجزأين
كليهما الى المطبعة - وقدم لهما بقلمه الخصب !! فما حل شهر
جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !!

وتقبلهما الناس بقبول حسن .. وأخذًا حظهما من الثناء ،
والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص
على إعادة طبع هذا الكتاب .. واليوم .. وقد تهيأت الأسباب
أجدنى سعيدًا كل السعادة بإعادة الطبع ليبرز الكتاب في ثوب
جديد .. وقد أضيفت إليه بعض الأفكار .. وتم تنظيمه على
نحو بديع .. هأنذا أقدمه هدية الى الشباب الظالمى الى المعرفة
ليجد فيه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضد آفات الغزو
الفكرى والعقدى ..

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح له ، لقاء ما بذلت في
تأليفه من جهد ، وهو حسبى ونعم الوكيل ،

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكة العربية السعودية - الرياض في غرة رمضان سنة ١٤٠٤ هـ

يونيو سنة ١٩٨٤ م

بِسْمِ اسَدِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية (١)

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا
الله ، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله محمد بن عبد الله ،
امام الهدى ، ورائد الخير ، وقائد الانسانية الى خير وجهة ،
وأقوم سبيل ، وعطى آله وأصحابه الذين أعز الله بهم الوجود
وحقق على أيديهم كرامة الحياة •

وبعد •

فيطيب لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، أن ينشر
البحوث الجادة حول القرآن وحضارته ، وبخاصة في تلك الفترة
التي أخذ الغزو الثقافى فيها يعمل عمله في عقول الشباب بما
يصور لهم من حضارة الغرب ، ويذيين من ثقافته ، وبعض ذلك
خليق أن يعصف بالقيم الاسلامية في نفوس الشباب وفي
عقولهم ••

لهذا كانت الكتابة في موضوع (حضارة القرآن وقيمه)
أمرا يفرض نفسه على المفكرين الاسلاميين ويضاعف من
أهميتها أننا اليوم نبني دولة العلم والايمان على تقوى من الله
ورضوان ••

(١) أصبح اماما اكبر للأزهر بعد ذلك رحمه الله

فهذه الدراسة أولا تؤكد لشباب الاسلام أن قيم الحضارة
القرآنية هي التي أنقذت الغرب من الجهالة ، وانتشلته من
التأخر ، وأمدته بالمعرفة الزكية الخصبة التي أخذ يستثمرها
في بناء حضارته ، فمن حق هذه الحضارة القرآنية أن تبرز
خصائصها ، وتتألق عناصرها ومقوماتها ، وتتجلى آثارها في
العالم كله ، وفي أوروبا بالذات ، قصدا الى احقاق الحق وازهاق
الباطل ، وبخاصة وأن كتاب الغرب المنصفين يعترفون بتلك
الحقائق !! ولقد أخذت حضارة الغرب اليوم تضطرب وتميد ،
من كثرة ما أمعنت في الفساد ، وأوغلت في الظلم ، وارتوت من
معين الشهوات ، فانفصلت بكل ذلك عن الله ! !

وعلى الرغم من مظهرها الخادع ، ورونقها الزاهي ، فانها
تشكو العلل والأوصاب، وتورث أصحابها شقاء ولوعة، ولنتجه
في ذلك الى الاحصاءات التي تصدر عن القوم أنفسهم حتى نكون
منصفين *

فقد ثبت أنهم فقدوا أعصابهم في جو الحديد والنار،
وتلاشت حضارتهم الانسانية في تلك الأجواء المادية ، وانطلقت
حيوانيتهم تعربد في جو الضلال والخمر والمخدرات ، وانتابتهم
الأمراض النفسية ، وكثرت بينهم الانتحارات ، وغشيم الملل
وتورط القوم في دركات التفرقة العنصرية ولم يستطيع الرفه
المادى الذى غرق فيه القوم أن يعوضهم عن الايمان بالله ! !

واذا وصلت حضارة الغرب الى هذا المستوى فان من المحتم
من هذه الحياة ، وتضاعفت آفات الجنون الجنسى ، الممزق ،
أنها ستغرب مهما اصطنعت القوة وغرقت في الترف واللذة ..
فمن المثير جدا أن تكثر الكتابات حول (قيم الحضارة القرآنية)
وأن تترجم ليأخذ العالم كله فكرا دقيقا عن مقومات تلك
الحضارة *

واذن ٠٠ فهذه الدراسة ستدعم الثقة في نفوس شبابنا
بحضارة القرآن وثقافته ومثله ، لتوجد لهم الحصانة الكافية
ضد الفكر المنحرف ، وأيضا فانها تعطي العالم كله تصورا عن
تلك الحضارة التي عاشتها البشرية من قبل ، تجربة واقعية ،
فأسعدتها ومكنت لها في الأرض ٠

ومن ناحية ثالثة فانها تعطي جماهير شعبنا المؤمن المتدين
تصورا دقيقا عن دولة العلم والايمان التي عاشتها آباؤهم من
قبل ليرتبط الحاضر المتطلع بالماضى الجليل ، وليتكامل التاريخ
في وجدان الأمة المسلمة ٠

وقد حدثنا المؤلف عن مجموعة ضخمة من الحضارات
القديمة التي وصفها القرآن ، ووضح لنا عناصرها وقيمها ،
وأكد لنا مقدرة العقل الانساني على الابتكار والابداع عبر
التاريخ ، ثم شرح من خلال العرض قوانين الحضارات ، وعوامل
ازدهارها وانتحارها ٠٠ وانتقل بنا الى توضيح ما كان يسود
العالم قبيل البعث الاسلامي من تفسخ وضلال ، وكيف أن الله
جلت قدرته قد تدارك هذا العالم برحمته فبعث اليه محمدا
صلوات الله عليه بالهدى ودين الحق ، ليرد الانسانية الى
كرامتها ورشدتها ، ووقف بنا عند هذا الحد ، ليتحدث الينا في
الجزء الثاني من هذا الكتاب ، عن البعث الجديد ، خصائصه ،
ونظام حضارته ٠

والمجمع اذ ينشر هذا الكتاب مؤمنا بأن فيه خيرا كثيرا لأنه
يجيء في وقته المناسب ، والنفوس ظامئة الى القرآن وحضارته ،
والعالم كله يرنو الى هداه ، ومصر الكريمة المسلمة تبني دولة
العلم والايمان ٠

فلتكن هذه الدراسة وسيلة دعم لنفوس الشباب ، وإشارة
ضوء على طريق الدولة العصرية ، وسبيل وعى لحضارة القرآن
وقيمه ، تهديها الى العالم بأسره ، الظامىء الى الهدى والخير .

والأمل كبير فى الله ، أن يمكن للاسلام فى الارض ، وأن
يكتب النصر المؤزر لأبنائه ، وأن يحقق لمصر الكريمة ما تصبو
اليه من نصر ومجد ورفعته لتسهم بالجهد الطيب المشكور فى
دعم حضارة القرآن ، لتخفق أعلامه من جديد على عالم مروع
بالظلم ، مقزع بالحرب ، مؤرق بتجار الدماء .
والله الموفق والهادى الى أقوم سبيل .

دكتور محمد عبد الرحمن بىصار

مقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على رسول الله دعا الى مجتمع أكرم تنتصر
فيه ارادة الرحمن، وتزدهر فيه مواهب الانسان، وتظله حضارة
القرآن ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

•• أما بعد

فقد يكون من المناسب أن أتصدى بالدراسة والتحليل - فى
هذا الجزء من الكتاب - لعالم ما قبل القرآن •• اذ ليس من
المعقول أن أبدأ فى وصف الحضارة القرآنية ، متجاهلاً حالة
العالم قبلها •• ليتبين القارىء من خلال العرض أى جهل كان
يسود ، وأى هوى كان يقود ، وأى ظلام كان يلف العالم قبل
نزول القرآن ••

واذن : فلن يكون الجزء الأول من الكتاب « عالم ما قبل
القرآن » الا مقدمة وتمهيداً لدراسة العالم الذى صنعه القرآن -
والحضارة التى أنشأها ••

ذلك لأن الحضارات الانسانية - حلقة محكمة السرد
لا انقطاع فيها ولا وهن •• فاذا أمكن اعطاء المعرفة عن الفترات
التي تسبق حضارة ما •• كانت الرؤيية واضحة - والمعرفة
كاملة - والتصوير دقيقاً •• على أن طبيعة النقلة الجبارة التي

أحدثها القرآن في الحياة - لابد في تصورهما من دراسة ما كان عليه العالم قبلها من جهالة كثيفة وبربرية جموح !!

ان قيم الحضارة القرآنية لم تصنع ذلك التطور المذهل في حياة البشر - الا لأنها قد اكتسحت ضلالات العهود البائدة - ونسفت ما كان يسودها من خرافات - ووضعت مكان هذه الأنقاض هيكل حضارة قرآنية .. بنته على مهل وروية - وأسست على تقوى من الله ورضوان *

لقد كانت هذه الحياة - حائرة القصد ، خائرة العزم - جائرة السيرة .. ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرجت يدك لم تكدرها ..

ضلال في العقائد - وفساد في الشرائع - وانحراف في السلوك والطباع !! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !!

وكان هذا الفساد الشامل نتيجة لما حل بالعالم من كوارث ماحقة .. في خلقه وفي عقيدته وفي تصوره .. وكانت لمحات الضياء الخافت التي تنبعث من الديانات السماوية شاحبة الضوء باهتة النور .. لا تستطيع أن تزكى نفساً - أو تهذب طبعاً - أو تبني حياة !!

ان بعض هذه الديانات كان قد استوفى دوره التاريخي فتوارى خلف الظل - وبعضها قد انطمس نوره - وتبددت عطوره وغشيه القتام .. لأن أصحابه قد عمدوا الى تشويبه وتحريفه .. ففقد التأثير والفاعلية وأصبح مجرد رسم دارس، وطلل قديم لا يثير العظة ، ولا يحرك الضمير !! وهذا هو الذى حدث للديانتين الكبيرتين : اليهودية والنصرانية ..

أما اليهودية :

فبعد أن كانت دينا يوحى بالحنان والرحمة ويفيض على الوجود نسمات عذبة تجفف العرق عن الجباه - وتلطف من قساوة العيش وضاوة الحياة .. نراها قد تحولت على يد « شعب الله المختار » الى ديانة عنصرية لا ترعى في الانسانية الا ولا ذمة .. ثم جعلوها مادية قاسية - تعبد العجل - وتأكل السحت - وتتعامل بالربا - وتقتل أنبياء الله . وتشيع حالة السوء في المسيح عيسى بن مريم وأمه !! وقد سجل القرآن الكريم صحيفة سوابقهم لتقرأ الانسانية اجرامهم على مر العصور .

وقد أعقبتها المسيحية .. فكانت مكملة لها .. ترطب جفاف الحياة بمواعظها الآسرة - ورقائقها العذبة .. ويظهر أن الرهبان في بادئ الأمر كانوا نماذج رفيعة لرقة الوجدان - ولطافة المشاعر .. ثم ما لبثوا - على مر الزمن أن تحولوا الى قساة غلاظ - يفرون من ميادين الحياة - الى الأديرة والكنائس . ليحيوا هناك حياة جافة ملؤها الكبت والقسوة والعنف .

[فقد كان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً - وانما يتسترون بشعرهم الطويل (١) - ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان معظمهم يسكن مغارات السباع والآبار ، والمقابر ويأكل الكأ والحشيش - وكانوا يعدون نظافة الجسم منافية لطهارة الروح .. ويتآثمون من غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس - وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال من أحضان

(١) ص ١٦٨ من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندى (بتصرف) .

أمهاتهم .. لينشئوهم على الرهينة والتقشف .. وأما الكبت فقد كانوا يمارسون منه أعنف أنواعه .. كانوا يعتبرون ظل المرأة رجساً - ويفرون منها .. لأن مجرد محادثتها تحبط أعمالهم] ، ثم ماذا كان حال أوروبا في هذه الفترة ؟

يقول ويلز : [لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس الى العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، فقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا .. وأفضح من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة قديمة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال وأصبحت فريسة الدمار والفوضى والخراب] .

ولقد انحرفت الكنيسة الأوروبية انحرافاً شائناً - عندما احترفت الكهانة - واحتكرت المعرفة - وتسلطت بالقهر والارهاب على العلماء .. فشردتهم - واضطهدتهم ، وقتلتهم - وأقامت لهم محاكم التفتيش !! وصادرت حرية الرأي وتبنت معارف رجعية ما أنزل الله بها من سلطان !!

ومن هنا نشأ العداء بين العلم والدين .. وانفصلا في رحلة الحياة .. فأما العلم فقد مضى قدماً يبتكر ويخترع .. ويبني الحضارة بعيداً عن الله !! وأما الدين فقد تأخر في مضمار السباق وأسبغت عليه الكنيسة الجاهلة ثوب الكهانة والخرافة !!

ان هذا الوضع - لا أساس له في دين الاسلام .. اذ ليس في الاسلام كهانة تنفر الناس منه - ولا جهالة تزهدهم فيه .. وانما هو دين يدعو الى العلم ويحتضنه في رحلة الحياة ، لينشئ معه وبه حضارة وارفة الظلال تتناسق فيها المادة والروح ، ويلتقى فيها الايمان والطموح !!

لقد تحدثت في افاضة عن حالة الديانتين السماويتين قبل
نزول القرآن .. وأكدت أنهما كانتا لا تصلحان لبناء أية
حضارة .. بعد ما نالهما من عبث وتحريف !!

ثم عرضت بعد ذلك لبعض الحضارات البشرية القديمة
التي وضعها القرآن الكريم .. وقد كنت مشغولاً منذ الصبا
الباكر بدراسة هذه الحضارات التي يعرض القرآن لوصفها ..
وصفاً رائعاً يفيض بالروعة والجمال .. « كحضارة عاد، وثمود -
ومدائن صالح - وحضارة داود وسليمان .. وبلقيس .. وسد
مأرب » .. وهذه الحضارات قد تجلى فيها عنصر الجمال والابداع ..
مما يجعلنا نؤمن بعبقرية العقلية البشرية على مر القرون ..
فهندسة الحدائق - وتوزيع المياه ، واقامة السدود العالية -
والخزانات الكبيرة .. وبناء الهياكل والعمائر .. وفنون النحت
والعمارة .. كل ذلك قد تجلى في هذه الحضارات ..

وقد قيمة هذه الدراسة لتلك الحضارات : أنها تؤكد عبقرية
العقل الانساني على مر العصور .. وتبرز قانوناً عاماً طالما
تعرض له شراح الحضارات .. وهو أن الاستقامة على أمر الله ..
والعمل بشرعه وهداه .. واتباع مناهج الرسل هي الوسائل
الأكيدة لضمان استمرار الحضارات حتى يأذن الله .. حتى اذا
انحل القوم - وأبطرتهم النعم ، وغرقوا في الترف - وتنكروا
لصوت الوحي .. وترهلوا بالرخاوة أخذهم الله أخذ عزيز
مقتدر [فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد(١)] ،
[فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم
بما كفروا (٢)] ، [فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا
منظرين (٣)] ..

(١) آية ١٣ ، ١٤ سورة الفجر .
(٢) آيتا ١٦ ، ١٧ من سورة سبأ .
(٣) آية ٢٩ من سورة الدخان .

هذا القانون - يكاد يكون عاما شاملا .. لا مجاملة فيه
ولا محاباة .. تظل الحضارات مزدهرة في أحضان النبوات -
وفي رحاب الايمان .. حتى تنفصل عن الله ، فاذا هي حديث
بيروى وقصة تحكى ، وأثر يتحدث عنه الناس .. وهو قانون
له جلاله .. وبخاصة عندما يستقى من كتاب الله العزيز
الحميد ..

ولقد سلكت في هذه الدراسة - كما هي طبيعتى - سبيل
الأخذ عن القرآن .. واستجلاء أنواره .. واستخلاص نتائجه
وأسراره .. أعرض الآية - ثم أرهف السمع - والعقل
والوجدان .. لأستوعب الايحاء وأفقه الحكمة ، وأجد في التطبيق
الاجتماعى ما تهيأت الظروف لتجد الحياة في القرآن ما يسدد
خطاها ، ويهديها الى سواء السبيل .. وليتعانقنا معاً في وئام
وسلام !

والقرآن قادر على أن يعطى في كل المجالات عطاء سخياً
غير مجذوذ !!

وما كانت المعطيات الحضارية - التى نعم بها الرسول
محمد [صلعم] والذين معه الا أثراً من آثار القرآن ، وما كانت
المنجزات الحضارية الرائعة الا ترجمة حية لنظامه وأحكامه !!

وما استنضات الحياة بنور الله - الا يوم انعكس ذلك
النور من مرآة القرآن ..

وما عرفت أوربا - وسائل العلم التجريبي - وآثاره في
الحياة الا عن طريق القرآن .. وما أنشأت حضارتها الا بعلوم
القرآن ، وثقافة القرآن .. وحضارة القرآن .

وما تنخلف المسلمون عن الركب - وتحيفتهم المكاره -
وتنخطفتهم الشياطين - وغشيتهم الغواشي ، الا يوم انفصلوا
عن القرآن ..

فاللهم - يا منزل القرآن - سدد خطا المسلمين على طريقه
- وبصرهم بروائع حضارته ، ووفقهم لأداء دورهم القيادي
في الحياة ؟

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الباب الأول

في معنى الحضارة والثقافة والمدنية

تتردد في مجال البحث الحضارى كلمات معينة - تبدو في بعض الأحيان غامضة - وهي كلمات [الحضارة والثقافة والمدنية] وهل هي متفقة في المضمون أو مختلفة ؟ وما مدى اتفاقها أو اختلافها ؟ . .

وقد رأيت أن أفرد لها باباً من أبواب الكتاب - أتناولها فيه بوضوح من البيان - لتكون متألفة في ذهن القارىء - وبخاصة أنها أخذت على مر الزمن معانى مختلفة - وتشابكت في اطارها مجموعة من العناصر المعقدة . . كل ذلك يقتضينا أن نتتبعها في مراحل تطورها لنعطى التصور الدقيق عنها .

وأهم هذه الكلمات هي كلمة « الحضارة » فماذا تعنى ؟

وكلمة « حضارة » من الكلمات النابهة التي حظيت بالبحوث الواسعة المستفيضة عبر التاريخ . . وأرهفت سمع الانسان على مر العصور .

نشأتها :

وقد نشأت هذه الكلمة أول الأمر بسيطة ساذجة .

كانت تعنى حياة أهل الحضرة المستقرة على ضفاف الأنهر
النضاحة بالنعيم .. أو على العيون والآبار .. وما تتسم به
هذه الإقامة من رقى مادي - ومعنوي ، في الأخلاق - والعادات -
والطبائع - والعقائد - ووسائل الحياة المختلفة .. من عمرانية
وسياسية وأخلاقية ..

والمعروف أن حياة « الحواضر » حياة مستقرة تساعد
على ازدهار العلم والمعرفة .. وتعين على انشاء العمران ..
لذا كانت كل هذه العوامل هي عناصر الحضارة .

وضدها البداوة وهي تعنى : حياة أهل البدو المتنقلة -
التي تسكن الخيام وتعيش على رعى الأغنام والماشية -
وما تحويه من غلظة وخشونة وما تستتبعه من فظاظة الخلق
وجفوة الطبع .. وكل ما يفضى الى السفه والجهل - وبما
تتميز به من غارة وسلب ونهب واعتداء على منابت الكلاء
ومواقع الغيث ..

وقد سمي القرآن هذه الحياة « جاهلية » فقال منفراً منها
[أفحسكم الجاهلية يبيغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم
يوقنون (١)] *

والبدو هم الأعراب الذين عناهم الله عز وجل بقوله :
[الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله
على رسوله والله عليم حكيم (٢)] *

ويتميز البدو بنفرتهم الشديدة من حياة التمدين -

(١) آية ٥٠ من سورة المائدة .

(٢) آية ٩٧ من سورة التوبة .

والتحضر وقد وصفهم ابن خلدون في المقدمة بالخشونة - والبعد
عن منازع الحضارة وطباع التمدين ..

الحضارة والبداءة في الشعر :

أفاض الشعر العربي في وصف أخلاق أهل الحضرة والبدو
افاضة واسعة - توضح الفرق بينهما .. وما تتميز به كل
واحدة من طباع وأخلاق ..

فمن ذلك ما قاله الشاعر القطامي (١) :

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا ؟ !
وكن اذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ونسبة انه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا اذا مالم نجد الا أخانا

فهذا شاعر مفتون بالبداءة - عازف عن الحضارة - يرى
في حياة السلب والنهب والاغارة والفروسية مجالا لنشاطه
الحيوى .. ولا يجد لديه مانعا من السطو على الأقرباء وأبناء
العم اذا أعوز الأمر واقتضت الحال ..

أما حياة الحضارة التي تنأى عن الاغارة والسلب ، وتميل
الى اللين والموادعة فان هذا الشاعر لا يرتضيها ..

وهكذا كانت حياة البدو قبل الاسلام .. فروسية وصعابة
ونهباً وثورات .. وتنقلا ورحلات .. وكراما للضيف -
واستلاباً لعابر السبيل .. فهي أخلاق متناقضة ..

(١) القطامي هو عمر بن شبيب النصراني التغلبي كان معاصراً للأخطل
في امرئ مثله .

وهذه أيضا ميسونة بنت بحدل الكلابية - البدوية التي أعجب بها معاوية - فتزوجها ونقلها الى حياة القصور - وأغرقها في الخرف - وأنجب منها ابنه « يزيد » . ترى في هذه الحياة الجديدة زيفاً . . تضيق به نفسها - فلا تفتأ تحن الى البداوة وتذكر حياتها السمحة - وأجواءها الطلقة . . وعيشتها البسيطة - التي تبتعد عن التكلف والتعمل . . وقد تزوج عليها - معاوية - فطلبت منه أن يطلقها لترحل الى أهلها ففعل . . ولنستمع الى ميسونة تتحدث عن حياة البداوة بلهجة مؤثرة . . وتقارن بينها وبين حياة التحضر فتقول :

لببيت تخفق الأرواح فيه	أحب الى من قصر منيف (١)
وكلب ينبج الطراق عنى	أحب الى من قط ألوف
ولبس عباءة وتقصر عيني	أحب الى من لبس الشفوف (٢)
وخرق (٢) من بنى عمى نحيف	أحب الى من عالج (٤) عنيف
وأصوات الرياح بكل فج	أحب الى من نقر الدفوف
وأكل كسيرة في قعر بيتي	أحب الى من أكل الرغيف
فما أبغى سوى وطني بديلا	وحسبى ذاك من وطن شريف

فهل سمعت نغمة أرق من هذه النغمة ؟ وهل عهدت وفاء للوطن على خشونته وبساطته وضيق العيش فيه كهذا الوفاء ؟

وما من شك أن صدق اللهجة قد بلغ في الأبيات السابقة مبلغاً كبيراً . . وانه لدليل على سمو هذه العاطفة عند العربي - فما بالك اذا كانت امرأة ؟

(١) منيف : شاهق .
(٢) شفوف : حريير ناعم .
(٣) خرق : جواد كريم .
(٤) العالج : الغليظ العنيف وتقال للأعاجم .

حياة البداوة بمظاهرها البسيطة من خيمة تسمح للريح
أن تدخل وكلب يحرس تلك الخيمة .. وعباءة فضفاضة تلبسها
المرأة - وشاب نحيف من بنى عمومتها وكسيرة من الخبز
الجاف - كل ذلك أحب اليها وأعز عليها من حياة الحضارة ذات
الترف والنعيم ..

ان صدرها ليضيق بحياة القصور المشيدة - ومظاهر
الترف الباذخ من القط الألوف ولبس الشفوف - ونقر الدفوف -
وأكل الرغيف .

وان زواجاً يجمعها بابن عمها البدوي النحيف لأحب اليها
من العليج العنيف ..

أرأيت من هذا كيف استطاعت هذه الشاعرة البدوية أن
تشيد بالبداوة وتمنحها درساً في الوطنية - وتصور لنا طبيعة
البادية السمحة وخلاتها الصافية ؟

وكيف قابلتها بحياة الحضارة .. التي تضيق بها النفس -
وتتود الفرار منها ! ؟

أما أنا فأرى ميسونة قد أبدعت في التصوير - وأجادت
في التعبير وسمت في العاطفة والشعور ومن هذا الاستعمال -
الذي نلمح فيه مقابلة بين الحضارة والبداوة قول جرير الشاعر
الأموي :-

كيف التلقى ؟ ولا بالقيظ محضركم

مننا قريب ولا مبداك مبدانا !!

فالكلمتان : [مبدى - محضر] من البداوة والحضارة .

والشاعر في هذا البيت من الشعر يبدى نوعاً من الحيرة ..
كيف يلتقى بمن يحبها ؟

وان مكانها لبعيد عنه سواء في البادية أو الحاضرة !!

فتكون البداوة مقابلة للحضارة في تصوير هذا الشاعر
الموجز المختصر •

وفي حديث لرسول الله [صلعم] يقول فيه [لا يبيع حاضر
لباد] •

ينهى صلوات الله عليه أن يتعامل رجل من أهل الحاضرة
مع آخر من أهل البادية في البيع والشراء لما في ذلك من احتمال
الغش والخديعة •

وقد سئل ابن عباس في معنى الحديث فقال معناه « لا يكن
سمساراً له » •

وهو لا يخرج عن التوجيه السابق - من احتمال الغش
والمراوغة والخديعة لأن البدوي غفل ساذج •

وقال صاحب لسان العرب : الحاضر المقيم في المدن والقرى
وكذلك المقيم على الماء يقال له حاضر - والقوم حضار اذا
أقاموا أيضاً على الماء قال لبيد الشاعر :

فالواديان وكل مغنى فيهم وعلى المياه محاضر وخيام

وأقول : كلام صاحب اللسان صريح في أن الحضارة تقابل
البداوة - وفي أن الإقامة في المدن والقرى وعلى المياه هي
الحضارة • لأن ذلك يستدعي الاستقرار •• ويقتضى العمران
وقد أشار المؤرخون كثيراً الى أن الحضارة لا تنشأ الا على

الشیطان والسواحل و بجوار الأنهار وصدق الله اذ يقول :
[وجعلنا من الماء كل شئ حی (١)] .

ويؤيد ذلك الواقع التاريخي للحضارات القديمة كحضارات
سبأ - وعاد - وثمود .

تطور معنى الحضارة :

تنقلت هذه الكلمة عبر الزمن تنقلا مرحلياً - تدرج مع
اتساع آفاقها ، وكثرة عناصرها وتعدد مقوماتها وقيمها . .
واختلافها من بلد الى بلد . . ومن أمة الى أمة . . فهناك
حضارات تأخذ شكلا مادياً - وتبتعد عن الروحيات . . وهناك
حضارات تأخذ طابعاً روحياً - فتصبغ كل آثارها ومنجزاتها
بالصبغة الروحية . . وهكذا . .

على أنه بتقدم الزمن . . ظهرت للحضارات آفات عديدة -
جعلت الناس ينفرون منها ويضيقون بها . . لأنها ضد
طبيعتهم .

المتنبي والحضارة :

والشاعر أبو الطيب المتنبي - الذي ازدهر فنه في القرن
الرابع الهجري . . يوم انقسمت الدولة العباسية الى
دويلات . . تتنافس في الأدب ، وتتسابق في العلم . . وتتأنق
في الترف - هاله ما شاهد من زيف الحضارة ونفاقها . .
وكذبها وادعائها . . ونسبها بالقيم والفضائل . . . وأنها قد
غدت صناعية لا تستمد من الطبع ، ولا تعبر عن الفطرة
الانسانية في جوهرها النبيل الأصيل . .

(١) آية ٣٠ سورة الأنبياء .

وقد سجل رأيه في حضارة عصره . . . ورسد صورة
صادقة لها في شعره . . . أعرب فيها عن مقتته لنماذج الجمال
المصنوع في فتاة مجتمعه . . . وتمنى نموذج الجمال النظرى
المطبوع الذى لا تكلف فيه - ولا تصنع . . . فاستمع اليه
يقول (١) :

من الجآذر فى زى الأعراب ؟ حمر الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البسوديات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بقطرية وفى البدوة حسن غير مجلوب
أمدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات المراقيب

فأنت تستطيع أن تحكم بعد قراءة الأبيات السابقة بأن
نماذج الجمال على عصر المتنبى قد صارت مصنوعة . . . وأنه
يجتويها ويضيق بها - ويؤثر عليها جمال البادية المدبوع . . .
وكأنما مسته نفحة من الهام الطبع - أو صفاء القريضة - فراح
يتحدث بافانضة واسهب عن نموذج الحسن المصنوع - الذى
هو سمة الحضارة الزائفة . . . وكأنما عانى من مضغ الكلام -
وصبغ الحواجب - وصقل العراقيب - ووضع المساجيق . . .
فسجل شعوره فى مرارة وأسى . . .

وكل ذلك من سوآت الحضارة وآفاتها وانحرافها . . . وأين
يقع هذا الجمال الزائف من جمال البدوة الذى ينأى بن الزيف
والخداع ؟ !

ولو عاش المتنبى الى أيامنا هذه - ورأى فتاة اليوم لوجد

(١) القصيدة فى مدح كافور سنة ٣٤٦ هـ - استهلها بالزل .

كل شيء فيها مصنونا حديثها - وجمالها - ومشيتها -
وشعرها - وهديها - وانظرها . . . بفضل منجزات « باريس »
ومنتجات « هوليوود » وتأثير وسائل الاعلام !!

وهكذا - تمضى الحضارة الصناعية في خط ممتد من عهد
المتنبي الى عصرنا الحديث . . . فيكون هذا الشعر قد أعطى
« الحضارة » تفسيراً جديداً . . . سبق به كل من تناولوه في
عصره - وقبل عصره . . . لأنه ضمنها معنى النفاق والزييف . . .
وربما كان النفاق هذا خلقاً ملازماً لكل حضارة مادية لا تقوم
على أساس من عقيدة وخلق . . . وحضارة الغرب اليوم
متخصصة في هذا اللون من الملق والتمويه والخداع . . .

وبهذا تكون كلمة « الحضارة » منذ ذلك العصر - قد
ارتبطت بمجموعة ضخمة من السلبيات .

ابن خلدون والحضارة :

ممن تناولوا هذه الكلمة بالشرح والتحليل العلامة الجليل
عبد الرحمن ابن خلدون - وقد عاش الرجل في أواخر القرن
الثامن وأوائل التاسع الهجرى [٧٣٣ - ٧٠٨ هـ] وكان في
مباحثه - وعلل حوادثه ووضع كتابه المشهور [بالعبر وديوان
المبتدأ والخبر] وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات - يمتاز هذا
الكتاب بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول
عند الانتقال من دولة الى دولة .

تكلم باسهاب في الاجتماع . . . وعرض للحضارات المختلفة
من حيث نفعها أو ضررها . . .

وقد بلور مفهوم الحضارة على أنها ذلك النمط من الحياة
المستقرة الذى يقتضى فنوناً من العيش والعلم والصناعة -

وإدارة شئون الحياة والحكم - وتوطيد حياة الدعوة وأسباب الرفاهية . . .

ومن آرائه في الحضارة - أنها تعبر عن القمة العالية للتقدم الانساني . .

وأنها بعد ذلك تمعن في الانحلال والترف والفساد فتنزلق روايدا رويدا حتى تصل الى السفح يقول في ذلك : [ان الحضارة غاية العمران ونهاية عمره - وانها مؤذنة بفساده] .

والجديد في كلام ابن خلدون - أنه أشار في تعريف بالحضارة الى عناصر السياسة والحكم وتوطيد الحياة، وتطوير الصناعة بالعلم . .

فهو أقرب الى التحليل العلمي من كل من سبقوه .

ولعله عندما تحدث عن سوءات الحضارة - يقصد الحضارة المادية - البعيدة عن الله - لأن هذا اللون من الحضارة هو الذي يزدهر - ثم ينتحر . .

فأما عندما تقوم الحضارة على دعائم قوية من المادة والروح فانها لا تؤذن بخراب العمران - ولا بنهاية عمره - بل تدعم العمران - وتوسع قاعدته . . وتنتشر العلم في آفاقه - والفضائل في ربوعه . .

كما أن ابن خلدون - قد أشار بقوة الى الترف - وأنه مقوض الحضارات وعدوها اللدود - ونظرتة في ذلك صائبة قد أشار اليها القرآن الكريم عندما حدثنا رب العزة والجلال عن

مصارع لظالمين فقال سبحانه « انهم كانوا قبل ذلك مترفين (١) »
وكقوله سبحانه فيمن أعرضوا عن الله : « ولكن متعتهم وآباءهم
حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (٢) » والآية الثانية تؤكد
أن المتاع الحسى - والترف المسمى - يؤديان الى الانحلال -
ويصرفان القلب عن ذكر الله - وكفى بذلك دمارا للحياة
والأحياء !!

ويرى ابن خلدون - أن العرب بطبيعتهم أبعد الناس عن
التحضر والمدنية ولعله بذلك يقصد البدو المتخلفين - الذين
لا يفارقون البادية فمن أين لهم العلوم والمعارف والثقافات ؟ !

فأما العرب بالمفهوم العام - فهم أقدر الناس على
الاستيعاب الحضارى - وأفقه أهل الأرض لفلسفة الدنيايات ..
ولهم في ذلك مواهب وقدرات تشبه المعجزات ! ! كما أنهم
أساتذة العالم في « تمدين » الشعوب « وتحضيرها » .. بل ان
العالم الحديث لم يعرف الحضارة الا عن طريقهم كما سنوضح
ذلك بعد ..

وبداية عندما ارتبطوا بالاسلام .. فمس مواهبهم
الأدبي .. وبعث مواهبهم الكامنة وحرك فيهم حوافز البحث
والنقصى .. وأطلق عقولهم وبصائرهم ، وحرر أفكارهم
وضمائرهم ، وفتح أمامهم الطريق ليجتثوا ويكتشفوا ويرتادوا
ويرجعوا من رحلتهم المباركة بزاد طيب من الايمان واليقين ..

نعم : لقد استطاع محمد صلوات الله وسلامه عليه أن يفجر
بينابيع : حكمة والمواهب المبدعة والأسرار الخافية من القوم -
فانساد ، غيثها المبارك على أرض الوجود الجديدة فاهتزت
وربت وأنبتت من كل زرع نضير ..

(٢) آية ١٨ سورة الفرقان

(١) آية ٤٥ سورة الواقعة

ان ابن خلدون قد أعطانا تصوراً واسعاً عن الحضارة -
وعناصرها - وآفاتها * * ونتائجها فهو يضمنها معنى العلم -
وأساليب الحكم - وأنماط الاقتصاد والصناعة - ويجعل لذلك
كله ثمرة واقعية في الحياة هي التقدم و الرفاهية *

فاذا غرق أصحابها في الترف فقد آذنت شمس حضارتهم
بمغيب !!

وهو بذلك يشير الى ما يعرف « بالدورة الحضارية » وذلك
عندما تأخذ الحضارة زخرفها - وتزين * * ثم تبدأ بعد ذلك في
الهبوط لأنها قد أدت الدور التاريخي ! ! لتحل محلها حضارة
أخرى - أقدر على التجاوب مع فطرة الناس *

وإذا كان للرجل - بعض الآراء التي لا تستسيغها اليوم
فله عذره لأنه أول من راد هذه البحوث الدقيقة * *
ولعل من جاءوا بعده لم يضيّفوا جيداً الى معنى
الحضارة * *

الكتاب المعاصرون والحضارة :

يعرفها بعض الكاتبين بأنها [نظام اجتماعي يعين
الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي -] وتتألف من العناصر
الأربعة - الموارد الاقتصادية - والنظم السياسية والقيم
الخلقية - والعلوم والفنون والمعارف والفلسفات *

ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من دينية -
ولغوية وجغرافية *

ولانهيارها عوامل هي الانحلال - والفساد - والظلم -
والترف - وانتشار النشأؤم * وفقدان القيادات الصالحة *

وفي رأبي - أن الحضارات سلسلة متصلة . . يتأثر بعضها ببعض - ويمتص بعضها من بعض . . ولكل أمة جهودها في تشييد الصرح الحضارى . .

وترجع عظمة الحضارات الى متانة المقومات التى تقوم عليها وادسائير التى تستقى منها - والآثار العالمية التى تتركها . .

وخارود الحضارات . . انما يعنى أصالة جوهرها - واتساع آفاقها - وعالمية رسالتها وانسانية نزعتها وواقعية مبادئها .

وكل ذلك قد تضمنته حضاة القرآن الكريم . .

ومز أوجز التعريفات قول بعضهم [الحضارة تعنى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية فهى مجموع الحياة فى صورها وأنماطها المادية والمعنوية] .

وهو تعريف يشير الى جناحى الحضارة : وهما المادة والروح . . حتى تلائم فطرة الانسان - وتتجاوب مع مشاعره وعواطفه وقدراته .

كما أنه يشير أيضاً الى عناصرها التى يمكن حصرها فى :

(أ) تصور الحياة وغايتها

(ب) المقومات الأساسية التى تقوم عليها

(ج) المنهج الذى يستوعبها

(د) النظام الاجتماعى الخاص

والانسان ركن أساسى من أركان الحضارة . . . لأنه

يستوعب المنهج - ويطبقه ويرتاد الحياة ويكتشف عناصرها
ويختير النظام الذي يلائمه .

ومن الأسس البديهية في البحوث الحضارية أية حضارة
لا تقوم الا على أساس من الوجود - وهو الساحة الحضارية -
ومن الانسان - وهو الطاقة البانية - والمنهج . . وهو الذي
يمنح المعرفة - والعمران وهو الهيكل الحضارى .

حضارة الاسلام :

عندما طبقت شريعة الاسلام تطبيقا كاملا - ساد الأمة
الاسلامية نظام واحد وفكر واحد - واتجاه واحد . . لأنها
جميعاً تستمد من نبع واحد وتسقى بماء واحد وتكون من ذلك -
بعد الفتح الاسلامى لفارس والروم - . عالم موحد في روحه
وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ساد مايعرف في التعبير
العصرى « بائتلاف النعمة » . . ان هذا الذي حدث من التجانس
العام في عالم الاسلام يسمى : نظام الإسلام . .

أما الحياة التي بدأت ثم ترعرعت وازدهرت - ثم توطدت
وانتشرت في « ظل نظام الاسلام » ونطبقه بحركية ايجابية
ببناء - وطاقة متجددة دائبة - ونماء موصول مطرد في الزمان
والمكان والانسان فهو مايسمى « بالحضارة الاسلامية » .

يقول الدكتور خلف الله أحمد : [ان الحضارة الاسلامية
هى تلك الحضارة التي قامت على أساس رسالة سماوية هى
الاسلام . . ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى مأخوذة من
القرآن الكريم - ومن أقوال الرسول وأعماله] :

انها حضارة الهيئة في منهجها - وفي وجهتها - وفي
تصورها - وفي خط سيرها - يأخذ الانسان المسلم منهج ربه -

ويمضى به بانبا للحياة - مشيداً لعمرانها - متفاعلاً مع الكون
ماضياً معه في رحلة ميمونة مباركة قوامها الاستطلاع
والاستكشاف والبناء بالجهد والعرق - واستثمار المعرفة -
وصداقة عناصر الوجود * * * وبذلك يؤدي المسلم رسالته في
الحياة * * * ويكون خليفة الله في أرضه *

يقول الدكتور حزين : [ان الحضارة الاسلامية حصيلة
تاريخ حياة المسلمين على أرضهم - وفي أوطانهم المتصلة في
النطاق الأوسط من الارض - بين المناطق الباردة التي تقطنها
كثرة من المسيحيين وغيرهم - وبين المناطق الاستوائية التي
يقطن أغلبها من أصحاب الديانات الأخرى والوثنيين] *

ويستطرد - فيقول : [لئن كان الاسلام قد يمتاز بأنه دين
بناء حضارى - فان واقع الأمر في الحضارة الاسلامية - أنها
استحدثت مقوماتها الأولى والاساسية من الاسلام ذاته - واذا
كان ظهور الاسلام قد سبقه في جزيرة العرب وما جاورها
حضارات أقدم منه - كما سبقه أيضاً في البلاد التي انتشر
فيها ألوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلى أو الاقليمي
فان الاسلام استطاع أن يضيف على البلاد التي شملها جميعاً
لونا مشتركاً من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات
الانسانية والاجتماعية والسياسية حتى أصبح هناك قدر
حضارى مشترك بين المسلمين في مختلف أقطارهم وديارهم] *

وكلام الدكتور حزين يتناول ناحيتين من نواحي الحضارة
الاسلامية * * أولهما التعريف بها وقد حصره في المعارف
الاسلامية وثانيهما : توضيح الشمول الذى تتسم به تلك
الحضارة * * لأن كتابها الخالد وهو القرآن يرسم للمسلمين
سبيل تقدمهم - وطرائق عباداتهم ومعاملاتهم - وأسلوب
تعايشهم مع المجتمع * *

أى أنه لا يترك لهم شيئاً في أصول حياتهم - يخضع
للآراء المختلفة .. ولهذا اختلفت النغمة في هذا العالم الإسلامى
الكبير ..

يبقى بعد ذلك كله أن الحضارة الإسلامية لها شخصيتها
الحية المتحركة ونماؤها الدائم المتجدد - وتفاعلها المثمر
الخالق ، فهي فى ذلك كله وجود واحد له فى نمائه وتوقفه وفى
ومضه وغمضه - وفى انطلاقه وجموده مراحل وأطوار من التسامى
- والهبوط - لكنه لا يموت - ولا يتصور أن يموت - وليس
من طبيعته أن يموت .. لأنه محكوم بكتاب سماوى خالد -
دائم - مستمر الى يوم الدين وصدق الله اذ يقول : [انا نحن
نزلنا الذكر وانا له لحافظون (١)] .

والمسألة متوقفة على الاستمداد، والتطبيق بوعى وفاعلية .

وعلى قدر العمل بذلك - أو التخلي عنه يكون حظ الحضارة
الإسلامية من الازدهار أو الاندحار .. فاذا أراد أصحابها بعد
الخمول الطويل ، أو النوم الثقيل أن يجددوها فما ذلك بعزيز
عليهم - بشرط أن تتجمع القوى ، وتتماسك العزائم للعمل
المثمر ، والتطبيق الصارم ، عندئذ تعود الحضارة نامية مزدهرة
وهكذا دواليك ، وهذا هو سر المواجهة العارمة المحتدمة التى
تعرض ويتعرض لها الإسلام بينه وبين حضارات العالم
بأسره .. ثم تنحسر المواجهة عن قوة المد - الحضارى للإسلام
وقدرته على الانتصار ..

عالم ما قبل الإسلام :

من « أرشيف » الحضارات القديمة (تحليل ودراسة)

(١) آية ٩ سورة الحجر .

ان حصيلة الدراسات التي قدمتها في صدر هذا الباب تتضمن بالنسبة الى أية حضارة أمرين أساسيين - فكرا يخطط - وعملا ينفذ . والفكر يكمن خلف العمل لا محالة . فكل هيكل ضخم ، أو معبد فخم ، أو قصر مشيد ، انما يعكس فكرا هندسيا قدقام على أساسه . وبعبارة أوضح عندما نريد أن نبني عمارة مثلا أو نخطط حديقة . فاننا نلجأ الى مهندس ليخطط التصميم على الورق ويبرز الفكر ممثلا في رسوم وأشكال . ثم يأتي بعد ذلك دور التنفيذ - فيتكفل العمل بهذا الدور ؛ فاذا قلنا مثلا : الحضارة السبئية القديمة فاننا نعنى أثر هذه الحضارة الذي تصوره الآية الكريمة في قول الحق تبارك وتعالى : [لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا . . . وهل نجازى الا الكفور (١) ٢] .

ماذا نرى من خلال العرض القرآنى لآثار تلك الحضارة ؟

نرى أنها حضارة تمثلت في وجود مادي ملموس - من هذه البساتين النضرة - ذات الأفياء والظلال - فهما جنتان عن يمين وشمال قد تجلت فيهما دقة الفن - وهندسة التنسيق - وجودة الثمار . . .

لكن القوم لم يشكروا الله أنعمه - ولذا انهارت تلك الحضارة الوارفة الظلال . بسبب فساد أهلها واعراضهم عن الله . . . غيروا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم وهذا سبيل كل حضارة تتنكر لله !! وبتأمل يسير نرى - أن القوم قد حققوا

(١) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة سبأ .

جانبا واحدا من الحضارة وهو الجانب المادى * * أما الجانب
الروحي فقد ذهلوا عنه - وأهملوه * * ومحال أن تنهض حضارة
ما على جانب واحد !!

وكذلك عندما نقرأ قوله سبحانه في وصف حضارة عاد
[وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١)] وقوله : [ألم تر كيف
فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد (٢)]
نحس من خلال الآيتين * * أنها حضارة قد تمثلت في فن النحت،
والبناء ، والعمارة ، واقامة المصانع * * والمؤرخون يبالغون في
وصف هذه الحضارات وما تركته من آثار مادية شامخة ونحن
لا نريد أن نذهب بعيدا عن ايحاء القرآن ودلالته *

ماذا نرى من خلال الوصف ؟

نرى أن حضارة عاد قد تمثلت في الوجود على شكل منشآت
وعماير ومصانع * *

وأنها حين أعرضت عن الله « صب عليهم ربك سوط
عذاب » *

انها الأخرى حضارة نهضت على أساس مادي وأهملت
الجانب الروحي *

لكنها تعكس فكر القوم ، ومعارفهم ، ونشاطهم العمراني
في الحياة *

وعندما نقرأ عن حضارة ثمود قول الله سبحانه [وثمود

(١) آية ١٢٩ سورة الشعراء *

(٢) الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، سورة الفجر *

الذين جابوا الصخر بالواد (١) [وقوله :] وبوأكم في الأرض
تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا (٢) [ماذا
نأصح من خلال الوصف ؟

حضارة مادية تمثلت في الوجود على شكل فنون جميلة من
النحت ، وبناء القصور واقامة المساكن والبيوت . .

لكنها أيضاً عرضت عن الله [فأخذتهم الرجفة فأصبحوا
في دارهم جاثمين (٣)] من خلال هذا العرض المبسط - نستطيع
أن ندرك بأن الحضارات سلسلة محكمة السرد موصولة
الحلقات - وأنها جميعاً تخضع لقانون واحد ، وتنهض على
أساس واحد ، ويطرد سيرها اذا استقامت على أمر الله . .

ونفهم كذلك أن الكيان المادي لأية حضارة - وان كان
يمثل عبقرية أصحابه في الفكر والعمل والابداع . . لكنه لا
يستقر ولا يستمر ولا يآمن العثرات حتى يحقق الجانب
الروحي بالاستقامة على منهج الحق - وتحقيق مشيئة الله
في الأرض .

ومضمون ما سبق كله : أن كلمة حضارة قد نشأت بسيطة
- ثم تطورت مع الزمن ، وارتبطت بمناهج الوحي ، وأخذ
مدلولها يتعقد ويستجمع العناصر الكثيرة . . ثم يتول في النهاية
الى الهيكل الذي تتناسق فيه العناصر المادية مع العناصر
الروحية . . لتظل الحضارة مزدهرة دائمة النماء والتجدد .

معنى المدنية وارتباطها بالحضارة :

-
- (١) آية ٩ سورة الفجر .
 - (٢) آية ٧٤ سورة الأعراف .
 - (٣) آية ٧٨ سورة الأعراف .

كلمة مدنية من الكلمات المستحدثة التي لا وجود لها في المعاجم القديمة (١) - فهي من المبتكرات الجديدة ويقال في هذا الصدد التمدن الاسلامي - والمدنية الاسلامية وهكذا نطلقها ببساطة على معنى الحضارة - ونجعلها كلمتين مترادفتين وهذا الاطلاق يتفق مع المدلول اللغوي للكلمة لأن « المدنية » نسبة الى المدينة في الأصل . . فمعنى رجل مدني منسوب الى المدينة في كحصرى منسوب الى الحضارة والحاضر والمدينة لا تختلفان .

وقد شاع في مصطلحات علم الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » أي نزاع الى الاجتماع والاختلاط ببني جنسه . ويوجد في هذا الاجتماع أنس روحه وبهجة قلبه . . واذا كانت هذه تطلق على ما يرادف الحضارة أحيانا - فان العرف قد خصصها في النهاية بالجانب المادي للحضارة كتشييد المدارس واقامة المؤسسات - كما سنوضح ذلك قريبا .

معنى الثقافة وصلتها بالحضارة :

كلمة «ثقافة» كلمة حية لها صلة وثيقة بالحضارة والمدنية . وأصل الكلمة مأخوذ من « تثقيف الرمح » - أي تهذيبه وتعديله وتسويته - ثم انتقلت الكلمة الى « تثقيف العقل » أي تهذيبه بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة - وبذلك تكون الكلمة قد تجاوزت الماديات الى المعنويات .

وعلى ذلك « فالرجل المثقف » هو الحاذق البصير ، العارف بمطالب عصره ، الذي لا يقتصر بالمعرفة على جانب دون آخر . . وانما يأخذ من كل فن بطرف - أو قل بتعبير عصري : الرجل

(١) مع أن كلمة « مدنية » غير موجودة في المعاجم القديمة الا أنها قياسية لأنها مصدر صناعي كحرية وديمقراطية .

المثقف الذى يعرف عن كل شىء شيئاً • أى يكون لديه الامام
باطراف المعارف والمعرفة بالأشياء حسب الامكان والطاقة
بخلاف الشخص الذى يعرف عن الشىء الواحد كل شىء فانه فى
هذه الحالة يكون عالماً متخصصاً - فالاستيعاب صفة المتخصص
والاستنارة العامة سمة المثقف •

وقد يكون الشخص عالماً غير مثقف - وما أكثر وجود
هذا الطراز من الناس - بأن يحذق الطب ويجهل ما سواه ••
أو يدرس اللغة - فاذا تجاوز مجال تخصصه ظهر افلاسه وبان
جهله وقد يكون الشخص مثقفاً غير متخصص •• كأن نجد عنده
المعرفة الشاملة العامة فى السياسة والاجتماع والأدب والفن ••
فالمثقف يتحدث اليك فى كل شىء ويلقاك بلون من « المعرفة
العامة » التى لا تعمق فيها ولا استقصاء •

وكم تحتاج الحياة الى طبقة « المثقفين » الذين لا يقتصرون
على مواد تخصصهم بل يتجاوزونها الى متطلبات العصر -
فتحس عندما تلتقى بهم بأنك أمام عقل مستنير •• ونستطيع
عندما نراجع تراثنا أن نلمس جانب الثقافة متمثلاً فى السيوطى
الذى كتب فى كل شىء وأعطى المعرفة الضرورية فى علوم شتى ••
وتخصص فى بعض المواد تخصصاً قوياً •• وكذلك : الجاحظ ••
نرى له المؤلفات المختلفة فى شتى المعارف الانسانية •• ونراه
يتحدث فى أمور كثيرة •• يبرز فيها الطابع الثقافى ••

كتب فى النخل ، والكرم ، والغنساء والجوارى ، والملل
والنحل •• والأدب والتاريخ والاجتماع وقد كثرت مؤلفات
الرجلين حتى جاوزت المائتين لكل واحد منهما •

ولسنا نجردهما من العلم المتخصص - ولكل منهما علوم
تخصص فيها واستوعب مادتها واستبطن دخيلتها ولكنهما لم

يقتصر عليها ولذا كان الطابع الغالب عليهما هو الطابع الثقافي .
قال في لسان العرب : رجل ثقف : حاذق - والحذق سرعة
الفهم .

وقال ابن دريد : ثقفت الشيء حذقته .

وعن أم حكيم : [انى حصان فما أكلم - وثقاف فما أعلم] .

وتقول : ثقفت الشيء : ظفرت به ومنه قوله سبحانه :
[فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم] أى فاما تظفرن
بهم فاجعلهم عبرة لغيرهم .

وعن عائشة رضى الله عنها تصف أباهما : [أقام أوده
بتثقافته] أى بمعرفته - تريد قوم عوج المسلمين بمعرفته .

تلك هى معانى الكلمات الثلاثة [حضارة - مدنية - ثقافة]
بيد أن الارتباط بينها ما يزال غامضاً . . . ولنحاول توضيح
ذلك بما يتسع له المقام . . .

علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض :

ان الحضارة - التى سبق تحليل معناها لها جانبان عند
علماء الاجتماع وشراح الحضارات وان شئت فقل لها جناحان . . .
الأول مادي ، والثانى معنوى .

فاذا أردت بالحضارة جانبها المادى الملموس - كالعمائر
والمساجد والمدارس والحدائق والملابس والأسلحة وكل
المبتكرات المادية الملموسة للحضارة فهذا الجانب هو «المدنية»
فيقال مثلا : ان مدنيه الغرب تتمثل في المبتكرات الحديثة
الفنائة - وجمال الحدائق والمباني وهكذا .

والجانب الثانى للحضارة : وهو الجانب الروحى أو
المعنوى هو ما يطلق عليه علماء الاجتماع « ثقافة » فهى بذلك
تقابل المدنية • وتشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل
والذوق والمشاعر والعواطف •• فهى حصيلة الانسانية فى هذه
المجالات •• وهى تشمل أنماط الحياة الانسانية وأسلوبها فى
المعرفة روحيا وفكريا ولغويا وأدبيا – وعلى هذا فقد تتلاقى
شعوب وأمم على تراث فكرى وروحى وفنى واحد فتكون بينها
وحدة ثقافة •

وقد تنفرد أمة عن أخرى فى نمط ثقافتها ومعرفتها وفلسفتها
وفنها كالأمة اليونانية •

وفى ضوء ما مضى : نستطيع أن نقول باختصار : ان
المدنية والثقافة معاً هما جناحا الحضارة بمضمونها الفنى عند
علماء الاجتماع ••

فنحن نريد من كلمة « حضارة » الحصيلة الشاملة للمدنية
والثقافة وهى مجموع الحياة فى صورتها المادية والمعنوية ••

فاذا قلنا ان هذا المجتمع متحضر : فمعناه أنه قد حذق
ألواناً من المعارف – ثم ترجمها الى واقع ملموس •

فالمعرفة النظرية « الأكاديمية » هى الثقافة – وترجمة هذه
المعرفة الى واقع ملموس فى الحياة هى المدنية وكأنما تعنى
« التطبيق » •

وبهذا ترتبط المدنية بالثقافة لأنها التجسيد الحى لها ••
وقد تنحرف الحضارة عن الطريق السوى فلا تأخذ سمت
التكامل – فتكون ذات طابع مادية – أو ذات طابع نظرى ••

وكلتاها صورة مشوهة ممسوخة للحضارة الخالدة - التي
يجب أن تعبر عن فطرة الانسان مادة وروحا .. كما خلقه الله .
وحتى تكون صورة حية لنشاطه ما دام هو صانعها ..

بين الحضارة والمجتمع :

أيمكن بعد توضيح معنى الحضارة على نحو ما قدمنا أن
يقال بأنها تعنى المجتمع ؟ وأن المجتمع هو الحضارة !!

كلا : لأن المجتمع يتكون من كتل بشرية تتميز بلون من
الترايط الداخلى بين أفرادها . يجمعهم على هدف واحد
ويوجههم الى غاية واحدة فى الحياة .

وكلما كان هذا الترابط على أساس من دين قويم أو كتاب
كريم أو رسالة خالدة كلما كان سديد الخطا - قويم السلوك ..

وكلما كانت الروابط بين أفراد المجتمع على أساس من
قوانين البشر - وفلسفاتهم كلما كانت أدعى الى الحيرة
والاضطراب ..

قد تنشأ الروابط على أساس حزبي - أو طائفي - أو
عنصرى - أو على أساس مصلحة الوطن الضيق .. وليس على
أساس المجتمع الانسانى الواسع ..

ان هذه الروابط تكون دائماً مصادر للشقاء - وأسباباً
للحروب ، ووسائل للتعصب الذميم والحقْد الجاهلى .. وقد
تكون فى معظم الظروف أبعد شئ عن فطرة الانسان !!

وعلى أى حال فان معنى المجتمع - لا يمكن أن يكون هو
الحضارة ..

لكن الحضارة صفة لهذا المجتمع تتمثل في رقيه أو ضعفه -
في ضيق مضطربه أو سعته - في نظمه ومؤسساته - في مكاسبه
وانجازاته - في القيم السائدة فيه، والأخلاق السارية في أفرادها،
في مدنها وعمائره ، في مساجده ومنائره ، في حدائقه وبساتينه
في تنظيمه وتخطيطه ، في قوانينه ودساتيره ، في أوضاعه
الصحية والسياسية والاجتماعية ، كل هذه العناصر وغيرها
تعرف بأنها الحضارة .. والانسان صانعها ومبتكرها بتفاعله
مع الكون ، وتجاربه في الحياة ، وتعاطفه مع الوجود ..
مستخدماً العلم وسيلة في تحقيق انجازاته .. مستشعراً هداية
ربه في كل ما يأتي أو يذر ..

وما المجتمع بهذا التصور الا كالجسد وما الحضارة الا
روحه - ما المجتمع الا الاطار والشكل ، وما الحضارة الا المضمون
والمحتوى ..

وبتعبير أوضح ؛ الحضارة : عمل الانسان في ساحة
المجتمع .. فالعمل القائم على العلم والهداية هو صانع الحضارة
والانسان أهم ركن في البناء الحضارى - والمجتمع هو الساحة
الحضارية التي تتسع لنشاط الانسان ..

ونستطيع أن نتصور مجتمعاً لا حضارة له فيكون جسداً
بلا روح أو هيكلًا بلا طموح .. وهو المجتمع المتخلف بالجهل ،
أو المستعبد بالسخره ، أو الغارق في الهمجية أو المخدر بالأمانى
الكذاب .. واليهم يثير سيدنا رسول الله بقوله :

« ان قوماً غرتهم الأمانى فقالوا : نحسن الظن بالله -
وكذبوا - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » ..

وهكذا يصبح العمل روح الحضارة .. لأنه التعبير الحى

عن الطاقة الانسانية .. والسبيل الوحيد الى « تطوير » المجتمعات .. والدليل الأكيد على قوة الايمان .. وليس مجرد العمل هو الذى يصنع الحضارة .. وانما هو احسان العمل - وافتقانه - وبذل أقصى الطاقة فى تجويده ليجىء على صورة مثالية يرضى عنها الله ورسوله ومن ثم فان القرآن الكريم يشيد باحسان العمل، ويربط به الثواب الأوفى يقول جل شأنه: [انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً (١)] [ولا نضيع أجر المحسنين (٢)] ويقول رسوله الكريم : [ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه] .. وبهذه الايحاءات الهادفة يأخذ الاسلام سمناً حضارياً كميزه عن جميع الأديان الاخرى ..

وقديماً كان « الاستعمار » بكافة صورته وأشكاله عائقاً عن بناء الحضارات .. ولا تجد شعباً « مستعمراً » الا وهو فى أحط درجات التخلف .. لأن « الحضارة » هى أخطر سلاح يواجه الى الاستعمار !!

وكيف يكون الشعب مستعبداً بالقهر ثم يبدع فى صنع الحياة !!

ان العبيد يستطيعون حمل الأحجار .. ولكنهم لا يستطيعون صنع الحياة لأنهم فقدوا أخص خصائص الانسانية وهى الحرية .. التى هى جوهر الابداع والابتكار .. وان وطناً لا يمنح أبناءه السعادة والحرية - لا يمكن أن يتوفروا على بنائه وتطويره !!

ان الحضارة نور يملأ آفاق الحياة .. والمستعمر ينفر من النور .. لأنه يكشف عن جرائمه ، إنه لا يستطيع السطو

(١) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٢) آية ٥٦ سورة يوسف .

والسرقة الا في الظلام • ظلام العقول ، وظلام الجهالة •• وظلام الرجعية •• ولذلك يسعى المستعمر دائماً الى اطفاء شعلة العلم • صانع الحضارة ومنتشئ المدنية ••

وكما أنه لا يمكننا أن نتصور مجتمعاً بلا حضارة الا في ظل الجهل - فكذلك لا يمكننا أن نتصور حضارة بلا مجتمع •• الا اذا تصورنا ماء بغير اناء أو روحاً بلا جسد أو مضموناً بلا اطار !! ••

ونخلص من هذه الدراسة كلها الى أن الحضارة خلاصة الثقافة والمدنية - أي خلاصة الانجازات المادية والمعنوية التي يبذل فيها الانسان قصارى جهده - محاولاً أن يطورها بالعلم ويطوعها لارادته ومشيئته •• بحيث يظفر دائماً بالسيادة عليها - والاستعلاء فوقها •• لا أن تستعبده هي - وتسخره وهذا هو جوهر الحضارة الخالدة ••

تمازج العناصر الحضارية وتداخلها :

اذا كنا قد عمدنا في الدراسة الى الفصل بين الجوانب المادية والروحية •• وتحدثنا عن كل واحد منها مستقلاً عن الآخر •• وليس معنى هذا أن الفصل سائغ ••

انه فقط لتيسير الدراسة - وتسهيل المهمة •• والا فانهما في الواقع لا ينفصلان •• الا اذا تصورنا فصل الروح عن البدن!!

وانه ليتعذر علينا أن نميز بدقة بين العناصر المادية والروحية في دراسة الحضارات لأنها متشابكان تماماً •• لكنا قد نلامح بالنظر العابر - غلبة العناصر المادية على المعنوية أو العكس في حضارة ما •• ونصدر حكماً تقريبياً على ذلك فنقول : الحضارة الغربية طابعها مادي •• والحضارة « المسيحية »

طابعها روحى .. والحضارة الاسلامية تتناسق فيها الروحيات
والماديات !! .. دون أن نعود الى التفصيل والتدقيق ..
وهو حكم يكون صادقاً .. لأنه صادر عن الفطرة وأحكام
الفطرة لا تكذب ولا تطيش ولنضرب لذلك مثلاً واقعياً : مسجد
من مساجد الحضارة الاسلامية ، يتميز بجمال الفن ، وروعة
البناء ، ودقة التنظيم الهندسى .. انه يروعنا وينتزع من
نفوسها عاطفة الاعجاب .. لأنه فى الواقع مظهر حضارى
يتضمن فى وجوده وابرازه عناصر متشابكة بعضها مادية
وبعضها معنوى ..

فالتفكير فى التصميم والنقش وعدد الأعمدة - والأفنية
والقباب والمآذن وأسلوب الزخرفة التى تسوده كل ذلك جانب
فكرى نظرى لأنه لا يخرج عن كونه تخطيطاً على الورق - أو
نظرية فى الرأس - أو فكرة فى النفس .

ثم تحويل هذا الفكر كله الى مسجد قائم - يسر النواظر
ويبهج الخواطر هذا الجانب عملى - تطبيقي .
والفصل بين الجانبين لا يتصور فى الواقع .

وعندما نقرأ قول المستشرق الفرنسى « رينان » يصف
شعوره عندما شاهد مسجداً اسلامياً على نحو ما صورنا فيقول:
[ما دخلت مسجداً قط للمسلمين الا تملكنى انفعال شديد وهو
لو أفصححت عنه لكان نوعاً من الأسف على أنى لم أكن مسلماً]
عندما نقرأ هذا التصريح .. نحس بانفعال عنيف قد أخرج
الرجل عن طوره .. فجعله يصرح بأنه يتمنى أن لو كان مسلماً
رغم تعصبه ومذهبيته .

ان الرجل مبهور بعظمة المسجد - وروعة بنائه - وجلال
الفن المتمثل فيه ..

وخشوع المسلمين في عبادتهم أيضاً .. هو معجب بكل ذلك
ومن ثم نطق بهذا التصريح المفاجيء الذى لا ينتظر من مثله !!
ولعل الرجل قد أحس بالفرق الهائل بين فن تشييد المساجد
وفن بناء الكنائس من جانب وبين أسلوب أداء العبادات فى كل
منهما من جانب آخر فتمنى أن لو كان مسلماً .. وهذا التمنى
لا يدل على شىء أكثر من معنى الاعجاب الشديد والا فما الذى
يمنعه أن يسلم ليكون من أبناء هذه الحضارة التى شغفته
حباً !! بم أعجب الرجل ؟

أبالفكر الذى صمم وخطط ؟ أم بالعمل الذى صاغ وأبدع ؟
أم بهما معا ؟ الواقع أن الانفعال الذى غزا قلب الرجل وهجم
عليه فجأة لم يكن الا بالناحيتين معا لأنه يصعب على الانسان
فى وقت الانفعال العنيف أن يحلل العناصر ويدقق فى التفاصيل ،
لقد امتزج الجانبان فى حسه ووجدانه فجأة .. فهتف من
أعماقه بهذا التصريح *

أو قل : أعجب بالمسجد كمظهر حضارى لمجتمع مسلم
عبقرى التصوير والابداع !!

ومهما يكن من أمر .. فان الحضارة الانسانية كل متماسك
لا يمكن تجزئته ولا تفريقه *

أثر الثقافة فى حياة المجتمعات :

تعتبر الثقافة « وهى أحد جناحي الحضارة » أهم ما يتميز
المجتمع الانسانى عن المجتمعات الحيوانية .. كما يتميز
المجتمعات الانسانية بعضها عن بعض *

وتاريخ الشعوب العظيمة ، انما يستمد عظمته من ثقافة
الشعب ومعرفته ووعيه .. ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا

ثقافة •• فالشعب الذى يفقد ثقافته يفقد تاريخه •• لأن الثقافة جزء من الشخصية •• فاذا ذهبت فقد اضمحلت الشخصية وتاهت فى أرض الله •• كما أن الثقافة تسبغ على الحضارة سماتها الخاصة •

ومن هنا نستطيع أن نتبين أثر الثقافة فى صنع شخصية الأمم •

ولنا أن نتصور بعد هذا كيف أسهم القرآن فى بناء شخصية الأمة العربية والاسلامية ولون حضارتها وصبغها بالصبغة الربانية •• لأنه مصدر ثقافتها وأساس علومها ومعارفها •• ولذا كان هو النبع السخى الذى أغدق الخير بلا حدود وسدد الوجهة بلا شرود ، وحدد الغاية والهدف لتلك الأمة العظيمة - وجعل لها طابعاً حضارياً له خصائصه النبيلة ومقوماته الأصيلة •• وذوقياته الرفيعة وآفاقه العالمية ••

لأنه من وضع العليم الخبير [صنع الله الذى أتقن كل شىء (١)] •

ولأنه متنسم بالحكمة [انا كل شىء خلقناه بقدر (٢)] •
ولأنه ملائم لفطرة الانسان [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (٣)] •

نعم : ان هذه الثقافة المستمدة من القرآن - هى التى دفعت بالحضارة الانسانية دفعة قوية على طريق الايمان والعلم - وأكسبتها طابعاً عالمياً وانسانياً يتميز بالرحمة والانصاف - كلها - فبعثت العبقريّة الانسانية تسعى وتتبدع فى الحياة ••

(٢) آية ٤٩ سورة القمر

(١) آية ٤٩ سورة القمر

(٣) آية ١٤ سورة الملك

وتجاوبت مع المواهب الكامنة في العرب - بل في الانسانية فتأتى بالعجائب - وتصنع المعجزات * * وتتحرك نشيطة في كل مجال * * فكانت حضارة علم وأدب وفن وسياسة وحكم واجتماع - عبقرية خصبة ولود ، لأن الثقافة التي أبرزت كوامنها ليست من وضع البشر - وانما هي من صنع خالق القوى والقدر فهي ثقافة هادية بصيرة *

ولقد كان العرب هم العرب منذ خلقهم الله * * بعصبيتهم وجهالتهم ، وسفهم ، لكن ثقافة القرآن عندما غمرت مواتهم الأدبي ، أطلقت مواهبهم - وأبرزت منهم كنوزاً خبيثة * * كانت مبددة بين ركाम الجاهلية - فجمعتها * * ثم أضاعها بنور الله - ثم أرسلتها تعمل في الحياة * * فرأى العالم منها الأعاجيب *

« كما سنتحدث عن ذلك في فصل مستقل » *

هنا يتضح أثر الثقافة قويا في بناء الحضارة * * * كان العرب من غير ثقافة فعاشوا من غير تاريخ * * وعندما جاءتهم الثقافة الهادئة لم تكتف بصنع نفوسهم - وبناء مجتمعاتهم - وانما أبت الا أن تجعل منهم قادة * * يسوسون البشرية - ويقودونها الى مراشدها - ويعلمون الناس الحكمة كانوا قبل ثقافة القرآن - رعاة ابل وغنم - فصاروا بمنهج الله قادة ممالك وأمم * * تبذل ملكاتهم العجيبة في كل فنون الحياة ابداعا يقود حضارة العالم بأسره - ويؤثر في سير الحياة كلها * * ويصنع التقدم والرخاء في أرض الله *

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم :

[لمحات حضارية تنبعث من الآية الكريمة] :

عندما تقرأ قول الله تبارك وتعالى : [هو الذي بعث في

الأميين رسولا (١) منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين] *

أنها تعطى أسساً حضارية - ومقومات أساسية لابد منها
لكي ينهض المجتمع المسلم بأداء واجبه في الحياة *

انها تشير الى ما يسمى في العرف الحضارى [بالمنهج]
وهو قوله سبحانه : [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة] * *

فهو منهج ربانى *

كما تشير الى « القيادة » التي تقوى « شرح المنهج »
والاشراف على تنفيذه وذاك قوله سبحانه [رسولا منهم] -
ومن بعده خلفاء مهديون يحملون العبء - وينهضون بالتبعية -
ويمضون على الدرب *

كما أنها تشير الى العنصر الانسانى - الذى ينتفع
بالمنهج ، ويتدرج فى سلم الحضارة وذاك قوله سبحانه :
[فى الأميين] وهم بهذا التصوير أبعد الناس عن التمدين -
وأنآهم عن التحضير * * ولكنهم بالمنهج السديد ، والقيادة
المؤمنة يتحولون الى « قيادات حضارية » تصنع حضارة العالم
بأسره *

كما تشير أيضاً الى الجهد المبذول فى عملية « تحضير الأمة
الأمية » وهو جهد يدرك حين نقلب صفحات التاريخ لنعرف
عنى العناء الذى تكبده الرسول العظيم لينقل العالم من الظلمات
الى النور * * :

(١) آية ٢ سورة الجمعة .

وتشير الآية أيضاً الى مايسمى « بالساحة الحضارية »
وذلك قوله في الأميين وهم كانوا يسكنون شبه الجزيرة
العربية . استطاع القرآن أن يضح منهم نواة حضارية ما لبثت
ساحتها أن امتدت وانداحت واتسعت لتغمر العالم بأسره
وتصبح رقعة العالم كله ساحة لها . بعد فتح فارس والروم
والهند والأندلس وتشير الآية كذلك الى « نقطة الانطلاق
الحضارى » وذلك قوله [وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين]
فقد انطلقت الحضارة الاسلامية من نقطة أساسية هي « الضلال
المبين » بكل ما يحمل التعبير من معنى الحيرة ، والقلق والجهالة ،
والسفة ، والانحلال ، والتخبط .

وتشير الآية كذلك الى « ثمرة الجهد » وقيمة المنهج . وذلك
قوله سبحانه : [يتلو عليهم آياته - ويزكيهم - ويعلمهم
الكتاب والحكمة] .

هنا تكمن ثمرة المنهج الالهى . والجهد التربوى . فقد انتقل
بذلك من « الضلال المبين » الى المجتمع الذى [يتلو آيات الله
ويتشرب حكمته - ويفقه كتابه] - ولك أن تتصور نظافة
مجتمع كهذا !!

ألا ان هذا الضلال الذى نتحدث عنه الآية بكل ما يحمل من
حيرة وقلق ، وبكل ما يوحى به من وحشه واضطراب ، وبكل
ما ينضح به جهالة وظلمة - كان طابع الحياة كلها بعامه -
والحياة العربية بخاصة قبل الثقافة الالهية .

لقد كانوا قبله بلا ثقافة - فلما نزل القرآن وفيه الثقافة
الهادية تبدل الضلال رشداً - والسفه حلماً - والجهل علماً على
يد معلم الانسانية الأكبر محمد رسول الله وهذه النقطة الخطيرة
في حياة القوم هي التى تشير اليها الآية :

[واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] *

انها تلتقى مع سابقتها في التنويه بقيمة الجهد الحضارى المبذول وبيان نقطة البدء ، ثم توضيح الثمرة الحضارية بعد هذا *

فقد بدأت حضارة القرآن من نقطة محددة [اذ كنتم اعداء - وكنتم على شفا حفرة] أى أنها بدأت - والعداء مستحكم بين العرب - بل بين العالم بأسره - والعصبية منتشرة - والفساد ضارب ، والقوم على حافة الخطر ، تمزقهم الحروب والثارات تلك هى نقطة البدء - أى بدء العمل الحضارى *

لكن ماذا كانت النتيجة ؟

كانت كما ذكر الله [فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا] وبانقاذهم من وهدة الضلال والفساد *

أى أن ثمرة الحضارة تجلت في مجتمع انساني موحد - تسرى في كيانه أخوة القرآن - بعد تمزق وشتات * وأنعم بتلك من ثمرة !!

وليت مناهج السياسات البشرية تحقق في هذا العصر ذرة واحدة مما حققه منهج الله !!

ان الأسس الحضارية - التي أشرنا اليها من [منهج

(١) آية ١٠٢ سورة آل عمران

للتربية ، وقيادة ، ومجتمع ، وساحة ، وجهد مبذول [هي التي
جهد شراح الحضارات في ايجاد الصيغة الملائمة للتعبير عنها .
وربما كانوا يصورونها للناس على غير أساس ، ولكن الآية
الكريمة - تحدد معالمها ، وتشخص مقوماتها - في دقة وشمول
وحسن استيعاب وبصيغة مختصرة لا تعنى ولا ترهق .

وكذلك القرآن الكريم يهدى دائماً للتي هي أقوم ، أي
للخطة التي هي أمثل وأفضل على أن استنباط هذه المعالم
الحضارية من آية قرآنية ، يدعونا الى الثقة بها ، والتصديق
لها ، والعمل بما جاء فيها ، لأنها بهذا الاعتبار منهج رباني -
تنقاد اليه النفوس الطيبة ، وتستبقي اليه الفطر السليمة
بمنتهى الازعان والقبول ، وشستان بين أن تقدم لي « مقومات »
من صنع البشر - وبين أن تقدمها لي من وضع خالق القوى
والقدر !!

حقاً ان القرآن يمنحنا الثقافة الدقيقة الأصيلة - التي
تتفاعل مع نفوسنا - وتتجاوب مع أرواحنا ومشاعرنا . فحبذا
الاصغاء الواعي اليه - والاقبال الصادق عليه - والتطبيق
المحكم لآياته وأحكامه !!

ولنحاول أن نوضح طبيعة « المنهج الحضاري - وتحرك
القيادة به - ليعطي الثمرة الطيبة وينشئ الساحة الحضارية
الرحبة ويصقل مشاعر القوم بآيات الله - ويصهر عواطفهم
في جو المعارك الكبار ضد أعداء الله ، وأعداء الحضارة على مر
الأيام .

ومازلنا في جو الآية الكريمة نسبح في نورها ، ونتنفس
من عطورها . وانها لتمنحنا من الأسرار والانوار على قدر
احتمالنا - وطاقتنا .

فالمنهج الحضارى : المشار اليه بقوله سبحانه [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] يتضمن أموراً ذات خطر في بناء الحضارات الانسانية . ولعل من أهمها - اتساق المنهج الحضارى وواقعيته وبساطته وتجاوبه مع الفطرة - ومقدرته على شحذ الطاقات ، واثارة المواهب . وشموله للدين والدنيا ، للعبادة والقيادة ، للمسجد والمجتمع ، للجسد والروح .

فهذا المنهج هو الذى يحدث « التزكية والتعليم » . . . وهما كلمتان تعبران عن أثر هذا المنهج فى الأرواح ، والعقول . . . لأن عملية التزكية تعنى تربية الوجدان وتنقية الروح وتطهير النفس .

وعملية التعليم تعنى صقل العقل - وشحذ طاقاته . . . واطلاق المواهب الانسانية لتعمل على عين الله . . . وان منهجاً يتعهد عقل الانسان بالعلم والمعرفة ، وروحه بالتطهير والتزكية ، ووجوده كله بآيات الله والحكمة . . . لهو أشمل منهج - وأخصبه وأقدره على احداث التغيير فى حياة الانسان .

ولعل الجهد المبذول هنا هو عملية التزكية والتعليم . . . ولا بد منها لكل بناء حضارى . . . وهما يحددان دور الرسول العظيم « القيادة » فى عملية تحريك المنهج الربانى . . . وبدون هذا التحريك ، وبغير ذلك التطبيق يصبح المنهج مجرد نظريات للدراسة ، أو للحفظ ، أو للتجويد والتغنى ، أو للتبرك . . . وما لهذا نزل القرآن من السماء !! وانما نزل ليتحرك بالوعى والتجربة فى دنيا الناس وليمارس فى الحياة وليتحول من نظرية فى المصحف الى سلوك فى المجتمع للأفراد والجماعات ، والى أسلوب القيادة والحكم ، وواقع يرتفع بعقل البشرية وقلبها الى أرفع مستويات الطهر والصفاء . . .

واخفاق الحضارة البشرية انما يجيء أولاً من أنها لا تتضمن المنهج الملائم لأنه فوق طاقة الانسان .. وكذلك من العجز عن التطبيق والتحريك في الحياة ، ومن ثم ينتاسها الفشل والاففاق .

ثم نجد الآية الكريمة تنقلنا الى « القيادة الحضارية » ليتشابك المنهج بالمنفذ .. وترتبط النظرية بالتطبيق .. وتلك القيادة لابد أن تكون « قدوة » لأن القائد الذي يحدث التأثير العميق في قومه لابد أن يتحلى بالأخلاقيات الرفيعة ، والفضائل السامية ، لياخذ الناس القدوة من أفعاله - قبل أن يلتمسوها من أقواله وما لم يكن القائد على هذه الدرجة من التسامى والطهر فلا أثر لقيادته لأنه لا يوثق فيه ولا يطمأن اليه .. والآية تشير الى ذلك اشارة لمحة هي [رسولا منهم] فكونه رسولا .. يتضمن كل ما يتصوره البشر من أنواع الكمال - وكونه منهم يتضمن معنى الحرص على هدايتهم ، والاخلاص في نصحتهم ، والثقة التامة به في كل ما يأتي وما يذر لأنسه معروف لديهم - قائم بينهم .

ولا شك أن الحضارة الأصيلة لا تترك منهجها للظروف، ولا تفرط في انتقاء القيادات ، لأنه لا قيمة للمنهج دون أن يأخذ طريقه الى التطبيق ، فتتحول أخلاقياته ومثله الى سلوك تصطبغ به الحياة ويسير المجتمع على هداه .

لابد لهذه الحضارة أن تختار القيادة الحازمة - التي تؤمن بالمنهج - وتستमित في تطبيقه - وتجد في ايصال الهداية الى الناس .

وهذه الآية تجعل القيادة هي النبي محمد [صلعم] وما برح هذا القائد الرسول - يجاهد الضلال ، ويقاوم الشرك ، ويحارب

الفساد حتى أتم الله النعمة وأكمل الدين ، ثم تولى الزمام من بعده أئمة راشدون وخلفاء مهديون ، وهكذا تم إيصال المنهج الى الناس بواسطة الرسول المؤيد بالحق المنتزم بتنفيذ ما أنزل الله ، فما ينطق عن الهوى ، وما يضيف فقرة في المنهج لهوى أو شهوة - وإنما يتقيد بالنقل عن رب العالمين [ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين (١)] فإذا تصورنا هذا الالتزام بالمنهج من جانب محمد رسول الله - وما أصاب الديانتين الكبيرتين قبله من تحريف وتشويه وزيادة ونقصان بدافع الهوى والشهوة - لأدركنا السبب في انهيار هاتين الديانتين وضعف الثقة بهما ، وازدراء الناس لهما ، وانفصالهم عن الدين وتلتقى بقية الأسس الحضارية في اطار الآية الكريمة ٠٠ .
فها هي ذى تعبر عن الساحة الحضارية وأنها « الأمة الأمية » بشبه الجزيرة العربية ، وتلك هي الساحة الأولى للدعوة ، ثم ما لبثت أن صارت ساحة عالمية حين فتح الله على المسلمين فملكوا بلاد كسرى وقيصر ، لقد بدأت التجربة الحضارية في ساحة ضيقة هي شبه الجزيرة العربية ثم اتسعت لتشمل الحياة والأحياء وتتولى « تمدين » العالم بأسره بمنهج الله سبحانه .

ثم تتلاقى الثمرة بالجهد - والنتيجة بالمقدمة ، - حين يتم اخراج الناس من الظلمات الى النور ، وقيمة الحضارة في نتائجها ، وأى منهج لا يحقق السعادة العلمية للبشر فلا خير فيه ، ولا جدوى منه لقد زعم « ماركس » وغيره أنه يملك منهجاً يحقق سعادة البشر ، وأسرف في الاشادة به - والتنبؤ بآثاره .

وقد ظهر بعد التطبيق - أن المنهج لم يجلب لأصحابه الا الشقاء ولم يجر عليهم الا الفقر وتبين للقوم كذب النبوءات

(١) الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ من سورة الحاقة .

الماركسية ، وظهر لهم أن « المادية » التي قادهم اليها المنهج لا تجلب لهم الا الشقاء وأنها بشؤمها تفصلهم عن الله ، وتنزع من أرواحهم السكينة والاستقرار ، وتهدىء لهم أجواء خانقة ، لا تنطلق فيها نفوسهم - ولا تزدهر أرواحهم : وأى قيمة لحياة يفقد الانسان فيها نعمة السكينة والصفا ؟ !

وقد تتحدث بعد قليل عن أثر المنهج الربانى لحضارة القرآن فى حياة المجتمع ؛ وعن الثمرات الشهية التى جناها القوم . . وأيسرها طمأنينة القلب ، وسكن الضمير ، والارتباط بالله الذى يؤنس الروح ، ويسعد القلب ، ويملاً حياة المؤمنين خيراً وبركة ولا تسئل عن ثمرة هذا المنهج الربانى فى العالم بأسره . . وبحسبنا أن نستلهم ذلك من قوله سبحانه :
[ليخرجهم من الظلمات الى النور] :

فالظلمات كانت بدء العمل الحضارى والنور ثمرة الجهد المبذول والفرق بينهما واضح لكل من يدرك ويعى .

المؤثرات الحضارية :

تؤثر أوضاع البيئة وعناصر الاقتصاد فى صنع الحضارة وتطورها وازدهارها تأثيراً بعيد المدى . . كما تؤثر فيها كذلك مجموعة من العناصر المعنوية كالأعراف والمعتقدات والتقاليد والأفكار على نحو ما وضحناه سابقاً . .

وإذا كانت عناصر الاقتصاد عاملاً من عوامل صنع الحضارة والتقدم فليست هى كل شئ . . كما تفهم الشيوعية . . وإنما هى عامل من عوامل وعناصر ولا تكفى وحدها لتفسير التطور الحضارى واطراد . . انه على أى حال ليس هو العنصر الحاسم فى سير التاريخ وللبيئة كما مر أثرها فى اطراد

الحضارة أو توقفها . . . وهى تشمل الواقع الجغرافى - أى الساحة الحضارية - فلذلك أثر قوى فى تشكيل الحضارة فوقوع الاقليم على ساحل بحرى - أو فى الداخل - أو على طريق تجارى . . . كل ذلك يهيم الظروف لصنع حضارة زاهرة . . . كما أن لبعده المكان عن هزات البراكين والزلازل أثراً فى استقرار الحضارة - وتقدمها - ولقد عنى ابن خلدون بتوضيح أثر البيئة فى الحضارة . . . يقول فى مقدمته : [لهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوءات فانها توجد فى الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية - وذلك أن الأنبياء والرسل انما يختص بها أكمل النوع فى أخلاقهم وخلقهم . . . وأهل هذه الأقاليم أكمل - لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى ملابسهم ومساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة - المنمقة بالصناعة ويتنازعون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية .

وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أعمالهم وأحوالهم - فبنائهم بالطين والقصب - وأقواتهم من الذرة والعشب - وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم - أو من الجلود] اهـ .

وكلام ابن خلدون هذا صريح فى أن البيئة الجغرافية تؤثر على الحضارة تأثيراً قوياً وتعكس أوضاعها على الناس . . .

مناقشة ابن خلدون :

رغم ما فى كلام ابن خلدون من حق - وصواب فاننا لا نسلم به كاملاً . . . ولا نتخذه مقياساً للحضارة .

فان انسان القرن العشرين قد أخضع البيئة بالعلم لارادته
وخلق في قلب الصحراء حضارة وارفة الظلال - وفجر الينابيع
الغزار - واستنبت المياه من الآبار - وجفف المستنقعات -
وحول ماء البحر المالح الى ماء عذب - واستنزل المطر الصناعي ..
وتمكن من السيطرة على البيئة - بعد أن كانت تسيطر هي
عليه .. وأصبح سيدا لها .. بعد أن كان مقهورا مسودا .
وهنا يتدخل العنصر الاقتصادي كعامل من عوامل ازدهار
الحضارة ...

لأن استخدام الوسائل العلمية - التي لم تكن موجودة
على عهد ابن خلدون - قد أحدث هذا الانقلاب الخطير في السيطرة
على البيئة - وتمكن من حسن استغلال الثروات ووفرتها وذلك
عكس ما اذا كانت الوسائل بدائية فان الانسان معها لا يتمكن
من احداث الثورة الحضارية - وقلب أوضاع البيئة وتبقى بعد
ذلك أخلاقيات الحضارة، التي تحفظها من الانحراف - وتوجهها
وجهة صالحة بناءه لخير الحياة كلها - ولخير البشر أجمعين ..
ولتحقيق الرفاهية وصنع السلام ، ليعيش الانسان على ظهر
هذه الأرض آمناً مطمئناً يؤدي رسالته في غبطة ووثام تحت
مظلة واقية من قول الحق تبارك وتعالى :

[وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله (١)] .

(١) آية ١٥٣ سورة الأنعام .

الباب الثاني

الله والكون والانسان

أهمية هذه الدراسة :

عندما نتحدث عن الحضارات الانسانية - لابد لنا أن ندرس طبيعة العلاقة بين الانسان والكون من جهة - ثم هذين وبين الله .. ذلك لأنه بفهم هذه العلاقات .. وتحديد أبعادها يعرف الانسان [وهو الركن الأول في بناء الحضارة] كيف يتفاعل تفاعلاً سويًا مع عناصر الكون ، وكيف يتمكن من السيطرة عليها واخضاعها لمشيئته بقوانين العلم .. وينشأ عن هذا التفاعل ما نسميه بالحضارات .. وعندما يتلقى الانسان منهجه عن ربه ، فانه لا يضل ولا يشقى .. لأنه سيمضى على درب الوجود ثابت الخطو واثق القلب مطمئن الفؤاد ..

وبالتلقى عن الله - تتحدد علاقته بالطبيعة من حوله .. فهي مسخرة له باذن ربها .. وهو - بما منح من عقل وتفكير وقدرة على الهدم والبناء ، والحل والتركيب قادر على أن يبتكر ويخترع - وينشئ المصانع والآلات ..

ومن ثم - فان هذا البحث [الله - والكون - والانسان] يجيء في موقع طبيعي من هذه الدراسة .. للعوامل السابقة - ولعامل آخر أهم من كل ما مضى .. وهو أن يرتبط الانسان

[صانع الحضارة] بربه مصيراً وقدرأً يستمد منه العون -
ويتلقت دائماً نحوه ٠٠ حتى يسدد خطاه على طريق الحياة -
وفي رحلتها الشاقة الطويلة - وحتى لا يعتريه غرور الطواغيت
عندما يمكن لهم في الأرض فيهتف بما هتف به فرعون [أنا
ربكم الأعلى (١)] ، [أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري
من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين
ولا يكاد يبين (٢)] ويقصد نبي الله موسى ٠٠

أو بما هتف به قارون من قبل : [إنما أوتيته على علم
عندي (٣)] ٠٠

وبارتباط الانسان بربه - يعرف مركزه من الوجود، ومكانه
من الاستخلاف - وحاجته الى هداية ربه ٠٠ ومهما يحرز من
سبق أو نجاح في مضمار الحياة ، فانه يرد ذلك كله الى الله ،
ويهتف مع الملائكة [سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا] أو يطلب
الاستزادة من توفيق الله قائلاً : [وقل رب زدني علماً (١)] ٠٠
وبهذا يتجه بالحضارة وجهة ربانية ٠٠ ويعرف أن قيمتها
الكبرى تكمن في دعم الايمان ، والمزيد من الارتباط بالله ٠٠

الله جل وعلا : هو خالق الخلق ، ومأنح الرزق لا تنفذ
خزائن رحمته - ولا تنضب موارد حكمته - ولا تنقضي عجائب
قدرته ، قد وصف نفسه في القرآن بأوصاف كاشفة ليعرفه
العباد - فقال جل جلاله : [هو الله الذي لا اله الا هو عالم
الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا اله الا

(١) آية ٢٤ سورة النازعات
(٢) آيتا ٥١ ، ٥٢ سورة الزخرف
(٣) آية ٧٨ سورة القصص
(١) آية ١١٤ سورة طه .
(٢) آيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ سورة الحشر

هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢) [، ومن خلال هذا الوصف تشرق صفاته الكريمة ، فتمنحنا المعرفة به ، وتنفذ أشعتها الباهرة الى القلوب ، فتملأها مدى ونورا ، وتغمر الحياة كلها بالمودة والايناس . .

وتجعل المؤمن يعيش على الأرض آمناً مطمئناً، لأن له نسباً عريقاً في السماء . . فهو من الله - وهو الى الله . . وبذلك تنتعش روحه - ويطمئن خاطره ، وتسكن نفسه فلا يعتريه شك أو ريب . . وتلك أولى ثمرات الايمان بالخالق الأحد الفرد الصمد [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١)] .

[يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٢)] .

ولهذه الثمرة أثرها العظيم في بناء الحضارات . . لأنها تمنح الانسان الثقة في جهاده النبيل في الحياة حين يعمل مرتبطاً بالله - مستمداً منه كل معونة وتوفيق .

كيف السبيل اليه ؟ :

ونحن نعرف الله سبحانه بفطرتنا السليمة - التي تنتج بطبيعتها الى الايمان . . وتنفر من الالحاد والضلال - وترى في الاعتماد عليه ، والاستناد اليه مصدر قوة عظمى تعين على المضي في رحلة الحياة - وتلطف قساوة العيش ، وتخفف صراع

(١) آية ٢٨ سورة الرعد
(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم .

المادة ، وتمنح الفطرة أمناً وسلاماً ، وتفيض على القلب
سكينة ونوراً ..

وفي مجاهل القرون الغواير - بحث الانسان عن سر الحقيقة
الكبرى - والقوة العظمى ، وأحس بوجودها وسيطرتها عليه ،
وتحكمها فيه .. وراح يتصورها مجسدة في الشمس تارة ،
وفي النار تارة ، وفي الأنهار والبحار تارة .. وفي الأصنام
والدواب تارة أخرى ان روحه لتنزع الى الايمان .. ولكن
بأى شيء ؟

انها المظاهر الطبيعية العظمى - التي تحيط به - وتؤثر
في الحياة من حوله ..

على أى حال .. يعتبر ذلك نزوعاً تلقائياً فطرياً الى
الايمان .. وهو تقديس لله - في آثاره الضخمة .. فما هو الا
أن تصحح الوجهة - وتحدد القوة ، فاذا الانسان بطبعه مؤمن
بالله .. وتلك مهمة الطلائع الكريمة من الرسل والأنبياء
يصححون الفكرة عن الله . ويعطون المعرفة الدقيقة عن ذاته
وصفاته وأفعاله .. ويقودون البشرية الى طريق الايمان ..
هكذا نجد الايمان مركزاً في الفطرة .. لا يحتاج الى علم غزير
ولا الى معرفة عميقة .. نظرات ساجية شاعرة في رحاب الكون
المشحون بمظاهر العظمة والجلال - خليفة أن تفيض على
القلب أمواجاً من اليقين - وأفواجاً من الأدلة .. وتصب في
الوجدان المستلهم أقباساً مشرقة من الهداية ، فاذا الروح
متوهج ، واذا القلب مضاء بالحقيقة واذا العاطفة المتوهجة -
تمتزج بالعقل السابح في النور . فيتعاونان معا على ارتشاف
الرحيق السلسل من كأس الايمان الطهور .. واذن ، فالعقل
وحده لا يكفي في استلهاام الايمان بل العاطفة التي تتوافد عليها
أمواج الهداية من خلال التأمل في الكون الرحيب ..

فاذا بهذه العاطفة المنتشبة برحيق الهداية تستحث العقل وتستجيشه فيذعن ويصدق من قبل أن يمحص ويحقق . . لأن رجفة الشوق الى الفيض التي يستشعرها الأصفياء في لحظات التجلى . . لا يستطيع العقل أن يثبت أمام سيلها العرم، ودفقها العنيف . . فاذا هو مغمور في الالهام والنور . . ولعل اندفاع الفطرة الى الايمان بالطبيعة هو الذى يقرره الحق تبارك وتعالى فى قوله : [واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين (١)] .

انه الميثاق الأكبر - الذى تنزع اليه النفس أوقات صفائها - وترتمى فى أحضانه ساعة ضعفها . . وتتجه اليه كلما شاقها القرب ، وأضناها البعاد : فتجد فى هذه اللحظات القدسية من الأنس الغامر - والسلام الرفاف - والسكينة الساجية ما لا تستطيع مباحج الحياة كلها أن تنشئ بعضه . . وتحس بمعانقة السعادة - ولو كانت تتلظى فى جحيم الفقر - وتلك ثمرة ثانية من ثمرات الايمان ، وكم للايمان من ثمرات !!

يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى فى تصديره لكتاب :
« العلم يدعو للايمان » :

« ودعوة الاسلام صريحة فى أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله - ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحبه فى تطوافه الى تلك الغاية قلب يتلقى عنه كل مدركاته فيحيلها عواطف وأحاسيس تشيع فى النفس روعة وجلالا - ومن خلال هذا الشعور بالروعة والجلال يرى المرء خالقَه الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال - ولهذا كان الاسلام دين الفطرة ، والفطرة

(١) آية ١٧٢ الاعراف .

ليست عقلا صرفا ، ولا عاطفة محضة * * وانما هي مزيج من العقل والعاطفة اذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله ، وتعرف سبيلها اليه من أقرب السبل » *

وهو كلام صريح في أن العقل والعاطفة يتعاونان معا على الايمان * * ويدلان على الله * * لكنى أرى - أن العاطفة ، وهي نبع القلب هي جهاز الاستقبال اللاقط - الذى يسرع بترجمة الاشارات الوافدة * * ويدفع بالثمرة الى العقل * * فاذا هو مضى مبهور !! ؟ ومن هنا فان القلب ، وهو النبع السخى للعاطفة * * هو الذى يفعم بالأنوار * * ثم يقذف بها الى العقل ليضى ويشتعل * * وذاك سر الاشادة به في قول الرسول (صلعم): [ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله - ألا وهي القلب (١)] * *

ونحن نعرف الله بقلوبنا قبل أن نعرفه بعقولنا * * القلب يقوده الهامه ، والعقل تقوده أحكامه * * والالهام * * وهو الفيض الأعظم قبل الأحكام * *

عنها تنصرف الفطرة :

ولأن الفطرة بطبيعتها تندفع الى الايمان * * نرى أن التزييف لهذه الفطرة * * يحتاج الى بذل جهد * * وهو جهد شيطاني يحول تلك الفطرة من طريق الرحمن الى طريق الشيطان ، واليه يشير الرسول الكريم : [ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه (٢)] سبيل الايمان بالله ايمانا سليماً سبيل سهل ميسر مضاء مأنوس ، وما أكثر ما نرى ربنا في آثاره ، وفي مظاهر كونه -

(١) صحيح البخارى

(٢) صحيح البخارى

نراه في النبتة الصغيرة ، وفي الشجرة الباسقة ، وفي الرمال
المنبثة ، وفي الآفاق الشاسعة * * وفي الجبل الضخم - وهكذا
بنظرة الى صفحة الوجود ندرك سر الايمان * * وليس ضرورياً
أن نمحص ونحلل وندقق ، فتلك نظرات الفلاسفة والعلماء * *

وإذا كانت معرفة الله - هي سر الابداع ، ووسيلة السكينة
- فان الملاحدة يحسون بالشقاء والظماً * * حين يمشون على
الأرض بخطا مضطربة ، ويحيون بين الناس بنفوس قلقة ،
ويعيشون بهواجس مريضة تنتابها الشكوك وتفترسها
الأوهام : [ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه
الطير أو تهوى به الرياح في مكان سحيق (١)] * *

وحين يدرك المؤمنون بالله مدى الفرق الشاسع بين
الطمأنينة الوادعة التي تغمر أرواحهم ، وبين الحيرة القلقة التي
تملأ قلوب الملحددين ، فان ألسنتهم تنطلق بالشكر العميق لله
سبحانه أن هداهم للإيمان وقاد نظرتهم اليه ، ولم يتركها
للهواجس والأوهام * *

ولم يعد الاحاد في هذا العصر مشكلة * * لأن عجائب الخلق
تتعاون مع أدلة العلم لتنشئ اليقين ، وتطاردهم أثباح الاحاد * *
ومن خلال العمل آمن بالله من آمن عندما اكتشفوا بالوسائل
العلمية أسراراً عظيمة - ونظماً دقيقة ، وهندسة عجيبة ماكان
لها أن تنشأ بالصدفة - أو توجد من نفسها * * نعم : لقد
تضافرت الأدلة العلمية على وجود الله * *

وفسر القرآن الكريم تفسيراً يملأ العقل بالحجة والدليل
على وجود الله أيضاً * * ولهذا كان الاحاد شذوذاً عن الفطرة -
وعن أدلة العلم في وقت واحد * *

(١) آية ٣١ سورة الحج

يقول الأستاذ عباس محمود (١) العقاد : « الدين لا يستقيم
بغير الله تتصل به المخلوقات ، ويتقبل منها الحب والرجاء ،
ويستمتع لها استمتاع العالم المرید . . . ونحن نستطيع أن نرى
بأعيننا أن الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة ، لأن الانسان
(غير المؤمن) انسان غير طبيعي فيما نحسه من حيرته
واضطرابه ويأسه . . . وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه -
فهو الشذوذ وليس هو القاعدة في الحياة الانسانية - وفي
الظواهر الطبيعية - ومن أعجب العجب أن يقال : ان الانسان
خلق في هذا الكون ليستقر على ايمان من الوهم المحض » ،
ثم يستطرد قائلاً : « ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعى
قبل أى شىء ، فالانسان له وعى يقينى بوجوده الخاص
وحقيقته الذاتية - ولا يخلو من وعى يقينى بالموجود الأعظم -
والحقيقة الكونية لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه -
والوعى والعقل لا يتناقضان وان كان الوعى أهم من العقل في
ادراكه ، لأنه مستمد من كيان الانسان كله ومن ظاهره وباطنه
وما يعيه هو وما لا يعيه - ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً
الى التفسير والتفصيل ، وليس وجود الله عند « أرسطو »
وأمثاله مسألة دينية أو مسألة غيبية - ولكنها حقيقة عقلية
كالحقائق الهندسية - وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين
عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل » اهـ .

وبتحليل هذا الكلام الرائع يتضح لنا أن العقل ، والقلب ،
والوعى . . . كلها تتعاون في سبيل الوصول الى الايمان . . . وأن
استقامتها على الفطرة يكفل لها الوصول الى الحقيقة الكبرى . . .
ولم يعد بإمكان المذاهب المادية - في عصر العلم - أن تجتذب
أحدنا الى ساحتها المشئومة النكدة - ولا أن تنتزع منه سلاح

(١) ص ٣٥ القرآن العظيم الدكتور جمال الدين الغندى .

الايمان بالله .. لأنه لا العلم ولا الدين ولا أدلة العقل - ولا نور
القلب تسمح له بالانزلاق الى الوهدة الضالة الظلماء .

من شؤم الاحاد :

وحسب المادية أن كذبت كل نبوءاتها .. وسقطت كل
أدلتها كما تتساقط الأوراق الجافة في فصل الخريف .. لقد
حاولت أن تجعل من « المادة » كل شيء في تفسير التاريخ -
وتنظيم الحياة .. وزعمت أن هذه المادة تغنى عن خرافة
الايمان - الذى هو في نظرها الطور البدائى للانسان وأنكرت
في سبيل ذلك الأديان واعبرتها مرحلة بدائية في خط سير
الانسانية يخلعها الانسان كما يخلع « الثعبان قشرته »
وأنكرت الرسائل والكتب السماوية ، وما وراء الطبيعة كله
وصارت فكرة مادية ملحدة .. لا أثر فيها للروحيات « ووجود
الدين في مجتمع ما يعنى (١) وجود عاهة » ونظمت حياة البشر
كما يحلو لها فحالت بين الانسان وبين التعبير عن حاجاته
الطبيعية .. ان أدوات الانتاج ملك للدولة - والولاء للحزب
وليس للأسرة - أو للأب أو للام .. والدكتاتوريات لطبقة العمال
والتملك والارث لا مبرر لهما .. والأخلاق اختراع بدائى يحمى
به الضعفاء أنفسهم من بطش الأقوياء والغاية تبرر الوسيلة ..
والعلاقات الاجتماعية تنشئها (٢) الدولة والآلة والنظم
الاقتصادية ، والأفراد لا تنبئهم لهم والولاء كل الولاء للحزب ..
وفي سبيل تحقيق أهدافهم - خاضوا بحارا من دماء وركاما من
أشلاء .. ولم يصلوا حتى الآن الى تحقيق آمالهم .

لقد وضع أساس هذه الفلسفة المادية في القرن الثامن
عشر على يد ماركس وأنجلز وهما يهوديان ألمانيان . وجاء

(١) من كلام « ماركس في كتابه المسألة اليهودية » .

(٢) تخضع العلاقات الجنسية هناك للحرية المطلقة نشأة ومصيرا .

لينين ليطبق النظرية عام ١٩١٧ م وبعد الثورة على القيصر ..
وانتزاع السلطة منه - وظهر بالتطبيق الذي ما يزال حتى الآن
في طور التجربة أن المادية - بانتزاعها لعقيدة الايمان بالله
واليوم الآخر - من الأفراد باعدت بين الانسان الشيوعي وبين
الاستقرار المادي والروحي .. وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية
وحالت بينه وبين التعبير عن غرائزه بالحيلولة بينه وبين
التملك .. وقهرت حرية الفرد من أجل الحزب - وأوجدت
انحلالا أسريا وعائليا .. لأنها لم تعترف بالأسرة .. ولا بالوطن
ولا بالقومية بل فقط الولاء للحزب .. وزادت على ذلك مخاوف
أخرى بما استعملت من قهر وتسلط - لكل من يحاول انتقاد
الحزب .. وحتى أعضاء الحزب أنفسهم أكثر خوفا من الأفراد
العاديين - فالشيوعي يحمل قلبا خائفا مضطربا أينما غدا
أوراح *

ان المادية بانكارها لله - قد حطمت في الانسان كل وسائل
المقاومة ضد القهر والذل والمصائب والعدوان .. وجعلته حيوانا
يعيش ليومه ، ولا يتجاوز بالنظر موقع قدمه وهي باستخدام
القمع الدموي والارهاب العنيف قد اقتلت في الأفراد روح الشجاعة
وسلبتهم الارادة وحولتهم الى قطعان شاردة لا تعرف لها ربا
ولا ترجو له وقارا *

ولم تكن حضارة الغرب بمسلكها الماي الاباحى أكثر
صلاحا من الشيوعية .. بل انهما معا ينبعان من معين الأحاد
والكفر .. لكن الشيوعية صريحة في كفرها والمادية الغربية
مناقفة ، تدخل الكنيسة وتقيم الأحفال الدينية ، وتدعى
الانتساب الى السيد المسيح بينما ألحقت بالكنيسة صالات
للرقص ، يختلط فيها الفتيان بالفتيات في حلقات رقص محمومة
ومخمورة *

وقد كان منطق الحضارة الغربية من نقطة الالحاد - عندما تخلصت من سيطرة الكنيسة التي كانت تصدر الحرية وتنضهد المعرفة .. وتقيم محاكم التفتيش .

تخلصت الحركة العلمية من الكنيسة - واعتنقت الالحاد . وسارت فيه الى نهاية الشوط .. ثم هبطت بالأفراد الى درك الحيوانية الوضيع .. واتسمت منذ ذلك الحين بطابعين واضحين ، طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادى الوثنى ؛ وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته ، وفي ظل هذين الطابعين نمت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي سادت في الغرب وسيطرت على عقول أبنائه يقول الأستاذ الدكتور المرحوم مصطفى السباعي (١) : [ومن الشائع الآن في أوروبا وأمريكا أن كل كنيسة لها ناد يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر وفي الرحلات والاحتفالات - وقد زرت أحد هذه النوادي في أوروبا وكان جزءا من بناء الكنيسة فرأيت أنه لا يزيد عن حلقات للسمر والرقص والغناء والأكل والشرب] ..

لقد انفصلت الحضارة الغربية هي الأخرى عن الله .. وسارت في طريق الالحاد .. رغم وجود الكنائس وكثرة الحفلات الدينية ولن تصلح الشيوعية - ولا حضارة الغرب لتكوين مدنية فاضلة .

ومن أجل ما قرأته من الردود على الماديين ما أثبتته الأستاذ العقاد من أن المادة أصعب من الروح في فهمها وتحليلها - وأن العلم قد تبين ذلك بعد رحلة طويلة .. وكان العلم يعتقد أولا أن الروح أصعب .. فكيف تصلح المادة على الجهل بها -

(١) من كتاب « من روائع حضارتنا »

وصعوبة فهمها أساسا لمذهب من المذاهب ؟ ولو سألت أحد
الماديين - عن الأثير أحد عناصر المادة ما هو ؟ لما استطاع أن
يعطى الجواب !!

كذلك لم تصبح سخافات الماديين « ذات موضوع » في
ادعائهم أن ايمانهم لا يمكن أن ينصب على أمور بعيدة عن
الحس والمشاهدة وان أحدهم ليضرب بجمع يده على المنضدة
وهو يتكلم بحماسة قائلا : هذه هي الحقيقة .. يريد أن المادة
هي الحقيقة وما سواها فخرافة .. والرد عليهم في هذه الفرية
ليس أمرا صعبا .. لأن أكثر من نصف معلوماتهم اما وصلهم
عن طريق السماع .. ولو أن الايمان اقتصر على المحسوسات
لما آمن أحد بوجود أجداده القدماء - ولا بأبطال التاريخ .. بل
ولا بالشخصيات الكبيرة التي تبتعد عن دائرة حسه .. ونحن
نطالب الشخص الذي يريد أن يرى الله رأى العين ويأمسه
بيديه .. نطالبه بأن يفعل ذلك مع أى عظيم من عظماء العالم ..
فهل اذا لم يكن رآه يجب أن يكفر به؟! ورؤية الله جل جلاله ..
لا يستوعبها العقل البشرى المحدود؛ كما لا تطيقها العين المجردة ..
وانما يرى الله جل جلاله من خلال عجائب صنعته وبدائع قدرته ..

والقلب وحده يستطيع بالالهام أن يطمئن .. ويستوثق
كما قدمنا .. ولم تكن هذه السخافات جديدة فطالما تعرض
الايمان لسخافات الناس ألم يقل قوم موسى له : « أرنا الله
جهرة (١) » .. انه خير للانسان أن ينصرف عن البحث في ذات
الله - والتفكير فيها .. الى التنقيب في آثاره ودراسة روائع
قدرته، فتلك هي المنطقه الحلال .. التي يجوز للعقل البشرى أن
يقتحمها .. وهى منطقة مباحة منزوعة السلاح كما ورد في بعض
الآثار : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » ..

(١) آية ١٥٣ سورة النساء .

أما منطقة الذات العلية فمنطقة حرام ٠٠ محاطة بأسلاك شائكة
تكمُن فيها المخاطر والأهوال ٠٠ وويل لمن يضحى بنفسه في
اقتحامها !!٠٠

وما ضر أن نجهل ذات الله ٠٠ لأننا لم نكلف بذلك ٠٠ وأنه
لأمر ضد طبيعتنا ٠٠ فلنشاهد جلاله وجماله ورحمته وعدله من
خلال آياته - ومن خلال مخلوقاته .

يقول الدكتور جمال الدين الفندى في كتابه (القرآن والعلم):

[وجدير بالذكر أن العلم الحديث انما ينصب على دراسة
خصائص الأشياء والاستفادة منها وليس على حقيقة الأشياء
وجوهرها ٠٠ فالعلم الحديث يستغل الكهرباء في توليد الحرارة-
وتحريك الآلات وفي الانارة والعلاج ٠٠ ولكنه لا يستطيع أن
يفسر الكهرباء بقدر ما نجح في الاستفادة منها - أي أن العلم
عجز عن فهم كنه الكهرباء وكذلك الضوء وأشعة اكس وما الى
ذلك ٠٠ ولكنه استفاد من خصائصها ٠٠ لأن وظيفة العلم لا
تتعدى ذلك دون البحث في ماهية الأشياء وحقيقتها ٠٠ ومثل
هذا العلم لا يوصلك الى ما وراء الطبيعة الا أننا أثناء دراسة
الأشياء نلمس من الابداع والانتقان ما يجعلنا نجزم بأن وراء
ذلك خالقا مدبرا « اه .

فليقنع العلم بعد ذلك بما قسم له - ولا يتجاوز حده
فيهلك - ويهلك الناس !!

ذُكِرَ اللهُ رَبِّكُمْ :

من خلال ما قدمنا من دراسة ٠٠ يستطيع الانسان أن
يعرف ربه ، ويعبده - ويجد من الأنس في رحابه ما يملأ قلبه
بالأمن وحياته بالنور ٠٠ وأنه ليتلقى ما يفتقر اليه من معرفة

بربه عن كتاب كريم فيه تبيان كل شيء ٠٠ فيه تشرق صفاته
كما تشرق نجوم الليل فتنفذ أشعتها الى القلوب فتغمرها بالمودة
والايناس ٠٠ وتترادف هذه الصفات في الكتاب العزيز ٠٠ كما
تتوافد موجات الضياء - وكلما وعاما الانسان ازداد ايمانا
بربه - ويقينا في عدله وجزائه ٠٠ وتفانيا في حبه وعبادته .
وتسطع من بين هذه الصفات القدسية صفة الرحمة الحانية
التي لم تنشأ أن تدع البشر لعقولهم الضعيفة ٠٠ بل أرسلت لهم
رسلا يحملون مشاعل الهداية وينقذونهم من التخبط والحيرة
والاضطراب ٠٠ ويقودونهم بمنهج الوحي المبارك الى صراط
العزيز الحميد ٠٠ ولا نجد مجالا للرحمة الالهية تبسط فيه
جناحها الكبير كما نلمسه في هذا المجال بالذات ٠٠

ان أزمة الضمير الانساني على مر العصور والأحقاب لا
يتصور لها أن تنحل الا بهدايات السماء ٠٠ حيث تضع الانسان
كله في منطقة الضياء ٠٠ فلا يتخبط في الدياجير - وبذلك تنقذ
قلبه وروحه من وساوس الشك وهو اجس الشيطان - وتتثبت
خطاه على طريق الايمان وتربطه بربه مصيرا وقدرا وتكشف له
عن العالم الآخر الذي يلقي فيه جزاءه ان خيرا فخير وان شرا
فشر ٠٠ وبذلك يستريح العقل من الضرب في المتاهات الطامسة
والفلسفات الدارسة التي تزيد حيرة وضلالا .

وما أجلها من نعمة تنقف الانسانية أمامها عاجزة عن الشكر
وصدق الله العظيم اذ يقول:

[وما بكم من نعمة فمن الله (١)] .

وهكذا يحييا المؤمنون مع ربهم ومع ايمانهم في أنس
وجمال ٠٠ يستمدون من هذا النبع صفاء وسكينة وأمنا تعكس

(١) آية ٥٣ سورة النحل .

على وجوههم نضرة النعيم .. وويل لمن حرم هذا النبع فراح
يسنتقى من مانبع آسنة .. تعكس على وجوده الحيرة والضلال .

[من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا
مرشدا (١)] ..

وأجمل ما في الأديان السماوية - أنها تمنحنا المعرفة في
بساطة ويسر - لا تضللنا ولا ترهقنا ، وهي تمنحنا منها على
قدر ما تحتمل نفوسنا - وتهدينا هذه المعرفة موثقة بكل
الضمانات لا تحتمل ادعاء ، ولا تربكها الفروض العقلية ..
وهي معرفة واقعية لا ترتفع عن الحياة - ولا تتسامى عن
التطبيق .. وتعطي تكاملا رائعا عن الله والكون والانسان ..
وتظل هذه المعرفة المستمدة من القرآن غضة متجددة مع الحياة
كأنما نزلت من السماء لأول مرة ، وذلك كله عكس الكتب
الفلسفية - التي لا تخرج عن كونها طفح عقول بشرية أفسدها
ومازجها التعقيد وداخلها الفرض والاحتمال .. فأصبحت
شذرات متناثرة لا تكون مذهباً متكاملًا ولا تروى نفساً ظمأً!!
على أنها شطحات تائهة قلما تتماسك . وقلما تقبل التطبيق ..
أو ثلاثم فطرة الانسان .. وشتان بين معرفة يمنحها القدر ..
وبين أخرى يصنعها البشر !! .. وما شقوة الحياة الضالة في
هذا العصر الا ثمرة خبيثة لفلسفات العقول الانسانية .. لأن
هذه الانسانية تأبى أن تجد الأنس والاستقرار الا في هداية
ربها .

وقد غدت المعرفة الدينية أمراً ميسوراً .. نأخذها عن
القرآن ، بكل الثقة ، وبكل اليقين .. ونسنبطها من النظر
الفاحص في كون الله الرحيب . ونجد العلم الحديث في صبغته

(٢) آية ١٧ سورة الكهف .

النهائية يتوافق معها .. ويصدق بها .. ومن خلال (١) العمل آمن كثير من العباقرة عندما تجلت أمامهم القدرة والحكمة والاتساق والروعة والجلال .. وهم يمارسون مهمتهم العلمية

فهتفوا من الأعماق :

[فتبارك الله أحسن الخالقين] .

فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الفطرة الانسانية تندفع بطبيعتها الى الايمان .. وهو ايمان مهما يتطور في مراحل الا أنه واصل يوما ما الى الحق .

ولن يستغنى الانسان مطلقا عن هذا الايمان ..

يقول هارى أرسون في كتابه كيف تكون رجلا :

[انه ما من انسان يستطيع أن يكون غير مؤمن فقد ركب الانسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطرا الى الايمان بالله - أو بغيره - فمتى مات الايمان الايجابى فان السلبى يحل محله - يتعلق بالمستحيلات أكثر من الممكنات وبالآراء التى تجعل منا ضحايا للحياة لا سادة لها] .

وهكذا يعتقد الرجل كما نعتقد بأن الايمان ضرورة حياة ، ووجود ، مصير .. ينزع اليه الانسان بصدق الفطرة .. فيصل اليه .. ومتى آمن الانسان بربه أصبح انسانا سويا .. تنمو فيه كل الفضائل والقيم النبيلة .. لكن الفطرة قد تنحرف بتأثير الوراثة - أو بفعل البيئة - أو بجهود الشياطين .. فتؤمن بالأشخاص - بدل ايمانها بالله .. وهنا تصبح هذه الفطرة

(١) راجع كتابى « نفوس ودروس » جزء ثان تحت عنوان « رواد على درب الحقيقة - الله من خلال العمل »

المزيفة مزرعة خبيثة تنمو فيها الطفيليات والأعشاب الضارة .
وتصبح مباءة للسلبية والجهالة والعبودية بدلا من أن ترتفع
بالإيمان الطهور الى ذروة المثل وقمة الكمالات ومرتبة السيادة
على عناصر الحياة .

وهذا في الحقيقة تصوير سليم - نجده في قول الحق تبارك
وتعالى : [انما تعبدون من دون الله أوثاناوتخلقون افكا (١)] .

لكن لينين يقول بدل هذا : (ان الله في التاريخ والحياة
هو قبل كل شئ مجموعة أفكار تخدر حرب الطبقات وكل دفاع
عن فكرة الله مهما كان دقيقا ومهما طابت نيته أو كل تبرير
لهذه الفكرة هو تدبير للرجعية) .

ويقول ماركس : (ان تهديم الدين بصفته سعادة وهمية
للشعب انما هو من مقتضيات سعادته) .

وصرح هذا الشقى في موضع آخر بقوله : (لابد ليتحرر
الانسان ، من أن يكون ملحدا مؤمنا بحقيقة واحدة هي المادة
منكرا لكل ما عداها من كل ما له صلة بالغيب الذى لا يرى) .

بهذه الكلمات - تعبر الشيوعية عن حقدما على الدين -
ومحاربتها له - ومحقه من المجتمع .

واذا كنا قد استمعنا الى هذه الكلمات المسمومة ضد الدين
وضد الايمان بالله . فما أحرى أن نستمع الى الحقيقة الايمانية
تفرض نفسها على رواد الفضاء - الذين استقامت فطرتهم
« فحين غادر رواد الفضاء الأمريكيون الثلاثة الأرض الى القمر -
أبولو (١٠) - أى الرحلة التى سبقت النزول على القمر فداروا

(١) سورة العنكبوت من آية ١٧ .

حوله ومكثوا في الفضاء أياما ثم عادوا الى الأرض - توجه
أحدهم الى « بورمان » قائد الرحلة فسأله : لقد ذكر خروثوف
حين أطلق الروس أول جرم فضائى أنهم بحثوا هناك عن الله
فلم يجدوه فهل وجدته أنت؟!

أجاب بورمان : (لو وجدوا الله أو وجدناه لكف عن أن يكون
الها - الله موجود بشكل آخر - بالأدلة عليه - وبهذا المعنى فقد
وجدت الله هناك أكبر مما هو على الأرض) *

لقد اهتدى الرجل .. وسلك الى الهداية سبيلا واضحة .
وهكذا .. ان يكن قد ساءنا من الشيوعين عداءهم لله -
فانه قد أسعدنا ايمان رجل كبورمان !! وهم من قبل ومن بعد لن
يضروا الله شيئا - والله غنى عنهم وعن ايمانهم :

[بآيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى
الحميد (١)] *

على أنه ينبغي التنبيه الى حقيقة هامة .. هي أن المسافات
التي ارتفعها رواد الفضاء حتى الآن لا تعدو الخروج بهم الى
نطاق الغلاف الجوى الرقيق الذى يتواجد عدة مئات من
الكيلومترات من سطح الأرض « ومثل هذه الأبعاد (٢) لا قيمة
لها اذا ما قورنت بنصف قطر الكون المرئى الذى يقدر بنحو
خمسمائة سنة ضوئية » اه *

فلماذا يتساءل الملاحدة عن الله فى هذا النطاق - وهم
ينكرونه على ظهر الأرض *

(١) آية ١٥ سورة فاطر .

(٢) عن كتاب القرآن والعلم الدكتور جمال الدين الفندى ص ١١

انه لمن أسخف السخف أن يطيروا في فضاءه •• ويحلقوا في آفاقه •• ثم ينكروا وجوده •

ومابال هذا الغرور الخادع - وهم لم يرتفعوا شيئاً يذكر بالنسبة الى آفاق الله العليا •• فهل سيظل الحادهم معهم بعد أن يرتقوا في الأسباب •

ان كرم الله على الانسانية لغامر فياض •• يخلقها بقدرته ، ويخلق لها الكون بحكمته •• ويأذن لها - بل يستحثها أن ترتاد الآفاق باحثه عن الحقيقة •• لترجع بزاد مبارك من الايمان •• وذلك حيث يقول جل شأنه : [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (١)] •• فاذا بها ترجع بالكنود والنكران •• وماذا ننتظر من الفطر الضالة اللتوية الا أن تعود بهذا الكفر والوقاح حقاً : [ان الانسان لظلوم كفار (٢)]

يقول دالن في مؤلفه روسيا السوفيتية : [ان الناس على الحياة والصحة والأمل في العمر الطويل قد تحتل الكفران وتحتل فراغ القلب من الايمان •• أما والموت على الأبواب فلن يشجع على اقتحامه قلوب خربة - ولقد وجد أخيراً أن معظم سكان روسيا ظل مرتبطيناً بالايمان] وهو قول يؤكد عجز السلطة مهما تذرعت بالارهاب أن تخمد جذوة الايمان في القلوب •• لأن الناس تعرف جيداً أن الموت على الأبواب •• وانه لدرس متكرر ومشهد أمام أعينهم ••• فهل يقتحمون الموت الى رحلتهم الجديدة بغير زاد ؟ !

ويقول أنشتاين : [ان الشعور الدينى الذى يجده الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى - وصنع الحضارة - وان هذا الايمان عندى يؤلف معنى الله] •

(١) آية ٥٣ سورة فصلت •

(٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم •

ويؤكد هذا العالم - أن الانطلاق الحضارى ثمرة الايمان . .
باعتبار أن الكون وهو من خلق الله - هو مصدر العلم الشامل -
والعرفة الحقيقية لجميع البشر . . وهو ينبوع المتفجر
بالحكمة - الفياض بالمعرفة . . المؤكد لوجود الله . .

وهكذا يتمكن المؤمنون - اذا تحررت عقولهم - أن ينشئوا
أروع الحضارات . . وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم -
وخالق الأكوان . . وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى التى ألقاها
القدر على كراهلهم يوم أبرم معهم عقد الاستخلاف الأعظم فى
رحاب السموات العلا - بين كوكبة مضيئة من الملائكة الأطهار .

ومعرفتهم بالله - هى أعظم حافز لهم على الجهاد المخلص ،
ليظفروا برضوانه . . ويحفظوا بثوابه - ويحسبوا وهم
يمارسون جهادهم الشاق بالأمن والانس والاستقرار .

الانسان ومكزه من الكون :

يكفى للاحساس بقيمة الانسان - أن الله سبحانه خلقه
بيديه - ونفخ فيه روحه وأنه بهذه النفخة القدسية من روح
الله قد تحول الى كائن عظيم . . له قداسته ومنزلته تسجد له
الملائكة بأمر الله . . ويسخر له الكون كله . . « اذ قال ربك
للملائكة انى خالق بشرأ من طين فاذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعدوا له ساجدين (١) » .

وانظر معنى فى هذا التعبير الجامع « فاذا سويته » فما معنى
التسوية؟ وبم توحى؟

التسوية فى الحقيقة هى عملية التنسيق الرائع فى عالم

(١) آية ٧١ - سورة ص .

الانسان الظاهر والباطن • • المادى والمعنوى • • وهو تنسيق
يجعل من هذا الانسان نموذجا رفيعا للجمال بين سائر
المخلوقات •

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم (٢) » « وصوركم
فأحسن صوركم (١) »

تنسيق يجعل من أعضاء الانسان وملامحه هيئة كريمة
وصورة جميلة • • تحس من أول وهلة أنها صنعة حكيمة دقيقة
مهذبة مصقولة • • لا نشاز فيها ولا شذوذ • • ليست يد أطول
من يـد ولا قدم أكبر من قدم • • • قد تكاملت الأعضاء -
وتناسقت الملامح والقسمات والتأمت شتى العناصر لتجعل من
هذا المخلوق آية فى الروعة والبهاء !! [فتبارك الله أحسن
الخالقين] كل ذلك تنسيق العالم الظاهرى من الانسان • • وكم
يچار فن التجميل الحديث فى تنظيم الأسنان أو تحسين الأنف
أو غير ذلك من المطالب اليسيرة ؟ وكم ينفقون من الوقت فى
اتمامها ؟

فاذا جئنا الى العالم المادى الداخلى للانسان • • • من
معدة وأحشاء وأمعاء • • فان التسوية فى هذا العالم أدق وأصعب
ذلك أن تنسيقها يقتضى أن تعمل متعاونة متآخية • • من أجل
راحة الانسان وصحته العامة • • • فمن ذا الذى يجعل هذه
الأجهزة الهضمية والتنفسية • • والمعدية وغيرها تتناسق فى
العمل وتتآخى فى أداء الوظائف ؟ انه الله • • وليس أحد سواه • •
الذى خلق هذا الجهاز بيديه • • هو مهندسه الأعظم « والله
المثل الأعلى » يعرف ما يصلحه - وما يجعله قادراً على أداء
وظائفه •

(١) آية ٤ سورة التين •
(٢) آية ٣ سورة التغابن •

ان الأطباء ليتخصصون في مساحات ضئيلة من جسم الانسان . . هذا طبيب عين - وذاك طبيب أنف - أو حنجرة - أو قلب - أو عقل ، وهكذا يوزعون الجسم البشرى المتكامل على تخصصاتهم ، ومع ضيق الحيز الذى تخصص فيه كل واحد منهم . . فان معرفتهم قاصرة ، وعلمهم ضعيف . . ولاسيما الأمراض الباطنية - فانها تخضع الاجتهادات فردية كثيراً ماتودى بحياة المريض . . فسبحان من وسع بالعلم البصير ظاهر الانسان وباطنه سبحانه وتعالى !!

واذا جئنا بعد ذلك الى العالم المعنوى من قوى مختلفة - وغرائز متباينة - وقدرات متصارعة . . وغير ذلك من العواطف والأحاسيس . . فان تسويتها تعنى التنسيق بينها حتى لا تتصارع داخل كيان الانسان - وهى لو تصارعت لدمرت كيان الانسان . . فستركيب الشرائز ، والعواطف ، والقوى الانسانية انما تم بحكمة بالغة . . والتأليف بينها - تأليفاً يجعل منها وحدة متناسقة تتجه الى غاية واحدة هى تحقيق السلام النفسى للمرء . . كل ذلك أيضاً تسوية . .

فاذا تصورنا افرازات الغدد وما تحدثه من تأثير فى السلوك والأخلاق - فان عملية التسوية والتناسق تبدو مهمة خطيرة للغاية .

كل ذلك الفيض من التصورات تعطيه كلمة واحدة فى الآية [فاذا سويته] . . وهو المشار اليه فى آية أخرى بقوله سبحانه [ونفس وما سواها] . . .

الانسان اذن جهاز معقد - مركب - يحوى فى داخله عوالم شتى . . ويخفى أسراراً عجيبة . . هو مجهول مهما يتقدم الطب ويتطور العلم - ماخفى من أمره أكثر مما ظهر . . أشبه

شيء بغاية كثيفة ظلماء لا يستطيع أحد أن يفتحها . . لأنها
تعج بالخوافى والأسرار . .

ولم يزل لغز الحياة حتى اليوم سرا عصيا أمام
العلم الحديث ولو تدبر الانسان كيف خلق ؟ ثم فكر في عدد
الأجهزة التي تعمل فيه ظاهرة وخافية في تناسق وانسجام
لهاله الأمر وغشيه ذهول كبير !! انه كنز خفي لا يبوح بسرره
لغير مولاه . . ولا يفتحه الا لخالقه . . وعندما ينفتح هذا
الكنز فسوف يخرج الأعاجيب . . ويصنع المعجزات ولن
ينفتح الا بمفتاح القدره .

وعندما تقف وقفة قصيرة عند قوله سبحانه [خالق بشراً]
ونستوحى كلمة « خالق » نراها تبوح بأسرار دقيقة . . ذلك
لأننا سوف نسأل : كيف خلق ؟ ومم خلق ؟ وكيف تطور ؟ وهي
أسئلة لم يستطيع العلم الاجابة عليها رغم تطور المعرفة وتقدم
الدراسات الانسانية . .

ولقد أراحنا الله سبحانه - باعطاء المعرفة التي تلائم
عقولنا عن أصل الخلقة فقال : [خلق من ماء دافق] . . وهنا
يقف العلم بمجهره وأدواته ليبحث في سر النطفة . . فيرى
نفسه أمام عالم يعج بالكائنات « الميكروسكوبية » وهي
الحيوانات المنوية . . ملايين من هذه الكائنات الحية المتحركة
الحوامة . . الساعية في الدفعة الواحدة . . . ويمضي الطب في
بحوثه ليعرف كيف يمتزج حيوان منوى ببويضة الأنثى في
الرحم . . وكيف يتم الجذب . . أهو جذب كيميائي أم كهربى ؟

ياسبحان الله . . حيوان واحد من بين الملايين السابحة في
النطفة ينجذب الى بويضة المرأة فيلج رأس الحيوان في
البويضة تاركاً الذنب . . ومن هذا الامتزاج امنزاج نواة الحيوان

المنوى مع نواة البويضة يتم التخليق . . وتنشأ صفات الوراثة في تلك البويضة الملقحة . . وتستقر هذه البويضة في [قرار مكين] لتأخذ أطوارها فتكون أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً . . ثم يكتسى العظم باللحم . . .

يتم هذا التخليق في الرحم - في حجرة مجهزة تجهيزاً ربانياً . . لها خصائص مخاطية - وسوائل يتغذى منها الجنين . . ولها تكييف حرارى خاص يلائم حياة الجنين فلا تزيد درجة الحرارة عن ٣٧٪ مهما اختلفت الأجواء الخارجية . .

وقد أخبرنا سبحانه أن مقر الجنين هو القرار المكين - ووضح ذلك بقوله : [هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء (١)] وبقوله : [يخلقكم فى بطون أمهاتكم (٢)] .

واذن فهذا التحديد فى مستقر الجنين - يجعلنا نقطع بفشل التخليق فى أنبوبة اختبار . . لأنها ليست المكان الملائم للجنين . . ولا يمكن أن تخلق بيئة صناعية !!

كل هذه الخواطر والمعانى تعطىها كلمة « انى خالق » . .

ولقد أعطانا القرآن الكريم - معانى واضحة - فى هذا الموضوع . . كانت ومازالت وستظل مصدر العطاء للطب مهما يتفرع ، ويتطور . .

ولقد وقف بعض الملاحدة موقف (٣) المعارضة من هذا التدرج الذى أثبتته القرآن . . مثل دارون ومن خدع به . . . ولكن الأدلة القاطعة حاصرتهم فانبهروا وانقطعوا .

(١) آية ٦ سورة آل عمران .

(٢) آية ٦ سورة الزمر .

(٣) سبأتى حيث مفصل مذهب دارون - وسنرد عليه رداً مقتنعاً .

أخبرنا القرآن عن النشأة الأولى . . . وكيف بدى خلق آدم
من طين . . . وكيف تدرج حتى صار خلقاً آخر . . . حين نفخ
الله فيه من روحه . . .

وهذا القدر من المعرفة - يرضى عقولنا . . . بل انها لا تتسع
الا لهذه الجرعة . . .

نفهم منه بأن الانسان مزدوج الفطرة . . . قد ركب من
الطين - ومن روح الله . . . وذلك يجعله دائماً في جهاد واصب
ليتسامى الى العلا . . . ولا يهبط الى الطين . . . وذلك يتم
بارادته . . . التي لا بد أن يستعملها في هذا الصراع . . . لأنها في
الحقيقة أساس انتصاره على الشهوات ولعل ازدواج فطرة
الانسان - وتركيبها من شهوات النفس - وأشواق الروح . . .
هي التي رشحته لمقام الاستخلاف في الأرض لأنه بهذا
الجهاد المستمر يصبح مناضلاً - قوى الإرادة ثقيل العبء . . .
جسيم النبعيه . . . محتشداً دائماً وأبداً ضد شهوات نفسه
الأمانة يعلن عليها الحرب لينتصر عليها فيصبح أهلاً لتحمل
الأمانة - وأهلاً للاستخلاف في الأرض . . .

لقد استحق الانسان التبجيل لأن الله نفخ فيه من روحه -
فأضحى أهلاً لتكريم ربه [ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في
البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن
خلقناهم تفضيلاً (١)] وأصبح كل ما في الكون مسخراً له [الله
الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره (٢)] . . .

[والأنعام خلقناها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٣)]

.....
(١) آية ٧٠ سورة الاسراء .

(٢) آية ١٢ سورة الجاثية .

(٣) آية النحل .

[هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً (١)] [والأرض وضعها
للأنام (٢)] * هذا التمكين الهائل للإنسان معناه أنه سيد
الأرض * * كل ما فيها سخر له - بقدره الله تعالى - وقد أوتى
كذلك * وهبة العلم بشئونها * والاستمتاع بطيباتها وليست
الأرض وحدها بكل ما فيها من عناصر - ولكن السموات أيضاً
مهيأة لمساعدة الإنسان ليؤدى رسالة الاستخلاف - [هو الذى
خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن
سبع سموات وهو بكل شئ عليم (٣)] * * *

ومع هذا التمكين الهائل للإنسان فإنه ضعيف تغلبه
شهوته حيناً ويقعد به هواه - لهذا كان دائماً فى حاجة الى
العون الالهى - والمنهج الالهى - مع بذل الجهد فى مقاومة
الشهوة - وكبح جماح الغريزة * * [قد أفلح من زكاها وقد
خاب من دساها (٤)] *

فبعون الله وجهد الإنسان « قد أفلح من زكاها » وبعون
الله سبحانه [فآلهمها فجورها وتقواها] *

ففينا نزعاً قدرية تؤثر فى سلوكنا وأعمالنا - لكنها تشحذ
الارادة ولا تعطلها * * لأن الله سبحانه لا يأخذ بيد الكسالى ولا
الحالمين * * ولكنه يوفق من بذل الجهد وفوض أمره لربه [وأما
من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى
المساوى (٥)] *

مالهم به من علم :

-
- (١) آية ٢٩ البقرة
 - (٢) آية ١٠ سورة الرحمن *
 - (٣) آية ٢٩ سورة البقرة
 - (٤) آية ٩ ، ١٠ سورة الشمس *
 - (٥) آية ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات *

عندما نستقي المعرفة عن كتاب الله - الذي خلق فسوى
وقدر فهدي * * فاننا نحس بالراحة والطمأنينة تنسرى في
كياننا * * لأنها معرفة صحيحة - وصادقة * * والقدر الذي
منحه القرآن من هذه المعرفة فما يتصل بخلق الانسان - وتطور
الجنين في بطن أمه - قدر صالح * * ويمكن للعلم - الذي هو
أيضا منحة من الله - أن يبحث ليصل الى مزيد من الأسرار
التي تؤكد عظمة القدرة الالهية * *

عندما يتجاوز العلم قدره ؟ !:

من حق العلم أن يدرس ، وأن يصل الى نتائج تريح
الانسانية * * ولكن ليس من حق العلم أن يتجاوز مجاله فان
له منطقة معينة اذا تجاوزها أصبح هو الجهل بعينه - العلم
يقتصر في الدراسة على خصائص الأشياء والاستفادة منها -
والانتفاع بها - لكنه لا يتخطى ذلك الى جوهر الأشياء
وحقائقها - وانه كما أسلفنا - يوضح خصائص الكهرباء -
وكيفية الانتفاع بها * ولكنه لا يتجاوز ذلك الى حقيقتها
وجوهرها - وكذلك الضوء * *

فاذا بحث الطب عن خصائص النطفة * * وحالات التطور * *
بعد أن ذكرهما القرآن ليجلو المزيد من الأسرار اتى تدعم
الايمان في نفوس الناس * * فهذا مجاله !

أما اذا حاول أن يتعرف على أصل الحيوان المنوى * *
وجوهره * * ومتى خلق ؟ وكيف خلق ؟ وما الطين الذي خلق منه
آدم ؟ * * فانه سيضرب في المتاهات الضالة * * وليس هذا
مجاله !! ولكن الجهل بالله - والجحد لكتبه المنزلة يجعل بعض
الملاحدة يخرجون على أصول المعرفة - ويتجاوزون حدهم في
البحث * * فيأتون بعجائب ما أنزل الله بها من سلطان *

دارون ومذهبه :

ففى القرن التاسع عشر ظهرت النظرية المألدة « لدارون » وهى المسماة « نظرية النشوء والارتقاء » - ولقد بسط هـده النظرية فى كتابه « أصل الأنواع » الذى ألفه سنة ١٨٥٩ م والانسان فى نظر « دارون » لم تخلقه القدرة القادرة - ولم تؤثر فى تطوره من نطفة الى علقة الى مضغة كما أخبر القرآن الكرىم - كلا : وانما تم الخلق والتطور بطريقتة ميكانيكية •• لم تفتقر الى مؤثر خارجى - وزاد على ذلك فاعتبر الانسار مترقيا عما دونه من الحيوان لم يزل يجتاز مرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى اجتازت ألوقا من السنين - لقد تطور من « أميبا » الى حيوانات أخذت تتدرج حتى وصلت الى أرقى سلالة حيوانية وهى القرد •• ثم من قرد الى انسان حتى بلغ كماله النوعى •• والعجيب أن هذه النظرية الخرقاء - قد لاقت فى زمنها رواجاً - فكانت حديث الناس فى المجتمعات والمعاهد والمدارس •• وكأنما كان العالم الأوروبى كله ظامئاً الى الالحاد الذى يخلصه من سيطرة الكنيسة - فألقى بنفسه بين أحضان الكفر •

وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً فى المسائل البشرية وما يتعلق بها •• قلبت تيار الفكر فى حينها وصرفت نظر الانسار عن الاستعلام والاستهداء فى مسائله ووسائله وحوالته عن السماء •• اذ لا دخل لها فى خلقه ولا فى تطوره •• وانما تم الخلق بطريقتة ميكانيكية •

واهتم الناس بطريقتة تحول الحيوان الى انسان •• وبالبحث عن الحلقة المفقودة بين القرد والانسان •• ان كانت هناك حلقة •• وأين هى هذه الحلقة ؟

وأصبح الانسار - وفقاً لهذه النظرية - يعتقد أن الكون

سائر بغير عناية الهية * * وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية
- وأن لا علة في الكون سوى السنن الطبيعية * * وأن الكائنات
ترتقى من مراتب الحياة الأولى الى مراتبها العليا ميكانيكيا
وآليا * وبالطبيعة ونتيجة لنواميس طبيعية (تنازع البقاء -
والبقاء للأصلح والانتخاب البيعى * الذى هو سائر في الكون)
والذى سلك به الانسان رحلته النوعية حتى توصل الى انسان
ناطق ذى احساس وشعور *

ولا شك أن هذه النظرية تنقض الدين - والعقل - فى
المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية * * بل ان هذه
النظرية تعتبر دينا جديدا يهدم الدين السليم من الأساس
ويحل محله * * انها المادية المحددة فى أبشع صورها * *
الانسان مخلوق بالطبيعة * * متدرج بالطبيعة الكون كله سائر
بالطبيعة * * لا مجال لوجود اله * * الأديان خرافة * العبادات
لا قيمة لها * * وهكذا من تلك السخافات التى لا تعتبر جديدة
فكم تعرض الدين لأمثالها *

أثر نظرية دارون فى المجتمع :

كان سيئا للغاية فلقد اضطرب لها رجال الدين المسيحي
وحسبوا لها كل حساب وخافوا منها على مصير الدين فى أوربا *
يقول الأستاذ « جود » (١) رئيس الفلسفة وعلم النفس فى
جامعة لندن فى أحد كتبه : « يصعب علينا الآن أن ندرك تلك
الدهشة والاستغراب الذى فاجأ أجدادنا - عندما ظهر كتاب
أصل الأنواع لدارون - وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت
أو يظن أنه أثبت ارتقاء الحيوان على هذا الكوكب (الأرض)
لم يزل متواصلا مستمرا من ظهور الأميبا - وفرخ البحر - فى
أشكاله الأولى الى أشكاله النهائية العليا - وهى أرق أشكال

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للبدوى ص ١٩٢

الحياة وأعلاها فلم يزل عمل الارتقاء هذا الى طورنا متواصلًا
غير منقطع » .

لقد كان الرد على دارون - بالمنطق والدليل - أمرا ممكنا . .
ولكن يبدو أن أوربا كما أسلفت كانت تواقفة للتخلص من دين
الكنيسة !! كان يمكن أن يوجه لدارون وأتباعه هذا السؤال
الواضح . . ما الميكانيكية التي تخلق ؟ وما الطبيعة التي تؤثر؟
أهما عدم أم وجود ؟ من أوجدهما ؟ ومن أوجد الموجد ؟ . . ثم ما
هذه الرحلة النوعية التي ما زلنا نقطع شوطها؟ أتصعد في الرحلة
النوعية الى أرقى مما نحن عليها ؟ ومنى ؟ وكيف تجاوزنا
« الشمبازى » فأصبحنا أناسي ؟ . . كان من الممكن أن نرد من
زوايا أخرى وأخرى . . وليس ذلك عسيرا . . ولكنه سهل للغاية
ولكن يبدو أن اقبال الجمهور والدهماء على هذه النظرية رغم ما
فيها من ضعف ونقص من الوجهة المنطقية والعلمية - جعل
الكنيسة تركع على قدميها وتستسلم طالبة الغفران وممن ؟
من دارون وأتباعه !! وبدلا من أن نرد على النظرية الملحدة التي
تلغى وجودها انطلقت مع التيزاز الشعبى لأنه كان أعنى من
مقاومتها فكان استسلام الكنيسة بلاء أكبر - جعل النظرية
تسود وتسيطر - وكان الناس يعتقدون أن تخلصهم من
الكنيسة في ذاته كسب رائع ولهذا أمعنوا في التحيز لدارون . .
ظروف موضوعية . . كانت مهياة أدت الى رواج هذا الكذب
الصراح ومن النفاق المؤلم حقا - أن نرى الكنيسة الانجليزية
بدلا من أن تحارب النظرية وتفندها علميا - نراها تسف في
تملق دارون - وتكافئه بعد موته فتأمر بدفنه في محل دفن
الرجال الدينيين (ويست منسترابي) . .

ولم يكن تأثير هذه النظرية في المجال الدينى فحسب ولكنه
كان (١) في الأخلاق وفي السياسة والحضارة والأدب ظهر أولا

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف .

في نزعات شاذة خبيثة هي نزعات الرجوع الى الفطرة عاريا حرا طليقا من كل قيد وفي تعيين المثل الكامل للانسان - وفي جميع الأعمال والأخلاق اذ أصبحت لا تصدر الا على اعتبار ان الانسان قرد - وفي فساد العلاقات الجنسية - والحياة المنزلية - التي يعبر عنها مستر شبرد أحد علماء الاجتماع الانجليز بقوله : لقد ظهر في انجلترا جيل من الناس كجهل الحياة المنزلية جهلا باننا ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم » .

موجات من الاحاد :

لم يكن (دارون) وحده مبتكر الاحاد .. ولكن الاحاد سلسلة طويلة ممتدة .. لقد سبقه كثير - وجاء معه كثير .. وجاء بعده كثير !!

وقانون الحياة الخالد أن يتصارع الحق مع الباطل - وأن يصطدم الايمان بالكفر - وأن يتعارك الخير مع الشر في جولات متتابة .. وأحقاب متوالية .. لا يلبث الباطل بعدها أن يخسر صريعا مجدلا تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : [بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (١)] وقوله سبحانه: [فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (٢)] هذا هو القانون الالهي .. لذا فان مصير الاحاد مهدد .. مهما يثر من ضجة - ويحدث من صخب - ويجند من شياطين .. انهم كرجوة منتفشة - لا تلبث أن تنفث وتذهب !!

ولقد جاء بعد دارون بقليل (١٨١٨ - ١٨٨٣) م كارل ماركس ورفيقه أنجلز كما مر .. ليجعلا من المادة قانونا

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء .
(٢) آية ١٧ سورة الرعد .

للحياة والأحياء - ولينكرا وجود الخالق الأعظم وليفسرا التاريخ
تفسيرا ماديا .. وليجعلوا من الانسان شيئا تافها تصنع له
الآلة أخلاقه وقيمه وأن الحضارة - والحياة كلها تتبع النظام
الاقتصادي .. وأن الدين فكر رجعي يجب نبذه - وأن العلاقات
الاجتماعية والجنسية حرة .. وهكذا لم يقم هذان الرجلان
وزنا لكرامة الانسان ولا لعلاقته بربه .. وجمدا جميع النواحي
البشرية الأخرى .. غير عامل الاقتصاد .. وأكدوا أن الحروب
والثورات في التاريخ ليست الا أثرا لبطن من بطن في سبيل
النظام الاقتصادي والانتاج الصناعي ..

يا حسرة على العباد !!

فهذا الانسان الذي خلقه ربه بيديه - ونفخ فيه من
روحه - ووضع تاج الكرامة على مفرقه وأطلق يده في الأرض
يبنيها بالعلم - ويملاها بالنشاط والسعي - ويقيم فيها
صروح الحضارات .. هذا الانسان الرفيع القدر العظيم المنزلة
يأبى شياطين الاحاد الا أن يقطعوه عن ربه - ويجعلوا منه
حيوانا يعيش لبطنه - تستعبده الآلة .. وينشئوا له الدساتير
التي تضلل سعيه في الحياة .. وتأبى الطاقة الحيوية لهذا
الانسان أن تخضع لغير منهج الله ..

الكنيسة تساعد على الاحاد :

ان أزمة الضمير الانساني - وشقوة الحياة - وضلال
الفكر قد بلغت حدا كبيرا - عندما واجه الناس تلك المذاهب .
ولم تكن الكنيسة الأوروبية يومذاك قادرة على دحض التشبهات
وانارة السبيل واطفاء الوجدان بنور المعرفة .. فقد تورطت
في محاربة العلم - واضطهاد الفكر - وتقتبل الأحرار ظنا منها
أن ذلك يزيد في مكانتها !!

وياليتها كانت تنبنى معرفة صحيحة - أو علما هاديا -
وانما احتكرت معرفة سقيمة وابتكرت وسائل ما أنزل الله بها
من سلطان * ولهذا فان المجتمع الأوربي كان قد ضاق ذرعا بها
وكان متطلعا الى معرفة أنقى وعلم أنفع * فلم يكذب يقنع على
نظرية دارون وأشباهها حتى اعتنقها وصدق لها * * لقد كانت
الكنيسة بموقفها الجامد عاملا مساعدا على الالحاد * * وليتها
اقتصرت على هذا وانما جارت التيار الشعبي فصاغت الالحاد
وكرمت « دارون » على النحو الذى وضحناء - ولقد صمم
الأوربيون من جراء ذلك أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن
أى دين * * لأن الدين - كما صورته الكنيسة - عدو العلم
والحرية والابتكار تلك كانت مأساة الدين فى ذلك الوقت ولكن
أى دين ؟ !

انه دين الكنيسة - وليس الدين الصحيح فى صيغته
الأصيلة - ونقائه السماوى ! ! فلم يكن الالحاد والكنود يوماً
ما - فى مواجهة دين صحيح * * وانما فى مواجهة دين لعبت به
عقول القسس - وحرقت كتبه المقدسة - احتكرت معارفه -
واصطنعت الكهانة واتجرت بصكوك الغفران * فهل هذه هى
المسيحية ؟ !

ولقد انطلق الفكر الأوربي مزهوا تياها بما أحرز من
انتصار على الكنيسة - وظن أنه يستطيع أن يبني حضارته
بعيدا عن دين صحيح * * يسبغ عليها الكرامة - ويحفظها من
الانزلاق ويعصمها من الهبوط والاسفاف * * لأن الالحاد هو
الأب الطبيعى لكل المساوىء والآفات الحضارية !! * *
ورغم ذلك فقد انطلقت الحضارة الغربية من نقطة الالحاد
لا تلوى على شيء * * ووصلت بهذا الى قمة التفوق المادى *

وبقى أنها مهما بلغت فى هذا السبق الأرعن لا يمكن أن
تستمر * لأنها ضد طبيعة الانسان وفطرته * * فاذا كانت قد

أحرزت السبق في مضمار المادة فأين ومضات الروح ؟ ! وهل يستغنى الانسان بالمادة عن الروح ؟ هل تستطيع المادة (غربية أم شرقية) أن تصنع له أخلاقه - وتملاً قلبه بالثقة - وتؤكد صلته بربه ؟ ! وهل تستطيع أن تريحه من هموم قلبه وشقاء روحه وقلق وجدانه وجذب عاطفته ؟ !

هل تنشىء له السعادة التي يفتقدتها فلا يجدها ؟

هل تستطيع المادة - أن تبني كيانه من الداخل - وهل تقدم له المنهج الذي يساعده على الازدهار ؟ وهل يستطيع أن يحيى الانسان في ظل المادة بعقل سليم وأعصاب سليمة ونفس مبرأة عن العقد والأمراض . وهل تعصمه المادة من الانحدار الحيوانى الرهيب الذى تورط فيه فى الشرق والغرب فأصبح حيوانا ينزوي ويعربد ؟ ! لعمرى : ان ظواهر الشذوذ والرفض والتمزق النفسى التى تجتاح العالم الآن انما هى ثمرة خبيثة لتلك الفلسفات المادية . . لأن الناس قد ذهبوا فى ظلها عن مبررات وجودهم - فلم يعودوا يحسون بالأمن أو السكينة . . بل بالخوف والضياع !!

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قد نجح فى ايجاد عالم صناعى مريح فيه كل مايفتقر اليه الانسان المتحضر من الكماليات الا أن القوم هناك فى غاية القلق والتوتر . . تغمرهم المشكلات الحادة - وتواجههم المتاعب القاسية - وكأنما الانسان فى ظل هذه الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية وتطلع الى لون آخر من الحضارة تغذى عواطفه وتملاً قلبه بالأمن والسكينة .

يقول بعض المفكرين (١) المسلمون المعاصرين : « كنت فى

(١) هو الأستاذ المرحوم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه من روائع

حضارتنا ص ١٧

فرنسا وقد أتيح لى أن أتحدث الى شبابها المسلم - وقد رأبت يوماً رجلاً مسلماً يتحدث الى لفييف من الشباب الفرنسى المسلم عن عظمة الاسلام ومسايرته للتطور والتقدم واسترسل فى ذلك كأنه يتحدث فى بلد عربى يتوق الى القوة والمجد فأخذ يؤكد أن الاسلام يدعو الى القوة وصنع الدبابات والطائرات الخ .

فقال أحد هؤلاء الشباب : ياأخى نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتنا وأفقدتنا انسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحييت شهواتنا بماديتها - فحدثنا عن روحانية الاسلام الذى وجدنا فيه كرامتنا الانسانية واطمئناننا الروحى !! « .

هكذا نطالع فى كلمة الشاب المسلم الفرنسى سوءات الحضارة المادية التى فجرت فى نفوسهم كل ينابيع الألم والحيرة والاضطراب والضياع ، وأنهم قد سئموها ، وسئموا معها جنون المادة وليس غير الايمان بالله - يعصم من هذا القنوط - ويرفع من هذا التبذل - ويعيد على الانسان كرامته السلبية فى ظل حضارة القطيع وشريعة الغاب .

وعندما يتقدم الاسلام بمنهجه المتكامل - لبناء الانسان - فانه يعيد الاتزان الى الحياة التى أوشكت أن تنتهى وتسقط فوق رؤس أصحابها . . انه يتعامل مع الانسان على أنه مادة وروح كما خلقه ربه ، ويلائم بين هذين العنصرين فى كيانه ملائمة دقيقة لا يترك أحدهما يطغى على الآخر ، فلا يسمح للمادية أن تعربد - ولا للروح أن تقود الى الرهينة ، وانما يقدم لهما معاً من الغذاء ما يضمن تناسقهما لقيودا خطا الانسان على درب الحياة فى اتزان واعتدال !!

واقع مؤسف :

ومن خلال العرض السابق - نتبين الواقع المؤلم المرير الذي لعبثه العالم شرقية وغربية في جو الحضارة المادية الصناعية ، مهما بدا مزدهراً نامياً !! ومهما وصل في القوة الى أقصى غاياتها ، لأن هذه الظواهر السطحية . . سبيل الانتحار - وطريق الفناء . فلا ينبغي أن نخدعنا عن جوهر الحقيقة .

ان الحضارة المادية - مهما يبلغ حجمها - أشبه شيء بجسم ضخم وهيكلي فخم . . ولكنه يعاني أمراضاً باطنية لا تبدو أمام النظرة العجلى - وماذا تفيد بدانة الانسان اذا كان قلبه مصاباً بالأوجاع والأمراض - وروحه ظامئة الى الري - وواقعه شرور وآلام؟! نقول ذلك لمن يخدعهم المظهر عن الجوهر - وننصح لكل واحد من هؤلاء بأن يردد قول المتنبي :

..

أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والحق أن الحضارة المادية جسم منورم يبدو ضخماً وان كان في واقع الأمر مصاباً بشتى الأمراض والعلل - ان هذه الحضارة قد أفلست فعلاً في خلق مجتمع أفضل - تظله السعادة - ويسوده الاستقرار - وتصان فيه كرامة الانسان .

وما نحب أن نمضى مع تيار الاباحية الذي يجتاح الفتيان والفتيات في جو هذه الحضارات الموبوءة - فذاك شيء يطول ، وما تزال الصحف ووسائل الاعلام تنقل اليينا الكثير عن فلسفاتهم الشاذة - وحياتهم الحيوانية - ووجودهم الضائع - وجنوحهم الى الخمر والمخدر والهوسنة - واحتجاجهم على السلطة .

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التي ترسلها هذه الحضارة لفاتنا الاستقصاء .. وتكفي وسائل الدمار والتخريب - وكيف تستعمل في ترويع الأمن ، والاعتداء على كرامة الشعوب . يكفي ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور و صلف ، فقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم ، وضربت حركات الايمان في كل مكان !!

وتكفي جرائم الصهيونية ، وما تصنعه من أساليب لتحقيق آمالها العنصرية .. وما تجده من أمريكا من عون مادي وأدبي ضد الاسلام ، وضد الشعوب الحرة الضعيفة .

لقد أفلست هذه الحضارات تحت مطارق الفطرة السليمة ، التي تأبى أن تزيف خصائصها ، وتمتحن كرامتها في ظل حضارة كافرة فاجرة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ..

والانسان في الوسط الأوربي قلق أشد القلق ، حائر ، مضطرب ، خائف ، ظامئ الروح .. مستهلك في الانتاج ، مستعبد للآلة ، منقطع الأصرة عن السماء .. وهو في المجتمع الشيوعي أشد قلقا وعبودية فهل هذه حياة ؟!

ان حياة التدين ، والايمان مع البؤس والكدر والشظف لأشرف وأجمل من تلك الحياة المادية .. حسب الفقير البائس . أنه مع ايمانه ومع ربه ومع دينه .. ومع كرامته ، ومع الأمل في يوم لا ظلم فيه ولا بخس ولا ضياع .. كل ذلك يعكس على وجوده طمأنينة الروح ، وسكن القلب ، وهدوء المشاعر .. وحياة كهذه لا قلق فيها - ولا شرود .. وكذب دارون ، وكذب ماركس ، وكذب الملحدون جميعا ، وفي زعمهم أن الانسان صناعة ميكانيكية وأن الكون كذلك ، والحياة هكذا وما الميكانيكية هذه ؟ أليست حركة مؤثرة ؟ من أوجد هذه الحركة ودفعها

لتعمل ؟ من أوجد الأميبا ؟ ومن طورها ؟ حتى صارت بشراً
سويا ؟! نقول لهم هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ثم لماذا
يساء فهم الانسان الى هذا الحد ! فيزعم بأنه قرد في الأصل
ارتقى حتى صار انسانا ! وتهدر خصائصه ، وتمتهن كرامته •
أكل ما هنالك هو الثورة على الكنيسة واصطناع الالحاد بالحق
وبالباطل ! للافلات من رقها !

لكن ما ذنب الاسلام ؟

وهو يجعل العلم جزءاً من عقيدته • • ويضفي على العلماء
هالة تكريم • • وينظمهم في سلك واحد مع الملائكة ، ومع الله
خالق القوى والقدر [شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو
العلم قائماً بالقسط (١)] •

ما ذنب الاسلام يساء فهمه - وتجحد سماته - وتحارب
شريعته الى هذا الحد !؟

الم يفتح الطريق أمام العقل البشرى ليبحت ويرتاد
ويصعد في الجو ويجوب الآفاق ؟

الم يخاطب العقل البشرى في نحو خمسمائة وثلاث
وثمانين آية يحركه ويستثيره ليكتشف ويعمل ؟ ما ذنب
القرآن الكريم • • وهو كتاب الحياة الخالد - ومعجزة الابداع
الحضارى ؟

لماذا تنعكس سوءات الكنيسة الغربية على الاسلام ؟
فيقال : ان الأديان تحارب العلم • • في حين أن العلم لم يجد
متنفسه الطلق الا في ظل الاسلام • • والا في عقول أبنائه • •

(١) آية ١٨ سورة آل عمران •

وفي رحاب حياتهم المباركة •• حيث بنوا معه وبه حضارة من
أروع ما عرفت الدنيا من حضارات •• نهل منها الغرب الظامىء
فحقق الشكل ونسى المضمون •

الحق أن الاسلام برىء من هذه التهمة - وأنه لا ضمان
لاستقرار العيش الا أن يمكن له في قيادة الحياة •• لأنه روحها ••
وحركتها - وانطلاقها المباركة على عين الله •

وإذا كان الفصل بين الدين والدولة قد ساد في عصور الجهل
والانحطاط •• فإنه انعكاس سببىء لحضارة الغرب المادية التى
لم تجد في دين الكنيسة الغربية ما يقود الحياة أو يوجه
مسيرتها •• لكن الاسلام قاد الحياة فعلا - وعاشت البشرية
تجربته الحضارية - وسعدت بأجمل حياة وبأروع حضارة
عرفها التاريخ •

من حق الاسلام على المنصفين من مفكرى الشرق والغرب
أن ينظروا في كتابه •• وأن يتعرفوا الى نظامه - ليتأكدوا أنه
نظام حياة - ومنهج عبادة - وأسلوب توجيه وقيادة •• وما
من آية في كتاب الله العزيز الا وهى تطالب بتطبيقها في الحياة •

ومن الاجحاف الظالم للناس - كل الناس - أن يحال بين
القرآن وبين قيادة الحياة لأنهم لن يجدوا دستوراً يحترم
كرامتهم - ويوقظ ضمائرهم - ويحيى موات قلوبهم كما يجدون
ذلك فيه •• وكفى ما أصاب الحياة من ضلال وشرود •

ويأبى الانسان - وهو صنعة الله المعجزة - أن ينقاد لغير
القرآن أو أن تخضع طاقته الحيوية الا لتوجيهه وهداه •

ان هذا الانسان - رغم ما لحق به من تحقير وامتهان - في
ظل الحضارات المادية •• هو قطب الوجود كله كما أراد له

ربه ، هو الذى يحرك الآلة ويصنعها ويسيطر عليها - ويستغلها
لصالحه - ويستثمر الوجود كله باذن ربه - ولا يتصور بحال
أن يصنع الآلة ثم يعيدها - أو أن ينشئ الحضارة ثم
يخضع لها !!

انه صنعة الله العلى القدير - لا يخضع الا لجلال وجهه -
ولا يجد أنس روحه الا فى عبادته والانقياد لأمره - والاستسلام
لشرعه - والعمل بكتابه .. فهو عبد لربه فقط - ولكنه بعد
ذلك سيد لكل عناصر الحياة .. وعبوديته لله .. هى مصدر
التحرر الهائل من كل ما سواه وبهذا يمضى مرفوع الجبهة عزيز
النفس صامد الروح .

ومحال أن يجد السعادة الا فى منهج ربه .. الذى خلقه
فسواه واطلع على سره ونجواه .

ومن ثم فهو يرفض كل منهج يقوم على اعتساف فطرته ،
وانتهاك حرمة ، وابتذال كرامته - يريد الانسان - حضارة
ربانية تزدهر فى رحاب الله خالق الانسان ومنزل القرآن وبارئ
الكون كله .. يريد أن يستقى من نبع الله الظهور وورده العذب
لتزدهر روحه - ويزداد طموحه وتشتعل مواهبه .. وتزكو
الحياة بجهاده النبيل .

ومن ذا الذى يقدر على اشعال مواهب الانسان ، وانعاش
عواطفه الا خالقه ومولاه ؟

ان جهلنا مطبق كما مر بخصائص أنفسنا ، وأرواحنا ،
وطبيعة حياتنا - وعمل الأجهزة المختلفة فينا .. واذا كان
كذلك فكيف نضع لأنفسنا منهجا فى الحياة ؟

ان الجهل لا ينتج الا الجهل - والضلال لا ينشئ الا الضلال

فكيف تطمئن البشرية كأيها الى قوانين من وضع البشر - والى
دساتير من صنع عقولهم الضعيفة .

ان الحضارات المادية في الشرق والغرب قامت على أساس
مناهج بشرية تدعى أنها تستطيع أن تلبى حاجات الانسان ..
وتصنع حياته .. وكانت نقيجتها ما تحدثنا عنه من شقاء
وضلال .. لأنها حضارات قامت على جهل مطبق بطبيعتها -
وبحجمنا - وبعواطفنا وبخصائصنا .. لهذا يحس الذين
يعيشون في ظلها بأنهم غرباء ..

وصدق الله العظيم اذ يقول : [وأن هذا صراطي مستقيماً
فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (١)] . وعندما
نضع لأنفسنا منهاجاً - فلن يكون كافياً يوماً من الايام ولا
مستوعباً لآمالنا - ولا مطرداً مع ما تتأني به الحياة .. وهذا هو
ما حدث فعلاً - مما اضطر معه الماديون - أن يدخلوا تعديلات
كثيرة في مذاهبهم ومناهجهم .. وصادروا الملكية - ثم عادوا
فأباحوها - وألغوا الطبقات ثم أقروها - وهكذا سيحتاج
التعديل كل يوم الى تعديل وصدق الله العظيم اذ يقول :
[ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين
لا يعلمون (٢)] .

يقول الدكتور ألكسيس كاريل الأمريكي في كتابه «الانسان
ذلك المجهول» :

« ان الانسان بصفة خاصة - لا تزال علومه في المرحلة
الوصفية - لأنه كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد ومن غير الميسور
الحصول على عرض بسيط له وليست هناك طريقة لفهمه في

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .
(٢) آية ١٨ سورة الجاثية .

مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد كما لا توجد طريقة لفهم
علاقاته بالعالم الخارجي *

هكذا - يرى هذا العالم الطبيب - أن الانسان كائن معقد -
ثم يصل العلم من اكتشاف أمره الى شيء يذكر * * وهو يؤكد
أن في شريعته - لافي سواها الضمان الأكيد لانتظام سير
الانسان وتحقيق ذاته لأنه وحده هو خالقها *

وذلك يقتضى أن يلتصق الانسان به - وأن يقترب دائما
منه - وأن يلتجىء الى حماه وأن يهتدى بمنهجه في الحياة لأن
الأمر كما يقول كاريل : [أن جهلنا مطبق بأنفسنا] - ان هذا
المنهج هو الذى حرر الحياة كلها من الخوف ومن الجبروت ورد
الى العقل الانسانى كرامته * * * وجعل الدنيا كلها تنسبح في
فيض من الضياء *

ومن هذا المعين الرائق - أخذت أوروبا حضارتها - يقول
دوهرنج :

« ان آراء روجر بيكون أصدق وأوضح من آراء سمييه
المشهور (فرنسيس بيكون) *

ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله في العلوم ؟ من
الجامعات الاسلامية في الأندلس والقسم الخامس الذى خصصه
للبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر
لابن الهيثم - وكتاب بيكون شاهد ناطق على تأثيره بابن حزم

ويقول بريفولت في كتابه « بناء الانسانية » :

« ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى في
مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس - وليس

لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده ائحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي - فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوروبا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة - والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبي هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية - وقد كان منهج العرب التجريبي فى عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوروبا » .

ثم يقول : [ليس تمت ناحية من نواحي الازدهار الأوربي الا ويمكن ارجاعها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية - وفى روح البحث العلمى - ان علمنا يدين للعرب بوجود ، نفسه لأن العائم القديم لم يكن فيه للعلم وجود] .

هذا هو تأثير الحضارة القرآنية فى حياة القوم ، وفى أقطارهم ، وفى مجتمعاتهم وهو تأثير لاندعيه - وانما نستمدده من اعترافاتهم * * وماخفى كان أعظم فهل يتنبه المسلمون لأصول حضارتهم ؟

وأخيراً : هذا هو الانسان من وجهة النظر القرآنية * * أكرم عناصر الكون على الله فهل يستطيع أن يتلمس السبيل الى سعادة نفسه الا بمنهج ربه !؟ *

الكون ساحة لنشاط الانسان :

نعم ان الانسان جزء من الوجود الكبير - وما الكون كله الا

ساحة لنشاطه - ومجال لحركته - وميدان لحضارته -
وبستان يزرع فيه أنضر الورود * * يستمد العون من ربه -
ويدين له بالعبودية - ثم يتحرر بعد ذلك من عبادة ما سواه -
يتحرر من استغلال النظم - والقوانين والأشخاص والشهوات
وعبادة الشيطان انه سيد الكون كله وليس عبداً فقط الا لله
الواحد القهار *

من أجل الانسان مهد الله الأرض لكي يعيش عليها -
ويمشي في مناكبها ويستثمر خيرها « ألم نجعل الأرض مهانداً (١) »
« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه (٢) » *
« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً (٣) » وقال سبحانه
مؤكداً هذه الحقيقة :

« الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري
في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر
دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلم كفار (٤) »
وقال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط - وأنزلنا الحديد فيه
بأس شديد ومنافع للناس (٥) » *

وقال عز من قائل : « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من
الفلك والأنعام ما تركبون لتستنوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة
ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما
كنا له مقرنين (٦) » *

(٢) آية ١٣ سورة الجاثية .

(١) آية ٦ سورة النبا .

(٣) آية ٢٩ سورة البقرة .

(٤) آيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ سورة ابراهيم .

(٦) آية ١٢ ، ١٣ الزخرف .

(٥) آية ٢٥ سورة الحديد .

هكذا من خلال هذه الآيات الكريزمات - وما أكثرها في هذا
المقام - يمهّد الله للإنسان أرضه بمنه وكرمه - ولو شاء لجعلها
وعرة صعبة لا تصلح لنشاط الإنسان - ويهيئ له وسائل
الانتفاع بها • والاستفادة بعناصرها • • ويذل كل ذلك من
أجله ويخضعه لمشيئته - بحيث يسيطر عليه بقوانين العلم -
ونواميس الحياة - ويبحث عن الوسائل التي تهيب له ذلك • •
فإنه قد لفت نظر الإنسان إلى وظيفته الأصيلة - وخلق الله
(المادة الخام) والحيوانات والكائنات ليكون سيدها والمهيمن
عليها • • وهو مأمور حين يخضعها لمشيئة أن يظل موصولاً به
ذاكراً أنعمه عليه - فما كان لعقله أن يهتدى إلى ذلك لولا تيسير
الآله • • نعم لولا عملية التسخير والتذليل ، وإمكانية العمل ،
وقابلية الكفاح لما توصل الإنسان إلى ما توصل إليه من علوم
ومخترعات • • ولو شاء لجعل كل هذه العناصر معاندة لطبيعة
الإنسان لا تخضع له ولا تنقاد • • • وكأنما يذكرنا ربنا بذلك
حتى لا نغتر بما نحرز من نجاح ، أو نحقق من آمال ، أو نبني
من حضارات • • وحتى لا يكون للشيطان غلبنا سبيل ، ومهما
يحقق الإنسان من نصر فإنه مفتقر أبداً إلى ربه • • • مهما ذل
قوى الطبيعة - وحول مجرى المياه - وبنى السدود العالية •
وشق الترع والمصارف - ومهد السبل والطرق وحطم الذرة ،
وفجرها واخترع القنبلة والصاروخ • • !! لأن دوره في ذلك دور
ثانوي • • أما جوهر الموضوع فهو من الله وإلى الله • • • لأن
عقولنا التي تمكننا من ذلك هي الأخرى منحة من الله • •

نعم • • ما أحرى أن يهتف الإنسان كلما أتيج له أن يبتفع
بثمرات جهده : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »

وبهذا ترد الأمور إلى بارئها ومصدرها ومنشئها
الحقيقي • • ويظل الإنسان على تواضعه فلا يقتله غرور

العظمة - ولا تجتاحه مركبات النقص . . . ولا يعبد حضارة
صنعها بيديه !! وبهذا الاعتراف الكبير يدور القدر في بناء
الحضارات تتناسق الماديات مع الروحيات وتنسجم مع
قانون التسخير الالهي . . .

وما أروع الايحاء الذي تعطيه هذه الآبة « لتستوا على
ظهوره » فتأمل معي ماذا تعنى ؟ انها تحدد رسالة الانسان في
الحياة . . . رسالته أن يجد في العمل ، ويواصل الكفاح ليتمكن
السيطرة على عناصر الكون فيحقق السيادة لنفسه ليكون جديراً
بالاستخلاف في الأرض وذلك يستدعى شحذ المواهب - وتحريك
القدرات - ليستعلى على عناصر الكون « لتستوا على ظهوره »
هذا دور الانسان . . . جهاد وعمل وعرق . . . ومحاولة للبناء
وبذل للجهد . . . وكل ذلك في كون ممدد - وعالم مهياً - وعناصر
موجودة . . . لم يكلف بخلق عنصر منها - ولا بمحاولة فوق
طاقته . . . فسبحان من جعل الأرض مسرحاً لنشاط الانسان ،
وقوله سبحانه « ثم تذكروا نعمة ربكم » تقرير لحقيقة هائلة
لها أهميتها في حفظ توازن الانسان تلك الحقيقة ببساطة أن كل
المنجزات الحضارية لهذا الانسان انما هي باقدار الله وتسخيره
فواجب أن يذكر ذلك ولا ينساه . . . وبهذا تقترن الروحيات
« ذكر الله » بالماديات التي هي انجازات الانسان . . . فلا
يصاب بعمى البصيرة ويذهل عن ربه فتذهب حضارته مع
الريح .

وذكر الله من ناحية ثانية . . . وسيلة لطرد الشيطان
واحباط سعيه - لأن الشيطان للانسان عدو مبین . . . فقد
يزين له الخور - أو يسول له عبادة المادة كما فعل بغيره من
رواد الضلال . . . وقوله « وما كنا له مقرنين » استكمال للحقيقة
الكبرى التي يجريها الانسان على لسانه - ويصدقها بقلبه
ليتحصن ظاهراً وباطناً من كيد الشيطان وكأنا قوله سبحانه

« ثم تذكروا نعمة ربكم » تعنى استحضار القلب وامتلاء الوجدان وقوله : « وتقولوا سبحان الذى الخ » تعنى نطق اللسان - والاعتراف بصريح المقال . . ليكون ذلك أدعى لصلاح شأن هذا الانسان . .

والآية بمنطقها وايحاءها - توجه كل الحضارات المادية وجهة روحية . . لأنها تعالج فى الانسان نوازع الغرور - وخداع النفس - بعد أن يمتلك ناصية المادة ويسيطر عليها وبما أنه عنصر كريم على ربه فان الآية توصى ببقاء جوهره نقياً مصوناً من كل صلف وغرور . . ولذا اتجهت اليه تكفكف من غروره وتكبح من جماحه وترده الى القصد والاعتدال . . وذلك حين تصيح بالانسان أن يظل مع الحضارة معتصماً بربه ذا كراً اياه لأنه ماكان ليستطيع تذليل عناصر الكون - فضلاً عن أن يخلقها - ولا أن يطوعها لارادته لولا قدرة الله وفضله وبكل هذا التيسير من ربه استطاع أن يصل الى قمة الحضارة - ويستمتع بطيبات الحياة . . ولأن من طبيعة الانسان الغرور وتجاهل النعمة ركزت الآية الكريمة على ضرورة الاقرار لله بالفضل بالقلب واللسان ومتى ؟ عندما يعتلى قمة النصر ، وبذلك يحتفظ بتوازنه فوق القمة العالية فلا يضل أو يهوى .

وبهذا الذكر - يقاوم وسوسة الشيطان الذى يغريه بالمروق ويزين له الشر والسوء واذا كان المعنى القريب لقوله سبحانه : [اذا استويتم عليه] هو : اذا ركبتم ظهره وهى حالة الانتفاع بالشئ والاستمتاع بثمراته - فان اشعاعها يترامى الى بعيد . وهى أن نقر لله بالفضل - عندما يوفق العقل البشرى الى أى اختراع نافع !! . . . ليجتبه بهذا الاختراع وجهة روحية مسبحة شاكرة . . فلا يستخدم اختراعه فى الشر - واهلاك الحرث والنسل - واستذلال الشعوب . . كما هو الشأن فى

الحضارات الضالة . . . وبذلك يظل الانسان منسجماً مع الملائ
الأعلى .

بين الانسان والكون :

الكون كله بأجوائه وعناصره وكائناته مسرح ضخم
لنشاط الانسان . يتأمل فيه دقائق الصنع الالهي فيربو
ايمانه . . . ويزداد يقينه . . . وقد طالب الله البشر أن يتأملوا
في ملكوته الرحيب . . . تأمل عظة واعتبار فقال جل وعلا : « قل
انظروا ماذا في السموات والأرض - وما تغني الآيات والنذر عن
قوم لا يؤمنون (١) » .

وهذا التأمل يعود بالخير العميم على الانسان لأنه يتفاعله
مع الكائنات - وتجاوبه مع الآيات يستشف المعرفة ويحصل
على العلوم المختلفة . . . ولولا هذا النظر لما استطاع المسلمون
أن ينشئوا الحضارة المؤمنة التي ملأت الحياة بالجمال والجلال
فالانسان مدين لهذا الكون بعلمه ومعرفته . . . ويوم يقعد
الانسان عن هذا التأمل الفاحص لينفذ منه الى حقائق العلم
يصبح انساناً سلبياً ضعيف الايمان . . . واذن : فالكون
مصدر رائع للمعارف والعلوم والثقافات . . .

ثم هو مصدر رائع ومنبع فياض لسكينة القلب ، وهدوء
المشاعر . . . يحس الانسان أحياناً بالضيق - فما هو الا أن
ينتجه الى الطبيعة . . . فاذا بجمالها الحالم ، وهدوئها الشاعر
يفيضان على القلب أنساً وجمالاً . . . ولذلك أثره في الحفاظ على
سلام النفس وجمال الروح . . . وبهذا لا يكون لليأس سبيل الى
قلبه . . . وذلك من أكبر عناصر الايمان ودعائمه وللكون بعد

(١) آية ١٠١ سورة يونس .

هذا أثره الرائع في امداد النفس بأسرار القدرة . . . وايقاف العقل على بدائع الصنعة . . . وانعاش الروح بروائع الجمال . . .

فما أحرى أن يوثق الانسان علاقته بالكون من حوله ، وما أجدر أن ينشئ الصداقة بينه وبين عناصره . . . يتودد اليه - ويستلهمه - ويستوحيه . . . ويستمد منه الخبرة والمعرفة بتفاعله مع أجزائه ، وتعامله مع عناصره لا يصد عنها بالجهل ، ولا يعيش بينها غافلاً لاهياً . . .

ان الأرض - التي يعيئس عليها الانسان لم تخلق عبثاً . . . وان الكون المحيط به لم يوجد صدفة . . . وانما وجداً لحكمة جليلة وغاية سامية أيسرها أن يتعاوننا مع الانسان . . . وأن يتعاون معهما الانسان لانشاء عالم أفضل بالمعرفة والعلم . . . فهنا المصنع التجريبي الذي يحل الانسان فيه ويركب ، ويبني ويهدم ، ويصيب ويخطئ ليصل الى الحقيقة يوماً ما ويصافح كف المعرفة - وهذه المعرفة في ذاتها عبادة رفيعة . . .

أن هذا الكون من صنع الله . . . وان هذا الانسان من صنع الله . . . فبينهما اذن علاقة كريمة . . . هي وحدة الخلق والتكوين . . . كلاهما لخالق واحد يسبحان له بالغدو والآصال فلا مجال للقطيعة والتخوف . . . بل ينبغي للانسان أن يتعرف الى كل الوسائل التي تجعله قادراً على الانتفاع بالكون - وتسخير عناصره . . . والسيطرة عليها . . . ليظل ممكناً منها فاهما خصائصها وأسرارها وهذا هو سبيل صنع الحضارات . . .

وبهذا يمكن للانسان أن يتعايش مع هذه العناصر في كون مأنوس أليف . . . وليكن شعاره في التعامل : « ربي وربك الله » وبهذا تستجيب له وتنقاد . . .

وهكذا نجد في النهاية أن الله جل جلاله هو خالق الانسان

وخالق الكون وأن الانسان انما يتعامل مع الحياة - ومع الكون
بمنهج ربه الذى لا يأتيه الباطل . . وهذا المنهج فيه كل
احتياجات الانسان التى تمكن له فى الأرض . . وتهدى له
سبيل السعادة . . وهذا الكون . . مسخر للانسان - مهياً -
لنفعه - وأن الانسان - فى مسيرته على الأرض لن يجد الهدى
الا فى منهج الله . . وبذلك كله يستثمر عناصر الحياة !!

ولا قيمة لحضارة بالغة ما بلغت من العظمة والجلال الا اذا
ارتبطت بالله . . ووجدت فيها الانسانية دعماً لمثلها العليا
وأشواقها الرفيعة يقول الفيلسوف محمد اقبال :

« ان النظر الى المؤسسات والأشياء لا يكون لما تؤديه من
نفع أو ضرر اجتماعى . . فى بلد من البلدان - لأن مثل هذا
الهدف ضئيل القيمة - وانما يكون بتحقيق الهدف الذى تسعى
الانسانية اليه وهو هدف الروح » .

وهو يريد بذلك أن يجعل من مظاهر الحضارة المادية فى
العالم كله منطلقات لدعم الروح ، وقوة الايمان ، وتحقيق
الأشواق الرفيعة . .

أزمة الضمير الغربى :

ترجع هذه الأزمة فى العالم الغربى المفتون بالمادة ، العابد
للانتاج ، الى أنه لم ينطلق بالحضارة المادية الى أفقها الروحى
النبيل . . فيتخذ منها وسائل لمرضاة الله . . ودعائم لتقوية
الايمان وانما اعتبرها فى ذاتها غاية . . فانفصل عن الله كل
الانفصال . . ولم ينجح فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة
الانسان . . ليحس بسيادته عليها بل وضع الانسان فى خدمة
الحضارة . . فاستعبدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان

وألغت ارادته ، وبددت مطامحه وأشواقه . . . وجعلته عبداً خاضعاً لها لا سيداً مسيطراً عليها !!

ومثل هذه الحضارة لا يمكن أن تنجح في بناء مدنيات فاضلة . . . لكنها تنجح في بناء امبراطوريات ضخمة . . . تغرى بمظهرها بينما الباطن خواء . . . لأنها دعت الى تخلف الخلق عن العلم في مضمار السباق . . . وبذلك باعت هذليها وقيمها في عالم الأرقام والكميات والحساب . . . وصارت حضارة بلا ضمير . . . وتأتى الحضارة المثالية الا أن تكون مزاجاً بين الروح والكم ، بين الغائية والسببية حتى اذا حدث اختلال في هذا التوازن هوت المدنية الى الحضيض . . . لأنها تحيف على فطرة الانسان وتصادم طبيعته التي جعلها الله مزيجا من ائادة والروح . . .

من ايجاء آية الاستخلاف : [معان حضارية]

ولنقرأ معاً في اجلال وخشوع قول الحق - تبارك وتعالى - في هذا الموضوع ، ولنصغ الى همس الحكمة ، وايجاء الألفاظ من خلال هذه القصة القرآنية : -

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة - قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك - قال : انى أعلم ما لا تعلمون - وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين - قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . . . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون - واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس اباى واستكبر وكان من الكافرين - وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة - وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين -

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه - وقلنا اهبطوا
بعضكم لبعض عدو - ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين -
فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم -
قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » .

تلك آيات من كتاب الله - ننفعنا في هذا السياق -
وتوضح لنا معالم الحق - وتحدد مركز الانسان في هذا
الوجود . كما تحدد وضع الحضارات بالنسبة اليه . وتشير
بالوصف - والايحاء الى أصل الشر في هذا الوجود ليعتبر بنو
آدم من عدوهم اللدود ؟

وذلك ليتفرغوا لأداء دورهم في الحياة . . وهو بناؤها
بالحق - وحكمها بالعدل - والتصرف فيها كما أراد الله ، وبذلك
تكون حضارتهم موصولة بالله لا تنحرف أو تضل ، ولننظر
أولا في مغزى هذا الحوار القصصى الشيق بين الله عز وجل -
وبين الملائكة الأبرار ، وهو حوار له مغزى عميق ينبغى أن
تستشف الانسانية ما وراءه من حكم وتوجيهات ، وأولها :
أن ننظر في طرفي الحوار - فهو بين الله - وبين الملائكة - ومكانه
في الملائكة الأعلى - وموضوع هذا الحوار هو ذلك الانسان - تقرير
مركزه ، وأمر استخلافه ، وقضية تكريمه - وكل هذا الحوار
انما احتواه الملائكة الأعلى وشهده ابليس رمز الشر كله ومحور
الفساد في هذا الوجود - وأصغت اليه السموات كلها والأرض
ومن فيها . . ونحن نستنبط بروح الاستهداء بكل ما مضى - أن
الانسان كائن عظيم - له من الأهمية والكرامة ما يجعله
موضوع نقاش وحوار في الملائكة الأعلى . . لتحديد مكانته على ظهر
الأرض - وبيان أحقيته بهذا المركز - فأى تكريم هذا ؟ وأى

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٨ سورة البقرة .

سمو هذا ؟ احتفال مهيب في المأ الأتلى - لابران عقد
الاستخلاف مع الانسان - وعلان استحقاقه لمركز الخلافة في
الأرض .. تشهد السموات العلا والملائكة الأبرار ..

وبلغة التقرير الحاسم ، والتأكيد الجازم نقراً قول الله
سبحانه : [انى جاعل فى الأرض خليفة] فانظر فى هذه
الجملة من حيث صدورها عن الحق جل جلاله - وبلغة التأكيد
الصارم وبيان العظمة السامية - وبكلمة « ان » ذات الدلالة
التأكيدية - وباسمية الجملة - وبتحديد مكان الاستخلاف -
وكون ذلك كله فى مواجهة الملائكة - وهم العنصر المنافس
للانسان فى هذا المركز الممتاز .. هل بقى بعد ذلك مجال
للتكريم ؟ فكيف تستباح بعد هذا كرامة الانسان - فتخضع
للآلة - أو - تستذل بالنظم ، أو تركع لغير الله .

ان فى هذه الجزئية من الحوار لما يرتفع بمنزلة الانسان
عن تلك الأوضاع الخسيسة انه بهذا الأسلوب الموثق بكل
وسائل التأكيد - خليفة الله فى الأرض - لا يخضع الا لسلطانه
- ولا يذل الا لعظمته - وفيما عدا ذلك هو سيد كريم .. تخضع
له النظم ولا يخضع لها .. ويسيطر على الأشياء ولا تسيطر
عليه . وينشئها ولا تنشئه ويعيش على الأرض مرتفع القامة
- أشم الجبهة لأن له نسبا فى السماء ..

وفى هذا الاعلان الضخم - وما احتشد له من كائنات دليل
على أن كرامة الانسان يجب أن تذكر دائماً فلا تنسى .. وممن
صدر الاعلان ؟ وأين صدر ؟ وأمام من ؟ وما مضمونه ؟ .. كلها
أسئلة تؤكّد خطورة القضية وجلالها .. لتظل موضع رعاية
على مر الزمان ..

وجدير بالانسان أن يحظى بكل ذلك التكريم .. لأنه فى

الواقع اذا صلح أصبح محور الخير كله في هذا الوجود - يكافح
الرديلة - ويحارب الشر ويناصر القيم ويقر مشيئة الله في
الأرض .. ومهما يكن من شأن المنظمات الحديثة - واحتشائها
في صعيد واحد لتعلن كرامة الانسان ، فما هي بفاعلة شيئاً
أمام ذلك الاعلان الكريم في الملأ الأعلى .. الذي تهيأت له وسائل
اعلام ربانى فسمعها الكون وأصغت اليها الحياة بأسرها !!

وهل يملك الانسان مهما يكن شأنه أن يقرر هذا الأمر
الخطير [انى جاعل فى الأرض خليفة] نعم لا يملك ذلك الا خالق
الانسان - وخالق الأرض - وخالق الملائكة .. لأنه وحده فقط
يعلم خصائص مخلوقاته - وما تصلح له من جليل الأعمال
وما لا تصلح !!

واذا كان الانسان فى المحل الأول على ظهر الأرض - فانه
ينبغى أن يكون فى المحل الثانى بالنسبة لربه .. لأنه جل جلاله
هو الذى وضعه فى هذا المنصب الخطير .. ووضع فى يده زمام
الخلافة ، وناط به تكاليفها .. واستعمره فى هذه الأرض ..
فلا يجوز أن يتجاوز مركزه غرورا وصلفا .. انه يتلقى الهدى
من ربه لا من أحد سواه [فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع
هداى فلا يضل ولا يشقى (١)] .. وفى هذا الهدى تلاق تمام مع
فطرة هذا الانسان وقابليته للنماء المتكيف مع الزمن تكيف
الفطرة الانسانية التى صاغها الله بيديه ومنحها وسام التكريم
- وملكها زمام الخلافة فى الأرض - بحيث تظل دائمة التطلع
نحو الأمثل - لتحافظ على مستوى حياتها .. وهى حياة ينبغى
أن تكون كريمة عزيزة لتتلاءم مع الانسان الذى كرمه ربه ..
وبهذا كله نضمن شباب الحضارة فى كل عصر ومصر بتوجيهات
الملأ الأعلى على السنة الرسل والأنبياء .. الذين أراد رب الناس

(١) آية ١٢٣ سورة طه .

أن يبعث بهم في كل فترة من فترات الحياة ليلطفوا من وهجها -
ويخففوا من مآسيها - وليوجدوا الحل الموفق لأزمة الضمير
الانساني ..

ان هذا الانسان - خليفة الله في أرضه - يتلقى وحى ربه
بكل خضوع وتسليم - وذلك هو الاسلام : أى اسلام القلب
لخالقه ، واستسلام النفس لبارئها .. وبهذا المضمون الواضح
بعث الأنبياء والرسل على مدار الزمن الرحب ، وعلى امتداد
التاريخ الطويل - بل منذ فجر البشرية الأولى ، ولقد سمي
القرآن ما جاءوا به اسلاما .. بمعنى الاستسلام لله ، واتباع
منهجه وهداه ، والخضوع لمشيئته وحكمه ..

روى عن ثعلب في تفسير قوله تعالى : « يحكم بها النبيون
الذين أسلموا (١) » .

قال : كل نبي بعث بالاسلام غير أن الشرائع تختلف ..

ويقول السير توماس أرنولد : « ان الاسلام كان الدين
السماوى الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة - ثم أوحى به
اليهم من جديد على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم
النبيين كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل » .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله
أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون(٢) »
.. ومعناه : استسلم من فى السموات والأرض لجلال سلطانه .

(١) آية ٤٤ سورة المائدة .

(٢) آية ٨٣ سورة آل عمران .

والاسلام هو دعوة أبينا ابراهيم أبى الأنبياء : [ما كان
ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما (١)]
يريد : مائلا عن الضلال - مستسلم القلب والوجدان لله
رب العالمين •

ويرد على لسان ابراهيم قوله في شأن الأمة المسلمة :
[هو سماكم المسلمين من قبل (٢)] ••

وبهذا : يكون الاسلام بمعناه اللغوى هو دين ما قبل
البعثة المحمدية أى اسلام الوجه والقلب لله ثم يأتى معناه
الاصطلاحى المحدد مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فيأخذ
معنى علميا خاصا وعالمية ممتدة •• وكأن ما قبل الاسلام كان
تمهيدا رائعاه ••

وكان رسالة محمد صلوات الله عليه كانت في ضمير الكون
تنتقل من جيل الى جيل على ألسنة الرسل الكرام - حتى تصب
في شريعة الاسلام كما تصب الروافد في المحيط الكبير ••

وكانما محمد في شخصية النبيل قد تجمعت فيه فضائل
الرسل مجتمعين ••

وكانما القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الذى تضمن معاهد
الوحى الالهى الموزع على الأعصار والأعمار - حتى اذا اكتملت
طاقة الرشد فى الانسانية - واختزنت منها الكثير جاء دور
محمد عليه الصلاة والسلام ليرث ذلك الرصيد مضافا اليه ما
تحتاجه البشرية من كل ما يلائم تطورها الصاعد فى سلم
الحضارة الربانية ••

(١) آية ٦٧ سورة آل عمران •

(٢) آية ٧٨ سورة الحج •

وكل ما قدمنا من تحليل يعطى مضمونا فكريا خاصا هو وحدة الوحي الالهي .. ووحدة الرسالات السماوية - وأنها جميعا تلتقى على التوحيد ومكارم الأخلاق والدعوة الى الله .

وهذا التعهد الدائم من الله للانسان - بارسال الرسل والأنبياء دليل تكريم وحفاوة .. فهو لم ينزل الى الأرض - لينقطع عن السماء - وليعيش في مكان مهجور موحش .. وانما نزل لرسالة ربانية - وفي رحلة مأنوسة - يعيش فيها مع ربه ومع ايمانه ومع منهج الله العزيز الحكيم ..

ولو ترك الانسان من غير رسل - لضل عن سواء السبيل !!

نعم : لقد كان من لطف الله به وكرمه عليه أن تعهده بالهداية دائما - على يد رسله الأخيار يبلغون ما أنزل اليهم من ربهم بكل أمانة وصدق ، ويقاومون الفساد والشر - ويقودون زمام الانسان في أحلك الظروف وأقسى الأيام - ويناضلون نضال الأبطال الابرار - لتظل العبادة لله وحده وليظل الخضوع له سبحانه وليتطهر جو الأرض من الشرور والآثام وليكون ضمير الانسان دائما موصولا بربه - الذى خلقه - واستخلفه في أرضه وليبقى دائما سييدا لهذه الأرض لا عبدا مستذلا فيها !!

وفي هذه العلاقة الأزلية الأبدية الخالدة - كفالة ممتدة لتحرير الانسان من كل خوف ومن كل ضغط ومن كل ارهاب لأنه دائما مع ربه وفي حماية مولاة وتلك ثمرة من ثمرات العقيدة تسبغ الطمأنينة على النفس فلا تنزل أو تخزي « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ومن ثم كان الايمان قيمة رفيعة لا تستطيع الحضارة النبيلة أن تتخلى عنها والا سقطت في مهاوى الشرك والعبودية وضلت عن سواء السبيل ..

ومن كرمه أيضا عليه - أنه لم ينزله الأرض - لرسالة
فوق طاقتة .. ليبدد قوته في الأرض الوعرة والسهول الصلدة
والجبال الخشنة - وانما مهد له تلك الأرض وسهل مهمته
فيها - وسخر له عناصرها - ومكن له في استثمارها .

« ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش -
قليلا ما تشكرون (١) » فانظر الى البيئة الممهدة المأنوسة -
التي يمارس الانسان فيها دوره الايجابي ويحقق رسالته
الخالدة .. وهل هذا الا اكرام من الله؟! كل ما يطلب الى
الانسان أن يظل شاكرا لربه .. وألا ينسى عهده معه !!

فالانسان على وجه الأرض له المحل الأول كما أراد له
خالقه - لكنه حين يستمد من ربه ، يصبح في المحل الثاني ..
واهتداء الانسان الى هذا المعنى هو الايمان الحقيقي ..

أى أن القوة العليا هي الأولى من غير جدال .

كتب أحد أصدقاء برجنيف اليه يقول :

« يبدو لي أن وضع الانسان نفسه في المحل الثاني هو كل
مغزى الحياة » .

ولنلاحظ أن الرجل شيوعي .. وأن الشبيوعية تضع
المادة أولا .. فاذا اهتدى الشيوعي فوضع الله أولا واستعان
به على المادة فقد صار مؤمنا .. والمهم أن يهتدى الى القوة
التي يضعها في المحل الأول .

(١) آية ١٠ سورة الاعراف .

فكتب اليه برجنييف يقول له :

[يبدو لي أن اهتداء المرء الى ما يقدمه على نفسه ويضعه في المحل الأول هو مشكلة الحياة]

ونحن نقول للرجلين معا : ليست هناك مشكلة مطلقا -
وانما المشكلة هي نفوسنا وعقولنا . . فلو أن الانسان سلك
سبيل الفطرة - بدون أى مؤثر آخر لوصل الى الله . . ولكن
كيف السبيل الى الفطرة السمحة وقد لوثتها البيئة - وطمست
معالمها - وانحرفت بها عن طريق الايمان؟! تلك هي المشكلة
في المجتمعات الملحدة من السهل أن يصل الانسان الى ما يضعه
في المحل الأول . . وأن يبذل له الطاعة ، والولاء . . ولكن ليس
من السهل أن يتنازل المادى عن مذهبه ليستسلم الى نداء
الفطرة . . ولأن فطرته لم تعد من التائق والصفاء بحيث تعانق
الحق في سهولة ويسر!! هذا الارتكاس المادى هو سر الشقاء
كله والضلال كله . . وهو سر احتجاب الروح واختفاء ضيائها
. . وانطماس أنوارها . . والروح هي العنصر النقى المبدع
لقيم الفن والجمال والمنشئ للحضارات والمدنيات . . فاذا
انطمرت تحت تراب المادة . . فلا تقدم ولا مدنية - وان
حدثت فهي حضارة الانسان الأعمى .

« ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره
يوم القيامة أعمى (١) » .

« ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلا
سبيلا (٢) » .

(١) آية ١٢٤ سورة طه .
(٢) آية ٧٢ سورة الاسراء .

ومن ثم يعيش صاحبها في الدنيا حيوانا - وتهدر قيمته
يوم القيامة ويقال لصاحبها :

« كذلك أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١) » .

ومهما طار الانسان في الجو - أو تقدم في الاختراع -
بهذه المادية البعيدة عن الله فإنه تعس وشقى يصنع بيده
وسائل هلاكه . . ويسعى حثيثا الى الانتحار !! اذ ما معنى
تقدم من غير ايمان ؟ . . معناه جحيم مسلط على البشرية لا
يرعى فيها الا ولا ذمة ولا ينجو منه حتى من صنعوه !!

وانه لخير للانسان - وأشرف أن يعيش على الأرض
بطهارته ونقاؤه من أن يطير الى السماء بنجاسته ووبائه -
وأفضل أن تضاء الأرض بالشموع وهي مساجد من أن تضاء
« بالنيون » وهي مراقص !! .

ومحال أن تنشأ حضارة انسانية خالدة تبقى وتعمر
وتبسط جناحها على البشرية بالسلام والحب والمودة الا اذا
استظلت بمظلة الايمان . .

وبذلك يفجر الانسان بالعلم كل ينابيع الحضارة ويضبط
بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل . . وبهذا يتعانق
الايمان مع العلم في تشييد صروح الحضارات ومن غير الايمان
بالله - واتباع منهجه وهداه - يضل الانسان وتخطيء
الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها تصارعا يؤدي الى تدمير
الحياة والأحياء !! « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله (٢) » .

(١) آية ١٢٦ سورة طه .

(٢) آية ٥٠ سورة القصص .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست
« نظريات » للدراسة - وانما هي تجارب للادكار والاعتاظ
والتدبر *

فأله قد أهلك أمما وأفنى حضارات ودمرها على رعوس
أصحابها لأنها قد ضلت طريقها وأخطأت سبيلها حين رفضت
أن تخضع لأمر الله وتحقق منهجه وهداه « فصب عليهم سوط
عذاب - ان ربك لبالمرصاد » *

وهكذا الايمان له من أصالة المعدن وعراقة الأصل ما يجعل
له المنزلة الأولى في بناء الحضارات * فليتعض انسان العصر
الحديث بقصة انسان العصر القديم فالنار يخ دروس وعبر
« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو
شهيـد (١) » *

وثانيها : أن على الانسان - خليفة الله في أرضه - أن
يذكر العهد مع ربه فلا ينساه وهل ينسى عقد كهذا ؟ كان
اشهاره في الملأ الأعلى * فما يجوز أن يذهل الانسان عن عهد
ربه يوما ما - لأنه مهما ينتقلب في الأرض - فالى الله الرجعى
والمصير [انا الينا اياهم (٢)] [ان الى ربك الرجعى (٣)]
[وأن الى ربك المنتهى (٤)] *

ولأن رحلة الحياة طويلة وشاقة وكادحة فان على الانسان
في حدة صراعه مع عناصر الأرض - وعوامل الشر - عليه أن

-
- (١) آية ٣٧ سورة ق .
 - (٢) آية ٢٥ سورة الفاشية .
 - (٣) آية ٨ سورة العلق .
 - (٤) آية ٤٧ سورة النجم .

يلتمس من الله العون ليتم انتصاره على كل القوى المعادية ،
عليه أن يذكر ربه - وهو يبني صروح الحضارة •• ويهيء
لنفسه وجودا أفضل حتى لا يعرض له الشيطان فيضله عن
الانسان حوافزه الانسانية - لا غرائزه الحيوانية •• ولا
يسمح لتلك الحوافز أن تتخلف يوما ما في مضمار السباق -
والا فقد توازنه في رحلة الحياة ••

ولأن من طبيعة الانسان أن ينسى - فضلا عن اغواء
الشيطان له - وجدنا أن عهد الله معه مكرر بصيغ مختلفة ••
وبوسائل قوية ليظل النداء متجددا - والعهد متريدا والصوت
مسموعا - فما أشبه ذلك بأدوات التنبيه القوية التي تلفت
الانسان كلما حاولت الحياة أن تجنده في ركابها - أو تشغل
قلبه عن ذكر الله ••

[ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (١)] [الشيطان
يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (٢)] [ان الشيطان كان
للانسان عدوا مبينا (٣)] [ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا
تعبدوا الشيطان (٤)] •

هكذا تتوالى التحذيرات ، وتتوافد الانذارات - لتنفذ
الانسان من غفلته - وتخرجه عن شروده وتضعه وجها لوجه
أمام عدوه الأصيل ••

وثالثها : أن على الانسان أن يذكر دائما أن لهذا
الاستخلاف تبعات ومسئوليات • فليس هو نزهة محببة -

(١) آية ٦ سورة فاطر •

(٢) آية ٢٦٨ سورة البقرة •

(٣) آية ٥٣ سورة الاسراء •

(٤) آية ٦٠ سورة يس •

ولا رحلة طارئة - وانما هو قدر الله - وحكمه - وتدبيره وعدله
أن ينزل الانسان الى الأرض ويمتحن بالجهاد - ويبتلى
بالشيطان - لتنصهر ارادته - ويتألق جوهره .. ويتوهج
ايمانه .. صحيح أنه منح السيادة والكرامة والعزة - ولكن
عليه أن يدفع التكاليف لأن الله لم يخلق حقوقا من غير
واجبات .. بل دائما يجعل الحق في مقابلة الواجب - وعلى
رأس مسؤولياته الكبيرة أن يتأمل في الساحة التي استخلف
فيها - فتلك «ساحته الحضارية» - يبنيها بالحق - ويحكمها
بالعدل ، ويدعمها بالايمان ويحقق فيها مشيئة الله ..
ويستخدم فيها قدراته - ويستثمر علمه - ويحرك حوافزه
فيدرس ويستنبط ، ويجرب ويمارس ، ويحلل ويركب ،
ويبنى ويهدم ، ومن خلال التجارب يخرج بالدروس الغالية ..
انه لم ينزل الى الأرض ليجعل منها ساحة نوم وكسل بل
مجال نشاط وعمل .. ان الأرض بهذا التصور هي بستانه
فعليه أن يزرع في هذا البستان زروعا بهيجة .. عليه أن
يتعرف الى القوانين التي تمكنه من تسخير الطبيعة واخضاعها
لمشيئته - حتى يحتفظ لنفسه بحق السيادة على بيئته ..

وهنا نفهم قيمة العلم - منذ الفجر الأول للوجود الانساني
.. انه العنصر الاساسى لعمارة الارض - وبناء الحياة ..
وهو علم يتلقى عن الله - ويمضى مع شرعه وهداه فيكون
عبادة رفيعة فمع كل نبضة عرق - أو ضربة معول - أو اقامة
صرح ، أو بناء قصر - أو احراز نصر مع كل أمر من هذه الأمور
وغيرها ذكر لله - وعرفان بفضلله - واقرار بمشيئته ..
وبذلك يزكو الجهد الانساني ويحقق هدفه النبيل ..

ولقد تمكن بناء الحضارات الكريمة - من استخدام
التجارب - واستثمار الأرض - واستخراج كنوزها في ظل هذا
العهد - فأدوا رسالتهم في الحياة ..

وكل عناصر الوجود تصبح بالعلم والايمان طيعة سهلة
وصديقاً حميماً للانسان - وانما تصبح نافرة حرونا اذا ذهب
روح الصداقة بينها وبينه . . بأن جهل وسائلها . . وقصر في
معرفتها فكيف تبوح له بأسرارها . . انه بالعمل الدائب
والجهاد المستمر يسهل كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، وينحل
كل لغز عسى .

رابعاً : نستشف من روح الحوار في الآية - أن الملائكة
كانوا حراساً على أن ينتزعوا لأنفسهم حق الخلافة في الأرض .
فهم بهذا الاعتبار عنصر منافس للانسان . . ولكن صوت
القدر العالى حسم في هذا النزاع « انى جاعل في الأرض خليفة » .

ومع ذلك - فان الملائكة ظلوا متشبثين برأيهم متمسكين
باستخلافهم . . ولقد تحدثوا فأحسنوا الحديث - ذكروا
مساوىء آدم وأبنائه . . [أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدماء] ظنا منهم أن هذا يناقض الاستخلاف في الأرض -
ومادروا أن الانسان بذلك وحده كان أحق منهم بالخلافة في
الأرض - لان مكافحة للشر - واستخدامه للارادة - واذواج
فطرته - وتصارع قواه كل ذلك يجعله كائناً مكافحاً مجاهداً . .
يحقق مشيئة ربه ويقاوم قوى الشر - ويتفاعل مع الارض
المستخلاف فيها بالمصابرة والمجاهدة . . بانيا وهادما -
ومصلحا أو مفسدا - ومهتديا أو ضالاً - وفي كل ذلك الصراع
يستعمل ارادته ليظفر بالفوز ويحقق النجاح ويحقق
انسانية - وبهذا يظل وجوده على الأرض مرتبطاً بمجاهدة
الشهوات - ومقاومة عناصر الشر . ومحاربة الشيطان - فاذا
تم له ذلك باتباع هدى الله فقد حقق ما أراد له الله وانفذ عقد
الاستخلاف .

فأما الملائكة فان طبيعتهم النورانية التي لا تحتل الصراع - ولا تتحمل أعباء الجهاد لأنهم كما قال الله [لا يعصين الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (١)] « يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢) » فلم يخلقوا بهذا الاستعداد الذي يرشحهم لخلافة الأرض - وقد ظنوا أنهم بتسبيحهم - وامتثالهم - وانقيادهم - أحق من الانسان - بينما الواقع أنهم بهذا أبعد عن هذه المهمة - ومن ثم جاء الرد : « انى أعلم ما لا تعلمون » .

ليس هنا مجال الآية مجاملة . . فان علم الله أنفذ ، ولهذا رفض حجة الملائكة . . ولعلنا نفهم من خلال الحوار - حقيقة طبيعة الملائكة - وحقيقة طبيعة الانسان . . كما أن هذا الحوار يعزز مركز الانسان ويؤكد كرامته . . لأن الملائكة رغم منزلتهم عند الله - وابداء حجتهم له - مع كل ذلك لم يحققوا هدفهم :

ان الأمر أمر استعداد وفطرة . . والله أعلم بما خلق من فطرة واستعداد وبما استودع كائناته منهما - فالملائكة للملأ الأعلى لا يمتاز عنهم في ذلك بنو آدم ، هناك في الحرام القدسي يحلو التسبيح ويستطاب الذكر هناك [يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢)] اذ ليس لهم من غرائز الطين - ونوازع الحيوان وازدواج الفطرة ما يصرفهم عن تلك المهمة الجليلة . . وكل ميسر لما خلق له . .

ومن خلال الحوار نفهم أن الملائكة كانت لديهم المعرفة الكاملة عن آدم وأولاده بدليل أنهم استكثروا عليهم خلافة الأرض - وذكروا سلوكهم وأخلاقهم - وليس بعيد أن الله قد

-
- (١) آية ٦ سورة التحريم .
 - (٢) آية ٢٠ سورة الانبياء .
 - (٣) آية ٢٠ سورة الانبياء .

ألهمهم ذلك العلم لتكون القضية واضحة - وحتى يتسنى لهم
أن يناقشوا على معرفة .

خامساً : قوله سبحانه [وعلم آدم الأسماء] فيه تمكين
الإنسان منذ اللحظة الأولى من العلم كسلاح فعال في عمارة
الأرض والتغلب على مصاعبها الجمة . . وبذلك يكون الإنسان
مزوداً من ربه بنوع من المعرفة تسهل مهمته على وجه الأرض
حتى لا يضل أو يشقى .

لقد أخذ الله العهد على آدم ، وأبنائه بأن يبتعدوا عن اغواء
الشيطان . . ويظلا مع ربهما ورب كل شيء . . وهذا هو
الايمان الذى لا بد منه فى رسالة الحياة .

ثم زوده من ناحية ثانية بنوع من المعرفة التى يفتقر
اليها لانجاز مهمته ويتفاهم بها مع أبنائه ، ومع الناس ،
ويتعامل مع الأشياء وهذه القوة هى العلم الذى لا بد منه فى
بناء الحياة وهذان هما جناحا الحضارة الايمان والعلم .

ويفهم من سياق الحوار أن أصل العلم الهام من . لأن
معنى تعليم الله لآدم الهامة ذلك بطريقة يعلمها سبحانه . .
وعلى الإنسان بعد هذا أن يعرف دور العلم فى بناء الحياة ،
عليه أن يستثمر ذلك العلم ، وأن يحركه بالتجربة ، ويستفيد
به فى حياته . . ويسخره لمرضاة ربه . . ومادام أصل العلم
من عند الله فكيف ننحرف به عن الله ؟ واذا
قصر الإنسان فى تنمية علمه ، وترقية معرفته فليس
جديراً بالاستخلاف فى الأرض وهذا العلم النوعى مما لا تقتضيه
طبيعة الملائكة الذين خلقوا لعالم غير عالمنا ولمهمة غير مهمتنا
ولرسالة غير رسالتنا . . وليست السماء بيئة كدح ولا مساحة

نضال حتى يزود الملائكة بما يعينهم عليه . . . ولكن لهم علماً
آخر ومعرفة أخرى تقتضيها طبيعتهم . . . وهذا العلم لا يوجد
عند آدم وأولاده وهكذا يصبح العلم منذ فجر الوجود تخصصاً
نوعياً يمنحه العليم الخبير للكائنات وفق الحكمة العالية ،
فسبحان من يعلم ولا نعلم !!

وهذه الجزئية من الحوار تؤكد المعنى السابق أبلغ تأكيد
فهى أشبه شئ بعقد مباراة بين الملائكة والانسان ، أو بتعبير
أدق مسابقة في العلم . . . يخرج منها آدم منتصراً ظافراً ، عندما
تعرض عليه المسميات فيعرف أسماءها بتوقيف العليم الخبير
وتعرض على الملائكة فلا يعرفون . . . لأنه علم لا يلائم طبيعتهم،
وبذلك تنقطع حجتهم في خلافة الأرض ، ويثبت استحقاق
الانسان لذلك .

ولك أن تقول : لكن الله علم آدم ، ولم يعلم الملائكة ولو
شاء لعلم الملائكة فنجحوا في هذه المسابقة !!

والجواب على هذه الشبهة . . . أن الله جل جلاله يعلم
طبيعة الملائكة . . . فأدم للأرض يكافح الشهوة ، ويناضل
الشیطان . . . وكم تكون حياته على وجه الأرض مستحيلة ، أو
على الأقل غير محتملة ، لو لم يزود بهذا اللون من المعرفة ولهذا
مكنه الله من هذا العلم دون الملائكة . . . كسلاح ضروري لحياته
الجديدة أما الملائكة فما حاجتهم اليه ؟ ولنضرب لذلك مثلاً
بسيطاً من واقع حياتنا « ولله المثل الأعلى » . . . عندما يكون
لك ولدان . . . أحدهما راغب في المعرفة ، محب للعلم ، وللمدرسة
والآخر كاره للعلم والتعليم محب للزراعة . . . انك تلاحظ
استعداد كل منهما فتوجهه الوجهة التي يصلح لها : هذا
للمدرسة وهذا للزراعة وكل ميسر لما خلق له . . . وأنت بهذا

لم تظلم أحداً • • وليست الزراعة أقل من المدرسة منزلة ، ولكن استعداد الوالدين هو الذى قرر هذا التوجيه وأكدته !! فاذا كان هذا يحدث معنا ، وعلمنا بالاستعدادات قاصر فكيف بعلم الله الذى وسع الأشياء ، ونفذ الى أدق خصائصها لأنه خالقها ومبدعها ؟ !

والله من قبل ومن بعد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • • لأن الخلق والأمر كليهما له « ألا له الخلق والأمر (١) » ، وقد نخفى الحكمة علينا لضيق أفهامنا !!

وليس مما يقدر الملائكة ألا يعرفوا أسماء المسميات فذاك شيء لا يعنيههم ولا هو من مهمتهم • • وكأنما الله العلى الكبير أراد أن يبطل حجته في رسالة الأرض • وأن يشرح لهم بعض قانون الحكمة - فضلا منه وكرماً - فعقد هذه المسابقة العلمية بينهم وبين آدم فى الملا الأعلى • • حتى اذا أحرز آدم السبق انبهر الملائكة ، وهتفوا مدعنين : [سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم] وكأنما هذا الاعتراف من الملائكة • • يحمل معنى التسليم المطلق لعلم الله المطلق ، كما يحمل أيضا اعتذاراً ضمناً عند تشبثهم السابق بعمارة الأرض والخلافة فيها • • وهو يعطى فى ايحائه استحقاق الانسان لهذا الأمر دونهم • • لأن طبيعته ترشحه لذلك • •

لكن يبقى سؤال آخر يطرح نفسه تلقائياً على الموقف كله : وهو بماذا يفضل آدم الملائكة ؟ حتى يسجدوا بأمر الله تبارك وتعالى ؟ !

هل هو تفضيل لم تبرز حكمته لنا ، • والجواب أن هناك

(١) آية ٥٤ سورة الأعراف .

حكمة نعلمها وقد يكون هناك ما هو أجل منها لكنه خاف علينا .
لأن علم الله قد استأثر به !!

والحكمة فيما نعرف ، أن هذا الانسان له ارادته الحرة التي
يستعملها في صراع الشهوات وفي كفاح الشر على وجه الأرض
فينتصر حيناً ويندحر حيناً آخر ، على قدر ما فيه من حزم
وعزم . . بهذا يفضل الملائكة . الذين لم تكن الشهوات جزءاً
من كيانهم . والذين [لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون] .

لكن الانسان اذا عطل هذا الجانب من وجوده ، فألغى
ارادته واستسلم لعوامل الشر ، وركع أمام الشيطان ، فقد خر
صريعاً في معركة الشر وحقت عليه كلمة العذاب وبذلك يصير
احط مخلوقات الله لأنه فقط عنصر السيادة عليها ، وهو
استخدام ارادته لينجو من كيد الشيطان ولنقرأ في ذلك قوله
سبحانه يصور لنا انهزام الارادة الانسانية أحياناً في مقاومة
الشهوات : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها
فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه
أخذ الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه
يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (١) » :

وفي الآية لمحة جميلة تؤكد لنا أن الله قد مكن كل انسان من
الهداية ، بتقديم آياته اليه وأن في هذه الآيات عصمة من
الشيطان ، لكن الانسان قد تضعف مقاومته ، وتهن ارادته
فينفصل عن تلك الآيات فيقع في قبضة الشيطان ، ومن ثم
ينحط أدبياً وانسانياً فيهبط من علياء انسانيته الى درك
الحيوانية الوطية فيكون كلباً حقيراً والله سبحانه لا يساعد
الا من بدأ بتزكية نفسه والارتفاع بها عن الطين والاستمساك

(١) آنا ١٧٥ ، ١٧٦ سورة الأعراف .

بآياته ، لكن هذا الانسان عندما يتحول الى سلبية واهنة فيخلد الى الطين ، ويتبع هواه لا يمكن أن يظفر بعون الله ، وهذا هو قانون المشيئة العليا ، تساعد من يبدأ باعلاء سلوكه ، وتتخلى عن يستسلم للشيطان ويقعد عن المقاومة ، [قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها (١)] [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى (٢)] وهكذا بوضوح ، ابدأ بنفسك تجد القدر يعينك ، وأهمل نفسك فلن تظفر بأية معونة !! وفي تصريح الملائكة « سبحانك لا علم لنا » فهم للقضية على وجهها وفي قولهم أولاً : « ونحن نسبح بحمدك » تعبير عن خطأ الواجهة ، فقد خيل اليهم أن التسبيح والتقديس هما عنصرا الاستخلاف فكان الرد عليهم من الله « انى أعلم ما لا تعلمون » ، أى أن التسبيح والتقديس ليسا من مقومات الاستخلاف ، بل لابد معهما من مقاومة الشهوات ، والملائكة لا شهوة لهم ، فقد ركب كيانهما من غيرها أى أن آدم بما يحمل من معنى الخطيئة حيناً ، ومن معنى الالتزام حيناً آخر هو الجدير من أجل ذلك بخلافة الأرض وفي قول الملائكية « أتجعل فيها ألخ » ابراز لتعجبهم أن يكون آدم وأولاده في مثل هذا المنصب الخطير مع افسادهم وسفكهم للدماء ، ولكن قبلهم أخيراً : « سبحانك لا علم لنا » يجب ما قبله ، ويعطى معنى الانقياد والطاعة والاستسلام لحكم الله ، بعد فهم القضية على وجهها وبعد ظهور نتيجة الامتحان !!

جاء في تفسير المنار (بتصرف قليل) « وعلم آدم » أن الانسان بقوة العقل غير محدود الاستعداد ولا الرغائب ولا العلم ولا العمل فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعة في الكون تصرفاً لا حد له باذن الله وتصريفه ، أعطاه الله هذه المواهب

(١) آيتا ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٢) آيتا ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات .

ليظهر بها أسرار خليقته ومملكه الأرض وسخر له عوالمها اعطاه
أيضاً أحكاماً وشرائع لتتقود خطاه ولتقود آتار الانسان في
هذه الخلافة ونحن نشاهد عجائب صنعه في النبات ، والبر
والبحر والهواء فهو يتفنتن ويبتدع ويخترع ويجد ويعمل حتى
شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً والجذب خصباً والخراب عمراناً
والبرارى بحاراً وخلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات ،
« نقول وفجر الذرة » مع أنه بعد ذلك لم يؤت من علم الله الا
قليلاً » :

ثم يذهب صاحب المنار الى أن الله علم آدم وأولاد آدم كل
شئ ومعنى تعليمه الأسماء أى ما به يعلم الاسماء هو وبنوه أى
العلوم المطابقة للحقائق ، والاسم يطلق على صورة العلوم فى
الذهن وهذا يطابق ما فهمه اليونان حيث أطلقوا الاسم على ما فى
الذهن من معلوم ثم يقول : والقصة وردت مورد التمثيل ا ٠ هـ «

ونحن نرى أن الله قد أوجد فى آدم وأولاده قابلية التعلم
ومنحهم النموذج الدال ليتصرفوا به مبدئياً فى أداء مهمتهم -
ثم تركهم لتجاربهم وتفاعلهم مع الكائنات يحرزون كل يوم
جديداً من المعرفة فيربو وصيدهم العلمى باقدار الله واعانته
وتوفيقه وقد تكون الدفعة الأولى التى تلقاها آدم وأبنائه من
العلم فى المبدأ الأعلى مؤشراً لسمو العلم - وتحديد مكانته -
وايماء الى آدم وأبنائه بأن الحياة على سطح الأرض مستحيلة
بدون هذا العلم - وبذا يكون أصل العلوم كلها من الله . . . وللشعر
اجتهاداتهم بعد ذلك وتجاربهم التى ينبغى مهما عظمت أن
تسير فى خط يراقب الله ويرعى حرماته . . .

ومهما يكن من شئ فان آدم وبنيه حركوا هذه المعرفة
الأولية بالتجربة رويداً رويداً واستخدموها مفتاحاً يحل
الألغاز ويكشف الخفيات . وما زالوا يكتسبون الخبرات

الجديدة من الحقائق والمعاني والمعارف حتى حصلوا من ذلك
على كل رائع ومثمر ..

وربما نفهم - كما يشير صاحب المنار - أن الانسان
يفضل الملائكة بالعلم الذى علمه الله اياه ثم استثمره وأرباه
بتعامله مع بيئته الجديدة .. ولكن ينبغى أن نحرص على أن
كلام ميسر لما خلق له .. وأن آدم لكل ما قدمنا أليق بعمارة
الأرض وأفضل من الملائكة فى ذلك وأول ما نحرص عليه من
الفهم لهذه القضية - أن آدم وأبناءه لهم فطرة مزدوجة من
كدرة الطين ونفخة الروح .. ومن ثم فهى مجال صراع .. ولا
يبطل هذا الصراع الا الارادة .. وذلك يحتاج الى مجاهدة وهذه
المعاني كلها غير موجودة فى الملائكة .

وأىضا ففى الانسان مطامع وشهوات ورغبات فى
استكشاف المجهول والغامض .. وتحريك هذه الرغبة فى
خاصية الهدم والبناء والحل والتركيب ومعرفة المجهول كل ذلك
مع ما ذكره صاحب المنار هو سر استخلافه فى الأرض وتفضيله
على الملائكة .

ثانيا : قوله سبحانه « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »
هذا هو دليل تكريم الانسان وتفضيله صراحة - والسجود هنا
لمعنى التكريم - وليس سجود عبادة - وهو سجود يقع بأمر
الله - وليس سجود كائن لكائن يحدث تلقائيا .. فكأنه سجود
له سبحانه لأنه لما أمر به صار كأنه له .. وفى تكليف
الملائكة بالسجود لآدم ينحسم الموقف عمليا - كما انحسم من
قبل نظريا عندما اجتاز آدم عقبة الامتحان .. فان الملائكة
اعترفت صراحة بأحقية آدم لاستخلاف الأرض - حيث قالوا :
« سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا !! »

ولكن الاعتراف المقالي لا يجسم الموقف حسما أكيدا - فاذا ترجم المقال الى عمل فحينئذ يجيء الاعتراف الذي لا يلابسه أدنى شك . . . والسجود لا يعد وأن يكون ترجمة عملية لاعترافهم السابق - وهو دليل على اقتناعهم من كل الوجوه . . .

ولكى يظل الانسان في هذا الأفق الكريم عليه أن يكافح الشر بارادته الحازمة . . . وقوله سبحانه « الا ابليس » ايماء الى العدو الأصيل لآدم وأبنائه - فقد رفض السجود وتمرد عليه وأبرز عداوته في الملائكة الأعلى دون حياء أو خجل من الله وملائكته . . . وليس ابليس من الملائكة - وانما هو من الجن واستثناؤه لا يدل الا على أنه كان مع الملائكة في هذا المشهد كما تقول حضر الطلاب الا عليا . . . وعلى ليس منهم بل هو معهم ولا بليس حقيقة في القرآن . . . وضحاها بأبلغ بيان . . . وأمر الناس أن يستعيذوا من شره - وفسر لهم أساليب وسوسته . . . وأبان أن له أعوانا من الجن - ومن الانس . . .

ومع ذلك فنحن نفهم أن كل قوى الشر في العالم مرتبطة به فكافحتها مكافحة له . . . وما أكثر عملاء ابليس في هذه الحياة !! نعم كل ما في الحياة من ضلال وفساد وانحراف وغواية صناعة ابليسية فلنحذر منها جميعا « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا - انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (١) » وحزب ابليس هم عملاؤه من الجنة والناس . . . فاذا ثار نزاع في نفس الانسان بين عوامل الخير وعوامل الشر - فانتصرت قوى الخير - فقد انهزم ابليس - لأنه يريد الشر دائما أن يسود . . .

واذا نشب صراع خارج كيان الانسان فانتصرت فيه

(١) آية ٦ سورة فاطر .

القوى الخيرة فقد انهزم ابليس - ومن ثم وجب مجاهدة الشرور كلها في النفس - وفي الحياة لاحباط عمل ابليس وابطال سعيه ..

وهكذا ينبغي لأبناء آدم أن يصرفوا جهودهم كلها لاستخلاص ارادتهم من عدوهم الأصيل هو ابليس - وطريق ذلك الاخلاص لله في السر والعلن « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (١) » منذ فجر الحياة و ابليس واقف للبشرية بالمرصاد - يوسوس لها - ويزين السوء - ويصد عن الخير ويلقى بالعداوة والبغضاء فهل تعقل البشرية ذلك فتصرف جهودها لاعلان الحرب عليه وتكف عن تلك الحروب الظالمة التي تديرها في غير ميدانها الأصيل !؟

وفي قوله سبحانه : « وقلنا يا آدم اسكن .. الخ » تصوير لمقام آدم وزوجه في الجنة - وايحاء برغد العيش فيها - ويسر الحياة بين ثمارها وأنهارها .. وما حوته من روعة وبهاء مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر .. انها السعادة في أكرم صورها .. ولقد تكفل له بتلك الحاجات الأصلية التي لا غنى عنها .. وهى المسكن - والملبس - والمأكل والمشرب [ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تنظماً فيها ولا تضحى (٢)] ..

لكن قدر الله غالب - و ارادته نافذة - وقد شاءت هذه الارادة - أن يستنزل آدم من الجنة ليعمر الأرض هو وبنوه .. ولم يكن ثمت محيص ولا معدل عن ذلك !!

ولهذا جاء ابليس - واستعمل الغواية - وأضل آدم -

(١) آية ٤٢ سورة الحجر .

(٢) آينا ١٨ ، ١٩ سورة طه .

فنفذت حكمة الله • وكان لابد أن تنفذ بسبب أو بآخر لأن
الجنة ليست له بدار !!

وفي هذا الجزء من الآية ايجاءات رائعة ينبغي أن نصغى
الى همسها اللطيف : أولها ابراز عداوة ابليس للانسان ••
وأسلوب وسوسته •• « هل أدلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى (١) » ووراء هذين الهدفين نسي آدم العهد مع ربه
واستسلم للشيطان !! وراء « ملك لا يبلى - ووراء الخلد »
ولو فتشت عن مطامح البشرية قديما وحديثا لما وجدت لها
تخرج عن هذين •• وقد صاغهما ابليس صياغة فيها الاغراء
كله - والجازبية كلها •• وهذا هو أسلوبه معنا دائما •• يأتي
الى أحدنا قائلا من خلق هذا ؟ ثم يتدرج ومن خلق هذا ؟
فنجيب : الله ثم يدلف الى غرضه من الفننة قائلا ومن خلق
الله ؟ •• وينبغي سد الطريق عليه منذ أول لحظة حتى لا يمضى
في تنفيذ مخططه في الشر والغواية - يجب دائما أن نذكر
عهدنا مع الله [ألا تعبدوا الشيطان] حتى نسلم من شباك
ابليس وفي قوله سبحانه [ولا تقربا هذه الشجرة] ايجاء
بمحارم الله - ورمز الى حدوده التي لا ينبغي أن نتخطاها ••

وقد نفهم سر التحريم •• وقد لا نفهمه •• والواجب في كلا
الأمريين حسن الطاعة وتمام الانقياد •• وقد نتبين الحكم فيما
بعد عن طريق العلوم والمعارف - أو عن طريق التجربة والمعاناة
ان هذه المحارم منطقة موحشة •• تكمن فيها المهالك والأخطار
والعاقل لا يقترب منها وسبيله الى ذلك هو ارادته القوية
المرتبطة بالعهد القديم مع الله •• وهو عهد يتجدد كل لحظة
تلقائيا ما دام في الدنيا أبلسة وابليس - كما أن هنا ايجاء
آخر بأن التحليل والتحريم لله وحده ليس لأحد أن ينازعه

(١) آية ١٢٠ سورة طه .

فيهما « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب (١) » ولقد حاولت بعض الدساتير الوضعية أن تحرم أموراً ضارة بتشريعات بشرية ففشلت في ذلك أعظم الفشل . . . وعندما نزل التحريم من السماء سارع الناس الى الامتثال . . .

وفي قوله سبحانه « فكلا منها رغدا حيث شئتما » ايحاء بنعيم الجنة - وما نلقاه فيها من روح وريحان وكلمة « رغدا » توحى بالهناء والسعادة والسرور وراحة البال . وفي قوله : « حيث شئتما » ايحاء باليسر - واشباع الرغائب - واجابة المطالب اجابة تخضع لرغبة الانسان !!

ومع ذلك فقد وقع المحذور . . . واستجاب آدم للغواية . . . وهو يعطى أن ابليس له قدرته الهائلة في الشر لأنه متخصص فيه . . . وفي قوله سبحانه : [فأزلهما] أي زحزحهما ما يفيد بذل الجهد - والطاقة لتحقيق الهدف . . . فلم تكن هذه الزحزحة التي توشك أن نسمع من خلال اللفظ صوتها الا بجهد غير عادى - ومع طيب المقام في الجنة - وأخذ العهد من الله - تمت الزحزحة وانزل آدم الى الأرض يكدح ويسعى ويحقق ذاته في جهاد أصيل . . . فهل لنا بعد ذلك أن نأخذ حذرنا من أساليب أعداء الله - عملاء الشيطان - وحزب ابليس - ونحلل كل ما يصدر عنهم من زيف وباطل حتى لا يصدونا عن سواء السبيل ؟ . . . انه لدرس الساعة من هذه الآية الكريمة .

تاسعا : قوله سبحانه : « وقلنا اهبطوا » تصوير يوحى ببعد الشقة بين الجنة والأرض . . . كما يوحى بأثر الخطيئة في حياة البشر . . . فان الذى حدث بعد ذلك هو « هبوط » أى نزول

(١) آية ١١٦ سورة النحل .

من أعلى .. فلنحذر من الخطايا لنظل في المكان العالى .. بعيدا عن ابليس .. وفيه اشارة الى أن المعركة بين آدم و ابليس قد انتقلت من نفس الانسان - ومن الملائكة الأعلى - الى ساحتها الطبيعية وهي الارض لتظل ملتهبة الأوار الى يوم الدين .. وهذا دليل على أن الخطيئة ليست بعيدة عنا .. بل هي جزء من كياننا - ولعل ما وقع لآدم من اغواء رغم العهد مع الله - يوحى بذلك .. حتى لا نتهالك أسى ولوعة اذا ما صادفنا شئ منها في الحياة .. وانما ينبغي أن ننهض من الكبوة سريعا لنجدد العهد مع الله .. وذلك قوله سبحانه : [فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه] تلك الكلمات هي تذكيره بالعهد مع ربه - وتلقيه التوبة النصوح والهامة أن يعتذر عن زلته ويندم عليها - وهدايته بعد ضلالاً ..

ولذا كانت الثمرة « فتاب عليه » وهكذا كل بنى آدم خطأ .. المهم الاعتذار السريع - والندم على ما وقع - وتجديد العهد مع الله .. ثم استئناف المسيرة على طريق الايمان - والانتفاع بهذا الدرس وليس يعنينا أن نعرف اسم الشجرة أهي النخلة ؟ أهي التفاح ؟ أو الكرم ، أو القمح ؟ كما لا يعنينا اسم المكان الذى نزل فيه أهو الهند أم غيرها .. كالكعبة مثلا .. لأن سر ذلك الى الله .. وليس وراءه أية ثمرة ..

والكلمات التي أوحى الله بها الى آدم .. هي كلمات التوبة مهما يختلف تحديدها عند المفسرين ففي فتح القدير للشوكاني : أن الثعلبي روى عن ابن عباس أن هذه الكلمات هي : [ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (١)] وروى أن ابن عباس سئل عنها فقال : [علم شأن الحج] وقيل هي : [لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

الظالمين (١) [٠٠ كل ذلك معقول ٠٠ ولا يخرج عن القولية
النصوص ومهما يكن من شيء فان الله تقبل منه الاعتذار وتاب
عليه ٠٠ وهذا يدل على أن انزاله الأرض بعد ذلك ليس عقوبة
على الزلّة ٠٠ وانما هو لتنفيذ ارادة الله وقدره .

والمجاهدة لاثك هي وسيلة آدم وأبنائه للتخلص من
ابليس وعملائه ٠٠ وهي مجاهدة نفسية حين يكون مجال
الصراع داخل النفس ٠٠ ومجاهدة خارجية حين يكون مجال
الصراع أرض الله وضد أعدائه - على الانسان في غمرة هذا
الصراع المرير أن يذكر عهد استخلافه مع ربه في الملأ الأعلى
وأن يجعل شعاره في الحياة : (عدوى ابليس وعملاء ابليس ،
وكل باطل على وجه الأرض وكل ضلال يقع وكل ما يهدد كرامة
الانسان) - واذا ذهل عن هذا الشعار ساعة أو بعض ساعة
وجب أن يرد اليه سريعاً فيقال له : « اعرف عدوك » والآية
كلها تؤكد بأن الخطيئة فردية - وأن التوبة فردية وأن كل
واحد من أبناء آدم وبناته مسئول عما يقع منه مسئولية
شخصية ٠٠ واذا قصر في المتاب فعليه وحده اثم التقصير
ليست هناك خطايا مفروضة علينا - وانما تخضع في مقاومتها
للمجاهدة وكبح جماح الشيطان [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً
يره - ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٢)] [ولا تزر وازرة
وزر أخرى (٢)] .

وبهذا يرد على المسيحية التي تزعم بأن المسيح قد تحمل
خطايا البشر « عندما صلب » وهي فرية يكذبها المنطق ٠٠ ما
ذنب المسيح حتى يكفر عن الخطائين !!؟

(١) آية ٨٧ سورة الانبياء .
(٢) آية ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .
(٣) آية ١٥ سورة الاسراء .

والسياق يفيد أن العالم كله صادر عن الله فينبغي الحفاظ عليه ليظل على نقاوته نظيفا من الشرور والآثام بعيدا عما يغضب الله - تقام فيه حدوده - وتلتزم مانهجه - وتتبع شريعته « فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

ويفيد السياق أيضا بأن الأرض ليست ساحة عذاب - سجننت فيها انسانية شريرة . . وكيف فتصور هذا مع قبول التوبة من آدم - والهام الله اياها وتلقينه الكلمات عن ربه - والقرآن يصرح بأن الأرض ساحة مباركة - يزدهر فيه نشاط الانسان وتنطلق ملكاته المبدعة ليستثمر كنوزها - ويعمر جوانبها - ويحكم فيها بالعدل والقسطاس . . وينشئ فيها أروع الحضارات على حين أن العهد القديم يلعن الأرض - ويجعلها ساحة جحيم . . . وكم لليهودية والمسيحية من خرافات !! . . ونفهم مما مر أن هبوط آدم من الجنة على هذا الكوكب لا صلة له بظهور الانسان الاول على ظهر الأرض - اذ لا دليل فيها على نفي ذلك أو ثباته . . وانما تعبر في دلالتها العامة عن ارتقاء الانسان من البدائية المطلقة - الى الشعور بأن له نفسا حرة قادرة على الطاعة أو العصيان - ولا يعنى المدلول أكثر من هذا . . ليس فيها دليل كما يتقول بعض الكاتبين على الفساد الأخلاقي لدى الانسان بقدر ما فيها من التعبير عن الطبيعة البشرية التي من شأنها أن تذكر العهد حيننا مع الله فتستقيم - وتنسأ حيننا فتنحرف !!

يقول الفيلسوف اقبال في كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » : « ان القصة تعبر عن انتقال الانسان من الشعور البسيط الى أول بارقة من بوارق الشعور بأن للانسان نفسا حرة - تحس بوجودها - وتستخدم ارادتها - هذا الى

أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجننت فيها انسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية - لأن المعصية كانت أول فعل تتمثل فيه حرية الاختيار ولهذا تاب الله عليه وغفر له » .

وهذا كلام ممتع ، وتفسير جذاب كعهدنا باقبال - نضيف اليه أن المعصية التي وقعت من آدم كانت بمثابة التعبير عن الطبيعة الانسانية التي ركبت فيها الشهوة . . مضافا الى ذلك أنها تجربة تمثلت فيها حرية الاختيار وبهذا يتكامل الموضوع . . ويذهب اقبال الى أن الأكل من الشجرة تعبير عن الرغبة في المعرفة من جانب آدم وزوجه . . وما حدث معهما من ظهور السوأة تعبير عن التكاثر والقوة لأن النفس من حيث هي نفس تنشئ المعرفة والتكاثر والقوة لتحقيق - الخلد - والملك الذي لا يبلى . .

وينقل الأستاذ اقبال في كتابه (١) السالف تفسيراً للآية فيه طرافة وجمال ينقله عن الكاتبة الرمزية القديمة « مدام بالفاتسكى » في كتابها « المذهب السرى » . . فيقول على لسانها :

« ان الشجرة تعنى عند القدماء رمزا خفيا الى علم الغيب - وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق الشجرة ، لأنه نفس متناهية - ولأن عتاده الحسى وقواه العاقلة كل ذلك بصفة عامة مهياً لنوع آخر من أنواع المعرفة - هذا النوع هو الذى يقتضى الكد والمعاناة والملاحظة ولا يقوى الا على التجمع البطيء . . ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل من الثمرة المحرمة . . من شجرة

(١) ص ١٠١ كتاب تجديد التفكير الدينى لاقبال .

المعرفة - وانقاد له آدم لا لأن الشر كان متأصلا في نفسه -
ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب
طريق - وكان طريق تقويم هذا الميل فيه أن يوضع في بيئة
مهما تكن مؤلمة له - لم يكن القصد منها عقابه - بل المراد من
ذلك - القضاء على صد الشيطان له الذي احتال بسبب عداوته
للانسان بلين القول على أن يبقيه جاهلا للنعيم الذي يفتشأ
عن انو والامتداد الخالدين - ولكن بقاء ذات متناهية في بيئة
كنود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة
الواقعة وتجارب هذه الذات المتناهية التي تنفسح أمامها
امكانات عديدة - وهذه المعرفة تزداد وتتسع بالمحاولة والخطأ
وعلى هذا فان الخطأ الذي قد يوصف بأنه من الشر عامل لا
محيص عنه في بناء التجربة « ٠١ هـ

نقلت لك هذا التفسير لجماله وروعته . واتساقه مع المنطق
السديد والفكر المتفتح . .

ومنه يؤخذ سبب طريف لاستئزال آدم من الجنة الى
الأرض . . هو أن يقاوم تلك البيئة الكنود ويحصل المعرفة
بالأناة والمهل والتجمع البطيء شيئا فشيئا لأن ذلك هو سبيل
اكتساب المعرفة للانسان - وهو سبيل انماء التجربة الانسانية
. . أما العجلة في الحصول على المعرفة فصد طبيعته . . ولذا
رفض القدر تلك الفعلة الصادرة من آدم وهي الأكل من الشجرة
متعجلا قطف ثمار المعرفة وهو لا يطيق ذلك دفعة واحدة . .

بل يحصل المعرفة على مهل وأناة وتري الكاتبة أن الأرض
بستان مبارك يستثمر الانسان فيه علمه وأنه ليس سجننا
له ولا عقوبة على فعلته ، بقدر ما كان تقويما لسلوكه في
تعجل المعرفة .

ولسنا نستطيع أن نقطع بأن الشجرة كانت رمزا للمعرفة ولا لغيرها بقدر ما يعنيننا أن نفهم بأنها رمز الى المحرمات التي ينهى الله عباده عنها على امتداد الزمن والله أعلم .

قيم حضارية تعبر عنها آية الاستخلاف :

من المفيد جدا بعد الدراسة الموضوعية لآية الاستخلاف أن نستقطب القيم الحضارية التي تنضحها هذه الآية لنستثمرها في وجودنا . . . ونستفيد بها في تأسيس حضارتنا :

١ - أن الانسان هو الأساس الوطيد في بناء أى حضارة عظيمة ، تتوفر فيها المعانى الانسانية ، والقيم النبيلة ، فينبغى الحفاظ على كرامته ، والاعتزاز بخصائصه وتقدير مواهبه . . . واقرار شهواته . . . لتأخذ الفطرة الانسانية امتدادها في بناء الحضارة ولا شك أن نفاسة العنصر الانساني ، ووضعها في المحل الأول تمكنه من بناء حضارة الأحرار . . . أما استعباد الانسان فانه لا ينتج الا حضارة العبيد . . .

٢ - أن الله جلت قدرته قد توج ذلك الانسان بتاج العظمة والجلال في الملأ الأعلى ووكل اليه عمارة الكون وبناء الحياة . . . وسخر له قوى الطبيعة كلها تسهيلا لمهمته وتيسيرا لرسالته . . . ودعما لكرامته . . .

- أن الانسان انما يستمد كرامته في الأرض من منبع واحد فقط ، وهو تذكره لعهد ربه الذى أخذه عليه في الملأ الأعلى ، ليظل دائما في حمى الله ، فلا تستذله قوى الشر ، ولا ترهقه قوانين البشر ، ولا يستغويه الشيطان فيصده عن ذكر الله ، وعن الصلاة . . . وكل ذلك يقتضى أن يقر الانسان مشيئة الله في أرضه ويحرس مبادئه ، ويقيم حدوده . . . ويحمى هذته

المبادئ أن تنال منها قوى الشر ، أو تحطمها ارادة البغي . .
أو تعبت بها شياطين الانس ، وفي ذلك أمنه واستقراره وهداه
وبذلك تنتهياً الساحة الحضارية النظيفة التي تشيدها قوى
العلم والايمان .

٤- أن نسيان هذا العهد هو الخسران المبين ، لأنه يقود
الى العصيان والكفر ، ومحال أن تنشأ حضارة انسانية في ظل
الفجور والالحاد لأنها تصادم فطرة الانسان وتعااند خصائصه .

٥ - أن مناهج الحضارات لا يمكن أن نتصورها في قوانين
من وضع البشر . . لأن الانسان عاجز عن فهم نفسه ، وادراك
ذاته . . وانما المنهج الحق هو ما وضعه العليم الخبير الذى
خلق فسوى وقدر فهدى . . « ثم جعلناك على شريعة من الأمر
فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ومن ذا الذى يفهم
الانسان الا خالق الانسان !؟

٦ - أننا عندما ننظر في الحياة من حولنا نرى آثار
المناهج البشرية ، تجربة شاذة تعيشها انسانية تعيسة ان في
الشرق أو الغرب . وعندما تكون النتائج تجارب واقعية فانها
تعطى العظة وتمنح الهداية ، وقد مضى ذلك في الصفحات
السابقة . . وأنها لم تنشأ الا ذاتا ضالة حائرة شقية تعيسة
خائفة مضطربة !!

٧ - الله جل جلاله ، والانسان ، والكون ، وحدة متماسكة
في جو الآية الكريمة . . الله ، خالق الكون ، وبارئ الانسان . .
وهما معا يستمدان من الله . . ويتحركان بارادته . . والانسان ،
نفخة من روح الله . . وقطعة من الطين . . والكون سماؤه
وأرضه من صنع الله وتسخير الكون للانسان يتم بتيسير
الله . . وتفاعل الانسان من عناصر الأرض يتم أيضا بالهام

الله .. والمعرفة التي يفتقر اليها الانسان ليُدعم وجوده على
ظهر الأرض نفحة من العلى القدير ، والهداية التي يستظل
بها تكمن في العهد الذى أخذه على الانسان ..

وعندما نبني حضارة خالدة فلا بد من رعاية هذا الترابط ..
وترجمته الى واقع .. قيمة الانسان فى تمسكه بعهد ربه ،
وعمله بمنهجه ، واستفادته من علمه فاذا فسق عن ذلك فقد
غوى ، وقيمة الكون أن يتخذ منه الانسان مجالا للفكر ، ومقرا
للبناء والعمل ..

وما دام الانسان والكون مصدرهما واحد .. فان عليهما
أن يتآخيا فى رحلة الحياة .. فاذا تم التآخى بين الانسان
وكونه تم له الخير كله وتمكن من الجهاد النبيل لبناء حضارة
انسانية .. وفى انفصالهما ، جهل بأبسط النواميس .. وكيف
ينفصل الانسان عن كونه مع أن ربهما واحد؟! الله سبحانه
يوحى بالمنهج ، والانسان يتلقى عن ربه ويصدع لمشيئته
وأمره ، والأرض هى ساحة الحضارة التى تستغل عناصرها فى
البناء والتشييد ..

٨ - أخطر ما يهدد الحضارات الانسانية هو انفصالها عن
الله ، ونسيانها العهد ، وكذلك الانفصام الذى يحدث أحيانا
عندما ينفصل الانسان عن البيئة ، فلا يتدبر ولا يكتشف ولا
يمضى فى التجارب .. وكل هذه الأخطار تكمن وراء ابليس
وعملائه .. من عبادة المادة ، وتقديس المال ، ومغامسة
الرزائل .. وتلك هى مآسى حضارة اليوم ..

والمنهج الحضارى يكمن فى قوله سبحانه : [فمن اتبع
هداى فلا يضل ولا يشقى] ..

الايمان . . . وأنها كانت نماذج رفيعة في الفن والعمارة وغيرهما
وأن بعضها قد عاش حتى انقضى دوره التاريخي . . . ليحل
محلّه غيره مما هو أكثر ملاءمة لتطور البشرية الصاعد . . . وأن
بعضها الآخر قد انحرف عن الله فأذاق أصحابها لباس الجوع
والخوف وصب عليهم سوط عذاب . . . وبتحليل عناصر تلك
الحضارات من خلال العرض القرآني سندرك أن حظ العقليّة
الانسانية من الابداع عريق جدا في التاريخ . . . يضرب الى
أزمنة بعيدة !!

وبعض نماذج تلك الحضارات نحس بالتعاطف معها حين
نقرأ وصفها ونحلل عناصرها وبعضها ننفر منه لجنوحه الى
الوثنية وشروده عن الله وتوغله في الفساد .
هناك حضارات قديمة جدا كالسومرية والمصرية والنبطية

والسوريانية وهناك السبئية والعدية والشمودية . . . وهناك
حضارات قد داخلها عنصر الاعجاز كالدودية والسليمانية
وسيكون تحليلنا للحضارات التي وصفها القرآن أساسا لفهم
عناصر الحضارات القديمة ونقل بعضها عن بعض . . . وتشابه
عناصرها . . . ووحدة نتائجها عندما تنفصل عن الله . . .

أما ما عدا تلك الحضارات القديمة التي وصفها القرآن . . .
فيمكن أن نشير اليها ونعقد المشابهة بينها وبين نظائرها ،
عندما تستقيم الحضارات على منهج الحق - وترعى حرمان
الله . . . وتصغي لصوت النبوات فانها تزكو وتتكامل . . .
وبخاصة عندما يجتهد أصحابها في العمل ، ويجدون في
السعي . . . ويتحركون بتجاربههم - عندئذ يبارك الله جهادهم
- ويسدد خطاهم ويمكن لهم في الأرض .

وعندما ينحرف أصحاب هذه الحضارات الرائعة عن الله .
وتسكروهم نشوة المظاهر فيآلهون وينتفخون ويتبجحون

بالمعاصي فيضلون عن سواء السبيل عندئذ تصبح حضارتهم
أثر ابعدي عيني - قصصا تحكي - وأحاديث تروى - وعبرا تقال
في مجال العظة والتأسي وسنعرف أن توفيق الله للبشرية مرتبط
بذكر العهد مع الله . . فاذا غفلت عن هذا العهد ضلت طريقها
في الحياة فتمزقت وحدتها ووهنت قوتها وتفتتت إرداتها
وضاعت « هويتها » وتخطفتها الشياطين !! لأن رحمة الله
لا تنزل على مجتمع آثم - يهدر كرامة الانسان - ويمتهن
خصائصه - ويحتقر قيمة الرفيعة . . انه في هذه الحالة يتحول
تلقائياً الى مجتمع حيواني هابط أو رجعي فاجر . . . لأنه رجع
بخصائص الانسان العليا الى غريزة القطيع - وبفضائله
الرفيعة الى شريعة الغاب وأطلق هذه الغرائز الحيوانية تنزوا
وتعربد !! حين تكون « انسانية الانسان هي القيمة الرفيعة في
أى مجتمع ، وتكون خصائصه الانسانية موضع التكرم يكون
هذا المجتمع متحضراً تقدماً لأنه يغالى بخصائص الانسان
ويرتفع بها الى الملاء الأعلى . . مرتبطاً بهذا المستوى العالي فلا
تتخطفه الآثام ولا تتحيفه المفاصد - ولا تعبت به الشياطين .

وحيثما عبدت المادة وقدست قيمها فقد ذهب المعنى
الرباني وانكفأ البشر في حمأة الرذيلة فعبدوا البقر أو الشجر أو
القمر أو الأشخاص وأضحت المعاني الانسانية باهتة ممتهنة .

وسبيل صنع الحضارات يتوقف أولاً على المنهج الذي
يتجاوب مع فطرة الانسان وعلى ارتباط البشر بذلك المنهج -
وتطبيقهم اياه وتمكينه من أداء دوره في الحياة ، عندئذ يستقيم
حالهم . وتبرز مواهبهم الكامنة - وتزدهر عقولهم الواعية
وتشرق أرواحهم الطاهرة . فيلهمون أسرار الحكمة ، ويتفاعلون
مع عناصر الكون تفاعلاً صحيحاً ، فيبنون صروح الحضارات ،
ويعمرون جوانب الحياة ويرفعون لواء العدالة - وينشئون

معامل المدنية • • ويكونون حصن الأمان للبشرية جمعاء تأوى
الى ظل ظليل من انصافهم ومكارمهم • •

ولقد مرت البشرية أثناء رحلتها الطويلة الممتدة على درب
التاريخ بفترات أضاعت فيها جوانب حياتها بنور الله -
فارتبطت مبنهجه - وسارت على هداه فكونت أزهى
الحضارات ، وبنت أروع المدنيات • •

كما مرت بالبشرية أيضاً فترات هبوت واسفاف أبعدها
عن الله فتخطفتها صروف الحياة وطمع فيها أعداء الله فساموا
أهلها سوء العذاب [وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون (١)] •

أى قيمة للمعقل الضخمة ، والعمائر الفخمة والبروج
المشيقة والمروج النضرة والجنان العطرة ، والقلوب خاوية من
الإيمان والنفوس مستعبدة بالشيطان ؟ !! وانما القيمة لعانى
الإيمان تحفز الهمم وتحرك السواعد وتملأ قلوب الناس بالثقة
والأمل ، وتباعد بينهم وبين الرذائل ماظهر منها ومابطن ،
وترفع هاماتهم الى السماء ليستمدوا العون من الله ، ويستلهموا
رشده وهداه ثم يقبلوا بهذا الإيمان على عمارة الأرض
وتلك هى مقومات السيادة فى الأرض •

الأديان والمادة :

والأديان كلها لا تحتقر المادة ولا تهمل أمرها بل انها
لتزجها بالروح وتلائم بينهما فى كيان الانسان وسلوكه حتى
لا يطغى عنصر على عنصر •

(١) آية ٣٣ سورة التل •

أما حين تعبد المادة وتصبح الهاً يرجى ويهاب فإن الأديان جميعاً تحاربها لأنها ضد طبيعة الانسان . . هذا هو طابع الأديان السماوية وموقفها من المادة . تؤازرها ، وتستفيد بها في رحلة الحياة ، ولكنها لا تسمح لها أن تظغى أو تتحكم لأنها ليست كل الفطرة ، وإنما هى عنصر من عناصرها . .

ويتميز الاسلام من بين الأديان بأنه لاعم ملاءمة دقيقة بين عنصرى الفطرة ، ولم يسمح لأحدهما أن يحيف على صاحبه . . لأن هذا الحيف ضرر بالغ على الفطرة نفسها وعلى الحياة . . حين تظغى الروح تتجه بالانسان الى السلبية والفرار من الحياة كما فعلت الرهبنة . . وحين تظغى المادة تقود الانسان الى الحيوانية . . وعندما يتوازنان فى كيان الانسان فانهما معاً تقودانه الى كل خير وصلاح .

وفى عصور الانحطاط الدينى ، تمكنت المادية القائمة على نوازع الأثرة وقوانين المنفعة وانتهاز اللذائذ ، وتملق الغرائز ، أن تكسب الجولة ضد الأديان التى لها مقام موقر لارتباطها بوحى السماء كاليهودية والمسيحية ثم الاسلام . .

كل ذلك لأن الأديان لم تعبر عن نفسها تعبيراً صحيحاً فى المجتمعات الانسانية . . اما لأنها انسحبت من ميادين الحياة راضية عندما قبعت المسيحية فى الأديرة مختارة ، واما لأنها أجبرت على ذلك كما حدث للاسلام عندما ضعف أهله وخضعوا لخرافة « الفصل بين الدين والحياة » أو لخرافة « الدين عدو التطور » مع أن هذه العاهات ابتداع صهيونى استعمارى مادى يقصد به حجب أضواء الهداية عن الحياة ، حتى تعتكر آفاقها بالظلام فيتمكنوا من سرقة الضمائر والسطو على ثروات الشعوب وسحق مقوماتها . . لتستسلم وتنقاد . . وتصبح قطعاناً شاردة يسهل السيطرة عليها ، وهؤلاء جميعاً يخططون

بمنتهى الذكاء والدقة ، ويعرفون أن الإسلام هو مذاط البحر ،
ومصدر الحياة ومنبع الكرامة والعزة للأفراد والجماعات ، وأنه
يستحيل عليهم مع تطبيق أحكامه ، وسيادة نظامه أن يقر لهم
قرار في بلاد العرب والمسلمين .

ولقد وقف أحد رؤساء الوزارات لبلاد أوربي كبير في مجلس
شيوخه فقال لهم في عصبية : مادام هذا المصحف في الشرق فلن
نتمكن منه . . . « وكان يمسك بالمصحف في يده » ولطالما
تعرض الإسلام لحمولات الدس والتشكيك ، وهو برغم ذلك
يمضى في طريق الحياة لا يلوى على شيء . . . ويستقر في ضمائر
الصفوة الممتازة من أبنائه في كل موقع من الأرض الإسلامية . .
فاذا أتيج له حظ من قوة أبنائه ، أخذ طريقه الى التطبيق
والممارسة فاذا اعترض اللصوص سبيله لاذ بالقلوب ، ولجأ الى
المساجد . . على غير ارادة منه لأنه ليس للقلوب وحدها . . بل
لتشرق أضواؤه على الحياة . . حكما وسياسة وتوجيها وقيادة

والأمل كبير في الله ، أن يتيج لهذا الدين تمكينا وسيادة .
ليسود نظامه ، وتطبيق أحكامه وتحقق أعلامه ويومئذ تتحرر
موازين العدل ، ويرتفع قدر الانسان ، وتتحقق مشيئة الله . .
وبخاصة وأن النظم السادية جميعها قد أفلست في تحرير الحياة
من الظلم ، وفي اعزاز مقام الانسان على وجه الأرض !!

نظرة على حضارات العالم قبل القرآن :

مهما يكن من شيء فلا بد من تحليل خاطف للمجتمع
الانساني قبل البعثة المحمدية ليعرف القارىء من خلاله أى
ضلال كان يسود وأى هوى كان يقود وأية وجهة شريفة كانت
تتجه اليها الانسانية مستسلمة للشيطان ذاهلة عن الرحمن .

وقد حدثنا القرآن عن حضارات قديمة بلغت درجة رفيعة في الامتياز المادى - ولكنها عندما أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمر الله فصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس ثم بقيت معالمها الشاحبة أطلالا تثير الشجن - وتبعث على العظة والتأسى - وتنطق بما أصاب أصحابها من بوار ودمار * * * والقرآن يطلب اليها أن نسير في الأرض - وننظر في تلك الآثار لنستنبط العظات والعبر - ونتعرف على أحداث التاريخ * * * من خلال هذه التأملات ولنقرأ في ذلك قول ربنا : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١) » * حضارات شاهدها الايمان - ودمرها الكفر - فذهبت وذهب أصحابها من الوجود *

وما أكثر ما يكرر القرآن هذا الطلب * * * ويجعل منه مصدراً خصباً للمعرفة التاريخية * ومثاراً للعظة والاعتبار * * * انه لا يطلب النظرة العجلى - ولا الرؤية السريعة * ولكنه يطلب اليها أن نتأمل الآثار بدقة - ونعرف الأخبار - وندرس الاسباب ونفقه النذر لنتبين من خلال ذلك أنباء قوم كانوا سادة فذلوا - وكانوا عتاة وطواغيت فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولنقرأ في ذلك قول الله تعالى « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢) » * ويقول سبحانه : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣) » *

(٢) آية ٢١ سورة غافر .

(١) آية ١٠ سورة محمد .

(٣) آية ٩ سورة الروم .

ان القرآن يثبت لمن كان قبلنا من الأمم قوة وفراهة وأشارا •
ويؤكد لنا أنهم عمروا الأرض وشادوا المعازل وأقاموا الحصون ،
وتلك هى المعالم الحضارية الأولئك الأقوام ولكنهم بعد ذلك لم
يستقيموا على منهج الحق - وانما زين لهم الشيطان أعمالهم -
وهو عدو متربص للحضارات العظيمة • • فانحرفوا عن الهدى -
وأسرفوا فى المعاصى - وأمعنوا فى الترف - وأغرقوا فى الغواية
وتجاهلوا صوت الوحي - وتكبوا سبيل النبوات • • فأخذهم
الله أخذ عزيز مقتدر • • وجعل حضارتهم قاعاً صافياً - لا
ترى فيها عوجاً ولا أمتاً • •

ولنأخذ الآن فى التحليل الموضوعى لبعض الحضارات التى
تحدث عنها القرآن محاولين أن نقف وقفات تأملية مستلهمين
الاسرار الخوافى التى تكمن وراء الألفاظ والتعبيرات •

لنخرج بحصيلة مباركة تعيننا على تفهم نشأة
تلك الحضارات وتطورها • • وازدهارها ثم ضمورها
واضمحلالها حين تخالف قانون الفطرة وتناقض طبيعة
التطور • • وتصادم قوانين الهدايا - وهذا لا شك نوع من
الدراسة المحببة لأنه يعطى عطاء سخياً فى مجال علوم النفس -
والحياة - والاجتماع • • ويثرى هذه المعارف بكثير من القواعد
العامة والنظريات السديدة فتتألق وتزدان وتؤتى أكلها باذن
ربها •

ان هذه الآيات بتعبير دقيق • • صفحات تاريخية - فى
سجل واع - تترقرق بالحكمة ، وتتدفق بالعظة وتنضح بالمعرفة
الصحيحة قد أسبغ عليها الحق جلاله - وأفاض عليها الوحي
جماله فأشاع فيها الحيوية والنبض - وحرك أحداثها تحريكاً
يثير النفس ، ويلهب الحس ويلهم العظة والادكار • • وجددير

بالذكر - أن نشيد بهذه الآيات الموضوعية التي تحمل الينا
أنباء التاريخ السحيق في أجل معرض وأجمل صياغة وأروع
تعبير *

فوق ماتحملة من تأثير عميق في الضمير والوجدان . . . بما
تحدثنا به عن مأساة البعد عن الله وتجربة الاغراق في الشهوات
- وما كان لذلك كله من أثر في تحطيم الحضارات - وتهديم
صروحها الشامخة . . . واشادتنا بهذه الآية تعنى أن تصبح
بالذات محوراً لدراسات موضوعية تنتشاك فيها معارف شتى
- وتنتشاجن فيها علوم كثيرة - ثم تستنبط منها العبر
والعظات *

ومهما يذهب الانسان بعيداً عن هذا المجال . . . فسيضل في
أدغال التاريخ . . . ويضيع في شعابه ويخرج بحقائق ضئيلة
تطمسها ضلالات كثيرة . . . أما القرآن فنبع المعرفة السديدة
التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . . وهذا وجه
من وجوه الاعجاز - و « هو الاعجاز التاريخي » و « الاعجاز
العلمي » الذي يتمثل في قوة الايحاء وصدق الدلالة وأسرار
التطور الانساني عبر التاريخ !! والقدرة على العطاء السخي
لعلوم النفس والحياة والطب والاجتماع وكل ما يرتبط بالانسان
أو يدور في فلكه، سيقول أقوام من الناس فما بال هذه الدراسات
التي ابترعت عنا وأغرقت في القدم وطواها التاريخ ؟ أليس
الأجدد بنا أن نهتم بتجارب الحاضر لاننا نعيشها ونرتبط بها؟

ونقول لهؤلاء ما قاله شوقي :

واذا فاتك التفات الى الماضى

فقد غاب عنك وجه التآسى

على أن الحضارات كلها سلسلة محكمة السرد ، متينة
الحلقات يؤثر سابقها في لاحقها ويتأثر حاضرها بماضيها . .
ومالم نبين جديدنا على أساس من القديم فان البناء يكون
ضعيفاً فلنأخذ من القديم أحسنه وفي القديم جلال ، ومن الجديد
أحسنه وفي الجديد جمال ولنمزج القديم بالجديد ينشأ لنا عن
ذلك حياة مباركة طيبة .

على أن تجارب البناء الحضارى ، وأسس قوته ، اذا نبعت
من القرآن يكون لها شأن آخر . . في الهداية الى الحق ، والاتجاه
الى الخير والعصمة من الضلال .

قضايا حضارية :

ينبغي أن نوضح مجموعة من القضايا الهامة المرتبطة
بالبحث الحضارى قبل الشروع في تحليل الآيات .

وأولها : أن الحضارات الانسانية ليست ملكا لأمة بعينها
ولا هى وقف على جماعة من الناس لأنها صرح هائل قد أسهمت
فيه كل أمة بنصيب .

ثانياً : أن هذه الحضارات قد تتشابه في مظاهرها ، وفي
عناصرها وفي أسلوبها ولا سيما اذ تعايشت في جهات متقاربة
يسهل أن يؤثر بعضها في بعض .

ثالثاً : أن النقل الحضارى ليس عيباً ، مادام لا يلغى ذاتية
الامة ، ولا يضر بخصائصها ولا يسيء الى كرامتها . لأن
الانفتاح صفة جوهرية لكل حضارة متألفة ، لا تصد بالتعصب ،
ولا تتوقف بالجمود ، ولا تنطوى على نفسها . .

رابعاً : أن هذا النقل الذى لا تعاب به الحضارات ، لا بد أن
يساير تقاليد الأمة المنقول اليها ، ويتمشى مع آدابها ومثلها .
ويكون قائماً على الاستيعاب الذكى ، الذى ينقل العصاراة
الصالحة ، دون الالياف الضارة . . والأوشاب السيئة .

خامساً : عملية النقل الحضارى ليست بالأمر السهل . فان
وراءها أخطاراً مدمرة اذا لم تتم على وجهها الصحيح . . انها
تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم . تتم بعد معرفة فصيلة الدم
وملاءمتها للمنقول اليه . وأيضاً لا بد أن تكون بقدر والا غدت
خطراً يهدد بالموت .

سادساً : أن ازدهار الحضارة وتفتحها مرتبط بالعلم الذى
يجدد فى أسلوبها ويحرك فى تجربتها ، ويضمن استمرارها . .
ويحول بينها وبين الرجعية والجمود . وينفتح على آفاق الحياة
من حولها ، ويقتبس لها مايزيدها فاعلية واقتداراً ، كما تتوقف
على الايمان الذى يربطها بالله ، بينها وبين الرذائل ويجنبها
السقوط والتردى .

سابعاً : ليست قيمة المؤسسات الحضارية فى فخامتها
وبهائها وشموخها : وانما بما تقدمه للانسان من فرص كريمة
لانماء مواهبه ، واعلاء سلوكه ، وانعاش فطرته .

ثامناً : أن الترف ، آفة تمحق الحضارات ، وتأتى على
بنيانها من القواعد ، لأنه ظاهرة اجتماعية سيئة ، تنمو فى
أرضه جراثيم العفن الخلقى كلها . ومفاسد الحياة جميعها
وبخاصة حب الاستبداد والطغيان .

تاسعاً : أن للحضارة دورة تاريخية ، اذا تجاوزتها . بدأت
فى الأفول لتحل محلها حضارة أقدر على النهوض بمطالب

الانسان • وهكذا تتعاقب الحضارات على الانسانية في دورات
متتابة • • وهي ظاهرة صحية لا تدل على افلاس الحضارة
السابقة بقدر ماتدل على طموح الانسان ونزوعه الى حضارة
أفضل •

لكن هناك حضارة واحدة تظل مزدهرة متأقفة • • هي
حضارة القرآن ، طالما تستمد وجودها من توجيهاته ، وماتزال
في ارتقاء صاعد ، حتى تبتعد عن مصدرها الأساسى فاذا بها
تضعف وتضمحل وتنحط بقدر ما تبتعد عن القرآن ، فاذا
عادت الى القرآن ، عاودها الازدهار وهكذا دواليك • واليك
نماذج من الحضارات القرآنية القديمة :

حضارة عاد :

ورد ذكر عاد في نحو ثمانية مواضع من القرآن الكريم ،
وتكررت بأساليب مختلفة ولهذا التكرار حكمة بالغة ، لأنه
يعطى نوعاً من التجدد ، ولوناً من التكامل ، ودرساً متكرراً
يطالع القارئ لكل سورة من السور التى ورد فيها الموضوع • •

وأجمل الآيات التى تتصدى لوصف طبيعة هذه الحضارة ،
وذكر عناصرها ، هي آيات الشعراء ولكنها لا تستقل وحدها
باعطاء الدلالة وانما تتآزر معها غيرها من آيات هود ، والآعراف ،
والأحقاف ، والفجر ، ولنحاول فهم هذه الحضارة من هذه
السور كلها مبتدئين بالشعراء ، يقول سبحانه : « كذبت عاد
المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، انى لكم رسولا
أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر أن أجرى
الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتهم جبارين ، فاتقوا الله

وأطيعون ، وانتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام
وبنين ، وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١) «
فهذه الآيات تعرض لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية قد
استجمعت عناصر البناء والعمارة ، واقامة المصانع ، وانشاء
الحصون وتمهيد الأرض ، وغرس الحدائق ، وتفجير العيون ،
ووفرة المال وكثرة الأيدى العاملة من الاولاد . . . فهى كما نرى
حضارة زراعة وعمارة . تمدها السماء بأسباب النعمة ،
وتحوطها بكل رعاية . ويعيش أهلها فى سعادة ورفاه .

ويرتفع صوت النبي هود عليه السلام داعياً هؤلاء القوم
الى الله محذراً من نكاله - مؤكداً أن تقوى الله هى أساس
استمرار الحضارة ، وضمان النعمة . . . ولكن القوم قد
أسكرتهم نشوة النعيم وغمرتهم أمواج الترف ، فصموا عن
صوت الداعى وعكفوا على أصنامهم وقالوا فى وقاحة : « سواء
علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (٢) » !!

فماذا كانت النتيجة ؟ « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى
القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من
باقية ؟ (٣) » وهذا جزاء من جنس العمل . . . لقد لجوا فى
الطغيان ، وبطشوا جبارين ، وهزءوا من هود ودعوته . ! فهل
يعجزون الله ؟! لقد صار أولئك العمالقة الطغاة . . . « أعجاز
نخل خاوية » وعندما يتحول الطاغية الفاجر الى هيكل ممدد ،
لا حراك به ولا روح فيه ، بالضبط كعجز نخلة خاو ، هنا موضع
التأمل . . . ومنبع العظة ! !

(١) الآيات ١٢٣ - ١٣٥ الشعراء .

(٢) آية ١٣٦ سورة الشعراء .

(٣) الآيات ٦ ، ٧ سورة الحاقة .

وهكذا ، كل طاغية ، سيلفى مصرعه على هذه الصورة ، كما
أفرط في الطغيان يصبح عبرة وعظة للناس ، فهل من مدكر !؟

وبذلك بادت تلك الحضارة ، ولقيت مصرعها ، وذهب
أصحابها وبقيت منها معالم شاخصة تجدد الذكرى وتبعث
التاريخ ، وتثير التأمل والأسى . .

أين كانت تلك الحضارة ؟ هنا تسعنا آية الأحقاف .
« واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف (١) » ولكن ما زمنها
التاريخي ؟ هنا لا نجد الا تحديداً يسيراً ، وهو أنهم كانوا بعد
قوم نوح ، وليس يعنينا تحديد الزمن بقدر ما يعنينا استلهام
العظة والعبرة ، ورب قديم أنفع في اشارة العبرة من جديد !!
وستظل هذه الآيات وأضرابها قرآناً يتلى الى يوم الدين يذكر
الناس على اختلاف العصور بمصارع الجبارين ، وعاقبة
الطغيان والتنكر لصوت النبوات كلما مروا بتلك الجبال الرملية
قرب حضرموت من ناحية اليمن وهي المعروفة « بالأحقاف » .

هذا ونحب أن نتأمل معا قول الله سبحانه : « أتبنون
بكل ريع آية تعبتون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »
وقوله سبحانه في سورة الفجر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم
ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد !! (٢) » فاننا بعد
التأمل سنحس بأن عناصر تلك الحضارة تتجلى في فن العمارة ،
وهندسة المباني ، واقامة المصانع وانشاء المدن ، على نحو يبهر
الألباب ، ويثير الاعجاب فمن كان يصدق أن « عادا » الموغلة في
القدم قد توصلت الى حضارة كهذه ؟ يصفها القرآن بهذا الوصف
العظيم .

(١) آية ٢١ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٧ ، ٨ سورة الفجر .

وتستوقفنا كلمة « مصانع » فنحس من خلال التعبير أن القوم أحرزوا صناعات • وأقاموا مصانع مهما يكن من بساطتها فان لها دلالة على عبقرية العقل الانسنى منذ فجر التاريخ • قال ابن كثير : الريح : اختلف المفسرون في تفسيره بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة وآية : أى علما - بناء مشهورا - تعبتون . أى تفعلون ذلك للعبث لا للاحتياج اليه والمصانع : قال مجاهد : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد ، روى أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة « قرب دمشق » من تشييد البنيان ونصب الشجر قام فى مسجدهم خطيبا ، فاجتمع له أهل دمشق محمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون ما لا تدركون انه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح عملهم غرورا •• وجمعهم بورا ومساكلهم قبورا ألا ان عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين؟ (١ هـ) •

روينا هذه الخطبة لأبى الدرداء لنتبين أن عادا صنعت حضارة رائعة وملكى أرضا شاسعة وجمعت ثروات واسعة ولكنها كانت عابثة لاهية •• وذلك أخطر شىء على الحضارات ، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه منارة أو علامة - وأن قصدهم كان التطاول والتفاخر بالمقدرة والمهارة والفراة والنشاط فهو توجيه لى نقصد بما نعمل وجه الله ، ويبدو أن عادا قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا حسنا حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشبيد العلامات فهى حضارة صناعة وعمارة وزراعة • كما تلفتنا هذه التعبيرات « ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » الى عظمة المدنية ، وتثير فىنا الفضول لنعرف بعض

أخبارها ، التي بلغ من فخامتها أنها « لم يخلق مثلها في البلاد »
كما تلفتنا هذه الكلمات « جنت ، وعيون ، بنين » الى عنصر
جديد من عناصر تلك الحضارة وهو عنصر الزراعة - والمهارة
فيها . . ويرى ابن خلدون أن الزراعة أساس الحضارات
الانسانية - فاذا أضفنا الى ذلك « الأموال والبنين » فقد اكتمل
لها العنصر البشرى ، الذي يستغل الأرض ، ويدير المصنع .

فهي حضارة صناعية . . حضارة عمارة وبناء . . وتلك
مقومات مادية لا تقود الى الخير الا اذا صاحبها الجانب الروحي
. . ولكن هذا الجانب قد تخلى عنها . ولهذا كان مصيرها الدمار
. . والآن لنمض في جولة تاريخية مع المؤرخين العرب لنتعرف
الى شئ مفصل عن تلك المدينة [عاد ارم] التي تعتبر أروع
مظهر حضارى لعاد . .

فقد روى (١) ياقوت والمسعودى وغيرهما أن هذه المدينة
بناها شداد بن عاد لينافس بها قصور الذهب والفضة في الجنة
التي تجرى من تحتها الأنهار وقالوا : انه كتب الى عماله أن
يجمعوا ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك
والعنبر والزعفران ففعلوا وتوجهوا بكل ذلك اليه - ثم جمع
له الغواصون من روائع الجواهر ما بلغ أمثال الجبال - وأنه
أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن - وكذلك فعل بالفضة - ثم
بنى المدينة على أساس لبنة من ذهب وأخرى من فضة
وفصص حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ثم جعل لها غرفا
من فوقها غرف - ثم أجرى تحتها واديا طليت حافته بالذهب
الأحمر وجعل حصاه أنواع الجواهر وجعل بهذه المدينة ثلاثمائة

(١) عن كتاب عصر ما قبل الاسلام « تاريخ العرب » للأستاذ مبروك

ألف قصر • وجعل على بابها مصراعين من ذهب مفضض ••
وجعل ارتفاع البيوت في المدينة ثلاثمائة ذراع - وبنى خارج
ال سور ثلاثمائة ألف قنطرة لينزلها جنودها واستمر بناؤها
خمسائة عام ••

أما مصير المدينة الرائعة التي لم يخلق مثلها في البلاد فقد
ذهب مع الريح !! تلك الريح التي أهلك الله بها عادا •• وليس
يعنيننا من خلال الوصف التاريخي السابق - الذي ذكره
المسعودي •• أن يصدق كله •• كما لا يعنيننا أن نعقب عليه
بإثبات أو نفي •• وإنما الذي يعنيننا هو اعطاء صورة عن تلك
المدينة ان لم تصدق كلها فلن تكذب كلها بحال •• على أننى
أميل الى تصديق ما ورد فان مدينة يصفها القرآن بأنها « لم
يخلق مثلها في البلاد » خليقة بهذا - ولا يمكن هنا أن نتحقق الا
بالكشوف التاريخية - ولكنها لا تسعفنا في هذه الفترة القديمة
عمر التاريخ •• وقوله سبحانه: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد
يشير الى مأساة تلك المدينة - وما حل بها من فواجع ••
نتيجة لطغيان القوم وعبثهم •• والخطاب لسيدنا رسول الله ••
ولكل من يتأتى منه التأثر والانعاط بالرؤية لتلك المدينة ••
ومعالمها الباقية •• ولكل من يقرأ قصتها في القرآن - والاستفهام
في صدر الآية يثير اليقظة الذهنية - والانتباه العقلي وقوله
سبحانه « كيف فعل ربك » يوحي بشدة العقوبة ، وشناعة
النكل والتعبير بكلمة « ربك » فيه من الايناس - والعزاء -
والرقة - والحنان ما يسدى الى المضطهدين في أى مكان من
أرض الله - وفي أى وقت من أوقات التاريخ ، أقوى دعائم
الصمود ، ضد الجبارين والطغاة لأن ربك بالمرصاد لكل هؤلاء ••
والآية تنتج بنوع خاص الى المستضعفين من أصحاب الرسول
محمد [صلعم] تثبت في قلوبهم الثقة وتزرع فيها الأمل • حتى
يصمدوا في وجه الشرك •• وقد جمع الله لهم في الآية مصارع
أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ ليفيض الرحمة على قلوبهم

المعناة ويملاها ببرد اليقين بأن النصر دائماً للمؤمنين ، وبأن
الدمار والهلاك للمجرمين الباغين . . . ومن شأن ذلك كله أن
يمنحهم لونا من التماسك الصامد حتى يحق الله الحق ويزهق
الباطل ويوحى قوله « ذات العماد » بأن هذه المدينة قد قامت
على أعمدة فخمة وسوارى ضخمة عرفت بها وسميت باسمها
وقوله : « التي لم يخلق مثلها » يفيد ضخامة العمارة ، وجمال
البناء . . . وأنه كان أعجوبة في عصره : والاسراف في الخيال ،
أبعد من ايحاء القرآن يعوزه الدليل . . . وتفصيل الأوصاف
يحتاج الى برهان . . . لكن مهما يبالح الواصفون فهم أقرب الى
منهج الصدق الذي لا يخرج عن ايحاء قوله سبحانه : « التي لم
يخلق مثلها في البلاد » . . .

وقد ذكر بعض المؤرخين أنها طارت في السماء بعد تمام
بنائها وأن بعض الناس قد لمحها وهي طائفة وأن عادا لم
يسكنها ، ومنهم من يقول : انه لم يرها الا من أراد الله له
ذلك ويروون أن رجلا يقال له عبد الله بن قلابة رآها في أيام
معاوية بن أبي سفيان ، وأن معاوية استدعاه ليعرف جلية
الخبر فأخبره أنه بينما كان يبحث في الصحراء عن بعير ضل
منه اذا به يجد نفسه فجأة أمام باب المدينة وأنه دخلها
فوجدتها خاوية على عروشها فأخذه الذعر فخرج ولم يحمل معه
الا بعض الحجارة التي أطلع الخليفة عليها .

وهذه الرواية عن مصير المدينة ، وأنها طارت - يمكن
فهمه على وجه مقبول . . . وهو أن الريح التي أهلكت عادا
احتملت معها بعض آثار هذه المدينة واكتسحت أثارها وهدمت
عمدها . . . وأبقت منها آثارا شاخصة ، وجعلتها خاوية على
عروشها كما يقول عبد الله ابن قلابة . كما لا يبعد أن تبقى
أطلالها الى أيام معاوية . . . بل الى هذه الأيام !! .

ويرى «جورجى زيدان» فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام أن عادا من الأمم الآرامية، وإذا سميت عاد ارم كما سميت أيضاً ثمود ارم ، وأنها ليست مدينة وأن الظن بأنها مدينة جعل المؤرخين يبالغون فى وصفها ، ونحن نرفض هذا الرأى .. لأن الله قد أخبر صراحة بأنها مدينة ذات عمد فخمة ، لم يوجد مثلها فى البلاد ، وإذا كان القرآن قد أخبرنا بأن عاداً قبيلة فما المانع أن تكون المدينة سميت باسم عاد رئيس القبيلة الذى بناها أو باسم القبيلة نفسها وهى « عاد » .

هذا ولم يكشف النقابون عن شىء من أخبار عاد وغاية ما ذكروه أنهم عثروا فى الأحقاف على مقابر محفورة فى الصخور تراكمت عليها الرمال ..

ويقول مؤرخو العرب ، انهم يسمون عاداً الثانية .. أما هود فيقولون : انه عاد الى حضرموت حيث مات هناك ولا تزال احدى مدن حضرموت تسمى « هود » ..

هذا ومن الجدير بالذكر أن القرآن وحده هو الذى انفرد بأخبار عاد وهود دون غيره من الكتب السماوية الأخرى .. ولعل ذلك وجه من وجوه الاعجاز التاريخى الذى أشرنا اليه آنفاً ، أن ينفرد هذا الكتاب المحكم بأخبار أمم قديمة طواها العدم ، بحيث لا نجد مصدراً لهذه الأخبار الا فى القرآن الكريم .. وكم فى القرآن الكريم من وجوه اعجاز ستكشف الدراسات عنها !!

حضارة ثمود ، عناصرها :

ورد ذكر ثمود فى القرآن أحد عشر مرة فى سور مختلفة هى : الأعراف ، وهود ، والحجر ، والشعراء ، والنحل ، وفصلت ،

والذاريات ، والنجم ، والقمر ، والواقعة ، والشمس ، ولهمذا
التكرير كما مر منزى عمين ، « من يرد الريح من الغرب والشرق
القصص الحق ، فهو وسيلة قبحه ، وسبيل عظمة وطريق
تكامل ، وهو بعد هذا درس مقبضه والحق ، التاريخ ، هذه الاسور
ويستحقه على البحث * * * وتلتصق من خلال الريح في القرآني
ملامح الحضارة الثمودية متميزة بها عن غيرها الادبية ، التي
تشبه الى حد بعيد حضارة عاد * * * وايضا هناك ما يمنع أن
تكون هذه الحضارات قد أخذ بعضها من بعض كما قدمنا ، واذا
كان وراء أية حضارة ما هيصة فكر متميز ، فان وراء الحضارة
التمودية * * * فكراً وثنيا يسبب العجز ويتفكر لصوت القدر ،
والآيات في مجموعها تحمل ايضا تقبلة ، ان حة وهي اختلال
التوازن الحضاري لقوم ثمود * * * حين أعرضوا عن صوت الحق
فأخذتهم الصيحة من الربانة »

فأما عناصر تلك الحضارة الاسانية الوثنية : فتتجلى في
بناء القصور الفخمة ، ونحت البيوت في الجبال ، يشير الى ذلك
قوله سبحانه : « وانذكروا الذين اكرمنا من عاد وبنو اكم
في الأرض تتخذون من دهرنا نسوا ربهم فتنزلون الجبال بيوتاً
فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا في الأرض من حينئذيين (١) » فهذه عناصر
حضارية تعتمد على فن النحت والعمارة *

ثم تأتي العناصر الأخرى في قوله سبحانه : « أتتركون
في ما ههنا آمنين ، في جنات وعيون ، ونوع ونخل ولها همضيم
وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (٢) » *

(١) آية ٧٤ سورة الأعراف .
(٢) آية ١٤٦ سورة الشعراء .

فهذه عناصر جديدة تنبئ إلى مواهب القوم في فن الزراعة من انشاء السماد الثق ، وغرس البنساز والبسنتين ، وتترك الايجادات المختلفة التفسيرات القرآنية عن هذه الحضارة انطباعاً قويا بالمهارة الخارقة ، والبراعة المماثلة لأولئك الاقوام وتأمل معنى هذا التفسير : « فارسين » والفراسة القوة .. وهى قوة الفن والمهارة في النجحت .. كما توهم كلمة « عظيم » بأن ثمار النخيل كانت منخبة سهلة الهضم .. وكامة « جنات » تشع الرفاهية والسعادة لأولئك الانسوان وهى المفهوم من قوله سبحانه « أتتركون فيما سفها آمنين » لان الأمن يحمل معنى السعادة والنعيم .. ولأن يبقى أن هذه الحضارة تنكرت لصوت الوحي الالهى أولاً بالافساد وهو معنى جاح لصفات السوء وهو فساد منتشر وعام كما يفهم من النص في قوله سبحانه : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .. وثانيا : لانهم عصوا نبي الله صالحاً حين هتف فيهم داعياً الى الله برفق « ألا تتقون » .. وصالح نبي كريم ليس غريباً عنهم كما يفهم من قوله سبحانه : « والى ثمود أخانس بما آما » .. ولأنهم دعوة رقيقة سمحة وعرض عليهم الدعوة بأسلوب ملؤه العطف والحب : « ألا تتقون ؟ » .. ومع ذلك كله لم يؤمنوا لأن الفساد حين يطنى على النفوس تغير الذممة وتجهت من الذميمة .. ومن ثم كان جوابهم : انما أنت من المسحرين ..

ومكذا ، عندما توازن بين دعوة هود وصالح نجد تواردهما على منبج واحد في الدعوة الى الله .. وتلقيهما لجواب واحد من أتباعهما وهو الاعراض والرفض .. كما نجد وحدة في العقوبة نظير الفساد والطغيان وان تنوعت في الوسيلة « فأما ثمود فاحمأكوا بالطاغية ، وأما عاد فاحمأكوا برييح صرصر عاتية (١) انه الاهلاك على أى حال ..

(١) آية ٦٤٥ سورة الحاقة .

ومعنى أهلكوا بالطاغية : أى بسبب طغيانهم وفسادهم ،
بالرجفة أو الصيحة أو الصاعقة ، لقد كانت حضارة ثمود
حضارة زراعة وعمارة ولم تكن حضارة ايمان وطهارة . . ومن ثم
بادت كما باد غيرها ، وهكذا الأديان ترعى بناء الحضارات
وتؤسسه على تقوى من الله ورضوان وتتنجه به وجهة الخير
والهداية . . انها جميعاً تتضمن الحضارة لأنها ترعى التقدم
وترمى الى ترقية الحياة وتطويرها مادياً وروحياً . . وتهدف
الى اعلاء السلوك حتى لا ينحرف الانسان بقيم الحضارة الى
الوجهة الحيوانية الهابطة ، ومن ثم فهو يهوى للحضارة جواً
نظيفاً تتنفس فيه . . وهكذا . . السماء تخطط ، والبشر ينفذ ،
والرسل تقود عملية التغيير الكبير فى المجتمعات . . وهو تغيير
يقود الى الأفضل ، فاذا تجاوب البشر مع القدر حدث التغيير
النافع ، وحصل التطور الصاعد فى حياة البشرية . . واذا صموا
وعموا ضمرت الحياة وذبلت أغصانها . . ثم جفت لتصبح
هشيماً تذروه الرياح !! . .

فالأديان تقود الحياة قيادة بصيرة مستهدية بالمنهج الالهى
ولاتنساق وراء الحياة فتضل عن سواء السبيل . .

والآيات السابقة تبين لنا أن ثمودا كانت بعد عاد فى الزمن
(أى بين هود و ابراهيم) ، وأنها كانت تسكن الحجر بين
الشام والحجاز . . وأن صالحاً دعاهم الى الايمان بالله ونبذ ما
كان يعبد آباؤهم فكذبوه ثم طالبوه بآية تدل على صدق
دعوته فأجابهم : « هذه ناقة الله لكم فيها آية فذروها تأكل فى
أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فإأخذكم عذاب أليم (١) » وقوله
« فكذبوه فعقروها (٢) » فأخذتهم الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة
بعد ثلاثة أيام ونجى الله صالحاً والذين آمنوا معه . .

(١) آية ٧٢ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٤ سورة الشمس .

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه اتجه صوب حضرموت وأنه مات بها وله قبر هناك كهود *

رواية لها مغزى :

هنا رواية تاريخية تقول : ان النحت الذى أتقنه قوم صالح قد تعلموه من المصريين القدماء على غرار المقابر المصرية القديمة التى شاهدوها * * وتؤكد الرواية بأن ثمودا شردمة من الهكسوس الذين طردهم أحمس الأول من مصر وأنهم سكنوا منطقة الحجر * * وأنهم قد نقلوا معهم فن النحت * ومن آثارهم التى بقيت منها طول شاخصة حتى الآن مدائن صالح ، ولقد مر النبى بها فى غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى ومنع أصحابه من الدخول اليها والشرب من مياهها * * ولعل الحكمة من وراء ذلك الابتعاد عن ديار الظالمين * *

ولا يبعد عندى أن تكون هذه الرواية صحيحة لأن المصريين هم أساتذة الفن المعمارى وفن النحت على مستوى عالمى معروف * * والحضارات الانسانية يستمد بعضها من بعض * * ولا يبعد أن يكون المصريون هم الآخرون قد نقلوها عن غيرهم * * لأن الحضارة كما مر ملك للبشرية جمعاء * *

ومدائن صالح الآن : هى احدى محطات السكة الحديدية الحجازية ولقد زارها كثير من المستشرقين وكتبوا عنها ، وكان أهم ما عثروا عليه من الآثار هو ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا ، والقلعة ، والبرج ، وقد شاهدوا نقوشاً عليها بالخط المسند والآرامى ولغتها هى العربية الشمالية التى لا تختلف الا قليلا عن الفصحى ، وتتضمن عبارات دينية وقد يستفاد منها وجود علاقات بين ثمود ودولة الأنباط التى كانت عاصمة لبطرة فى الشمال *

وقد نقل جورجى زيدان فى كتابه [تاريخ العرب قبل الاسلام] ترجمة لعهد قديم كتبه على قبره رجل قديم يسمى عائذ بن كهيل نصها : [هذا القبر الذى بناه عائذ بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابهم] وفى آخره قوله : [ولعن ذى الشرى ومناه وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً آخر الا الذين كتبت أسماءهم أعلاه] ١٠ هـ تلك حضارة ازدهرت فى ظل دين سماوى ، لكنها تشبثت بالوثنية ، وكان من الممكن أن تزداد تألقاً وروعة بما أتيج لها من نقل حضارى عن المصريين ، وعن النبط وهو نقل ظهر أثره جلياً فى فن الفحت ، لو أنها تجاوزت مع منطق الوحي الالهى . . . ولكن اصرارها على الوثنية ، واغراقها فى الشهوات وامعانها فى الغنى جعلها أثراً بعد عين فبادت كما بادت أخوات لها من قبل وأصبحت قصصاً تروى فى مجال التأسى والعظة .

حضارة داود عليه السلام :

وهذا لون من الحضارة الربانية - التى تدخل فيها عنصر الاعجاز السماوى ، بتطويع الجمادات وتسخير الطير والانه الحديد - وعمل الدروع السابغات . وغيرها من وسائل الحياة المتطورة .

وقد انعكست آثار هذه الحضارة الربانية على الحياة ، فصار شعب داود (من بنى اسرائيل) . يعيش فى ظلال حضارة وارفة الظلال يمتزج فيها التسخير الالهى بالعمل الصالح .

ولذا : أثمرت وآتت أكلها .

وقد عاشت هذه الحضارة فى فلسطين وما حولها - فقد ثبت أن نبي الله داود استولى على بيت المقدس سنة ألف قبل

الميلاد ، واتخذته عاصمة • • وأراد أن يبني هيكلًا للعبادة فمنعه
الرب لأنه غمس يده في الدماء •

ثم جاء سليمان بعد والده داوود فأتم دورة هذه الحضارة
التي اكتملت حقاً على يديه •

وقد بنى الهيكل سنة ٩٧٥ ق • م • وسمى باسمه فقيل :
« هيكل سليمان » •

ولكن هذا الهيكل هدم مراراً وتحول الى مزابل نكايية
في اليهود الذين عرفوا دائماً بالسدس وتدبير المؤمرات واثسعال
الفتن ، وكانوا عنصراً منبوذاً من الجميع •

وتشابكت حضارة داود مع حضارة ابنه سليمان عليهما
السلام وكلاهما نبي من أنبياء بنى اسرائيل ، لأنهما قامتا على
أساس رباني وتدخل فيهما عنصر الاعجاز السماوي مما جعل
لهما طابعاً فريداً بين الحضارات ، وتعتبر الحضارتان معاً
حضارة واحدة لتعايشهما في مقر واحد ، وبقيادة نبيين هما :
داود ، وابنه سليمان •

يدل لذلك قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود وسليمان علما
وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ،
وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير
وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين (١) » •

وعندما نتأمل قوله سبحانه : [ولقد آتينا داود وسليمان
علما] نفهم من خلاله أن هاتين الحضارتين قامتا على العلم
الالهي ، فهما : حضارتا نبوات تخضع للمنهج الرباني •

(١) آية ١٥ ، ١٦ ، سورة النمل •

وإذا كان هذا العلم مستمداً من الله فهو علم مصحوب
بالتقوى والايمان مأمون العواقب لا يستبد ولا يستغل ولا يدمر
ولا يقتل ولا يلحق الضرر بالأبرياء لان هذه هي طبيعة العلم
الربانى الذى يفيضه الله على أنبيائه ، وينسبه الى ذاته العلية
صراحة ، وناهيك بعلم كهذا ! ! وبما كان لهذا العلم من أثر
طيب فى تيسير العسير وتقريب البعيد ، وتطويع العصى وحدوث
الخوارق . . . لأن حدود العلم الالهى واسعة وآفاقه غير
متناهية . . . فاذا منح الله قبسة من ذلك العلم لأحد من خلقه
فقد سهل كل صعب ، وهان كل عسير . . . ومانستبعده كبشر ،
فى حدود علمنا الضيق انما ينشأ لأن قدرتنا متناهية محدودة
الطاقة ، محدودة الأفق . . . لذلك يجب أن نتلقى عن رب العزة
والجلال جميع ما يصدر عنه بمنتهى الازعان والخضوع لأن
علمه سبحانه قد وسع كل شىء وأحاط بكل شىء . . . والقوانين
التي تحكمنا فى عملنا وعلمنا هي من صنعه سبحانه ولو شاء
لرفعها جميعاً فأزال الحجب ، وألغى الحواجز وقرب البعيد !!

وإذا كان العلم من أهم المقومات الحضارية . . . لضمان
استمرارها ، وتجديدها ، وتجاوبها مع الحياة ، واستيعابها
لحاجات البشر . . . وبغيره تجهد الحضارة ويصوح نبتها
ويعتريها الذبول ثم الجفاف والأفول . . . اذا كان هذا شأن العلم
مع الحضارات فما بالك بعلم يفيضه الله على عباده افاضة . . .
ويسهل أسبابه تسهيلاً . . . ويضبط مساره حتى لا يطيش . . .
ما بالك بعلم كهذا؟ وما ظنك بحضارة تخضع للالهام والتلقى . . .
وتمضى بالعمل الخارق الى غاياتها البعيدة ؟

ومن هذه الآية ندرك قيمة العلم فى بناء الحضارات . . .
فقد زود الله به رسله ، بناء الحضارات الكريمة أول ما زود ،
لتمضى حضارتهم على نور وبصيرة . . . فعلى الأمم والشعوب

إذا أرادت بناء حضارة عالمية أن تتذرع الى ذلك بالعلم النافع ،
واستمداد العون من الله فان الأرض المهددة التي هي ساحة
الحضارة ومستقرها ، انما هي أرض الله .. والانسان
المستخلف فيها من صنع الله ، وعناصر الكون التي لا بد من
تسخيرها في بناء الحضارة انما هي من الله والى الله .. ولولا
ما أوجده في تلك الكائنات من قابلية التشكيل وامكانية
التطويع والتطوير وسهولة الانقياد والتذليل .. لما أمكن
بناء كوخ فضلا عن ناطحات السحاب ولما أمكن قدح زناد
فضلا عن اضاءة الكهرباء لكل قطر وناد .. واستخدامها في
مصالح العباد *

ولما أمكن ركوب جمل أو حمار فضلا عن السيارة والقاطرة
والطيارة فسبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا
الى ربنا لمنقلبون !! سبحانه منه النشأة والبدء .. واليه
المصير والرجعى .. وانا لله نشأة وابتداء وانا لله مصيراً
وانتهاء ☐

وبهذا التصور تكون الحضارة ربانية مسبحة عابدة
مأمونة العواقب تبني الحياة بنور الله .. وتنشئ سعادة
الانسان في ظلال الهدى والايمان *

وكلمة « علما » في التعبير الرباني تفيد الشمول فهو علم
أفيض ليؤدى رسالة ربانية وذلك فضل الله يؤتية من يشاء ..
وهو نوع من العلم الذي لا يخطر للبشر على بال ، يسخر الطير
والجن والانس والرياح وينطق راسيات الجبال .. علم يتحدث
الى تلك الكائنات ويفهم عنها ويتجاوب معها وتتجاوب هي
أيضاً معه تجاوباً يؤدي الى البناء والتعمير والخير .. فسبحان
من يعطى عطاء غير محدود *

وإذا كان كل من داود وسليمان نبييا - فهما قياتان روحيتان لشعب بنى اسرائيل . . والقيادة التي تهيد من على بناء الحضارات اذا كانت بصيرة مهتدية يكون لها اثرها في توجيه الشعب وجهة حضارية متفتحة . . وهذا هو سر نجاح تلك الحضارات .

ومن خصائص العلم الرباني أنه لا يثير الغرور في نفس صاحبه مهما أحرز به النجاح . . بل يدعو الى مزيد من التواضع . . فنراه ينسب كل انجاز حضاري لله . . ولذا كان منطلق داود : « الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » وهو منطلق نبي ملهم - معلم من ربه مؤدب بأدب الله . . انه المنطق المثالي في شكر النعمة والاعتراف بالجميل . . ورد ذلك كله لله . . « وقليل من عبادى الشكور » . .

وكل من هذين النبيين يدرك أن النعمة عندما تنمر وتفيض تكون مصدرا للابتلاء والاختبار . . فهما لا يذهلان عن ربهما طرفة عين . . كلما ازدادا ترقيا ووصالا - ازدادا تواضعا وامتنالا ، ولذا كان منطلق سليمان عليه السلام عندما رزق التمكين الهائل : [هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم أكفر (١)] .

فيا لها من يقظة واعية تكافح آفات الغرور من النفس كلما حاولت أن تغزوها أو تدلف اليها . . وأين هذا الموقف من ضلال فرعون واختلال توازنه عندما صاح في قومه بعد التمكين عند ما صاح بعد التمكين : [انما أوتيته على علم عندى] !!
شتان بين الموقفين . .

(١) آية ٤٠ سورة النمل .

وانظر معى الى هذا الفقه فى منطق النبیین داود وسليمان
« الحمد لله الذى فضانا على كثير من عباده المؤمنین » فهما لم
يدعيا التفضيل العام المطلق على جميع البشرية .. لأنهما لم
يستوعبا كنه النعم المزجاة من الله الى عباده فضلا عن أن يدعيا
استيعاب البشر أجمعين فهو منحنى راشد يتمثل فيه الأدب
والتواضع والاعتراف والحياء جميعا !!

ملاح تلك الحضارات وأسرارها وعناصرها :

ولنأخذ الآن فى توضيح ملاح الحضارة « الداودية » كما
تصورها الآيات القرآنية بعيدا عن شطحات الخيال التى
احتوتها الكتب المقدسة .. والأناجيل .. والعهود القديمة ..
وفى رأى أن مثل هذه الدراسة تعين على اعطاء تصور صحيح ..
بصل بنا الى فقه هذه الحضارات - وإدراك أسرارها .. وقد
ذكرت تلك الحضارة فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز .. كلها
تشير الى نعم الله على داود - واصطفائه له - وتبرز مواقفه
القتالية وانتصاراته على أعداء الله ..

ونفهم من ذلك أن حضارته كانت حضارة بناء وحضارة
جهاد وقتال .. وقد كان داود عليه السلام جنديا فى جيش
طالبوت المؤمن .. الذى كان يحارب جالوت الجبار فى تلك المعركة
التاريخية القديمة - وهو الذى تمكن من قتل « جالوت » رميا
بالحجارة .. وقد زوجه طالبوت بنته بعدها وآتاه الله الملك فى
مشارك الأرض المقدسة - ومغاربها .

قال صاحب الكشاف : [جالوت : جبار من العمالقة من
أولاد عمليق بن عاد - وكان « أيشى » أبو داود فى عسكر طالبوت
مع ستة من بنيه وكان داود سابعهم - وكان صغيرا يرعى

الغنم - فأوحى الى اشمويل أن داود بن ايشى هو الذى يقتل
« جالوت » فطلبه من أبيه فجاء [ا ه ٠٠

ومن ذلك يفهم أن داود - كان محارباً شجاعاً - وأن
حصارته قامت على الجهاد فى سبيل الله ٠٠ وأن قيادته لشعب
بنى اسرائيل كانت قيادة جندى محارب شجاع ٠٠

وأن الله - قد أنعم عليه بالملك - والحكمة - أى النبوة
فهو ملك نبى ٠٠ وعلمه مما يشاء قال صاحب الكشف - أى من
صنع الدروع وكلام الطير والدواب وغير ذلك ٠٠ ويمكن تلخيص
ملامح تلك الحصاره أخذاً من الآيات بما يلى :

١ - أنها تقوم على الجهاد فى سبيل الله - وقد مضى أن
داود منذ الصبا كان شجاعاً محارباً هو وأخوته وأبوه ٠٠ وأنه
قتل جالوت الطاغية « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة »
وكل حصاره تقوم على الجنديّة المخلصة لله ٠٠ فانها ترهب
أعداء الله ٠

٢ - أنها حصاره اعجاز الهى قد توفر لها ما لم يتوفر
لغيرها من الخوارق الجبارة التى تساعدها على النماء والازدهار ٠
وتحقيق مشيئة الله فى الأرض ٠٠ وذلك كتسبيح الطير والجبال
« انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق - والطير
محشورة كل له أواب » ويقول سبحانه : « ولقد آتينا داود منا
فضلا يا جبال أوبى معه والطير » ٠٠ فهى حصاره مسبحة
عابدة ٠

٣ - أنها حصاره تستثمر ألوانا من المعارف - وفنونا من
الخوارق - وتستفيد من ذلك كله فى بناء عالم أفضل تزدهر
فيه شريعة الله ٠٠ وتنتصر ارادته ٠٠ وتعز مشيئة الانسان ٠

وذلك كتعليمه منطق الطير . . . يفقه ماتعنى ؟ ويعرف ماتريد ؟ قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير (١) » . . .

٤ - أنها حضارة صناعية - تتخذ من العمل وسيلة لبناء الحياة . . . وقد انصهر داود وشعبه في جو العمل بحيث صار العمل في تلك الحضارة قيمة عليا . . . وكان داود قدوة لشعبه . . . كان يأكل من عمل يده . . . وقد ألان الله له الحديد ليعمل منه دروعا محكمة سابغة طويلة - وجعله في يده كالشمع . . . دون أن يدخل النار - وهذا هو وجه الإعجاز كما فهم البيضاوى وجمهرة المفسرين - ويقال ان الدروع قبله كانت بدائية مرهقة تعمل على شكل صفائح . . . فجعلها داود من حلق الحديد - فصارت مريحة تمكن من الحركة قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم (٢) » أى لتمنع عنكم أذى عدوكم . . . ونفهم من التخصص في صنع الدروع ومن الأنة الحديد - ومن جنديّة داود قبل النبوة - أن الحضارة كانت عسكرية لها معامل السلاح - ووفرة الذخيرة . . . والاستعداد لحرب أعداء الله . . .

٥ - أن هذه الحضارة كانت قوية البنيان ثابتة الأركان بدليل قوله سبحانه [وشددنا ملكه] أى قويناه . . . وقال البيضاوى : معناه : قويناه ملكه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود . . . وقد نصره الله على خصومه قبل الملك وبعده - وظل دهرًا لايقوم له معارض الاغلبه . . . وان حضارة تعتمد الصناعة أساساً - والجيش المدرب درعاً - والعمل الدائب وسيلة لا بد أن تعيش في قوة وازدهار . . . ولا بد أن تنتصر على أعدائها . . .

(١) آية ١٦ النمل . (٢) آية ٨٠ سورة الأنبياء .

٦ - أنها حضارة ذات قيادة حكيمة . . تفصل في الأمور بنور الله . . وتتقضى بين الناس بالحق ولهذه القيادة أثر في توجيه الحضارة وجهة ربانية حكيمة - حتى لا تنحرف أو تضل . . « وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب (١) » والحكمة وضع كل شيء في موضعه والمراد النبوة . . لأنها ملاك أمر الحكمة والاتزان والفصل في الأمور بالبصيرة المشرقة .

٧ - أنها حضارة لها دستور منزل من السماء . . تمضى على سنن منهج رباني قال تعالى : « وآتينا داود زبوراً » . . وهو مجموعة ترانيل وأناشيد تتضمن تمجيد الله وحمده والثناء عليه - وبعض الأخبار المستقبلية [ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون] .

وعند أهل الكتاب الزبور : المزامير وقد أوتى داود حسن الصوت والانشاد وضرب به المثل في ذلك . . وليس بالزبور أحكام ولا أوامر ونواه ، وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين كالمزمار الذي أوله (على أنهار بابل) فإنه بعد سبى الاسرائيليين الى بابل في حادثة بختنصر . . ولقد حكم داود فأجاد ، وعبد الله فأحسن ، وأقام ملكه على الايمان والعلم وكانت نبوته رحمة وعدلاً . . وأنزل الله عليه الزبور . . وحببه في العمل . . ولهذا عاش محبوباً ، ولا يخفى أن كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليه كانت وسائل حضارية تعين على صنع مدنية فاضلة تقوم على الايمان والحكمة والعلم . .

انها حضارة قد أنشأت آثاراً ، وأقامت ملكاً ، وأبدعت فنوناً واستخدمت قدرات هائلة وطاقات غير محدودة ومازجها عنصر الاعجاز الالهي ، لقد امتزج فيها عنصر المادة بعنصر

(١) آية ٢٠ سورة ص .

الروح فلاءمت طبيعة الانسان وأسعدت البشر واستخدمت في
الابداع والتعمير والخير العام ولنقرأ وصفاً رائعاً جامعاً ، خلافاً ،
لتلك الحضارة الالهية وهو قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود
منا فضلاً ياجبال أوبى معه والطيور وألنا له الحديد أن يعمل
سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً ، انى بما تعلمون
بصير (١) » .

قال ابن كثير في تفسيرها : يخبر سبحانه عما أنعم به على
عبده ورسوله داود عليه السلام بما آتاه من الفضل المبين ،
وجمع له بين النبوة والملك . والجنود ذوى العدد والعدد ، وما
أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان اذا سبح تنسبح معه
الجبال الراسيات الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات
والغاديات والرائجات وتجاوبه بأنواع اللغات ؟ وفي الصحيح
أن رسول الله سمع صوت أبى موسى الأشعري يقرأ من الليل
فوقف فاستمع لقراءته ثم قال عليه الصلاة والسلام : لقد أوتى
هذا مزاراً من مزامير آل داود وقال أبو عثمان النهدي : ماسمعت
وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام في بناء
صوت صنج ولا يربط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى
الأشعري ومعنى قوله : « أوبى » أى رجعى : ا . ه :

تأملات حضارية :

أول ما يطالعنا من الآية السابقة قوله : سبحانه : « ولقد
آتينا داود منا فضلاً » بعد أن عبر في مكان آخر بقوله : « ولقد
آتينا داود وسليمان علماً » وفي موضع ثالث « وآتيناها الحكمة
وفصل الخطاب » ، فنحن أمام مادة فياضة من عطاء الله وكرمه
يتفضل بها على عبده الطائع الأواب ونبيه المصطفى « داود »

(١) آيتا ١٠ ، ١١ سورة سبأ .

وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام في بناء الحضارة وهو علم يتجسد في عمل ، ويترجم الى صناعة أى أنه ليس علماً نظرياً بدليل قوله : « أن اعمل سابغات » ولا يتصور أن تقوم حضارة ما على جهل ، كما لا يتصور أن تقوم على علم نظري . والا كانت حضارة كلام وفلسفات ونظريات ، واذا كان هذا العلم من الله فهو علم نافع مثمر يتجه لداوود في « الفضل » أى فضل الله وكرمه ، واذا منح الانسان الى الحق ويرعى كرامة الانسان ، كما يتمثل هذا العطاء الغامر فضل ربه فقد غدا ربانياً يقول للشئء كن فيكون ولا أدل على ذلك من الالة الحديد وصنع الدروع السابغات ، وهذا الفضل عنصر حضارى له قيمته فان الحضارة المتجددة تعتمد الابداع والجمال ، وكلاهما انما يتم بفضل الله واقداره ، واذا تم انجاز الحضارى بفضل الله فهو انجاز مسخر لخدمة الانسانية لا لمصلحة شخص ، أو أسرة ، أو قبيلة ، أو وطن ، أو مصلحة ، وبذلك يكون طابع الحضارة انسانية واسعاً ، ويتجلى فضل الله على داود في ايتائه الحكمة : وهى وضع الشئء في موضعه ، وكانما أريد بها البصيرة النافذة في القول والفعل . . والحضارة المثالية تفتقر الى الحكمة في بناء صرحها وتأليف عناصرها حتى لا يطغى عنصر على آخر . . فاذا اتيح لداود مع ذلك منطق فاضل وحكم عادل . . فقد أوتى الخير كله .

وهما عنصران أساسيان في بناء الحضارات . . اذ لا يحفظ سيرها ولا يضمن استمرارها الا العدل وان حضارة تقوم على الظلم لجديرة بأن تنهدم على رؤوس أصحابها .

هذا بعض ماتوحى به الكلمات « علما ، فضلا ، حكمة ، فصل الخطاب » كما وردت في الآيات وقوله سبحانه : « يا جبال أوبى معه » وهو نداء قدسى صادر عن الله تبارك وتعالى الى الجبال الخشنة الموحشة ، يأمرها بأن ترجع مع داود وأن تردد

معه التسابيح وأن تتجاوب مع ألحان الشكر التي يتجه بها الى خالقه ومولاه ، وانها للحظة من لحظات التجلى ، أن يفيض الله من أسراره على عبده ونبيه الأواب فاذا هو موصول بالكائنات بعد أن انزاحت الحجب والعوائق بينها واتصلت حقيقته بحقيقتها ، في تسبيح بارئها وبارئه ، ورجعت معه الجبال والطيور مرددة لحنه الأعن ، اذ لم يعد هناك أى عائق أو فاصل بين الوجوديين عند ما اتصلوا بالله صلة مباشرة يتلقيان من فيضه ، يسبحان له ، يمجدان ذاته ، انه في الحقيقة تسبيح واحد بلسان ذاك ولهجة شاكرة تتجه الى رب واحد جل جلاله ، وكل كائنات الحياة خاضعة لله ، مبتهلة اليه « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وحين تشف النفوس ، وتتجرد الأرواح وتصفوا القلوب فان ما بيننا وبين هذه الكائنات ينزاح ، فتذهب العوائق ، وترتفع الحجب ، وتذوب الفوارق فاذا بها تبوح بالأسرار واذا بنا نسبح في الانوار ، واذا الجميع في لحظة التجلى موصول بالله الواحد القهار ، كل منا يرجع ألحان الشكر ، ويردد ترانيم المجد وينشد أنغام الجلال ، فيالها من نفحات لدنيه يفيضها الله على من يشاء من عباده فاذا هو في التجلى الأعظم غارق في النور يفهم عن الكون كله ، ويفقه لغة الطير والحجر والشجر والجبل لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وهل كانت العوائق الا من الغفلة ؟ فاذا زالت تلك الغفلة فقد ارتفعت الستائر وارتبطت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر ولم يعد هنالك فرق بين بشر وجبل أنهما معاً موصولان ببارئ القوي والقدر سبحانه في علاه ، وما أجل تلك اللحظة القدسية ارتفعت الستائر وشغقت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر التي تردد فيها الجبال الخشنة نغمة داود كما سمعتها • وترجعها كما وصلتها دون زيادة أو نقصان !! وليس في ذلك أدنى غرابة ، فالانسان مخلوق له من الخصائص العليا ما يرشحه لتلك المقامات بل لأكثر منها عندما يتجرد من كيانه

المادى الصفيق ويرتفع عن واقعه الأرضى المعتم ، عندئذ تذهب القوانين التي تعزله عن الجماد ، لأنها قوانين من وضع الله - وهو سبحانه قادر على أن يلغيها فاذا بعالم الانسان ينفتح على عالم الجماد فيكشف الثانى له عن أسرار وعجائب ما كان ليصل اليها بعلمه العادى - أو بعقله المادى - ولو عاش آلاف السنين . هل يستطيع العلم الحديث مهما تقدم وأبدع أن يوجد لنا الطريقة التي نفهم بها لغة النملة ولحن الطير - وأن يخضع الطبيعة في أحسن مجاليتها لارادة الانسان فتخرج لحنه - وتردد ترانيمه ؟ ! انها التقوى تحدث من التقدم في حياة البشر في لحظة مالا تستطيعه العلوم والمعارف في آلاف السنين . . ! ولأمر ما يقول جل شأنه : « واتقوا الله ويعلمكم الله (١) » .

وهو علم خارق لا يتوقف على مدارس أو اطلاق وانما يفيضه الله على من يشاء من عباده واذا زالت الحجب بين الانسان - وعناصر الكون فانه يتمكن من فهم أسرارها واستيعاب خصائصها والاستفادة منها دون قهر أو اغتات ! كل ذلك تنشئه التقوى ، التي تخضع القوانين المادية للانسان دون احتياج الى « العلم التجريبي » الذي يبني الحضارة الانسانية بطريقة عادية .

والحق أن داود قد أوتى صوتاً حسناً كان يرتل به مزاميره ويتلو تسابيحہ التي وردت في العهد القديم . والآية تعطى أنه قد أوتى حظاً من الشفافية والتجرد في تسابيحہ جعل قلب الكون يخفق له ، ويتجاوب معه ، ويردد أنغامه المتجهة الى بارئ الأرض والسماوات .

كل هذا الفيض تعطيه آية « يا جبال أوبى معه » ولا يعقل أن تردد الجبال صوت داود وهو لا يفهم عنها ولا تفهم

(١) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

عنه ، لأن الشفافية اذا بلغت غايتها لدى الانسان فان يد الله تمتد الى هذا الستار المسدل بين العبد التقى الأواب ، وبين الكائنات فترفعه بترفقه فاذا هما متجاوبان متعارفان متفاهمان يعرف كل منهما عن الآخر ما كان يجهله .

والحق أن الانسان ليس غريباً عن الأرض . منها بدأ ، واليه يعود ، وعليها يكدح . ومع عناصرها يتعامل . فاذا تجاوب مع جبالها وطيرها وعناصرها كلها فليس ذلك بعيداً ولا ممتنعاً . وسبحان من تخضع الكائنات كلها لجلال عظمته :

فعلى الانسان أن يعقد الصداقة بينه وبين عالمه مستعيناً على ذلك بالايمان والانقياد لله وبالعلم الذي يمكنه من فهم أسرار الحياة ثم يمضى في رحلته الصائرة الى الله .

ويوم تتم هذه الصداقة فما أسعد بنى الانسان ، ويوم ينفصل الانسان عن عالمه فما أشقى الحياة والأحياء ، ولعل ترجيع الطير مع داود ايسر في الفهم من ترجيع الجبال ، لأن الطير على أى حال كائن ذو حياة . وهو مغرد بطبعه فلم يبق الا أن يعقل عن داود ويرجع معه . وقوله سبحانه [وأنزاله الحديد] قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربه بمطرقه بل يفتله بيده مثل الخيوط ويقول قتادة : ان داود أول من عمل الدروع من الحلق ، ولهذا العنصر ، أثر رائع في صنع الحضارة . والحديد في ذاته أهم عنصر حضارى للسلم والحرب . فكيف اذا كان ليناً طرياً مطوعاً لأى صناعة :

قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (١) » وقوله : « أن أعمل سابغات » معناه أعمل من الحديد دروعاً طويلات ليست كما اعتاد الناس ، بل متطورة ، على

(١) آية ٢٥ سورة الحديد .

النحو الذى قلنا من قبل ولقد ذكر المفسرون : أنها كانت من قبل تثقل الكاهل ، وترهق الانسان فغدت على يد داود متموجة لينة تسهل معها حركة الجسم وغدت محكمة لا تنفذ منها السهام ولا الرماح ، وهنا لمحة حضارية لابد من تسجيلها وهى تكمن فى قوله سبحانه « ولقد آتينا داود وسليمان علما » ثم قوله بعد : « أن اعمل سابغات » فماذا يعنى هذا ؟

انه يعنى أن العلم الذى يستفاد به فى تأسيس الحضارات ليس علماً نظرياً ، والا غدت الحضارة به حضارة ثرثرة وكلام . . وانما هو علم يترجم الى سلاح ودروع وما شاءت الحضارة من أدوات أخرى . . وقد أثر عن سيدنا رسول الله [صلعم] قوله : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وقد روى المفسرون أنه كان لا يأكل من بيت مال الأمة . . بل من كده وتعبه . .

وهكذا يبرز كل من العلم والعمل فى حضارة داود كقيمتين رفيعتين . . ويأخذان سمتاً متكاملًا ، لأن العلم فى هذه الحضارة علم يترجم الى عمل ، وهكذا : العلم يخطط والعمل ينفذ ويطبق . . وعندما يتجلى الله على انسان فيؤتيه من لدنه علماً ويلهمه سر تحويل العلم الى عمل . . ثم يمنحه الحكمة التى تضع كل شىء فى موضعه المناسب فقد مكنه من بناء حضارة رفيعة سامية تعبر عن خصائص الانسان وتحترم علاقته بالملأ الأعلى . . وتنشئ من روائع الصنع ماتعجز الاسن عن وصفه . . وهكذا تتجمع فى حضارة داود عناصر العلم والعمل والحكمة . . العلم يخطط ، والعمل يجسد ، والحكمة تصوغ بدقة وتضع كل شىء فى موضعه ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . . قوله سبحانه : « وقدر فى السرد » وهو أثر الحكمة فى ابراز العمل فلا قيمة لعمل لا يخطط ، ولا يقدر ، ولا يوزن حتى

يأتى على أجمل وجه وأبداع صورة ، ومعنى قدر فى السرد . .
أحكم الصنع ليأتى الدرع على قدر الجسد فى ابداع وجمال . .
فهذا هو العمل المتقن . . وقوله سبحانه [واعملوا صالحاً]
معناه : اتجهوا بالعمل الى الله . . ولا تغتروا بما تهيأ لكم من
وسائل . . ولا تغرقوا فى الترف والذهب بعيداً عن الله . .
فهذه آفات الحضارات وهو خطاب عام لشعب داود من بنى
اسرائيل ولغيرهم ممن يتأتى لهم أن يستفيدوا . . والعمل
الصالح : الخالص لوجه الله سواء أكان دنيوياً أم أخروياً .
بل انه لا فرق بينهما فى الواقع لأن العمل الدنيوى متى أريد به
وجه ذى الجلال والاكرام فقد غدا أخروياً . . وكلاهما لازم فى
صنع الحضارة .

وقوله سبحانه : [انى بما تعملون عليم] اشارة الى
الرقابة العليا التى لا تغفل ولا تنام . . وهى رقابة دقيقة
تراقب الانسان فى هجعاته ويقظاته ، فى روحاته وغدواته . . فى
بيته وفى المجتمع ، فى سره وجهره . . فى وساوس قلبه وظواهر
عمله ، وهى رقابة لا تستغل ، ولا تستغفل ولا يحتال عليها ولا
يستخفى منها . . فينبغى أن نعمل حسابها ونحن نمارس دورنا
الحضارى . . واذا خضعت حضارة البشر لرقابة الله واستشعر
بناتها جلاله وهيبته فان حضارتهم تكون ربانية يباركها الله
ويجعل منها مصدر خير للحياة ويلهم أصحابها الرشيد ويذهب
عنهم كيد الشيطان ، وكل القوى الشريرة التى تحاول أن
تعترض طريقهم ، أو تحول مسيرتهم . . وويل لحضارة تفقد
الضمير الوازع !! . .

تلك صفحة من حضارة داود . . تتألق بالضياء . .
وتتدفق بالجلال والرواء . . لأنها استمدت منهجها من السماء
. . وسارت فى طريق التعمير والبناء . . فكانت نافعة جليلة . .

مع الحضارة السلبيانية :

في وصف هذه الحضارة الربانية ، ترد آيات كثيرة في كتاب الله ، وكل آية تتعرض لوصف جانب من تلك الحضارة .
وهي تتكامل تماماً مع حضارة داود عليه السلام . . فهما سلسلة واحدة . . ذات ملامح واحدة . . الا أن هذه الحضارة أوغل في عالم الخوارق ، وروعة المظاهر ، وكثرة التسخير . .
ومكان الحضارتين واحد وهو بيت المقدس وما حوله . .
وشعبهما واحد وهو بنو اسرائيل والقيادة في كليهما ربانية . .
لأن سليمان ملك نبي ، وكذلك والده من قبله . .

يقول سبحانه : [ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجوارب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور . . (١)]
ويقول سبحانه واصفاً تلك الحضارة :

« وورث سليمان داود وقاه يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو افضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطيير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (٢) » ثم تتوالى أحداث ومشاهد كقصة الهدد ، ونبأ بلقيس . .

(١) آية ١٢ ، ١٣ سبأ .

(٢) آية من ١٦ — ١٩ الزهل .

وقوله سبحانه: « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه
أواب ، اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، فقال ، انى
أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردوها
عى فطنق مسحاً بالسوق والأعناق(١) » .

وقال سبحانه: « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء
حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين
فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٢) » .

وقال تعالى : « وكلا آتينا حكما وعلما (٣) » .

هذه الآيات من كتاب الله ، تتضمن وصف ملامح تلك
الحضارة ، وتشخيص عناصرها . . . وهى حضارة متوهجة
بالذهب ، مرصعة بالدر والياقوت . . . مزدانة بالعمائر والقصور
. . . مدعمة بالجيش القوى ، والجند الكثير ، تغمرها الخوارق ،
وتعمها المعجزات . . . وتخضع لله فى كل شىء وتستمد منه العلم،
والعمل ، وتبسط جناحها على ما حولها من الممالك بالمودة
والايناس . . . وتستخدم عناصر عجيبة كالطير والريح والجن
والانس . . . والهدهد . . .

وقد ورد ذكرها فى القرآن مجزأة . . . كمشاهد مثيرة ،
ومواقف مغرية . . . تتكامل فى النهاية لتعطى شكل هذه
الحضارة ، تكررت ست عشرة مرة . . . اخترنا منها ما هو أجمع .
وأشرنا الى الباقي . . .

وقد امتدت مملكة سليمان من خليج أيلة وفلسطين وشرق
الأردن ولبنان وسوريا الى شطر الفرات وقد تم تشييد هيكل
سليمان على جبل موريا بيت المقدس (عام ٩٧٥ ق . م) وقد

(١) الآيات ٣٠ : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ سورة ص .

(٢) الآيات من ٣٦ - ٣٩ سورة ص .

(٣) آية ٧٩ سورة انبياء .

أثر عن سليمان أنه بعد أن بنى الهيكل صعد فوقه ونادى ربه نداء وجدانياً رقيقاً قائلاً في تواضع : رب لم تسعك سماواتك فكيف يسعك هذا الهيكل الضئيل ، رب اجعل نظرك على هذه البقعة من الأرض » . . وهذا النبي الاواب تصوره كتب اليهود على أنه ملك غوى غارق في الخمر والنساء » . . فانظر الى الدس والتدليس ؟ !

وأول ما يطالعنا من هذه الحضارة عنصر الرونق والجمال . . فقد طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فرزقه الله تمكيناً هائلاً في الارض ، وسخر له الشياطين ، وعلمه منطق الطير ، وآتاه حكماً وعلماً . . وجعل قوام جيشه الجن والانس والطير . . ومنحه من الخيول الأصيلة ما يستخدمه للجهاد والزينة . . ومكنه من الاصداف والجواهر واللآلئ تستخرجها الجن وتجلبها له .

وهذه المقومات من أهم الأسس في بناء الحضارة وقد انعكست آثارها على شكل آثار فخمة وهياكل ضخمة ومدن رائعة وأدوات بارعة ومناظر تخب الألباب . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقد ارتكزت هذه الحضارة في فلسفتها على [العلم ، والعمل ، والحكمة] كما مر . .

فأما العلم فيشير اليه ربنا بقوله : « وكلا آتينا حكماً وعلماً » أي كلا من داود وسليمان . .

وأما العمل فيشير اليه قوله سبحانه : « اعملوا آل داود شكراً » وقوله سبحانه في تسخير الجن لسليمان « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدر راسيات » . .

وان حضارة يمتزج فيها العلم بالايمان لهى أقوم حضارة
وأسماءها ، ولقد استطاعت بالحكمة أن تجعل كل انجازاتها فى
خدمة الأهداف النبيلة . من أجل الهداية والايمان . . لقد
تمكنت من وضع مبتكراتها من قصور وهياكل وصروح فى
خدمة الايمان . . وفى خدمة الانسان . .

وم تجعل الانسان خادماً لهذه الأشياء أو عابداً لها أو
مفتوناً بها . انها وسائل لرضاة الله يحس كل فرد فى جو هذه
الحضارة بأنه يتنفس فى بيئة مؤمنة ، تغمرها أضواء الايمان . .
وقد أفلست حضارة اليوم فى أن توفر للانسان هذا الجو . انها
حولته الى عابد للحضارة . . فامتهنت بذلك خصائصه ،
وأهدرت كرامته . . فأين ذلك من حضارة تسدها « الحكمة »
ويخططها العلم ، ويبنيها العمل . . لقد جاء فى سفر الملوك
الأول أن العمائر التى شيدها سليمان :

[بيت الرب ، وكان على مساحة تقدر بنحو ستين فدانا ،
وبيت الملك ، وسور أورشليم ، وحاصور ، ومجدو ، وجازر ،
وبيت حورون السفلى ، وبعلة ، وتدمر فى البرية] هذا عدا
المخازن ، ومدن المركبات ، ومدن الفرسان وما بناه فى لبنان
وغيرها من سائر مملكته فاذا أضفنا الى ذلك ما ذكره القرآن
الكريم من صنع المحاريب . وهى أماكن العبادة والتماثيل من
نحاس وحجر ونحوهما ، وكانت حلالا فى هذه الشريعة . .
والجفان أى القصاع الضخمة ، كأنها الجوابى أى الأحواض
التي يجبى اليها الماء ، والقصور الضخمة التى لا يمكن رفعها .

حضارة صناعة وعمل :

كل هذه المنجزات الحضارية من عمائر وهياكل وقصور ومن
أدوات أخرى كالجفان ، والقصور ، والتماثيل ، وقد احتوتها
حضارة سليمان ، وتحول المجتمع فى عهده الى مصنع كبير ،

تنصهر فيه كل القوى البناءة ، وتعمل السواعد القوية ، وتنتظر الأيدي بالكد والمعاناة . . . وليس في مجتمع سليمان مكان لخامل أو قاعد . . . وقد اختلط صنع الجن بصنع البشر وتمازجت العناصر المختلفة في المصنع الكبير . . . فكان موكب العمل يتألف من الجن ، والانس ولهذا كانت حضارة الخوارق ، يدل لذلك قوله سبحانه : [والشياطين كل بناء وغواص . . . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا (١)] . وقوله : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » . . . وهذا التسخير إنما يتم لسليمان « بإذن ربه » فليس له أو لأحد في مملكته أن يركب رأسه ، أو يفسى نفسه ، أو يفتات على ربه . . .

إنها على العموم حضارة علم يترجم الى عمل ، تسدده الحكمة الراشدة وتنشئه السواعد المؤمنة . . . وتتغشاه المعجزات الخارقة ويمارجه الايمان بالله !!

وقد أصبح سليمان مضرب الأمثال في تلك الخوارق : يقول النابغة مخاطباً النعمان بن المنذر .
الا سليمان اذ قال الاله له : قم في البرية فاحدوها عن الفند
وخيس الجن : انى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
كما ضرب به المثل في فهم اللغات ومعرفة أسرارها . فهذا
المتنبي يسير في شعب بوان بفارس فلا يكاد يفهم لغات القوم
فينشد :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

عنصر الإعجاز في تلك الحضارة :

أن عنصر الإعجاز جعل من هذه الحضارة عالماً سحرياً بديع الرواء . . . بل دغلاً واسعاً كثير الشعاب من أين جئته

(١) آية ٣٧ ، ٣٨ سورة ص .

وجدت ما يروعك .. وقد مزجتها بعض الأساطير والمبالغات
وبخاصة في كتب اليهود .. وعلينا في هذا المجال أن نمضى مع
القرآن الكريم .. وفيه قدر صالح من هذه الخوارق لتكوين
فكرة واسعة عن هذه الحضارة والذي يتأمل الآيات القرآنية
يخرج بما يلي :

١ - أن هذه الحضارة قد تم انجازها بقوى مذهلة متنوعة
من جن وانس وطير كل واحد من هذه العناصر له مكانه في بناء
الهيكل الحضارى ؛ فلريح مكانها ، وللجن مكانه ، وللهدهد
مكانه ، وللبشر مكانهم . ويتم التنسيق بينهم بواسطة القيادة
الواعية الحكيمة قيادة سليمان عليه السلام .. ولقد بلغ من
وعيه أنه كان يحشد جند مملكته الكثار على شكل استعراض
عام لجيش منظم ثم يتفقد صفوفهم .. ويبدى ملاحظاته ..
ويعرف من غاب من بينهم « وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى
الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه
أو ليأتينى بسُلطان مبین (١) » .. فانظر كيف أدرك غيبة
الهدهد .. وحسم فى الأمر عسكرياً . فاما التعذيب والذبح ،
واما الحجة التى تبرر غيبته عن الحشد الهائل .. وذاك هو
حزم القيادة ووعيتها ويقظتها ..

٢ - أن الله جلت قدرته قد طوع لها من الكائنات وسخر
لها من عناصر الكون وذلك لها من النواميس ما جعل كل شئ
ميسرا سهلا فى يد سليمان .. فصنوف الجواهر والآلىء
والأصداف التى يضطر اليها للبناء والتزيين تجتلبها له الجن
والريح تستخدم وقت الحاجة لدفع السفن ، والتأثير فى الزرع
بأمر سليمان وتكليفه ، وأدوات البناء كلها يتعاون الشياطين

(١) آية ٢١ سورة النمل .

على احضارها وتشبيد القصور بها .. والهدهد يأتي بالأخبار
وينقل الرسائل ، والطير كلها تنجز من المهام ما يسند اليها ..
والخيول الأصيلة تتكاثر في ملك سليمان وتكون عدة للجهاد ..
منه التماثيل وأدوات الحرب .. والحجب تزال بينه وبين
الأشياء فيفهم مهنها ويتلقى عنها .. وينتفع بها .. ماذا بعد
هذا؟ ..

تيسير في عالم الانس ، وتسخير في عالم الجن ، وتطويع في
عالم المادة ، وتسهيلات في عالم الطير وعالم الجماد ..!! وكل
ذلك يجعل من حضارة سليمان نموذجاً للثراء والبهاء ولكنه
جمال لا يضل ولا يذهل .. ولا يبعد عن الله .. بل يزيد
صاحبه قرباً من ربه وشكراً لآلائه وتسبيحاً له بالغدو
والأصال ..

فانظر كيف تسخر العوالم كلها بإرادة الله للمتقين !!
وكيف تذلل التقوى كل صعب وعسير؟! وليس لنا أن نسأل :
ما كنه هذا التسخير؟ وكيف استخدم سليمان الجن؟ وفهم
لغة الطير؟

وسخر الريح؟ وما بساط سليمان الذي احتل في الأساطير
مكاناً مرموقاً؟

انه الاعجاز الالهي .. وهو سبحانه قادر على أن يلغى كل
النواميس المألوفة ، ويزيل الحواجز والحجب بين الانسان وبين
الكائنات من جن وطير وجماد وريح لأنها جميعاً من خلقه ، فهو
أعلم بأسرارها ، وأعرف بخباياها « انما أمره اذا أراد شيئاً
له كن فيكون » ..

وليس الأمر هنا أمر التجارب البشرية ، أو العلم الانساني ولكنه أمر خالق الأكوان ومولج الليل في النهار وما يليق بانسان يحترم عقله ، أن يزوج به في هذا المضمار الذي استأثر به علم الله !! لأن ذاك فوق طاقته وقدرته .. عليه أن يصدق ما ورد في القرآن خاصا بهذا الموضوع .. وليس له أن يتجاوز قدره فيفلسف الأمور أو يتساءل عن قوانينها .. كما أن علينا أن نتجنب المبالغات التي احتوتها كتب اليهود لانها ضلالات مصنوعة .. وأكاذيب موضوعة وكم لليهود من ترهات !؟

٣ - أن هذه الحضارة رغم ما تهيأ لها من وسائل الاعجاز لم يقعد أصحابها عن العمل - وانما استثمروا الكائنات - واستفادوا من الفرص المتاحة .. وتحركوا بالعمل في كل اتجاه .. فهم لم يقعدوا لصنع الجن لهم ، ولم يكسلوا لتنوب الريح عنهم .. وانما انطلقوا بهذه التيسيرات يسخرونها بأمر الله .. ويستخدمونها بقدره .. وينجزون بها الأعمال الخارقة .

ومن ثم فنحن نلاحظ أن داود عليه السلام يتمكن من الانة الحديد لا ليقعد وينام ولكن ليصنع بيده الدروع .. ويبدع في هذا العمل أيما ابداع .. وسليمان يبنقاد له النحاس سائلا فيتفجر كما يجب لا لينام على ذلك ولكن ليستخدمه في الصناعة ويحوه الى أدوات ..

ويصدر التكليف العام من السماء لآل داود جميعا أن يكونوا قدوة في العمل .. لينقل الناس عنهم ، ويتعلموا منهم ، فيخاطبهم الله بقوله : « اعملوا آل داود شكراً » وهو تكليف لتلك الأسرة البانية أن تنصهر باستمرار في جو العمل .. وأن تتخذ منه وسيلة لشكر الله ..

وشتان بين قوم هود الذين قال الله فيهم : « أتبنون بكل ريع آية يعبتون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ »

وبين آل داوود الذين يوجههم الله الى الشكر الدائم ليكون عملهم في مرضاة الله « اعملوا آل داوود شكراً » نعم شتان بين حضارة للهو والعبث والرياء والتظاهر واعلان الحرب على الله ، وبين حضارة مسيحة عابدة شاكرة لله!! الأولى طبيعة الحضارة العادية .. والثانية طبيعة الحضارة السليمانية .. ومن ثم بادت الأولى وذهبت مع الريح وبقيت الثانية حتى استوقف قدرها الالهى !!

٤ - أن التجرد لله ، والعمل بشريعته .. واخلاص القلب له .. هن الرسائل التي تمكن للانسان في الأرض .. والله سبحانه لا يمنح تأييده للفاجرين ، ولا للفاسدين .. وانما يؤيد أولياءه وأنبياءه .. ويخرق لهم قوانين الكون ونواميس الطبيعة ، ويزيل ما بينهم وبين الكائنات من عوائق .. لهذا ، فان نظام الحضارات انما يزدهر ، ويتألق ، في رحاب الايمان ويندحر ويذهب مع الفسوق والعصيان .. وكم من حضارات شادها الايمان ثم دمرها الكفران .

٥ - أن سليمان ، ومن قبله داود ، له يتم لهما هذا التمكين ليتحولا الى آلهة تعبد من دون الله ، لأنهما نبيان معصومان .. وقد بلغا من الشفافية والضراعة والاختبات لله حداً لا نطقه ولا نتخمله .. ومن ثم فانه ليس لهما تأثير مباشر في الكون .. وانما التأثير والفاعلية لله .. لأنهما لم يصلا الى هذا المقام الا بحسن الشكر وصادق العبادة .. أما هما كبشريين فامكانتهما محدودة لا يتصرفن في شيء لأن التصرف مقصور على رب الكون ومنشئه .. وهو سبحانه يضع سره فيمن يشاء من عباده .. ولذا يحرص التعبير القرآني في هذه المقامات الباهرة على أن يضيف التأثير كله لله وانظر معي في قوله سبحانه : وألنا له الحديد ، وأسلنا له عين القطر ، وسخرنا له الريح ، وعلّمناه

منطقن الطير ، و علمناه صنعة لبوس لكم ، ومن يزغ منهم عن أمرنا ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه [فأنت ترى نون العظمة تسود الموقف كله ، وترى في بعض الآيات تصرّيحاً بأن هذا التسخير تم بإذن الله ، أو بأمره ومشيئته . .

هل تحس لداود وسليمان وضعا في هذه الآيات ؟

كل ما هناك أنهما مخلوقات تجرى على يدهما آثار القدرة الباهرة . . ولكن ليس لهما تصرّيف أو ارادة أو أمر في هذا المقام الأرفع . . وهذه الكائنات من جبال وطيور ونمل وحنظل مأمورة مسخرة منقادة لأمر خالقها وخالق الإنسان فليس لأحد بالغ ما بلغ العلم والحكمة أن يزعم لنفسه شيئاً من الأمر . . ونحن نرى أن لهذه اللوحة في التعبير القرآني أثراً كبيراً في إلزام الإنسان حد نفسه حتى لا يتجاوز حجمه وصدق ربنا إذ يقول : [وما أوتيتم من العلم الا قليلاً] ان النواميس الكونية مخلوقة لله فهو يبقّيها ان شاء ويلغيها ان شاء كل ذلك لحكمة يعلمها - واذن فعلى العلم البشرى الضيق الضئيل أن يلتزم حد الأدب فلا يتدخل فيما ليس له فيخضع المعجزات لقوانين العلم العادي !! وعلينا جميعاً أن نخلص عقيدتنا لله وحده وأن نحصنها ضد وساوس الشرك وهو اجس الشيطان !! .

٦ - تزدان تلك الحضارة بأنماط فخمة من وسائل الجمال والزينة التي لا تستطيع حضارة البشر بالغة ما بلغت أن ترتقى اليها فهي حضارة ذوق وفن وجمال فيها النحت متمثلاً في التماثيل والهيكل - وفيها البناء متمثلاً في المحاريب والمعابد وفيها دقة الصنع متمثلة في الجفان ، والقصور الراسيات - وفيها الزينة متمثلة في الخيول الصافنات - وفيها الزخرفة متمثلة في الترسيع بالدر والياقوت وما شئت من الحلى واللآلئ والأصداف . . وناهيك بالصرح الممرد من قوارير . .

هذه بعض العناصر المادية المتشابكة لتلك الحضارة الزاهية المتألقة التي لم تستطع رغم بهائها وروعتها أن تستعبد قلب سليمان لأنه يعرف جيدا أنها ابتلاء وامتحان فلم يسمح لها أن تستخدمه - وانما استخدمها هو - وعاشت منفصلة عن قلبه . . وجعلها في خدمة البشر ولم يجعل البشر عبيدا لها . . كما فعلت المدنية الحديثة حيث جعلت الانسان عبدا للآلة والمصنع والمال والشهوات . . ان الانسان في حضارة داود وسليمان عبد الله فقط لكنه سيد لكل عناصر الكون ولكل منجزات الحضارة وتلك هي الحضارة الربانية التي يتجه بها الانسان الى خالقه وخالقها . . مسبحا مقدسا هاتفا من الأعماق : « هذا من فضل ربي » فهذا هو الاعتراف بفضل الله والانصراف عن لهو العيش وزائف الحياة . . « ففروا الله انى لكم منه نذير مبين » . .

ومن خلال تتبعنا لروعة تلك الحضارة ، نقطع بأن سليمان قد بلغ من بطولة الايمان واليقين منزلة رائعة حيث لم يفتنه هذا الملك الكبير الذى يعبر عنه بقوله : يأيها الناس علمنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء [وللملك اغواء ، وللجاء اغراء ، وللدنيا تسلط على القلوب ولكن !! أين كل ذلك من قلب نبي أو اب اجتباه الله وصنعه على عينه ولم يجعل للدنيا سلطانا على قلبه ؟ !

من روائع الحضارة السبئية :

بين بلقيس وسليمان : ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم في موضعين . . الأول في سورة النمل الآيات [من ٢٣ - ٤٤] وفيه تفصيل لما حدث بين بلقيس وسليمان ، وما كان من بين النصارى واليهود وقصة أصحاب الأخدود معروفة في أمر اسلامها والثانى في سورة سبأ من الآية [١٥ - ١٩] وفيه

حديث مفصل جامع عن جنان سبأ ، وسد مأرب ، وسيل العرم ،
وتفرق القبائل . . . وسنتكلم عن الموضوعين بالترتيب لما
احتويا من وصف رائع أخذ للعالم حضارة زاهية جميلة . .
تشابكت فيها عناصر مادية وروحية . .

الموضوع الأول : كانت مملكة سبأ تقع بجنوب اليمن ،
وعاصمتها مأرب ، وملكتها بلقيس التي حكمت تلك المنطقة
حكما شوريا ، وكانت تحكم في منتصف القرن العاشر قبل
الميلاد لأنها كانت تعادى سليمان وكان هو يحكم سنة ٩٥٠
قبل الميلاد ، وهى إحدى ملوك حمير المعروفين وكانت وثنية
تعبد الشمس لكنها أوجدت فى منطقتها حضارة زاهية تقوم
على الزراعة ، وبناء السدود ، وتنسيق الحدائق . . ولا غرو
فالحضارة اليمنية قديمة عريقة ، وكانت أرضه تعرف بالأرض
السعيدة وقد تعاقب عليها من أجل ذلك غزاة طامعون فى حقب
مختلفة من التاريخ . ودارت على أرضها وقائع كبيرة وبخاصة
بين النصارى واليهود وقصة أصحاب الأخدود معروفة فى
القرآن الكريم وقد استعمرها الأحباش والفرس وتنازع البقاء
فيها يهود ونصارى . . كانت السفن ترسو على شواطئها
تجلب اليها البضائع ، من الهند الشرقية وبلاد الصين وسواحل
أفريقية . . ثم تذهب الى صنعاء ومأرب لتنتقل منهما على
ظهور الأبل فى قوافل ضخمة الى الشام والعراق ومصر وحوض
البحر الأبيض المتوسط . . وكانت مأرب تتقاضى الضرائب على
البضائع المارة بها وكان هناك تبادل تجارى بين الجنوب
والشمال فى شبه الجزيرة العربية .

وقد اشتهرت فى اليمن صناعات قديمة منها نسج المواد
الخام التى كانت تستورها من الهند ، والبرود اليمنية مشهورة
ومعروفة . . وأكثر منها فى الشهرة السيوف ، كما كان أهلها
مهرة فى فن العمارة والنحت يدلنا على ذلك ما خلفوا من سدود

وفصور وحصون ومدائن ومعابد وحياض لخزن المياه ، ولقد وصف الهمداني قصر غمدان وأنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض بين كل سقفين عشرة أذرع ، وقد غطى أعلاه برخامة واحدة شفافة ، وكانوا يزخرفون المبانى بالنقوش والرسوم وكان بعض مبانيهم بيضى الشكل مثل « حرم بلقيس » ولعله كان معبدا ، وقصور اليمن قد أطنب المؤرخون في وصفها . . هذه بعض عناصر تلك الحضارة . .

وقد امتازوا بعد العماره والتجارة ، بالزراعة ، زرعوا السهول المنبسطة ، وسفوح الجبال ، وعنوا بمسائل الري ، وحفر القنوات وأنشأوا مئات السدود لخزن الماء أيام السيول ورفع مستواه ليصل الى السفوح ، وكانوا يعنون بالكروم عناية خاصة حتى لقد ذكر الهمداني صاحب كتاب جزيرة العرب أكثر من عشرين صنفا من أعنابهم .

ويمكننا أن نستخلص أن هذه الحضارة قد اكتملت في اليمن بصورة عامة وفي جنوبها بخاصة ، عندما كانت البلاد مستقرة تعيش في ظل عقيدة دينية سمحة يوم تم الاتصال التاريخي بين بلقيس ملكة سبأ ، وبين سليمان النبي ، ودخلت في دينه بعد أن شاهدت أبهة ملكه وفخامة عرشه وجلال عقيدته وتأكدت أنه ليس ملكا دنيونا يبغى تكوين امبراطورية ، وانما نبي صالح يبغى بناء مدنفة فاضلة وترسيخ عقيدة مؤمنة ، وعندما اندمجت مملكتها في مملكة سليمان نعمت بعقيدة الايمان ، فسعدت بحضارة وارفة الظلال ، هي التي وصفناها قبل ذلك . .

والقرآن يشير الى ذلك بوضوح في الآيات (من ٢٤ - ٤٤)
من سورة النمل . .

ولا بد لنا من وقفات تأملية أمام بعض الاشارات القرآنية
لنستنبط منها معالم الحضارة السبئية ، في تلك الفترة الخصبة
من تاريخ اليمن . .

قصة خالدة أو رحلة الايمان :

وخالصة القصة في وجازة كما وردت في القرآن . . أن
سليمان عليه السلام كان يحشد جيشه النظامي ، ثم يستعرض
صفوفه . . ليوجه الجند ، ويشرف على تنظيمهم . . وقد حدث
ذات يوم أن تفقد الطير من بين الصفوف فلم يجد الهدد . .
فتهدده بالوعيد الشديد ان لم يبرر تخلفه عن حضور
الاستعراض ، وهو التعذيب أو الذبح . . فأنبأ الهدد ، وكان
قد حضر ووقف على مقربة منه بأن لديه خبراً عجبياً يريد أن
يفضى به اليه . . ثم شرع يقص قصته . . لقد ذهب الى أرض
سبأ ، فوجد ملكتهم امرأة ، تملك أمرهم ، وتحكم بينهم . .
ولها عرش عظيم ، وسلطان واسع . . بيد أنها تعبد الشمس ،
فكتب سليمان النبي كتاباً ، ودفع به الى الهدد وأمره أن يتجه
به الى الملكة ويسملها الخطاب . . وأنه سيعرف صدقه أو
كذبه من خلال تنفيذ هذه المهمة ، وكان الخطاب دعوة الى الايمان
وطالب فيه ألا يعطوا عليه . . ووصل الهدد بالخطاب وقذف به
الى الملكة ، وقرأته مندهشة . . ثم جمعت قومها لتأخذ رأيهم في
أمر هذا الخطاب ومضمونه . . فأكدوا لها جميعاً أنهم أقوياء ،
فاذا رأت الملكة أن يحاربوا فهم على استعداد ، فوضوا لها
الأمر . . ولكن المرأة تعرف نتائج الحروب فأشارت عليهم بأن
تسلك مع هذا الملك مسلكاً سلمياً ، تبعث اليه بهدية فخمة
تترضاه . . وتكشف عن دخليته . . وفعلاً نفذت ذلك . . لكن
سليمان رفض الرشوة ، واحتقر المال . . وأكد لهم أن الله
منحه ما هو أسمى من ذلك كله وهو الايمان . . وأنها ان لم
تذعن وتحضر اليه مسلمة فسيرسل اليها جيشه القوي .

وعلى أثر هذا التهديد جاءت تسعى الى سليمان . . الذى
أعد لها مفاجأة تتجلى فيها القوة والسلطان ، وهو احضار عرشها
وتغيير بعض مظاهره . . ليعرف أهى ذكية تعرف ؟ وكان الذى
أحضره رجل صالح ممن عنده علم من الكتاب . . ثم بنى له
صرحاً من زجاج ووضع على سطح الماء اظهاراً لفخامة ملكه
وعظمة سلطانه . . فأما هى فعجبت حين رأت العرش وأبدت
دهشتها ولم تقطع بأنه عرشها . . بل اكتفت بقولها : « كأنه
هو » أما الصرح فقد شممت عن ساقها ظناً منها أن الصرح ماء
فقتيل لها : « انه من قوارير » تبدو كالماء وماهى بالماء . .
فهتفت بعد ما رأت جمال الحضارة وجلال الايمان :

« رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب
العالمين » والمفسرون يذكرون أن سليمان نزوح منها وجاء بولد
يزعم بعض ملوك الحبشة أنهم من نسل ذلك الولد . . فهم
أبناء سليمان .

« بين بلقيس وسليمان » من وحى الآية :

١ - قوله سبحانه على لسان الهدد : [أحطت بما لم
تحط به] يخاطب بذلك سليمان ، يدل على ذكاء هذا الهدد ،
فقد استطاع أن يمتص نقمة سليمان عليه بهذا الاعلام المثير :
« أحطت بما لم تحط به » وأى انسان يسمع أحد أتباعه يقول
له ذلك ، ثم لا يلتفت اليه بكل قلبه ويذهل عما هو فيه ؟ !

وهنا أسرار ربانية لا تخفى ، فهذا هدد يعرف ما لا يعرف
نبي كريم ، وينطق بما يفهمه سليمان ، ويفهم عن سليمان
مايقول . . ويقدر الموقف الرهيب الذى تتهدده فيه عوامل الموت
بسبب تخلفه . . فمن ألهم الهدد كل هذا ؟ من استودع فيه
تلك الأسرار ؟ ثم ماهذه الفصاحة التى يتحدث بها الهدد

وما هذه الغيرة على الايمان ؟ حين أنبأ سليمان أن القوم يعبدون الشمس من دون الله ، وأن الأحرى بهم أن يسجدوا لله الذى يعلم الأسرار ، ويولج الليل فى النهار . . لا غرو فالهدهد جندى من جنود سليمان ؟ وعضو فى مجتمعه . . فهو ليس هدهداً عادياً وسبحان من ألهمه وعلمه !!

٢ - قوله سبحانه على لسان الهدهد : [انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء الخ]

يعطى التعبير أنها كانت ملكة تحكم قومها حكماً سورياً ، ولذا قال : « تملكهم » ولم يقل : تحكمهم وانه ليبدل كذلك على عظمة ملكها ووفرة مالها ، وكثرة أسلحتها . . وسعة ثروتها . . ولذا ورد على لسان حاشيتها : « نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد » فهي مع شعبها تحيا فى ظل حضارة تملك الثراء وتملك القوة . . ويبدل هذا الرد من جانب الحاشية أن الشعب كان متلاحماً مع قيادته يتجاوب معها . . ويتحمس لفكرها . . بدليل أنهم بعد أن أعلنوا عن بأسهم وقوتهم . . أكدوا لها الولاء بقولهم : « والأمر اليك » . . ومما يؤكد أن حكم هذه الملكة لشعبها كان سورياً ، أنها لم تقطع فى الأمر دونهم ، بل جمعتهم لتأخذ رأيهم وتتشاور معهم فى هذا الأمر الخطير . . الذى يشكل تهديداً مباشراً لملكيتها . . فهذا أشبه بمؤتمر عام موسع تستفتى فيه القاعدة الشعبية . . اذن : فهذه الملكة كانت تعيش تجربة سياسية مع شعبها تقوم على الشورى واحترام ارادة الشعب ، ومن خلال ذلك نستنبط أنه ما من تجربة يصل اليها العالم المتمددين الا ولها وجه فى التاريخ القديم غالباً .

كما أننا نستنبط عراقه الحكم الشورى وامتداد جذوره فى أغوار التاريخ !!

وما أجمل قول المؤتمر : « والأمر اليك » انه يعطى حسن الأدب مع القيادة ويبرز وجهها من وجوه الردود « الدبلوماسية » في مواجهة القيادات ولو كانت نسائية !!

ولقد كانت هذه الملكة كما وضحنا تملك ولا تحكم ، أو قل كانت تحكم بواسطة الشعب . . ولهذا أحبوها ،

٣ - في بدء خطاب سليمان قوله : [انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم] براعة استهلال ، وصفاء بصيرة ، وحسن توفيق . . فهو يحمل أولاً معنى التواضع . . من سليمان مجرداً لا من الملك أو النبي أو ماشئت من ألقاب تحشد حشداً في هذا المقام لا تستطيع الجمال حملها . . والبدء باسم الله سمة الرشاد ، وطابع الهداية الربانية ، فهو يدعو باسم الله لا باسمه ، ولا باسم مملكته . . وبقية الكلمات لها نباهة شأن في الهداية : « ألا تعلموا على » هل هناك تواضع أكثر من هذا ؟ انه يعرض الهداية . . ولعرض الهداية أسلوب ملؤه اللين ، والرقّة والتواضع ، وصدق التوجه الى الله .

وقوله : [واثقوني مسلمين] فيه ما يوحى بسمو العقيدة ، وأنه لا يملك الا أن يبررها في اطار من التسامى والعزة . . لأنهم لن يأتوا اليه صاغرين . . بل مسلمين ولن الاسلام ؟

انه لله رب العالمين . . لقد تواضع سليمان فيما يتصل بأمر نفسه . . أما الدعوة فلا بد أن تعرض في اطار العزة والتسامى . . لأنها لله رب العالمين . . ولذا نرى التهديد في قول سليمان للرسول الذى جاء يقدم له الهدية : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

لماذا هذا الوعيد ؟ لأنها دعوة الحق . . والقوم يريدون أن يعبثوا . . فلا بد أن يشعروا بالجد والحزم .

٤ - في قول الملكة : « ان الملوك اذا دخلوا .. الخ » ما يوحي بأن الملكة أرادت أن تمتص حماسة الجنود ، عندما أبدوا استعدادهم للحرب .. وكأنما غلبتها طبيعة الأنثى .. فأشارت لهم الى ويلات الحرب .. وأن الملوك عندما يتمكنون من بلد فانهم يذلون الأعداء .. ويفسدون في الارض .. انها من أجل ذلك تريد حلا سلميا ، فالهدية تؤلف القلب ، وتبرز نية هذا الملك .. ولهذا ساد منطق السلام .. وهدأت حدة الشعب ، وأيدوا رأى الملكة .. وذلك يعطى انطبعا بأن رأى القيادة اذا أحسن عرضه لاقى القبول من الشعب .. وبخاصة اذا كان الشعب ملتحماً مع القيادة واثقا في آرائها .. يكن لها الولاء والاحلال كما يظهر ذلك في قولهم : « والأمر اليك » .

٥ - في قول بلقيس : « انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان » معنى رائع ينبغى أن نقف معه لحظات ، ذلك أنها عندما شاهدت الأمر على حقيقته تأكدت أن أمر سليمان ليس أمر ملك دنيوى ، وانما الأمر هو أمر العقيدة والايمان .. وأنه لا يساوم على العقيدة بالمال ، ولو كان من ملوك الدنيا لقبيل الهدية وفرض الاتاوة .. ثم ان ملكه كبير ، له من الروعة والجلال ما لا ينتهياً للملوك الدنيا .. كل ذلك هياً قلبها للايمان .. ووجهه لله .. ولذا أعلنت عن هذا الايمان من غير تحفظ .. وكذلك الايمان عندما يغزو القلوب يندفع عنيفاً كالسيل لا يعبأ بشيء من تهديد أو وعيد .. ولا يبقى على شيء من ثروة أو ملك فكل ذلك تافه الى جوار العقيدة .

وعندما تعلن عن ايمانها .. تبدأ عهداً مع الله .. بقولها « رب » .. وما أجملها من كلمة رقيقة عذبة .. تصعد الى حيث يصعد الكلم الطيب .. تنقل في لحظة واحدة قائلتها من وثنية مجوسية تعبد الشمس الى مؤمنة نقية تتجه الى الله .. وفي

قولها : « انى ظلمت نفسى » تعبير عن الاقتناع بالايमान ،
واقرار بأن ما كانت عليه زور وزيف وبهتان .. وطلب للمغفرة
من الله ..

وفى قولها : « وأسلمت مع سليمان » يفيد : أن الاسلامها
لله وليس لسليمان انها أسلمت معه ولم تسلم له !! .. وأنها
صارت بهذا الاسلام كفتاً للنبي الأواب .. تمضى معه على طريق
الايمان .. مسلمة وجهها لله رب العالمين ..

فهذه عزة الايمان عندما يخامر القلوب .. تجعل المؤمن
صنوا للمؤمن مهما يكن مركز الثانى لأن العقيدة ترفع الى أعلى
المستويات . وفيه أنها لم تسلم خوفاً من بطش . بل أسلمت
لله وخضعت لأمره لا لامر سليمان وجيشه .. ومن ثم ازدهرت
حضارتها فى ظل هذا الايمان ونقلت شعبها من ظلام الوثنية
الى نور الايمان .. وأصبحت حكايتها فى القرآن دليل عظمة
ورمز فخار ترددها الملايين بروح الاعجاب والاكبار لأن
صاحبيتها لم تصر على الباطل بل انقادت الى الايمان ..

من معالم الحضارة السبئية - سد مأرب :

فى الآيات التى أوردناها سابقاً اشارة الى سد مأرب
وتصدعه والمؤرخون يؤكدون أن هذا السد قد تصدع أكثر من
مرة ففى سنة ١١٥ ق م وفى سنة ٤٥٠ ق م وفى سنة ٥٤٠ ق م
حدثت تصدعات هائلة لذلك السد ، والقرآن الكريم يشير الى
أن سبأ بعد التصدع قد فقدوا كيانهم ، وضاعوا فى أرض الله ..
لكن هل هو التصدع الأخير ؟ أم هو تصدع حدث من قبل ، ثم
تلاه ترميم السد ..؟ معظم المؤرخين يشير الى أن التصدع الذى
أشار اليه القرآن ليس هو الأخير .. لان القوم قد رموه بعد
واستأنفوا الحياة ..

كتب الهمداني في كتاب الاكليل منذ عشرة قرون يقول :
[سبأ كثيرة العجائب ، وكان لها جنتان عن يمين السد وشماله
وهما غامرتان وانما عفتا لما اندحق السد أما مقاسم المياه من
مداخل السد فقئمة كأن صنعها فرغ من عملها بالأمس] وهو
كلام يوحى بعظمة هذا السد ، ويدل على ارتقاء القوم في سلم
الحضارة . . . وتمكنهم من السيطرة على مياه الأمطار واقامة
الخرانات . . . وبسبب هذا كانت أرضهم مخصبة ولقد أقيم هذا
السد كخزان طبيعي يتألف جانباه من جبلين ، جعلوا على فم
الوادي سداً بينهما . . . به عيون تغلق وتفتح واحتجزوا وراء
السد كميات ضخمة من المياه وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان
هذا مورداً مائياً عظيماً . . . ومما يدل على عظمة هذا السد ، أن
كثيراً من المستشرقين قد زاره وكتب عنه . . . فالمستشرق الفرنسي
أرنو يزور مأرباً سنة ١٨٤٣ م ، ويشاهد السد ويرسم له
خريطة ويصفه وصفاً يجيء مطابقاً لما يقوله الهمداني ، وورد
في الجزء الثاني من كتاب « رحلة الى بلاد العرب السعيدة »
للأستاذ نزيه العظم آخر من زار مأرب ما خلاصته : « على
مسافة ١٤٥ ك٠م الى الشرق الشمالي من صنعاء تجتمع سيول
اليمن الغربية مع السيل الذي يأتي من الشمال والسيل الذي
يأتي من الجنوب وتتألف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة
مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ومنخفضة
من جهة الشرق حيث تسير جميعها شرقاً في مجرى سيل واحد »
ثم يستطرد في الوصف : « ثم يأخذ في الضيق الى أن يبلغ ١٧٥م
في مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له : مربط الدم وهو المكان
الذي بنى فيه سد العرم ، ولم يبق سيل العرم للسد هنا أثراً
غير مخرج الماء »

هذا خلاصة ما كتبه آخر زائر للسد استطاع أن يحصل
على تصريح من امام اليمن يومذاك سنة ١٩٣٦ م ويظهر أنه

لس ببلاد اليمن أنهار دائمة الجريان لكن السيول تنزل بها كثيراً . فاضطروا الى اقامة الخزانات لضبطها والتحكم فيها لحاجتهم الى ذلك والحاجة أم الاختراع .

وسد مأرب كما يصفه الهمداني هو أحد سدود اليمن ، وتوجد سواه سدود كثيرة ، ويصفه بأنه حائط ضخم أقيم في عرض وادى أذنه ويبلغ طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه من أسفل ١٥٠ ذراعاً وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً وكان ينتهى من أعلى بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى ، والظاهر أنه بنى بالتراب والحجارة وكانت به منافذ يتسرب منها الماء الى الجنان عن يمين وشمال - مقفلة بعوارض ضخمة من الخشب والحديد لاستخدامها وقت الحاجة وتقع مدينة مأرب الى الشمال الشرقى من السد وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحته ثلاثمائة ميل مربع - كان قفراً قاحلاً فأصبح بعد بناء السد غياضاً وبساتين المعبر عنها بالجننتين عن يمين وشمال . لكن من الذى بناه ؟ .

معظم كتب التفسير وعلى رأسها الكشاف أنها بلقيس - وكذلك معظم المؤرخين . وقيل ، حمير وقبل سبأ - والظاهر أن السد لم يتم في عهد واحد - لأن هناك أسماء كثيرة منقوشة قد اشتركت في بنائه . وهذا معقول لأنه عمل حضارى رائع فلا بد أن تشترك في بنائه أياد كثيرة .

وقد أثبت المستشرق مولر بعد ترجمة كتابته أن سمعلى بنوف بن زمر على مكارب سبأ اخترق « بلق » وبنى سداً لتسهيل الرى . ويمكن أن يفسر بأنه بنى جانباً منه على ما أثبتته الأستاذ العظيم . ومعظم من اشتركوا في بنائه من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد .

تصدع سد مأرب : يرى الأستاذ الخضرى أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه - ولم

يصبح قادراً على حمل هجمات السيل - فتصدع وكان ذلك حوالي ١١٥ أو ١٢٠ قدماً أي قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف قرن تقريباً . كما قال العالم سيديو . . وكان تصدعه الحد الفاصل بين سقوط سبأ وقيام حمير . . وقد رمم عدة مرات كما أثبتت النقوش . .

وهناك أسطورة تقول ان تصدع السد بسبب فأر قد قرضه فأفسده من أسفل . . وهو كلام لا يعقل .

وقد ثبت أن أبرهة سنة ٥٤٢ م كتب الى أهل البلاد بأن يعاونوه في ترميم هذا السد بحمل الأحجار والاختشاب والرصاص - وأنه استغرق في العمل زهاء سنة .

ويرى المستشرقون : أن تصدع السد كان نتيجة إهمال من جانب أمة آخذة في الانحطاط وهذا هو الرأي الراجح . . الذي يرشحه القرآن الكريم حيث ذكر أن التصدع حدث بسبب الاعراض عن الله . . ومن أعرض عن الله أنساه واجبه في الحياة !! وجعله عبرة للناس . .

القرآن والحضارة السبئية :

يصف القرآن الكريم هذه الحضارة وصفاً رائعاً أخاذاً . . حين كانت تستنزل بظلال الايمان . . ثم يعرض لمأساة الانفصال عن الله وبطر النعمة - وعقوق الترف - وغير ذلك من الآفات التي تهوى بشوامخ الحضارات فتجعلها حديثاً يروى وقصة تذكر في مجال التأسي والعظمة فيقول سبحانه : [لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له . . بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط

وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى
الى الكفور ۰۰ (١) [۰

والآية تعرض تقلب الحضارة الانسانية بين الايمان
والكفر - بين الارتباط بالله والانفصال عنه فهي كانت في ظل
الهداية والايمان حضارة ذات جنات وارفة الظلال عن يمين
وشمال ۰۰ أى أن القوم كانوا مستمتعين بالنعمة السوابغ ۰۰
والأرض الخصبة - والماء الغامر - والتجارات الرابحة -
والصناعات الكثيرة ۰۰ وأنهم كما تشير الآية قد تمكنوا من
انشاء حضارة سعيدة ۰۰ وهذه الجنان عن يمين وشمال هي رمز
الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ومن ثم كانت نعمة
من الله ؛ ويوحى التعبير القرآنى بأنها كانت تأخذ شكلا
هندسياً جميلاً عن يمين السد وشماله ۰۰ بدليل وصفهما
بأنهما « آية » ۰۰

وفيه دليل بعد هذا على وفرة الثمار ۰۰ وتنوعها وسهولة
تناولها وقوله سبحانه « كلوا من رزق ربكم » دليل على أنها
منحة من الله تعالى ۰۰ وأنها مهياة لهم ۰۰ ليأكلوا منها -
وقد ذكرهم بأنها من رزقه حتى لا يببطروها - وينفصلوا بها
عن الله ۰۰ ولهذا طالبهم صريحاً بشكره ۰۰ بعد أن وضح
لهم أنها من رزقه ۰۰ وأى نعمة أعظم من نعمة البلد الطيب
والرب الغفور ، سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة
فى السماء بالصفح والغفران ، فماذا يقعدهم عن الشكر؟! ۰

قا ابن عباس : كانت هذه البقعة أخصب البلاد وأطيبها،
تخرج المرأة وعلى رأسها الكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك
الأشجار فيمتلىء الكتل « تلقائياً » بما يتساقط فيه من الثمر .

(١) آيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ سورة سبأ .

وكلمة « طيبة » توحى بأنها خصبة - ليست سبخة ولا ضعيفة . وقال صاحب الكشاف : لم يكن بها بعوض ولا برغوث ولا ذباب ولا عقرب ولا حية - ثم ذكر أن القوم أعرضوا عن الله وطمغوا فأرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا يذكرونهم فكذبوا وقالوا : ما نعرف لله نعمنا علينا !!

فماذا ينتظر لقوم هذا شأنهم مع الله ؟ . . لقد وصف القرآن موقفهم من ربهم بعد ذلك بقوله : « فأعرضوا » هكذا بالتعبير الوجيه المعبر . . أداروا ظهورهم لربهم . . وقاطعوا شكر انعمة تلك هي الطبيعة الانسانية الكنود . . اذا بشمت بطرت ، وذا شبعت ركلت . . واذا استغنت طغت . . والتعبير بالاعراض يوحي بالصدور والنفرة والتولى والتأبى ، فماذا كانت نتيجتهم ؟ هي ما تقرؤه في قوله : [فأرسلنا عليهم سيل العرم . .] ويفيد التعبير بالفاء أن العقاب كان حاسماً سريعاً حين عبروا عن موقفهم من ربهم بالاعراض الذي لا يترك أملاً في استصلاحهم ، وسيل العرم : وسيل مجتاح مدمر يحمل معه الحجارة . .

وكان من أثره أن حطم السد فانساحت المياه فطفت وأفسدت وتحولت الجنان الفيح الى صحارى للشوك والخمط والأثل . . كفروا بالمنعم فأزال عنهم النعمة [وبدلنا بجننتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل] هذا هو أثر السيل في الجنان . . ياالله !! أين الجنان النضرات عن يمين وشمال ؟ أين الزهرات التى كانت بالأمس مخضلة بالندى ؟ بل أين الورود التى كانت ناعسة فى الغلائل ، أين قطوف العنب التى كانت متدلّية كالجداول ؟ أين ثمرات ناضجات مختلفات الطعوم والأشكال ؟ لقد صوح النبات وجف الشجر ، وغاضب المياه ، واندثرت الخلجان ؟ ونبت الشوك والأثل والخمط مكان الزهر

والثمر والورد . . . وكذلك الاعراض عن الله يحول خصب الحياة الى جذب ، ومخضل الغصون الى خشب ، ورياض الأرض الى حشائش وعشب ، وهذا درس يجب أن يستوعبه بناء الحضارات وبخاصة في عصرنا هذا . . . فما هم ، مهما اخترعوا ، بمعجزين !! وكذلك يجب أن ينتبه له أصحاب النعم . . . وهو أن تظل نفوسهم خصبة بشكر الله . . . حتى تظل أرضهم خصبة بالزهور والثمرات ويوم تجذب القلوب من الشكر يوم تجذب الأرض من الزرع . . . والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

والخبط : الأراك وكل شجر ذى شوك ، والاثل : شجر يشبه الطرفاء والسدر : النبق وكلها نباتات لا تسمن ولا تغنى من جوع وبالمقارنة بين حالى الجنتين قبل السيل وبعده نرى أنهما ثلاثمان حال النفوس خصبا وجدبا ، ولقد ثبت أن أهل سبأ أقاموا رغم الشدائد والمكاره التى حلت بهم على الضنك والحرمان والمسغبة وعاشوا فى شدة بعد لين ونعمة ، مكثوا فى قراهم على هذا الحال البائس والعيش الضنك ، ثم زادت قلوبهم استغلافا فطلبوا ابعاد الأسفار لتطول رحلاتهم بعد أن كانت المسافات بين قراهم قريبة ، وكذلك بينهم وبين الشام ، وكانت رحلاتهم الهيا مأنوسة لاخوف فيها ولاعناء وذلك قوله سبحانه : [وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين] معناه أن الله يسر أمر السفر لهم ، وقرب قراهم بعضها من بعض . . . بحيث تبدو كل قرية ظاهرة للعيان . . . وجعل رحلاتهم مأمونة بالليل وبالنهار لا يخافون عدواً ولا يحملون معهم زاداً . . . ولكنهم أمعنوا فى الفساد فقالوا « ربنا باعد بين أسفارنا » قال صاحب الكشاف . بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش وملوا العاقبة فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم

والبصل بدل المن والسلوى ا • هـ ولسبب هذا الاعراض عن الله،
والتطاول في السفه مزق الله شملهم وفرق جمعهم ، وجعلهم
أباديد • • ففقدوا هديتهم وضلوا في أرض الله لحق غسان
بالشام وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة والأزد بعمان • • وهكذا
أصبحوا خبرا يروى وقصة تحكى موعظه تساق في معرض
التأسي • • وستظل هذه القصة حافزا يدعو الى شكر النعمة
مابقى في الدنيا قرآن يتلى • • وحتى يرث الله الأرض ومن
عليها • •

عظة وعبرة :

تلك حضارات قد ورد ذكرها في الكتاب العزيز في معرض
العبرة والعظة لتكون درساً بليغاً لأصحاب الحضارات حتى
يتنبهوا الى العوامل التي تؤدي الى ازدهار الحضارة والأسباب
التي تؤدي الى انتحارها •

ومن البدهى أن هذه الحضارات كانت اقليمية، ازدهرت
فترة من الزمن • • حتى اكتمل دورها ثم توارت لنحل محلها
أخرى • • لأنها لم تزود من العليم الخبير بما يجعلها مستمرة ،
وعالمية تضيء الحياة ، وتخضب الوجود وتطرح لكل الأجيال • •
لقد كانت ومضات مشعة أضاءت فترة ثم انطفأت حين انقضى
دورها • • أو ذبالة تآلق سناها حين كان الزيت يمدّها حتى اذا
نفذ الزيت انطفأت الذبالة ، كانت كل حضارة من الحضارات
السابقة أشبه بشبكة كهربية ضعيفة تضيء قرية فهل يمكن
أن يستخدم تيارها لاضاءة مدينة ؟ ذلك بالضبط هو ما حدث
للحضارات التي ازدهرت في ظل الأديان السماوية • • رغم أن
بعضها فعلا قد استقام على أمر الله ، وأدى رسالته في الحياة
كالحضارة الداودية والسليمانية • • ولكنهما لم تعمرا أكثر من
عمرهما المقدر لأن طاقتهما محدودة • • ولن نجد الحضارة التي

تستمر وتضىء آفاق العالم كله الا الحضارة الاسلامية ، التي سنتعرض لها بالدراسة المفصلة في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

كم من مواكب بشرية أقامت على ظهر الأرض ، ورتعت في النعم ، ومكن الله لها . . فازدهرت وسعد أصحابها . . حتى اذا أعرضت عن الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . . كم من حضارات عمرت الأرض - وابتكرت أروع الوسائل وملكت أفخم القصور . . ونحتت في الصخر - ومهدت الطرق - وأنشأت الخزانات . . وفجرت الينابيع واستخدمت المصانع . . ولكنها مع ذلك لم تثبت على الايمان فكان جزاؤها الضياع والدمار وذهب أصحابها لم يعبأ بهم التاريخ - ولم يكثرث بهم القدر « فما بكت عليهم السماء والأرض وماكانوا منظرين (١) » « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٢) » .

(١) آية ٢٩ سورة الدخان .

(٢) آية ٤٥ سورة الأنعام .

الباب الرابع

العالم قبيل القرآن

نظرة على العالم في القرنين السادس والسابع الميلاديين :

عاشت الانسانية هذين القرنين وهى تعاني قلقا فى الروح وجديبا فى العواطف وانحدارا رهيبا فى الأخلاق وانفصالا شائنا عن الله جعلها تضل فى عالم الظلمات ، وتفقد خصائصها الانسانية التى زودها الله بها وتهدر طاقتها الهائلة فى حروب مجرمة لا تحقق حقا ولا تزهد باطلا ، وانما لتزيد الشهوات الحادة سعارا ونهما ، والامبراطوريات الشرهة رفاهية وجشعا ، والسلاطين المتألمين عتورا واستكبارا ، واستعبد البشر بعضهم بعضا فاستذل الأقوياء رقاب الضعفاء وساموهم سوء العذاب ، ولم تعد الأديان السماوية قادرة على تلطيف حدة هذا السعار والاستقامة بالحياة على منهج الواحد القهار لأنها فقدت صفاءها وضيائها ، بعد ن نال الديانتين الكريمتين من التشويه والتحريف ما جعلهما جسدا بلا روح وكيانا بلا طموح ، لقد لوثتهما ارادة البشر وجعلت منهما أداة طبيعة لخدمة الأهواء والمطامع ، فضعف أثرهما فى نفوس البشر ، وأهدرت كرامة رجال الدين • فانسحبوا من الحياة ، ولاذوا بالأديرة : وبذلك خفت صوت النبوات فلم يكن نديا كالعهد به ، قويا كالمعروف عنه ، وانما أضحي ضعيفا لأن ارادة الجبارين لا تريد له أن يرتفع حتى لا يهدد مصالحها وحتى لا يذكر الناس بانسانيتهم المحتضرة ، وكرامتهم الضائعة ، وقيمهم المهذرة •

لقد استحال كون العالم الى فساد ، وتفككت حضارته ، بالتدريج ، تحكمت سياسته بالأثرة ، واتسمت عقائده بالتعصب ، وأهدرت دماء الناس سفها وبغياً لغير مبدأ ولا هدف ، واشتعلت الحرب بين الروم والفرس فما تهذا حدثها ، وما تنطفئ نارها . . . وانما تزداد حدة وسعاً ، لأن كلا من الدولتين الكبيرتين قد فقدت مثلها العليا ، فحياتهما حياة السوائم ومدنيتهما مدنية القطيع ، وحضارتهما حضارة الغاب ووجودهما عبء على الحياة وثقل على الوجود ، ضرائب اثر ضرائب ، واتاوات اثر اتاوات ، وهوى يتحكم في كل الأمور ، وشهوات تتنزي وتتعطش الى مزيد من الدماء والسيادة والأشراف امتيازات لا سبيل الى نقضها أو الانتقاص منها والناس بعد هذا وذاك عبيد مستذلون بالسخرة . . . لا يملكون لأنفسهم أمراً ؛ فهم يكدحون ليقدموا نتاج كدهم وعرق جبينهم ذهباً نضاراً يضاف الى خزائن النبلاء . . . ويزيد في ثروة الأشراف . . . وليست هناك مبادئ أخلاقية ، تعصم الشعوب الذليلة من هذا الظلم ، وتحمي حقوقهم من هذا الهوان ، أو تضع حداً لتسلط النبلاء أو ترسي قواعد المجتمع على أسس من الفضيلة والحياء ، وانما سارت قافلة الحياة الضالة في طريق مظلم ، لا تنتصح وجهتها . . . ولا تعف غايتها يقودها أبالسة البشر ، وزبانية السوء فلا اله يومذاك الا الهوى ولا حكم الا للشهوة ولا كرامة الا للمال ولا هدف الا المعدة والبطن . . .

الأديان السماوية والحياء :

ولم تستطع اليهودية كديانة سماوية أن تصلح الفاسد من أوضاع الحياة ولا أن ترد اليها بعض كرامتها : لأنها لم تعد ، كما أراد لها الله ديناً ينعش الأفتدة ويشرق على النفوس بالحنان والرحمة ويرطب من جفاف الحياة ، وانما انقلب أصحابها الى مظهر للحقد الأعمى والتعصب الذميمة والقسوة

الرهيبية طبيعتهم الغدر وخليقتهم الافساد في الأرض وسجيتهم
عب الدماء من أشلاء الضحايا ، ومذهبهم جمع المال واشاعة
الربا . ولم تصبح وحيا أساسه الهداية بل آصرة بين فريق
من الناس يستقلون بجمع المال وأكل الربا واشعال الحروب
وصك المؤامرات .

لقد انقلبت مادية جثسة اختنق فيها صوت الروح ،
وانطلق فيها صوت المادة فأضحت كما مر دين بطش وفنك
وضراوة ، وتمشت خلال « صهيون » في أوصال القوم وسرت في
دمائهم فلم تعد قلوبهم تخفق بخفقة حب أو حنان وإنما امتلأت
كنوداً وأثرة وحقداً ، ولم يعد الرب في نظرهم الا ربا خاصا
بهم لا يشركهم فيه أحد من الناس وتتكرت هذه الديانة للتوراة
وتفننت في أكل السحت ونقض العهود .

وأدارت ظهرها نهائياً لتعاليم السماء « مثل الذين حملوا
التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل
القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (١) »
فأى وفاء للتوراة مع ترك العمل بها . لقد كلفوا العمل بها
فنبذوها وراء ظهورهم ومضوا في طريق الربا والشيطان ، ولقد
سجل القرآن صحيفة سوابقهم جليلة لتظل جرائمهم البشعة في
وعى الأجيال وذاكرة الزمان ، فهل تصلح ديانة تعبد العجل
وتأكل السحت وتقتل الأنبياء لبناء حضارة انسانية .

« فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء
بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم
فلا يؤمنون الا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً

(١) آية ٥ سورة الجمعة .

وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم وما قتلوه وما صلبوه
ولكن شبه لهم (١) » •

ويقول سبحانه واصفا خلائقهم :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم
وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه
وَأَكَلَهُمْ أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً
أليماً (٢) » •

ولم يفصل القرآن خلائق أقوام مجرمين كما فصل خلائق
الأفاكين من اليهود لتظل قرآنا يتلى ، فيقذف باللعنة الى أولئك
الذين هددوا وما زالوا يهددون أمن الحياة واستقرارها ، ولم
تكن المسيحية أسعد حالا من اليهودية يومذاك فقد نالها مز
اتباعها ما نال اليهودية فقد حاربت الفكر ، وامتهنت العقل ،
واحتكرت العلم ، وبدأت بالألوهية تثليثا وانتهت بها توحيداً
على غير منطق ، وتسرب اليها ذلك من عقيدة قدماء المصريين -
ومن الهندوكية والبوذية ، وجعلت من المسيح عيسى بن مريم
قربانا للتكفير عن خطايا البشر • وسرت اليها تلك الفكرة من
القبائل المتوحشة التي كانت تقدم القرابين الى معبوداتها لرفع
الضر أو جلب الخير - وبذلك انعدمت فيها قاعدة الجزاء ، وصار
من حق الخاطئين أن يطرحوا خطاياهم على القربان المقدم فوق
مذابح الخرافة « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا
وانحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم

(١) آيات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ سورة النساء •

(٢) آيتا ١٦٠ ، ١٦١ سورة النساء •

لكاذبون (١) » وقد انفصلت المسيحية عن الكتاب المقدس « الانجيل » كما انفصلت اليهودية عن التوراه . . وكلاهما أدار ظهره لأنبيائه وأخذتا تتراشقان التهم وتتبادلان السباب وتتباريان في الكذب على الله ورسله وتتذكران لمبادئ الوحي المقدس « وقالت اليهود ليست النصراني على شيء ، وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب (٢) » .

« وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصراني المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا (٣) » « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا « لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد (٤) » .

وزعمتا معا ، أن الله يحابيهما وينظر اليهما نظرة خاصة . « وقالت اليهود والنصراني نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق (٥) » .

وبهذا التصور العنصري ، نظروا الى الناس ، فمارسوا أقبح ألوان التفرقة العنصرية قديما وحدينا . . وكأنما يريدان معا أن يطبقا هذه النظرة على الله . . فهو يحابي ويجامل وينظر الى الناس من خلال الجنس أو اللون ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ومازلنا نسمع خرافة « شعب الله المختار » هذا التحريف الذي أصاب الديانقين الكبيرتين جعلهما معا عاجزتين عن النهوض بتبعات الحياة ، وأصابهما بالعقم والعجز وحولهما

-
- (١) آية ١٢ سورة العنكبوت .
 - (٢) آية ١١٣ سورة البقرة .
 - (٣) آية ٢٠ سورة التوبة .
 - (٤) آية ٧٣ سورة السائدة .
 - (٥) آية ١٨ سورة السائدة .

الى طلاسهم ورموز ، ونقلهما الى كهانة ، وجباية وتأتى اديان السماء الا أن تكون للهداية . . واتخذنا من البشر الها يعبد من دون الله [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً (١)] .

ولقد أصبح نبي الله موسى مشجباً يعلق عليه اليهود أخطاءهم ويحملونه كل نزعاتهم المادية وصار نبي الله عيسى رمزاً للسلبية والفرار من الحياة . . ولو بعث التبيان العظيمان ورأيا ما أصاب ديانتاهما من المسخ والتشويه لهماهما الأمر وأفزعهما هذا المصير . .

نعم : لقد نقلت المسيحية أتباعها الى الأوهام والخرافات والضباب بعد أن انفصلت عن غمار الحياة المائج بالحركة والنشاط . . وزعمت أن نظافة الجسم تنافي نقاوة الروح وحاربت العمل من أجل الحياة وتحولت الى رهينة قاسية عنيفة ترى في الأديرة المهجورة والاماكن النائبة ملاذاً لانعاش الروح . . وأثبتت بذلك انملاصها في قيادة الحياة . . وتركتها لزيانية البشر يصوغونها كما تشاء أهواؤهم الضالة ، ونفوسهم الشريرة ، وشهواتهم الرعناء . . وما بالروح وحدها يحيا الانسان !!

مشالب ونقائص !!

ان المسيحية بهذا التصور ناقصة لأن الانسان مادة وروح ، وهي قد أدارت ظهرها للمادة واتجهت الى الروح . . ولقد نجحت في رسم مثل أعلى للحياة الروحية وطبعت الحياة بهذا الطابع . .

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

ولكن ذلك لا يكفي فالانسان انسان مهما تحاول المسيحية
برأه الله مادة وروحاً • • فلا بد من احترام ملكاته واقرار
شهواته • • أما محاولة سحق هذه الشهوات فعمل عدواني
ضد الفطرة التي فطر الناس عليها • • لابد من الملائمة بين المادة
والروح في الحياة ملائمة دقيقة كما لابد من الملائمة بينهما في
كيان الانسان • • لأن طغيان أحد العنصرين على الآخر في
نظام الفطرة خطر يهدد الانسان والحياة في وقت واحد • • لو
طغت الروحية لتحول الانسان الى راهب وانسحب من نظام
الحياة • • ولو طغت المادية لتحول الى حيوان يعيش لشهواته
وينطلق على هواه • • ولو تم التوازن بين العنصرين لانسق
خطو الانسان على درب الحياة !!

ان الحياة البشرية لا تتصل مواكبها ولا يطرد نشاطها
ولا تزدهر حضارتها من خلال الكبت في الأديرة والكنائس ،
بل لابد كذلك من حزم الشهوات المتقدة ، وغاية ما هناك أن الدين
ينظم غرائز الانسان ويوجهها وجهة طيبة بدلا من أن تصطرع
في ذات الانسان فتدمر كيانه •

وما أشبه عمل الدين في هذا المجال بالقنوات المحكمة التي
تنظم ماء السيل وتتحكم في مواعيده وتوزيعه وضبطه حتى
لا يتحول الى طوفان مدمر مجتاح • • وعلى ذلك فالدين ينظم
الشهوات ولا يسحقها لأن قتل الشهوات والغرائز يعني أن
نسحق معها ارادة الحياة ، وانما الدين يحول انسياب الغرائز
الفوضى الى نظام محكم ومثمر في حياة الانسان ومنتجاته الى
سلوك مشروع • وعندما حرم الاسلام الربا مثلا أباح البيع
والشراء والقراض والتجارة لامتصاص النشاط المادي عند
الأفراد •

وعندما حرم الخمر أحل لذائذ المشروبات وأنواع العصير
الحلال .

وعندما حرم الزنى والفجور أحل الزواج ، وعندما حرم
لحم الخنزير أباح لحوم الضأن والدجاج وتلك هي الحيوية
الرائعة في مواجهة المشكلات والتي تتضمن تنظيم الغرائز
والشهوات لا اهدارها .

وتلك أيضاً هي الواقعية التي تقبل التطبيق ، لا أن تغلق
الأبواب في وجه الغرائز فتدمر كيان الانسان .

ونظام الرهينة الذي لجأت اليه المسيحية نظام بعيد عن
الروح الانساني ، وله آثاره المدمرة ونتائجه السيئة فمن خلال
الكبت تتكون العقد ، وتحدث الانفجارات العاتية ، وتنشأ
العلاقات المشبوهة حين تنقلب الرهينة ، على الرغم من
أصحابها ، الى نظام حيواني جامح !!

وما هكذا يكون تهذيب الغرائز !! أنحارب الحياة ، وتعطل
قانون العمل ونتخلى عن الواجبات ونناقض في تهذيب الشهوات
ثم ندعى التدين ؟ !! كيف تبني الحضارات اذن ؟ وكيف يطرد
سير الحيا ؟

وكيف نحصل من خلال التربية الدينية على أشخاص
أسوياء ؟ ! وهل الأديان للآخرة فحسب ؟ وهل يمكن فصل
الدنيا عن الآخرة !

ما أجمل ماقاله رسول الاسلام معبراً عن روح الدين الحق ،
الذي يرعى الحياة : [اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة

فليغرسها [والفسيلة : نخلة صغيرة (١)] . . وبهذا نترك الدنيا عامرة ، ولاندعها خربة ، ونعبر عن وجودنا بالعمل والكفاح . . وبذلك كله لا نبني الآرة على حساب الدنيا لأن صلاح الآخرة نتيجة حتمية لصلاح الأولى . . [ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا]

وللمسيحية فوق اهمال مطالب الجسد ، نقيصة أخرى ترتبط بالمجتمع . . فهي تقتصر اهتمامها على حياة الفرد ، تتعهد روحه ، وتقتل شهوته . . ولا تكاد تلتفت الى المجتمع بشئ . . انها عاجزة عن ادراك ما للعلاقات الانسانية المتشابكة من قيم روحية . . وحيثما تفر من الحياة ، فان المجتمع لايجدها . . « . . »

يقول الفيلسوف ناومان في كتابه « بحوث الدين » : [ان المسيحية البدائية لم تجعل قيمة ماالحفظ كيان الدولة ولم تحفل بالتشريع والتنظيم والانتاج بل لم تفكر في أحوال المجتمع الانساني قط ، ومن ثم فاما أن نتجه الى أن نكون من غير حكومة فنلقى بأنفسنا بين برائن الفوضى متعمدين ، واما أن نجعل لأنفسنا عقيدة سياسية الى جانب عقيدتنا الدينية .

واذن : فالمسيحية لا تقيم وزناً للحياة ، ولا لتشريعاتها وقوانينها ، ولا لنظام العيش فيها . . ولا تكاد تهتم بالنواحي السياسية والاجتماعية للناس . . ولا ترعى التطور البشرى في قليل أو كثير . . انها ناقصة لا يمكن تصور أن تعنى بحاجات الناس ، وما دامت قد انسحبت من الحياة فماذا يعنيهها من أمرها ! . . ؟

(١) من كتاب الاسلام والطاقت المعطلة للأستاذ محمد غزالي بتصريف

(٢) من كتاب تجديد التفكير الدينى فى الإسلام لمحمد اقبال ص ١٩٠

زمنية فهما معا لا تصلحان لقيادة الحياة على المدى الطويل .
لأنهما لم تزودا من العلي القدير بما يجعلهما للاستمرار
والعالمية !! كلتاها لا يمكن أن تنشئ حضارة عالمية !!

لقد سقطتا معاً ، كدين عالمي بناء ينضو وجه الحياة
بالأمل ، ويرعى تقدمها بالعمل ، وكيف تنشأ حضارة في ظل
المادية المجرمة . أو في ظلال السلبية المنطوية ؟!

ومن عجيب الأمر أن المسيحية قد تحولت الى مجموعة
ضخمة من الخرافات اليونانية والوثنية الروحية ومسحة
يسيرة من تعاليم السيد المسيح ، وأصبحت بزيادة المخرفين ،
وتأويل الجاهلية بعيدة كل البعد عن الفكر والعلم ثم صارت
الى وثنية قبيحة يقول سالي مترجم القرآن الى الانكليزية :
[أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى
فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر] .

واقع تاريخي مؤلم :

في هذين القرنين حدثت صراعات وانقسامات داخل العقيدة
المسيحية ، كما حدث انحلال اجتماعي وفساد خلقي ، وكانت
مصر مركز صراع عنيف . ولقد كان هذا الانقسام المروع في
صميم العقيدة المسيحية .

كما كان هذا الانقسام بين الديانتين الكبيرتين على نحو
ما فصلنا من قبل . وقد أدى هذا الانقسام الى تمزيق كيان
الدولة الرومية ، وأنهك قواها ، كما أدى الى مجازر ودماء ،
لأن كلا الفريقين المتصارعين كان حريصا على ابادة الآخر .
لقد كانت الملكانية تؤمن بازدواج طبيعة السيد المسيح ، أما
المنوفيسيون فكانوا يؤمنون بوحدة طبيعة السيد المسيح ،

ويعدون الرأي الأول أمراً اذا ٠٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، كانوا يؤمنون على حد تعبيرهم أن طبيعة السيد المسيح واحدة وهى الآلهية ، والتي تلاشت فيها طبيعته كما تتلاشى قطرة من خل فى بحر واسع عميق ٠

ووصل هذا الخلاف الى ذروته فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠

يقول الدكتور ألفرد بتلر : [ان دينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس اذا كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى حزبا يمثل مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السننية الموروثة ، وهى عقيدة الازدواج ٠٠ على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسيين أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالانجيل] ا ه ٠

تدخل سياسى :

وقد حدث أن منع هرقل [٦١٠ - ٦٤١] م الناس عن الكلام فى طبيعة السيد المسيح مكتفين بأن لله ارادة واحدة ، واستعمل الوسائل الرهيبة، ولكن المصريين استماتوا فى سبيل عقيدتهم ، واستعذبوا التقتيل والتحريق والتغريق طيلة عشر سنين على يد قيرس وكانت المساة رهيبة لم تستطع الدولة على المستوى الرسمى ولا رجال الدين أن يوقفوها ٠

ولست أدري : ماذا يهم المسيح هنا أو هناك عن ادراك طبيعة السيد المسيح؟! ولماذا يفترض فيه أنه اله ، أو جزء من الاله . . أليس المسيح ابن مريم رسولا بشرا ، يأكل الطعام ، ويمشى في الأسواق ، ويدعو الى الله؟ هل الامر يستدعي كل هذه الدماء بين أبناء الديانة الواحدة؟ . .

وهل هناك مشكلة حقيقية يعجز العقل عن حلها؟ اللهم انها العصبية الضيقة والطبيعة الكزة المتحجرة التي تجمد على الجهل ، وتفنى في التعصب!! وهل يتحمل السيد المسيح تبعة هؤلاء الضلال؟ وهنا نجد القرآن يفصح عن طبيعة المسيح في ايجاز وبلاغة عندما يقول : [ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام (١)] .

ونلمح التبرؤ من القوم على لسان المسيح نفسه يخاطب ربه : [ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم (٢)] . . بهذه البساطة تتضح طبيعة السيد المسيح وطبيعة أمه؟

ومهما يكن من شيء فقد أخذ الخلاف بين الفئتين المتنازعتين شكلا نريا متعصبا ، استأثر بكل الجهد ، وبخاصة عند المصريين ، وشغل الناس في النظر عما سواه . . وانتهز الروم ذلك فأوسعوا المصريين ضربا ، وأشبعوهم تنكيلا ، وأثقلوا ظهورهم بالمغارم الباهظة ، والضرائب الفادحة في غير وفق ولا رحمة ، فكانت مصر لهم بقرة حلوبا تدر المال والثراء . . فهل هذا حكم يرضى الله؟

يقول ألفرد بتلر : (لقد أضدى اختلاف الناس ومناظراتهم

(١) آية ٧٥ سورة المائدة .

(٢) آية ١١٧ المائدة .

العنيفة كلها قائمة على خيالات صورية من فروق دقيقة بين
المعتقدات وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة
لها ، وفي سبيل فروق في أصل الدين ، وفلسفة ما وراء الطبيعة
يدق فهمها ويشق ادراكها) ويقول عن الضرائب :

« ان الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس
وضرائب أخرى كثيرة العدد ، هي فوق الطاقة وتجرى على غير
عدل » * * وهكذا عاشت مصر في عهد الرومان مضطهدة معذبة
مسخرة مستغلة يهددها الاستبداد - ويضنيها الاستعباد -
وتجتاحها الخلافات الدينية ويمتصها أعلاق الرومان * *

انحلال يتمشى في كيان الامبراطورية الرومانية :

في ظل هذا العسف وذلك الطغيان ساد الفساد في الدولة
الرومانية الشرقية ، وقد أخذ هذا الفساد طريقين مختلفين :
فساد في الطبيعة الانسانية التي تهدر كل القيم النبيلة
وتستبيح الظلم والاضطهاد والتحريق والقتل وتفرض الضرائب
والاتاوات ولا تكاد تقيم وزناً للعدل *

وفساد في الأخلاق والمثل فقد وصل الناس في القحة والتبذل
الى أحط الدرجات وعاشوا عبيد شهواتهم المجرمة وحيوانيتهم
الآثمة وانتشر التسول بالأعراض وآثر الناس العزوبة على
الزواج حتى يستمتعوا بمن يشاءون ، وكان الترف المفرط من
أقوى العوامل التي أدت الى انهيار الدولة الكبيرة وعجل بفنائها ،
وهكذا كل دولة تنحرف عن سنة العدل ، وتسخر قواها
للسيطان ، ولا يتصور أن تعيش حضارة في ظل الجور ، وفي
أجواء مفعمة بالفساد والانحلال كهذه الأجواء ، ولم تكن مصر
وحدها تعيش تلك المأساة ، ولكن الدول الأخرى كانت تعاني
من تلك الضراوة الرومانية ، فقد كانت الحبشة على المذهب

المنوفيسى وكانت تابعة للكرسى الاسكندرى كما قضى مجمع
« نيقية » :

أوروبا في ذلك الوقت :

كانت تعيش حياة فوضوية لا نظام ولا علم ولا عقيدة
فهى تنتردى بين وثنية وبين نصرانية مرهقة ، ولم تكن تحمل
أى مشعل من مشاعل الحضارة ولم يلتزم منها قيس من ضياء
تخاف الجن والعفاريت وتلوذ بالتمايم ، وتخشى ركوب البحار
بل كانت ممعنة فى التخلف سادرة فى الغى غارقة فى الجهالة
وتؤمن بكل الخرافات المنحطة ؛ يقول ويلز :

« لم تكن فى أوروبا الغربية فى ذلك الوقت أمارات الوحدة
والنظام » •

ويقول روبرت بريفلت : « لقد أطبق على أوروبا ليل حالك
من القرن الخامس الى القرن العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً
وسواداً - وقد كانت همجية هذا العهد أشد وأفظع شأنأ من
همجية العهد القديم - لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد
تعفنت - وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال
وآلت الأوطان التى ازدهرت فيها الحضارة قديما وبلغت أوجهاً
كايطاليا وفرنسا الى حالة من الفوضى والدمار » •

اليهود على مسرح الأحداث :

أكان العنصر اليهودى المنبث فى أوروبا وآسيا وأفريقيا
صالحاً لانشاء حضارة • وتأسيس مدنبة الواقع أن علم اليهود
وحده ليس كل شىء فى بناء الحضارات - كما أن الدين حين
يتحول الى مسائل نظرية للجدل والثرثرة ليس أيضاً كل شىء •

واليهود شاهد صدق على ذلك فقد كانوا على علم بالدين وفهم
لشيعته ووعى لأحكامه - وكانوا يعرفون من العلوم والمعارف
مالم يعرفه غيرهم . . الا أن خسة نفوسهم . . وما يحملون من
التعصب والحقد ، والنزعات العنصرية الشاذة ، وما يتمثل
فيهم من الخبث والنفاق وحب المال ، واهدار كل كرامة في
سبيله . . كل هذه الخلائق جعلتهم عنصراً منبوذاً من شتى
الأجناس ، ومن جميع الأمم فلم يستقروا في وطن . ولم يهجعوا
في بلد ، وانما عاشوا مطاردين أذلاء لاشتغالهم دائماً بالدس ،
واشغال الفتن والمؤمرات . . وعلى الرغم من المعرفة الدينية
لديهم الا أنهم استخدموها في الشر وسخروها في جمع المال . .
ولا شك أن النفس الشريرة تزداد بالعلم شراهة وجشعا :
وتفتح آفاقاً للتضليل والتزييف وتستخدمه في أبشع صور
الضلال . وقد تصدى الكتاب الكريم لردائلهم وعدد أنماطاً منها
وإذا كانوا على هذا المستوى من الانحطاط والانحدار فهم لا
يصلحون لقيادة الأمم ولا لسياسة الشعوب .

لقد سيطرت عليهم المادة - فأينما وجدوا وجد معهم
الاستغلال والربا والتكالب على الحياة حتى لقد صار المال
بالنسبة اليهم الهاً يعبد من دون الله . . .

وماقيمة دين لا يزكى خليفة ولا يطهر نفساً - ولا ييسمو
بالسلوك ؟ لهذا سقط اليهود من حساب الناس يوم سقطوا من
عين الله . . واتخذوا دينهم وسيلة لجمع حطام الحياة . .

بين اليهود والمسيحيين :

ولم يكن اليهود منذ أقدم العصور يكتنون للمسيحيين أى
تقدير أو عاطفة - وكذلك كان المسيحيون بالنسبة لليهود . .
ولم تستطع كتبهم المنزلة أن تهذب فيهم غرائز الحيوان -

ولا أن تصفى قلوبهم من الحقد - ولا أن تجعل منهم جبهة متحابية متألفة « وما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم - بغياً بينهم » . . ولقد كان كلا الفريقين يهتبل فرص قوته ليغرى السلطان بالآخر ويحرضه عليه . . وكثيراً ما دس اليهود على المسيحيين - وكثيراً ما حدث العكس . .

ويقول المقریزی في كتاب الخطط : « وفي أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشام ومصر فحربوا كنائس القدس وفلسطين وعمامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا الى مصر في طلبهم وقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر . .

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم - وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وصور وبلاد القدس فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكابة فيهم - وخربوا كنيستين وأخذوا أماكنهما وسلبوا قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه » .

ولقد اقتص النصارى لأنفسهم فأوقعوا باليهود في معركة صور رغم أن عدد اليهود كان عشرين ألفاً وعند ماتغلب هرقل ملك الروم بقسطنطينية على الفرس وسار ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ماخربه الفرس خرج اليهود من طبرية وغيرها ليقدموا له الهدايا . .

وطلبوا منه أن يؤمنهم وأن يحلف لهم على ذلك ثم دخل القدس فتلقاء النصارى بالبخور والشموع والأناجيل وشاهد بعينه ما حل بالقدس من تخريب وتدمير ، وسأل عن ذلك . . فأخبره النصارى بتواطؤ اليهود مع الفرس في ذلك عليهم ، وأنهم كانوا أشد نكايه من الفرس وحثوه على أن يقتص لهم من

اليهود فأخبرهم بأنه عاهدهم ، وأمنهم ، وأقسم لهم فأفتناه
الرهبان والقساوسة بأنهم سيكفرون له عن يمينه بأن يأمرؤا
أتباعهم بصوم جمعة في كل عام على مر الزمان تكفيراً عن هذا
اليمين !! فمال الى قولهم ، وحصد اليهود في مواقع رهيبه أبادهم
جميعهم فيها ، حتى لم يبق منهم في مصر و الروم والشام الا من
اختفى .

هذا مارواه صاحب الخطط وهو شيء يؤسف له أن يتعاون
اليهود ، أهل الكتاب ، مع المجوس الفرس ، ضد اخوانهم
النصارى ثم ما أقبح ما أشار به المسيحيون على هرقل من فكرة
التكفير عن يمينه . . . أى فتوى هذه ؟ ثم ماهذه الضراوة الحاقدة
بين أصحاب الديانتين الكبيرتين ، أتصلح كلتاها أو احداهما
لانشاء حضارة انسانية تقوم على مبادئ الأخلاق والفضيلة ؟!
لعمري انها معاً لفي حاجة الى شيء من تعاليم اليهودية
والمسيحية تحول بينهما وبين تسخير الدين للمطامح والشهوات
وليس للدين ذنب في ذاته !!

فهو صالح لأن يملأ الحياة حباً وسلاماً ، وبراً وعدلاً ، ولكن
الذين استحفظوا عليه قد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
فسوف يلقون غياً !! ولو حملت هذا الدين نفوس طيبة
لاستفادت به ، وأضاعت الحياة بنوره ، وقيمة الأديان
السماوية انما تكمن في تطبيقها تطبيقاً صحيحاً كما أراد الله ،
وليس في حجبها عن الحياة ، أو استغلالها في المطامح والشهوات
أو تحريفها عن غاياتها أو حفظها في الرأس دون الاستفادة منها
في تطهير النفس .

على أن نظام المدنية يأبى الا يكون توازنا بين الروح والكم
بين الغائية والسببية ، حتى اذا حدث اختلال في هذا التوازن

هوت المدنية الى الحضيض . . وكلتا الديانتين لم ترع يوما
هذه التعادلية . . من أجل ذلك كله سقطتا كأساس حضارى
للعالم ، يريحه من كلال ، وينقذه من وبال ، ويطلق مواهبه
لتزدهر وتصنع الحياة على عين الله !!

وماذا عن فارس في ذلك الوقت : ؟ !

كان القوم يتسمون مع الروم سيادة العالم ، وقيادة البشر ،
واستعباد الناس وكانت كل منهما دولة كبيرة ذات مراسيم
ونظم ، ورفاهية وترف بلغا حددهما قبيل الفتح الاسلامي . .
واذا كان لكل حضارة دورة تاريخية تتوقف بعدها فان حضارة
هاتين الدولتين كانت قد وصلت الى القمة ، ثم بدأت تنزلق
رويداً وتجنح الى الغروب وتعكس على الحياة اونا باهتا شاحبا
يذخر بالفناء والموت ، ولم تكن كلتاها تملك دستور هداية من
السماء ولا قانون عدل من الأرض

لهذا : ظلمنا وفجرنا وضلقتا عن سواء السبيل ولعب الترف
في كل منهما دوراً عجل بفنائهما .

ولعل ماقدمناه في البحوث السابقة يعطى تصوراً نأن
الحرب بينهما كانت مشتعلة ، وهى حروب « لا أخلاقية »
يذكيها بين الفريقين المتنازعين حب الغلب ، وفرض النفوذ ،
وتكوين الامبراطوريات الضخام .

وكان العالم كله موزعا بين هاتين الدولتين ، فقد كان لهما
من الضخامة والهيولة ماجعل العالم كله مناطق نفوذ لهما . .
واصطنع كلاهما من الأحلاف والاصدقاء مايمكن له في
السيطرة . . كان المنازرة العرب صنائع الفرس ، وكان
الغساسنة العرب أيضا صنائع الروم ، وكثيراً ما كانا يتصادمان

بسبب الدولتين الكبيرتين . . . أى أن أساليب الاستعمار قديمة
بقدم التاريخ ، وكذلك مناطق النفوذ ، ووسائل التجسس .

مجتمع منحل :

كانت فارس تلك الدولة العظمى فى ذلك الوقت تشيع فيها
نزعات مجرمة منحلة تفتك بالمثل الأخلاقية والمبادئ السامية ،
كما كانت مرتعا لنظريات هدامة خسيصة . . . ونحل أرضية
شاذة كان زواج الأخت والبنات عملا سائغا ، وشرعا معمولا به ،
بل كانوا يتقربون بذلك الى الله فى الشريعة الساسانية ،
وكذلك استباحوا زواج المحرمات جميعا ، ولا شك أن ذلك أمر
تنفر منه الطباع السليمة وتعافه النفوس الكريمة ، وتتجه اليه
من غير دين ولا شرع . . . وقد أطبقت الشرائع والأعراف على
تحريمه واستبشاعه واستقباحه ، تزوج يزدجرد الثانى فى
أواسط القرن الخامس الميلادى ابنته ثم قتلها وتزوج بهرام
جوبين الذى حكم فى القرن السادس بأخته ، كما تزوج جشمست
قبل أن ينتص بالمحرمات كلها ، ولقد أشار الرحالة الصينى
(هوئن سوئنج) الى هذا الزواج المحرم بقوله : « ان الايرانيين
يتزوجون من غير استثناء » .

مانى يثور على البوهيمية :

لا نستطيع أن نتصور أن مبادئ البشر تستطيع أن تقتلع
نزعات الشر المتأصل فى النفوس أو تدرأ أفكار السوء المستقرة
فى الرؤس ، أو تطهر وجه الأرض من أدناس البشر . . . وسوءات
الناس ، لأنها نظم لاتجد حصانة من السماء ، ولا مستندا من
الأرض فهى خليفة مهما كانت جادة وثائرة أن تكون صيحة فى
واد أو نفخة فى رماد . . . وانها لتذهب فى نباح الكلاب وعواء
الذئاب كما تذهب النسمة الرخية فى الأدغال الشواجن .

فهل نتصور أن مبادئ ماني مهما كانت حكمته تستطيع أن تكتسح الفساد الذي طغى على المجتمع الفارسي؟ وتضع مكانه قواعد الخير وأصول الفضائل؟ كلا: وإنما تتطهر الأرض من كل ضلال، وتتحرر النفوس من كل ضيم بقوانين الدين، وأحكام السماء: ﴿٢٣٠﴾

لذلك: لا ننتظر من دعوة ماني أن تصادف هوى من نفوس القوم، أو توقظ أعصابهم المخدرة بالشهوة والنوم... لا سيما وهي دعوة منحرفة عن الفطرة، وإن يانت رد فعل على الرذيلة.

لقد انحصرت هذه الدعوة في محاربة النزعات الشهوانية المنحلة، فدعا ماني إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، فحرم النكاح وعطل السعي وأبطل العمل واستعجل فناء البشر لينقذ الناس من شرورهم وآثامهم... وبذلك ينقطع النسل وتعقم الحياة وينتصر النور على الظلام. وكان يرى أن الشر يتمثل في اختلاط النور بالظلمة، ولهذا عمل جاهداً على الفصل بينهما.

وكان مصيره القتل على يد بهرام في القرن الثالث الميلادي سنة ٢٧٦ م.

كلا: لا هذه ولا تلك: فليست الحياة اما اباحية، واما رهيبة... ولكن هناك الحياة المرتبطة بالفضائل، التي تمضي على منهج الخير... وهي حياة ليست اباحية، وليست مترهبة وإذا أنكرنا منهج التحلل فانا لا ترتضى الترهيب فكلاهما ضد الطبيعة البشرية: ﴿٢٣٠﴾

بين الرهيبة والاباحية: كانت تعاليم ماني مجحفة للغاية... لأنه حاول قتل الناس لتقتل معهم الرذائل فهو كمن

يقتل المريض للتخلص من المرض . . . ولهذا رفضها الشعب
الفارسي وتطلع من جديد الى حياة حيوانية ملؤها الفجور
والشهوة . . . كما تعود أن يحيا .

وهكذا . . . ظهر مزدك بفلسفة الشهوة وكان وجوده في
في القرنين الخامس والسادس فقد ولد حوالي (٤٨٧) م . . .

مبادئ مزدك : أعلن عن المساواة كأساس لمذهبه ، وليقتها
مساواة في الحقوق والواجبات ، وانما مساواة في الاشباع
الجنسى ، والانطلاق الحيوانى واستباحة المرأة والمال وما دام
الناس قد خلقوا متساوين فلا بد أن يشتركوا في هذين العنصرين
اشتراكهم في الماء والكأ والنار . . . وذلك لأن النفوس تضمن
بهما فاذا أبيحا انحسرت مادة الشر من الوجود وذهب أصل
الخلاف من المجتمع . . . ونتيجة لهذه النحلة الشاذة فان الرجل
صار لا يعرف أولاده والأولاد لا يعرفون آباءهم لقد صار المجتمع
الفارسي مجتمعا ضائعا بلا « هوية » ولا نسب . . .

يقول الشهرستاني : [ان ماني أحل النساء وأباح الأموال
وجعل الناس شركة فيهما] .

وحظت هذه الدعوة بمؤازرة الدولة على المستوى الرسمى ،
ناصرها قباذ ومكن لها ونشرها . . . حتى انغمست ايران كلها
في معين الشهوات وقد وجد فيها الشبان والمترفون ضالتهم
المنشودة ، وابتلى الناس بهم كما يقول الطبرى : [صاروا
يدخلون على : الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله
لا يستطيع الامتناع عنهم . . . وتبعهم قباذ على نشر المبدأ فلم
يلبت أن آزرهم حين هددوه بالخلع] ولقد حاول قباذ هذا نشر
تلك النحلة في الجزيرة العربية ولكن المنذرين ماء السماء تصدى له ،

وحارب المبدأ وعادى تعاليمه فخلعه قباذ وولى مكانه الحارث بن عمرو الذى وافق على قبول المذهب الشاذ ، ولكن المنذر عاد فاسترد ملكه وأباد الحارث * * وهكذا يصنع الترف ويفعل الانحلال بالمدنيات الغاربة والحضارات الذاهبة * * وانظر كيف يضل الناس في غيبة الدين الحق * *

عبادة الذات :

ان أيسر ما تعكسه هذه الأخلاق المنحلة على المجتمع الشارد عن الحق من سوءات أنها تنتج ذاتاً ضالة ، وضيعة ، تساعد الحكام على التآله - وعبادة الذات - وهذا هو ما حدث في ايران * فلقد اعتقد هذا الشعب أن حكامه يجرى فيهم الدم الالهى * * ومهما انحرفوا أو أترفوا أو فسقوا فهم مقدسون يأكل الناس فئات موأندهم وتمتنع الألسن عن هتك سيرتهم ، ويكف البشر عن نقدهم ، لأن لهم حقاً على كل فرد ، وليس لاحد حق عليهم * وبذلك عبدوهم وقدموا لهم الخراج عن طيب خاطر ، وآثروهم بالتاج دون غيرهم ، وابتعدوا عن مجالستهم توقيراً لهم وأصبح البيت « الكيانى » معمظا كل التعظيم لا ينافسه في الملك الانذل أو لتيم * والطفل من هذا البيت مسموع الكلمة - لا يعدلون عن توليته الملك اذا اقتضى الأمر ، كما يولون المرأة عند الضرورة ولم يخطر ببالهم أن يحكموا عليهم قائداً أو عظيماً خارجاً عن بيت الملك * * وهكذا رضوا بالذلة والصغار ، وعميت قلوبهم وبصائرهم ، وانها لنكبة حلت بتلك الحضارة ، لأنها تخلت عن الله * * ولم تكن تمتلك مورداً صافياً من الحكمة يكفكف عنها الغواية والفساد ، أو يردّها الى انسانيّتها الضائعة ، وخصائصها المتهنة لقد تقلبت بكل أسف بين هذه الفلسفات الشاذة المنحرفة التى ضللت خطاها على طريق الحياة وعجلت بقنائها المحتوم فعاجلتها الدولة الاسلامية الفتية بضربة عاجلة

أطاحت بهذا الفساد ، ومكنت لكلمة الله في الأرض . . وكذلك
أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة .

التفاوت الطبقي في المجتمع الفارسي : ليس بعيدياً على
مجتمع يعبد الشهوة ، ويقدم البشر ، أن يختصهم بأرضه
وعرضه ، ويبيح لهم أن يملكوا دونه . . فلم يكن لأحد من
الشعب الذليل أن يتطلع الى حياة الأسرة والامراء وحسبه أن
ينال من فتات موآدهم كصدقة مباركة ، لأنهم من طينة أخرى
غير طينة البشر ، لهم عقولهم ومواهبهم ونفوسهم المتميزة ،
ولا يحق لأحد من الشعب أن يشتري عقار أمير أو حاكم ، وقد
أدى ذلك الى خلق مجتمع طبقي رهيب ، بين كل طبقة وأخرى
هوة شاسعة ، لا يقوم عليها جسر ، وكان هذا التفاوت قائماً
على النسب والحرفة . . فعلى كل انسان أن يرضى بحرفته ،
وليس له أن يفر منها أو يحاول تغييرها لأن الناس هكذا
خلقوا . . لكل واحد مركز لا يعدوه . . وكان مجلس الأمراء
محرمًا على الشعب ، يجلس الناس منه مزجر الكلاب .

درس من السماء :

ومن الطرائف (١) أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أثناء
الفتح الاسلامى لفارس استدعاه رستم القائد الفارسي المعروف
في الأساطير ليتحدث اليه ويتعرف منه على وجهة العرب ، وحين
دخل المغيرة سلم وحيا بكل ابناء وعزة ثم قفز ليجلس معه على
السريير . . هكذا تصرف بكل بساطة وماذا في هذا ! لكن الفعلة
شنعاء من وجهة النظر الفارسي لأنهم يجلسون من القائد كما
تجلس الكلاب ومن ثم استفظعوا الأمر واجتذبه ولندع الطبرى

(١) عبقرية خالد للعقاد نقلا عن الطبرى ج ٤ ص ٨

عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه (أى أنزلوه وأنبوه) فتعجب
المغيرة من صنع الجند وقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام
ولا أرى قوما أسفه منكم ، انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا
بعضا الا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون
قومكم كما نتواسى ، (أى تساوونهم كما نتساوى) ، وكان
يقص علينا القصة بأسلوبه يقول : « أقبل المغيرة وله أربع
صفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا
أحسن من الذى صنعتم معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب
بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، وأنا لم
آتكم ولكنكم دعوتهمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم
مغلوبون ، وان ملكا لا يمكن أن يقوم على هذه العقول ولا على
هذه السيرة) فهذا درس من السماء ساقه القدر الى هؤلاء لو كانوا
يعقلون ، وتلك كلمات من نور لكن عقول القوم مظلمة جامدة ..
لقد تكلم الرجل الذى صنعتة حضارة القرآن الى القوم الذين
استذلهم الشيطان . تكلم الرجل الذى صنعتة الحضارة
الشابة الشارقة الى القوم الذين صنعتهم الحضارة المكتهلة
الغاربية ، تكلم الرجل بكل ما يحمل من نبض العزة وشرف
الاباء وكرم الاسلام .. الى قوم فقدوا العزة والشرف والضمير
فغدوا سوائم ضالة .. ورسوما متهاككة ، لقد كانت كلماته
سهاماً مسددة الى قلب الحضارة المترهلة الآفلة .. وأيا ما كان :
فقد قال الرجل فحسن القول ، وأعلن الثورة على العبودية الذليلة
أمام الدولة ممثلة فى قائدها وجيشها دون خوف أو رهبة لأن
العبودية فى شريعة حضارته لا تكون الا لله - كما ثار على تلك
الفوارق بين البشر لأن المساواة أصل فى دينه وتجربة يعيشها
المسلمون بكل بساطة ويسر .. وعندما وعى هذه المثالب فى
حضارة القوم لم يكتف بما تحدث به ، وانه لخطير - ولكنه
نصب من نفسه قاضياً - وأصدر حكماً بالاعدام على حضارة
وصل التزييف فيها الى هذا الحد .. فله در العربى المسلم ،

الذى تكلم من صميم الحكمة ، ودل على مقاتل القوم ، وعبر عن أدق نظريات علم الاجتماع ٠٠ دون أن يدرس أو يسمع عن هذا العلم وانما هو حكم الفطرة السليمة التي فتح الله بالقرآن مغاليقها ٠٠ ففاضت عن كنوز ثمينة لا عهد للحياة بمثلها ٠٠ وتنا الله لو أن غير هذا الجندي المسلم في موقفه بين القائد والجنود لما وسعه الا أن يبتلع الألم ويسكت خوفاً من القوم أن يفتكوا به ولكنها الإرادة القوية ، التي صنعها الحق لتجتث الرذائل من المجتمعات ، فهل يتصور لها أن تجامل أو تخاف ؟ والله في خلقه شئون ٠٠

ولقد كان القدر لا يضمن على هذه الامة المتعجرفة من آن لآخر بعربي مسلم يلقتها درساً في الكرامة ، ومعرفة حدود النفس كما فعل المغيرة بن شعبة ٠

فقد حدثوا أن يزدجر ملك الفرس جهز جيشاً بقيادة رستم لصد الجيش الاسلامي الزاحف على القادسية فلما سار رستم بجيشه لقيه في الطريق عربي من الجيش الزاحف فلقنه درساً خالداً لا ينسى ٠ قال رستم للعربي : ما جاء بكم أيها العربي الى هنا ؟ وما تطلبون منا ؟ فرد العربي الذي صنعته حضارة القرآن : جننا نطلب ما وعدنا الله بملك أرضكم وأبناءكم ان أبيتم أن تسلموا ٠٠ قال رستم مستهيناً : فان قتلتهم قبل ذلك : قال العربي : من قتل منا دخل الجنة ومن بقي أنجزه الله وعده فنحن على يقين قال رستم : لقد وضعنا اذن في أيديكم !! قال العربي : أعمالكم وضعتكم في يدينا فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك !!

فهذا فيلسوف آخر يواجه رستم بهذا الفكر الجريء ٠٠ رغم انه عربي طامح الى الفتوح يخاطب قائداً أعجمياً مطموحاً فيه !! لكن العقيدة هي التي تتكلم والمبادئ هي التي تفصح

وثقة الجندي بدينه وربّه جعلته في مأمن من رستم .. ومن هو أعظم من رستم .. ومن يدري لعلها حولت هذا القائد العملاق الى ذبابة في نظر الجندي المسلم .. وما أروع ما تلهم العقيدة أصحابها في المواقف الصعاب !! وانظر الى هذه الثقة التي تغمر قلب العربي .. وهو يحدثه عن وعد القرآن للمسلمين . فاما الجنة دار الكرامة والخلود .. واما الفتح العظيم .. لا بد من النصر على أي حال :

ثم ما هذه الجرأة التي تجعل مثل هذا الجندي الأعزل يقول للقائد : أعمالكم وضعتكم في أيدينا ، يا لله !! انها المواجهة الحاسمة التي تصارح بالعيوب دون مداورة .. ودون خوف أو خشية ولا عجب أن تنقاد لأمثال هؤلاء فارس ، بل الدنيا كلها ليعلموا الناس الحكمة ، ويقودوهم الى صراط العزيز الحميد ! .

عبادة النار : دعا « زرادشت » صاحب النحلة الفارسية الى التوحيد ، وأبطل الأصنام، لكنه انحرف فزعم أن نور الله يسطع في كل ما يشرق أو يلتهب في الكون فالنور رمز الاله ومن ثم وجب الاتجاه الى الشمس والنار وقت الصلاة كما أمر بضرورة تقديس العناصر الأربعة : النار ، والتراب ، والهواء ، والماء ، وعدم تدنيسها ثم توالى الحكماء بعده فحرموا على الناس الاشتغال بما يدعو الى استخدام النار والاقتصار على الزراعة والتجارة ، ثم تدرجوا فعبدوا النار وبنوا لها المعابد والهيكل وغلبت هذه العبادة على غيرها وانحدر الشعب الى المجوسية الحمقاء .. وفيما عدا أوقات العبادة ، انحدر الناس الى شهواتهم وما تملئ عليهم نفوسهم ومصالحهم : واستباحوا كل رذيلة ومنكر .

وهكذا .. صارت الفرس الى المجوسية ، والى الاباحية ، وتقلبت عليها نحل شاذة منحرفة لأنها حرمت الهداية الربانية

الذي تسدد خطاها ، وتتقود مسيرتها ، وتتهىء لها الحياة الشريفة
النظيفة ، والمجتمع الطيب الكريم . . ولا غرو فمن لم يجعل الله
له نورا فما له من نور !

ماذا عن الصين ؟! :

لم يكن بالصين في هذين القرنين ، ديانة سماوية تحل
الحلال وتحرم الحرام وتخطط للناس شئون دينهم ودنياهم ،
وانما سادتها فلسفات أرضية ، كانت الواحدة منها تزدهر ثم
لا تلبث أن تنتحر بتأثير غيرها ، ولم تحاول واحدة منها ربط
الناس بالايمان ، وانما ربطتهم بالبشر وأغرقتهم في الجهالة
وغطت حياتهم بسحب الضلال والفساد . .

سادت في المجتمع الصيني مبادئ « لاوتسو » و
« كنفوشيوس » و « البوذية » وكلها من صنع البشر ، ونتاج
عقولهم ، حتى البوذية التي كثر الكلام عنها واختلف الناس في
أمرها أهى مبادئ توقر وتحترم ، أم ترفض وتنبذ ؟ . انها رغم
ما تحوى من آداب وفضائل ومناهج للسلوك لم يزل وجود
الاله بها موضع خلاف وشك عند فلاسفتها ومؤرخيها . . والواقع
أن البوذية كغيرها من النحل بضاعة أرضية ليس لها صلة
بالسما . . غاية ما هنالك أنها اهتمت في مناهجها برياضة
النفس وتهذيب السلوك . وقمع الشهوات ، وتحصيل المعرفة
والبعد عن مصادر الألم والتخليق بالقيم الحميدة . . لكنها لم
تكن ذات صلة بالوحي المقدس ، ولا ببقايا الديانات السماوية .
انها مجموعة حكم لا أكثر ولا أقل . . وان كانت قد سادت في
ربوع الهند وازدهرت نحو ألف عام . .

وقد أصيبت البوذية في أخريات أيامها بالانحطاط حين
استسلمت للبدع والخرافات واندمجت في البرهمية وذابت

فيها ٠٠ أما مبدىء « لاوتسو » فقد تحولت الى وثنية واهتمت
بالنظريات وابتعدت عن التطبيق ، وجنحت الى التقشف
والزهد والرهبنة ، وخاصمت المرأة وقاطعت الشهوة ٠٠ حتى
نفر الناس منها لقسوتها ٠٠ ولأنها نحلة مريضة سلبية تنفر
من الحياة ٠٠ وأما « كونفوشيوس » فقد سار في مبادئه على
أساس مناقض « للاوتسو » اهتم بالحياة سياسة وتخطيطاً
وادارة وولى وجهه شطر الدنيا لا يلتفت الى الآخرة ٠٠ وأباح
لأتباعه حرية العبادة فعبدوا الانهار والاشجار وغيرها ٠٠ انها
مجموعة قوانين ترعى الحياة وتنظم شئونها وقد ابتعدت عن
منهج الوحي وحكمة السماء ٠٠ ولم يكن لهذه النحلة صفة
الالزام فمن شاء عمل بها ومن شاء أهملها ٠٠

ثم ما لبثت الصين أن تحولت الى متحف كبير للتماثيل
والآلهة والهيكل عندما تمكنت البرهمية من القوم وأخضعت
البوذية لها ٠٠ وتحولت هي الأخرى الى الوثنية وأقامت
التماثيل العديدة « لبوذا » ثم غمرتها البدع وجنح دعائها الى
المال والثراء وجذبوا المنافع الى أنفسهم وفقدت النظام ، ودخل
فيها السحر وتخللتها الأوهام وتوارت تعاليم بوذا خلف ركाम
الوثنية ٠٠ وهكذا تمكنت البرهمية الفتية أن تبتلع كل النحل
الوديعة ومنها البوذية بعد أن عاشت ألف عام بالهند تمنح
الحكمة وتهذب الناس ٠٠

وكذلك عاشت أمم آسيا الوسطى والشرق ، كالمغول والترك
واليابان بين ضلالات البوذية والوثنية لا يملكون حظاً من
هدايات السماء ٠٠ ولا حضارة من صنع البشر ٠٠ معظم
شعوبها تحيا في طور السذاجة والبداءة ٠٠ وبعضها في عهد
الانتقال الى الحضارة وهكذا غامت الآفاق كلها بظلام البدع
والخرافات وضلال الفساد والشهوات !!

ماذا عن الهند؟

مجتمع الهند : يمكن أن نعبر تعبيراً مختصراً عن المجتمع الهندي في ذلك الوقت بأنه « مجتمع الشهوة الجنسية » فلم تتمكن هذه الشهوة من أمة كما تمكنت من الهند ، ولم نتحدث عنها نحلً وتشف في وصفها كما تحدثت نحل الهند القديمة . . . وصفت هذه النحل الاختلاط الجنسي بين الآلهة ، وتحدثت عن نتائجه . . . وعن نوع الحوادث ونشوء الأكوان وأقاصيص أخرى يندى لها الجبين . . . كاغارة الآلهة على بعض البيوت الشريفة للنزوات والشهوات . . . وكان القوم يرددون هذه المجانة بحماسة وإيمان لأنها عمل الآلهة . . . وهكذا تخلق الجهالة مناخاً تزدهر فيه الخرافة والشهوة . . . ولقد انحط القوم فكرياً وعاطفياً كما انحطوا في هذه العقيدة حيث عبدوا آله التناسل للاله الأكبر « مهاريو » واجتمع الناس على ذلك عذارى ونساء ورجال وأطفال وبعضهم كان يعبد المرأة الجميلة عارية ، وبعض النساء يعبدن الرجال العراة . . . والكهنة تحولوا في ظل الفجور الى فحول لقاح لا عمل لهم الا الشهوة والخيانة ، حتى لقد حولوا المعابد الى مواخير ، وكذلك تحولت قصور الملوك وبلاط الحكام وبيوت الأغنياء فما تورعوا عن منكر ، أو فساد ، يختلط الفتيان بالفتيات بعد شرب الخمر . . . فتكون العريضة والفاحشة ، وسقطت الأخلاق في مهاوى الرذيلة . . . وتفنن القوم في تعاطي المهيجات التي تثير الشهوة وتحرك الغريزة . . . وتحدثت عنها كتب الديانات .

أيمكن لأمة كهذه أن تسمو الى مجد؟ أو تتحرك الى شرف؟ نعرف أن أمماً كثيرة عاشت في ظلام الجهل ، بعيداً عن الدين ، ولكننا لم نقر انحرافاً فاسقاً زليماً كهذا الانحراف ولا سمعنا به والله الأمر من قبل ومن بعد . . .

الوثنية الهندية : بلغت آلهة الهند في القرن السادس ثلاثمائة وثلاثين مليوناً من الآلهة وقد عبدوا كل ما هو رائع أو جذاب . . . عبدوا كل شارق وغارب . . . وكل شخص نابه تمثلوا الاله نهراً يجرى ، فعبدوا نهر الكنج ، ونسجوا حوله الخرافات ، فهو قد خرج من رأس « مهاريو » الاله وما يزال مقدساً حتى وقتنا هذا تحرق جثث الموتى ، وتتحول الى رماد ثم تذر فيه ، مع احتفال مهيب !! ، وتمثلوا الاله في الجمال فعبدوا المرأة ، وفي المعادن فعبدوا الذهب والفضة ، وفي آلات الحرب والكتابة والتناسل وفي حيوانات عديدة أهمها البقرة . . . وعبدوا الأجرام الفلكية . . . ولم ينج ملك ولا صعلوك من عبادة هذه الأشياء . . .

حكي الرحالة الصيني الشهير « هوئن شوئنج » الذي قام برحلته بين (٦٣٠ - ٦٤٧ م) قال : أقام الملك احتفالاً عظيماً في « قنوج » اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات ، السائدة في الهند ، وقد نصب الملك تمثالاً (١) ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول في موكب حافل ، قام يجنبه الملك « هرش » بملة ، وقام معه الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب ويقول الرحالة « ان بعض الشعب والكهنة من عباد « شو » وبعضهم من عباد « بوذا » وبعضهم يعبد الشمس ، وبعضهم يعبد « وشنو » ولكل واحد من القوم أن يختص باله أو يعبد الجميع حتى يفر ببركاتهم » .

الطبقة في المجتمع الهندي :

يؤمن المجتمع الهندي بنظام الطبقات ايماناً مطلقاً ولم يعرف التفاوت الطبقي المرهق كما عرف في الهند ، وهو تفاوت

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المساميين ص ٤٨ « نقلا عن

رحلة هوئننج شنج « لأسي الحسن الندوي .

تؤازره وتمكن له الديانات والقوانين والمجتمع الجاهلي . .
وخضعت الهند لذلك النظام آلفاً من السنين دون أن تثور عليه . .
وكان سبب ذلك التفاوت هو تأثير الحرف والصناعات والآلات
. . وما أحدثته من ثورات في آخر العهد « الويدى » للمحافظة
على السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، ثم جاءت « البرهمية »
قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون فوضعت قانوناً على يد (منو)
كان نكبة وشرأ أكثر من ذى قبل . . فقد امتنهن كرامة الناس
الى أبعد حد وقسم الناس الى : كهنة ، أى « رجال دين براهمة »
وشتري أى « رجال حرب » ، وويش أى « رجال زراعة وتجارة »
وشودر أى « رجال خدمة » وهم المنبوذون ويقول مؤلف هذا
القبانون :

« ان القادر المطلق قد خلق البراهمة من فمه لمصلحة العالم
وهم الكهنة رجال الدين وشتري من سواعده وويش من
أفخاذه ، والشودر من أرجله ثم وزع عليهم فرائض وواجبات
لصالح العالم ، فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور
للآلهة ، وتعاطى الصدقات ، وعلى الشتري حراسة الناس
والتصدق عليهم ، وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن
الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة وتلاوة (ويد) والتجارة
والزراعة ، وليس لشودر الا خدمة الطبقات الثلاث . .

والبرهمي الذى يحفظ « رك ويد » مغفور له ولو أباد العوالم
الثلاثة ، وملاً الدنيا شروراً ولا يجوز أن يجبى منه جباية حتى
في أشد حالات ضنك الدولة ، كما لا يصح أن يموت برهمي
جوعاً ، ولا يقتل بعقوبة مهما فعل ، وغاية ما يناله من عقاب
أن يحلق الحاكم رأسه . . وغيره يقتل بذنبه ، ويلبهم في الفضل
الشتري ، والبرهمي الذى بلغ سن العاشرة يفوق الشتري الذى
ناهز المائة كما يفوق الوالد ولده ، أما شودر فهم المنبوذون

الأشقياء حقا كانوا أخط من البهائم ، وأذل من الكلاب ومن سعادتهم أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك . . ولا يجوز لهم الادخار أو الاقتناء لأن ذلك يؤذى البراهمة وإذا مد أحد المنبوذين عصا أو يداً الى برهمى قطعت يده وإذا رفسه غاضبا فدعت رجله وإذا هم بمجالسة برهمى كوى استه ونفى وإذا سبه اقتلع لسانه وإذا ادعى بأنه تعلمه سقى زيتا فائراً وكفارة المنبوذ ككفارة القطرة والصفدعة والوزغة والغراب . كل ذلك ينص عليه القانون . .

أما المرأة في المجتمع الهندي :

فما أذلها ، وما أحقرها انها أمة عندهم قد يخسرها الرجل في قمار . . أو مراهنه ، وكانت ممتهنة يتزوجها عدة رجال ، وإذا مات زوجها عضلت أى منعت من الزواج ، وتعرضت لحملات التشهير وظلت في بيت زوجها المتوفى تخدم الأحماء ولها أن تحرق نفسها بعد وفاة زوجها تفاديا للشقاء المرتقب .

هذه هي بلاد الحكمة ، صارت بالبعد عن الله مسحا للضلال ، ومعقلا للوثنية ووكراً للفساد ، وماخوراً للفسق ومعقلا للاقطاع والطبقية وكذلك يصنع البعد عن الله ولقد كان هذا الفساد الضارب ينتظر الفتح الاسلامى ليكتسح هذا الغناء كله ويضع مكانه عقيدة الاسلام لترد الى الناس آدميتهم وكرامتهم ، وكأئنا الهند كانت على موعد مع البطل المسلم الشاب محمد بن قاسم الثقفى الذى تم له فتح السند ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

المجتمع العربى :

لم يصل المجتمع العربى في الجاهلية الى مثل ما وصل اليه الروم أو الفرس أو الهنود من تحلل وانحطاط وفساد وتترف ،

ولم تكن أخلاق العرب من الرخاوة والترهل والفساد كما كانت أخلاق أهل زمانهم في تلك الفترة من عمر الزمن ، أى في القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠٠ لأن البادية قد نشأتهم على سجايها المرسله فشبوا على الكرم والايثار والنخوة والحفاظ على العرض وتلبية الصريخ ٠٠ وايقاد النيران في الليل ليهتدى بها الضال ٠٠ الا أن هذه الفضائل كانت قد اختلطت بالردائل حتى جاء الاسلام فنقى فضائلهم وظهر شمائلهم واستبعد من هذه الأخلاق ما لا يتلاءم مع الحياة الفاضلة كالعصبية والثأر وغيرها ٠٠ نعم لقد أسقط الاسلام من أخلاقهم ما كان بعيداً عن الحق غالباً في التطرف سادراً في الغي ٠٠ لقد كانت فيهم الفصاحة والبلاغة والفروسية بشمائلها النبيلة ، كالشجاعة والصراحة والوفاء والكرم ٠٠ كانت لهم النفوس الكبيرة والأذهان البصيرة والحكمة والمعرفة ، بعضها من نقاج عقولهم، وبعضها من خبرتهم وتجربتهم ٠٠ وان لغتهم العربية بما فيها من الخصوبة والمرونة والحيوية والشاعرية واستيعاب المعانى والعواطف والمشاعر والخلجات لدليل على أن العرب فعلاً كانوا على حظ من العظمة والابداع ٠٠ لان الأمم الثقافية لا تصنع لغة راقية ٠٠ يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات [ولعمري (١) ما يكون التمدن اللغوى الا بعد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته وان لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وان لم يعم فى أهله] ٠٠

ولو لم يكن العرب أهلاً لكل مكرمة ، لما اختارهم الله لرسالة الاسلام ، ولما أنزل بلغتهم القرآن ولما جعل منهم أئمة يعلمون الناس الحكمة ، ذلك دليل على أنهم أمة قد فضجت فيها عناصر الخير ولذا آثرهم الله بالرسالة ٠٠ دون الفرس أو الروم أو الهند تلك الأمم التى ترهلت بالتترف ، وأغرقت فى

(١) ص ١٢ من تاريخ الأدب العربى .

اللذائذ وأصبحت واهنة ذليلة قد استعبدتها الشهوات من كل جانب •

وإذا كان هناك ضلال في المجتمع الجاهلي ، فهو ضلال محتمل بالنسبة لغيره •• وبالنسبة لتلك الفترة التي سماها القرآن « جاهلية » ••

يقول صاعد الأندلسي واصفاً ديانتهم : « كانت ديانات العرب مختلفة ، كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وحزام « المشتري وطبي سهيلا ، وقبيس الشعري العيور ، وأسد عطارد •• وكانت ثقيف وايااد تعبدان صنما بأعلى نخلة يقال له : اللات وكان لحنيفة صنم من حيس ، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلته فقال فيهم الشاعر :

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم خوف العواقب والتباعة

ولقد انبثت في صحرائهم جميع الديانات المعروفة من عبادة الأوثان واتخاذها شفعاء الى الله ثم ما لبثوا أن عبدوهم ، وكان لكل قبيلة صنم ، بل لكل بيت صنم في بعض الأحيان •

يقول الكلبي في كتابة الأصنام : [كان لكل دار من مكة صنم يعبدونه فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايفعل أن يتمسح به ، وكذلك عندما يحضر من السفر ، وقد تنصب بعض القبائل صنما أمام الحرم أو في جوف الكعبة ، وفنائها •• وقد بلغ ذلك نحو ثلاثمائة وستين حجراً] •

وروى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فاذا وجدنا حجراً خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر •• فاذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه وطفنا به •

وقال الكلبي : [كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة
أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاث أتاقي قدره ،
أى حجارة يوضع عليها القدر ، واذا ارتحل تركه » .

وانتشرت اليهودية والنصرانية في جهات من الجزيرة
العربية ، وانتشرت المجوسية قليلا ، كما كان هناك بقية طيبة
من دين ابراهيم عليه السلام ، قد طال عليها العهد ، وكانت
الكثرة على الوثنية ، أما القلة فكان بعضها على اليهودية في
اليمن ، وفي يثرب وماجاورها من تيماء وخيبر وبعضها على
النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والغساسنة
بالشام . .

ولقد ظهر جماعة الحنفاء قبيل سطوع شمس الاسلام ،
استبشعوا عبادة الأصنام واستبدلوا بالكون على الله . .
وتحدثوا في البعث واليوم الآخر ومخافة الله . . ومنهم أمية بن
أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن
نوفل . . فهؤلاء طلائع مثقفة عاشوا حياة نظيفة .

وكانت هناك مجموعة أو هام وأباطيل ترتبط بعقيدة العرب
كزجر الطير والضرب على الرمل والطرق بالحصى والكهانة
والعرافة ولهم أخبار في ذلك مضحكة كذلك كانوا يؤمنون
بالهامة ، وهي طائر لا يزال يطالب بدم القتيل حتى يؤخذ
بثأره ، واستهواء الجن ، وتعليق الحلى على المدوغ . . وأن دم
الرئيس يشفى من الكلب والجنون ، وهي معتقدات ساذجة . .
وقد سماها القرآن جاهلية لأنها كانت سفية . . ولقد حرص
القرآن على تقبيح هذه الحياة بعد اسلام القوم كلما نزعوا اليها
بعد أن شرح الله صدورهم بالاسلام فيقول : « أفحكّم الجاهلية
بيبنون (١) » ، وقد قالها رسول الله لصهيب بعد أن غير بلالا

(١) آية ٥٠ سورة المائدة .

بأمة السوداء حين خاطبه بقوله : انك امرؤ فيك جاهلية كما
كان صلوات الله عليه يهاجم العصبية التي كان القوم يتورطون
فيها من حين لآخر .

البداءة والحضارة عند العرب :

سكن العرب شبة جزيرتهم الجافة القاحلة التي لا تصلح
للزراع ولا للاستقرار ولا لتلائم الحضارة ومن ثم كان أهلها بدواً
رحلاً ينتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلاً والعشب . .
ويعيشون تحت الخيام . ويولعون بصهوات الخيل . .
ويطعمون من لحم الابل والأنعام ويشربون من ألبانها
ويكتسبون من أصوافها . . وهذه الحياة اتسمت بالسذاجة
والبسطة وعرفت بأنها حياة البداءة .

أما قريش فكانت متحضرة لمكانتها الدينية ومنزلتها
الاجتماعية وغناها من الايلاف وترحالها للتجارة ، وقدم العرب
اليها للحج ، وللأسواق . . وكذلك كان القحطانيون متحضرين
لحظ ديارهم من الخصب ووفرة الغلات والثمار . . . ولقد
اعتمدوا الغارة والحرب والقتال أسلوباً لحياتهم لمكان العصبية
منهم ، فكانوا لا يصبرون على ضيم ، ولا يقيمون على هوان ،
وقد جر عليهم ذلك فساد القلوب ودوام الحروب وتعدد الثارات
ونزوة العصبية وما حروب داحس والغبراء وحرب البسوس
ويوم حليمة الا صفحات مخصبة بالدماء . . وقد اختلفوا
بالذكور وكرهوا الاناث . . ومارسوا الوأد ، اما خوف العار ،
أو الفقر ولم تكن كل القبائل تفعله . .

ولم تكن لهم مدنية اجتماعية - بل نزعات فردية أو
قبلية . . كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع
الحكومة والأمة - وان ازدهرت في بعض النواحي حضارات
عربية كحضارة المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام

والسبئيين باليمن السعيدة - وكان لرؤساء القبائل امتيازات وأحكام يتقبلها الأفراد ولو كانت مخالفة لأرائهم * * وطبيعي أنهم لم يعرفوا النظم العسكرية ولا الحكومات السياسية - اللهم الا في بعض الجهات المتصلة بفارس أو الروم كما وضحنا . فقد كانت دولة الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة - يحكمها الملوك المتوجون * * ويخضعون لنظم سياسية واجتماعية أرقى * *

أخلاقهم وطبائعهم :

إذا كانت لهم فضائل قد تحدثنا عنها في صدر هذا الفصل - فإنها لم تكن خالصة نقية بل كانت مختلطة بالردائل فمن أكرام للضيف الى استلاب لعابر السبيل - ومن احتفاء بالقبيلة الى اغارة على ابن العم - ومن اجابة للصريخ الى سطو واغتصاب ومن حفاظ على العرض الى امتهان للمرأة * وكانت لهم أخلاق سيئة قد أسرفوا فيها من تهالك على الخمر ولعب للميسر قال قنادة : [كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزينا سلبيا ينظر الى ماله في يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا] *

وكان الحجازيون يستعملون الربا - وكان فيهم فاشيا - ولعل لليهود أثرا في اشاعة الربا * . *

وكانوا يسرفون في استعماله الى حد الغلو والقسوة قال الطبرى : [كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين يكون للرجل فضل دين فيأتين اذا حل الأجل فيقول له تقضيني أو تزيدني ؟ فان كان عنده شيء قضاه والا زاده الى السن (أى الجمل أو الناقة) التي فوق ذلك ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة - وفي العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه في العام الآتى وهكذا تكون ومائة

فيجعلها في القابل مائتين ثم يجعلها في القابل أربعمائة ان لم تكن عنده وهكذا] * *

وكان الزنا - موجوداً في بعض نواحي شبه الجزيرة - ولم يكن منتشراً * * فقد كان الرجل يتخذ الخليلات دون عقد - وكانت الاماء تكره على الزنا قال ابن عباس : [كانوا في الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنى - ويأخذون الأجور] *

وقالت عائشة : [ان النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء * * فنكاح كنيكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها - والنكاح الآخر يقول الرجل للمرأة اذا طهرت من طمثها أى حيضها - أرسلى الى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها فلا يمسسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه - فاذا تبين أصابها زوجها اذا أحب وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فهذا نكاح الاستبضاع - ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع أرسلت اليهم فلم يستطع أحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها : تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت باسمه فلا يستطيع أن يمتنع من الحاق الولد به * ونكاح البغايا : كن ينصب على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها جمعوا لها القافة - أى المتخصصين في معرفة الأنساب - فألحقوا الولد بالذى يرون - ويدعى ابنه فلا يمتنع] * *

وهذا الذى تتحدث عنه أم المؤمنين عائشة لم يكن منتشراً في كل الأوساط * * بل في بعضها وعلى ندره لان العربى معروف بالحفاظ على العرض - يغيض طرفه عن جارتته *

والمرأة في الجاهلية كانت موضع التكريم في الغالب - ولم
تمتحن الا في بعض القبائل - التي تمارس الوأد والعضل -
وتجعل المرأة متاعاً يورث بعد وفاة زوجها . .

لكن الزوج العربية - كانت ذات مكانة - يجلها زوجها في
نفسه - ويشركها في أمره ويتغنى بها في شعره ويفخر العربي
بنسبه الى أمه كما يفخر بنسبته الى أبيه - وكان الارتباط بين
الزوج وزوجه يتم بعقد غالباً - ومن غير الغالب ماذكرته عائشة
- وهناك زواج كانت تعقده الأسنة والسيوف - وكان هذا
يحدث اذا لقي رجل آخر ليس من قبيلته ومعه ظعينه (١)
فيتقاتلان فاذا قهره سبها واستحلها - وكان التعدد بين
الأزواج الاناث مألوفاً - ويحلون التزوج من امرأة الاب -
ويحرمون زواج البنت والأخت والخالة والعمة .

علومهم ومعارفهم :

لم يكن لدى العدنانيين علوم ولا معارف بالمعنى وانما
اشتهروا بأشياء استنبطوها بالعقل أو اكتسبوها بالتجربة أو
توصلوا اليها بالاستقراء والوهم - عرفوا مبادئ من الطب
والبطرة - والعيافة والنجوم وانواء والفراسة وبرعوا في
الأنساب والاختبار والشعر - ثم عرفوا الكهانة والزجر . .

أما تبابعة اليمن ، ومناذرة الحيرة وغساسنة الشام فكانوا
على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من سدود ، وأحيوه من
الأرض وعمروه من المدن ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لم
نتوصل اليها كاملة ولعل الكشوف تنبئ عنها وقد سبق
الحديث عن سد مأرب وحضارة سبأ . . وبعد :

(١) المرأة في اليهودج .

فتلك لمحة خاطفة عن حال المجتمع الجاهلي العربي في القرنين السادس والسابع ليتكامل بها وصف شامل لحالة العالم كله قبل القرآن ، وما كان يغشيه من ظلمات بعضها فوق بعض وما كان يحتويه أحياناً من حضارات تزدهر ثم تنتحر . لأنها لا تطرد مع الترف ، ولا تستمر مع الطغيان ، انه عالم قد تمكن منه الشيطان فصدّه عن ذكر الله . . وأضله عن سواء السبيل ، وكانت الانسانية المضطهدة المريضة تئن من وطأة الظلم وقسوة الحياة . . وتترنح تحت سياط المستبدين ، فتسقط جثة هامدة . . أو تظل تنزف الدم الزكي دون أن تجد من يضمد جرحها - أو يمنع نزفها لم يكن هناك ملجأ ولا معتصم . . فقد ضل الهداة ، وسكت الحداة ، وتاه الركب في ظلمات الحياة .

وسكت صوت الحق بالمرّة ، وتفشت في العالم نحل مريضة منحلة فهوت بالبشر الى الحضيض فهل يمكن أن نتصور فساداً أكثر من هذا . وهل يترك الله الأرض مسرحاً للشيطان ومبأة للفساد والطغيان ومستقراً للشهوات الآثمة . . وموآخِر للفسوق والاجرام أكثر من هذا . كلا . وانما لابد للقدر العالى أن يحسم في الأمر ، وينسف الضلال وذلك بنزول القرآن ، منبع الحضارة الحقّة ومستقر الهداية الراشدة ومنارة البشرية التائهة في دنيا الظلمات يحمله الى العالم الظامى الى الهداية رسول كريم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . . أما كيف تمت المعجزة وحدث البعث الجديد للبشرية فذلك ما سنتحدث عنه في الجزء الثانى من هذا الكتاب والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

كلمة ختامية

يطيب لى أن أتجه بالثناء والشكر الى الله الذى منح من الجهد والوقت والفهم والمراجع ما أعاننى على بلوغ الهدف الذى كنت أصبو اليه .. وأمدنى بالصبر الجميل على القراءة والاطلاع ، فى موضوع من أخطر الموضوعات ، وأعمقها ، وأكثرها صلة بعلوم النفس والحياة والفلسفة والاجتماع !

وقد استنطعت - والحمد لله - أن أعطى تصوراً واضحاً عن فلسفة الحضارة وفقهها وعناصرها ، ودورها التاريخية ، وارتباطها بالايمان الذى يسقيها بالماء النقى لتخرج أطيب الثمرات ، ويضبط مسارها على طريق الهداية حتى لا تنحرف عن سواء السبيل كما وضحت - دور العلم - التطبيقى المتخصص فى بناء الحضارات الانسانية ، وأكدت أنه لا بد أن يتعاون العنصران معاً : الايمان والعلم لكي تزدهر بهما حضارة كريمة تضع الانسان فى مقامه الرفيع - وتحترم خصائصه العليا ، وتمكنه من أداء واجبه فى الحياة ، ويوم يتم ذلك فسوف تستريح الحياة من شهوات الغرب ، ومادية الشرق ، ويتبوأ القرآن مكانه الأسمى لينضح على الوجوه طهراً وأمناً واستقامة تنقذه من بلاء ماحق ، وشر مستطير ..

وكم يهفو قلب كل مسلم يؤمن بالله وكلماته الى تلك الفرصة الطيبة التى تتمكن فيها الأمة المسلمة من بعث الحضارة

الانسانية من جديد لتكتب قصة العدل والكرامة وتحقق مبادئ الخير والسلام لعالم أوبقه الفساد وشفه الفسوق وعبث به الشيطان ، وأخذ يتطلع من جديد الى حضارة القرآن .

واليوم ونحن في مصر الكريمة قلب العالم الاسلامى ، ومنازة الهدى والخير ، وأمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، اليوم ، ونحن نبني دولة العلم والايمان على تقوى من الله ورضوان - نتقدم بهذه الدراسات - كاسهام متواضع في تحقيق الهدف الكبير الذى نهفوا اليه جميعاً وهو بناء الدولة العصرية نواة الحضارة الاسلامية العالمية - والله من وراء القصد ، ينفع بهذا الكتاب ، ويجزى عليه بقدر ما فيه من اخلاص وجهد .. وهو حسبى ونعم الوكيل ٥

توفيقاً محمد سبع

مراجع الكتاب

(أ) كتب تاريخية :

- ١ - تاريخ الطبرى
- ٢ - سيرة ابن هشام
- ٣ - عصر ما قبل الاسلام - الأستاذ مبروك نافع
- ٤ - قصص الأنبياء - المرحوم الاستاذ عبد الوهاب النجار
- ٥ - تاريخ الاسلام السياسى - الدكتور حسن ابراهيم حسن
- ٦ - الملل والنحل - للشهرستانى
- ٧ - تاريخ العرب قبل الاسلام - جورجى زيدان
- ٨ - مقدمة ابن خلدون
- ٩ - الخطط للمقريزى

(ب) التفاسير :

- ١ - الكشاف للزمخشري
- ٢ - تفسير الفخر الرازى
- ٣ - تفسير ابن كثير
- ٤ - تفسير المنار للمرحوم الشيخ رشيد رضا
- ٥ - تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده
- ٦ - تفسير الشوكانى (فتح القدير)

(ج) كتب فى شرح الحضارات :

- ١ - نحن والحضارة الغربية - لابي الأعلى المورودى
- ٢ - تجديد التفكير الدينى فى الاسلام
للفيلسوف محمد اقبال

- ٣ - الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على
- ٤ - المستقبل للاسلام
الأستاذ مالك بن نبي تعريب شعبان بركات
- ٥ - حضارة الاسلام - المستشرق (جوستاف)
- ٦ - أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة
للمودودي
- ٧ - من روائع حضارتنا - المرحوم مصطفى السباعي
- ٨ - انسانية الاسلام - أحمد عبد الغفور
- ٩ - بين الديانات والحضارات - طه مدور
- ١٠ - الاسلام في المعترك الحضاري - عمر بهاء الدين
- ١١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
لأبي الحسن الندوي
- ١٢ - الاسلام والطاقت المعطلة - ظلام من الغرب
للأستاذ محمد الغزالي
- ١٣ - أثر العرب في الحضارات الأوربية
للمرحوم عباس محمود العقاد
- ١٤ - في أصول الأدب - للمرحوم حسن الزيان
- ١٥ - القرآن والعلم - للأستاذ جمال الدين الفندي

الجزء الأول (قيم حضارية)

محتويات العدد

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية بقلم المؤلف
٨	تقديم لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
١٢	مقدمة بقلم المؤلف

الباب الأول

١٩	في معنى الحضارة والثقافة والمدنية
٢١	الحضارة والبداءة في الشعر
٢٥	تطوير معنى الحضارة - المتنبي والحضارة
٢٧	ابن خلدون
٣٠	الكتاب المعاصرون والحضارة
	عالم ما قبل الاسلام (من أرشيف الحضارات القديمة)
٣٣	(تحليل ودراسة)
٣٧	معنى المدنية وارتباطها بالحفاوة
٣٨	معنى الثقافة وصلتها بالحضارة
٤٠	علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض
٤٢	بين الحضارة والمجتمع
٤٥	نماذج العناصر الحضارية وتداخلها
٤٧	أثر الثقافة في حياة المجتمعات
٥٧	المؤثرات الحضارية
٥٨	مناقشة ابن خلدون في أفكاره

الباب الثاني

الصفحة	الموضوع
٦٠	الله والكون والانسان
٦٢	كيف السبيل الى الله
٦٥	عندما تفحرف الفطرة
٦٨	من شؤون الاحاد
٧٢	ذلكم الله ربكم
٧٩	الانسان ومركزه في الكون
٨٥	ما لهم به علم
٨٦	عندما يتجاوز العلم قدره
٨٧	دارون ومذهبه
٨٨	أثر نظرية دارون في المجتمع
٩٠	موجات من الاحاد
٩١	يا حسرة على العباد - الكنيسة تساعد على الاحاد ...
٩٤	واقف مؤسف
١٠٢	الكون ساحة لنشاط الانسان
١٠٧	بين الانسان والكون
١٠٩	أزمة الضمير الغربي
١١٠	من ايجاء آية الاستخلاف
١٤١	قيم حضارية تعبر عنها آية الاستخلاف

الباب الثالث

١٤٥	حضارات قديمة وصفها القرآن
١٤٨	الأديان والمادة
١٥٠	نظرات على حضارات العالم قبل القرآن
١٥٤	قضايا حضارية

الصفحة	الموضوع
١٥٦	حضارة عاد
١٦٣	حضارات ثمود - عناصرها
١٦٧	رواية لها مغزى
١٦٨	حضارة داود عليه السلام
١٧٣	ملامح تلك الحضارات وأسرارها وعناصرها
١٧٧	تأملات حضارية
١٨٤	مع الحضارة السليمانية
١٨٧	حضارة صناعة وعمل
١٨٨	عنصر الإعجاز في تلك الحضارة
١٩٤	من روائع الحضارة السبئية
١٩٧	قصة خالدة أو رحلة الايمان
١٩٨	بين بلقيس وسليمان
٢٠٢	من معالم الحضارة السبئية - سد مأرب
٢٠٥	القرآن والحضارة السبئية
٢٠٩	عظة وعبرة

الباب الرابع

العالم قبل القرآن

٢١١	نظرة على العالم في القرنين السادس والسابع الميلاديين
٢١٢	الأديان السماوية والحياة
٢١٦	مثالب ونقائص
٢٢٠	واقع تاريخي مؤلم
٢٢١	تدخل سياسي
٢٢٣	انحلال يتمشى في كيان الامبراطورية الرومانية

٢٢٤	أوروبا في ذلك الوقت - اليهود على مسرح الأحداث
٢٢٥	بين اليهود والمسيحيين
٢٢٨	ماذا عن فارس في ذلك الوقت؟!
٢٢٩	مجتمع منحل - ماني يثور على اليهودية
٢٣٢	عبادة الذات
٢٣٣	دروس من السماء!!
٢٣٧	ماذا عن الصين؟!
٢٣٩	ماذا عن الهند؟!
٢٤٢	المجتمع العربي في الجاهلية
٢٤٦	البداءة والحضارة عند العرب
٢٤٧	أخلاقهم وطبائعهم
٢٤٩	علومهم ومعارفهم
٢٥١	كلمة ختامية
٢٥٣	مراجع الكتاب

رقم الايداع ٨٤/٤٢١٥

دار الفتح الاسلامى للطباعة

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦	٣	ونالهما	ما نالهما
٢٢	٧	قطببت	قطببت
٢٧	١٦	(٧٣٣-٧٠٨ هـ)	(٧٣٣-٨٠٧ هـ)
٢٩	١	لظالمين	الظالمين
٢٩	١٨	النقص	التقصي
٣١	٥	وادساتير	والدساتير
٣١	٣-	يستوعبها	يستوعبها
٣٣	١٣	مقومتها	مقوماتها
٤٤	٤-	يتوفروا	يتظاهروا
٤٧	٥-	يتميز	يميز
٥٠	٢-	الظلمات	الظلمات
٥١	٥-	الالهية	الالهية
٥٣	١٠	الفطره	الفطره
٥٥	٣	ينتالها	ينتالها
٧٨	١١	الفطره	الفطره
٧٩	٨	كرا هلهم	كوا هلهم
٧٩	١٥	بيديه	بيديه
٨٤	١١	وتركيها	وتركيها
٨٤	١٤	النبعيه	النبعيه
٨٥	١	والأض	والأرض
٨٦	٨-	أتى	اللتى
٨٨	٣	لاولى	الاولى
٨٩	٩	ومنى	ومتى
٩٠	١٠	مسسله	سلسله
٩٤	٢-	لقيودا	ليقودا
٩٥	٢	يعيشه	يعيشه
١٠٤	١٦	علبنا	علينا
١٠٧	١٠	يتفاعله	بتفاعله
١١٥	٨-	شخصيه	شخصه
١٢٠	٥	سبيلها	سبيلها
١٢٣	١٦	للشر	الشر
١٢٣	٤-	انسانيه	انسانيته

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٤	١٥	الحرام	الحرم
١٢٥	١٥	من	من الله
١٢٦	٩	بتوقيف	بتوفيق
١٢٨	١١	وحققت	وحقت
١٢٩	١٦	الملائيه	الملائكة
١٣٣	(٢) الهامش	(آيتا ١١٨ ، ١١٩ سورة طه)	
١٣٤	١٢	الفقنه	الفتنة
١٣٩	٤—	وقوله	وقواه
١٤٠	٧	أنو	النمو
١٤٧	الآخر	المعدله	العداله
١٤٨	٥	مبتهجه	بمنهجه
١٤٨	٧	هبوت	هبوط
١٤٨	الآخر	عنصر	عنصر
١٥٤	٢—	متألفه	منألفة
١٥٨	٦—	فعل	فعل
١٦٠	٢	جنت	جنات
١٦٩	٢—	قامنا	قامتا
١٧٦	١٣	ذك	ذلك
١٧٨	١٤	لصلحا	لصلحية
١٧٩	٧—	وجيل آتئها	وجبل لأنهما
١٧٩	السطر الخامس من أسفل زائد ويشطب		
١٨٠	الآخر	عنها عنها	عنها
١٨٤	٩—	وقله	وقال
١٨٤	٨—	افصل	الفضل
١٨٥	٤	عى	على
١٨٧	٦	وم	ولم
١٩٢	١٦	له	لم
١٩٤	١٢	ففرورا الله	ففرورا إلى الله
١٩٦	٧—	فنيونا	فنيويا
١٩٧	١٦	ويسملها	ويسلمها
٢٠٣	٤	فقتمه	فقائمه
٢٠٣	٤	صنعها	صانعها
٢٠٤	١	لس	ليس
٢٠٦	٣—	قا	قال

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠٧	٢—	وغازب	وغازت
٢٠٨	٧	خصبه	خصبه
٢٠٨	٧—	فها	فيها
٢٠٩	١٣	البدهي	البدهي
٢١١	٩—	بعدن	بعسد أن
٢١٥		الهامش (٣)	آية ٢٠ سورة التوبة
٢١٥		الهامش (٤)	آية ٧٣ سورة المائدة
٢١٦	٢	واتخذنا	واتخذنا
٢١٦	٧	التبيان	البيان
٢١٩	٨—	برائن	برائن
٢٢٢	٧—	نريا	نظريا
٢٢٦	١٣	النكابه	النكايه
٢٢٨	٦	يتسمون	يقتسمون
٢٢٨	١٤	ظلمنا وفجرنا	ظلماتنا وضلنا
٢٢٩	١٥	يتنص	يتنصر
٢٢٩	٣—	خايفه	خليقه
٢٣٠	٦—	رهينه	رهينه
٢٣٠	٤—	لا ترتضى	لا نرتضى
٢٣١	٣—	قبار	قبار
٢٣١		الأخير المنذرين	المنذر بن
٢٣٢	١٦	معظا	معظما
٢٣٤		السطرين ٧٦٦ يرفعا الى أول الصفحة ليصير السطر ١ هو ٣	
٢٣٥	١٥	قلقنه	فلقنه
٢٣٥	٢—	رغم نه	رغم أنه
٢٣٧	٦—	الحميده	الحميده
٢٣٨	٩	شئونها	شئونها
٢٤٧	١٥	قناده	قتاده

إذا سبق — رقم الصفحة تعدد الأسطر من أسفل الصفحة
أخى الكريم . . رجاء تصحيح نسختك من هذه الأخطاء المطبعية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

حقوق الطبع محفوظة

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب 61 هليوبوليس

قِيمَتُ حَضَارَتِنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

العالم الذى صنعهُ القرآن

تأليف

نوفيق محمد سبع

الجزء الثانى

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ٦١ هليوبولس

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفه ، فقد ذهني مجلس مع لفيف من الأخوة ذات ليلة - وكنا حين نلتقى نتحدث في كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويلا فيما بيننا ، وكان لنا صديق مفتون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقرأ من أفكار حول الغرب وتقدمه ، ونهضته العلمية الشاملة .. وينهى حديثه بعبارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها .. حتى عرف بها .. وهي قوله : لا بد أن نكون منصفين - ونعترف بأننا استفدنا الكثير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا في هذه الأفكار ونؤكد له أن حضارة أوروبا مقتبسة من حضارة المسلمين .. يوم أتيجت لهم فرص التلاقى مع الشرق في فترات من الزمن أخصبها فترة الفتح الأندلسي الإسلامي .. الذي جعل أوروبا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا، وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التي ارتادها لفيف من الدارسين الأوروبيين .. وتلك حقيقة يقترنون هم بها .. بل ويتغنون بآثارها !!

هذا هو القول الحق !!

كنت أجلس بين المتناقشين صامتا لا أتكلم ، هادئا لا أتوثب - ولكن عقلي كان يشتعل ، وذهني كان يستوعب آراء

هؤلاء وهؤلاء .. كان يرتب المقدمات ويسنخلص النتائج ، في
عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ..

وقلت لنفسي : لم لا أكتب في موضوع كهذا .. لأوقع
الحيث عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها؟! ثم عقدت العزم
وانطلقت في المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد .. حتى امتلأت ..
ثم جاشت هذه الأفكار في نفسي وتحفزت للظهور .. فاعتمدت
على الله !! وشرعت أكتب .. وكان مقدرًا ان أصدر جزءًا واحدًا ،
أستوحى مادته من القرآن .. ولكن القدر هيا فرصة الإقامة
بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرًا .. فكان ذلك
مددًا غمرني بما لم أكن أتوقع من فكر ومعرفة .. وأمام هذا
الإلهام الغامر كتب جزأين وقدمتهما الى مجمع البحوث
الإسلامية بالأزهر الشريف ..

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفور له المرحوم الدكتور
محمد عبد الرحمن بيصار - أمين المجمع يومذاك .. والذي صار
فيما بعد شيخًا للأزهر - حتى أصدر أمره بتقديم الجزأين
كليهما الى المطبعة - وقدم لهما بقلمه الخصيب !! فما حل شهر
جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !!

وتقبلهما الناس بقبول حسن .. وأخذوا حظهما من الثناء ،
والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص
على إعادة طبع هذا الكتاب .. واليوم .. وقد تهيأت الأسباب
أجدنى سعيدًا كل السعادة بإعادة الطبع ليبرز الكتاب في ثوب
جديد .. وقد أضيفت اليه بعض الأفكار .. وتم تنظيمه على
نحو بديع .. وهأنذا أقدمه هدية الى الشهاب الظامى الى
المعرفة ليجد فيه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضد آفات
الغزو الفكرى والعقدى .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح له ، لقاء ما بذلت في
تأليفه من جهد ، وهو حسبي ونعم الوكيل ٥

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المملكة العربية السعودية - الرياض في غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ

يونيو سنة ١٩٨٤ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

- الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا
- فاستقام على جادته أجيال والتزموا • وكانوا رواد هدى
- وكان مجتمعهم هو المثال الأتقى والانتقى •

وصلوات الله وسلامه على سيدنا رسول الله • محمد بن
عبد الله • أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيرا • ففتح الله
به أعينا عميا • وقلوبا غلقا • وأذانا صما • تقدموا ركب
الانسانية في مسيرتها فقادوها الى مرفأ الأمن في نور القرآن :

وبعد •

فمما لا جدال فيه أن العالم كله مشرقا ومغربا قبل اشراق
القرآن كان يعاني من الاضطراب غايته : سادة مستبدون •
وعبيد مرهقون • أخلاق هابطة • وقيم مؤرقة • قهر سادر •
وحقوق مضيعة •

وأينما ولي الانسان وجهه ونظر ناحية من أرض الله
الواسعة • لاتقع عينه الا على مأساة انسانية • ولا يرتد طرفه
الا بما يملأ صدره ألما وهما •

ذلك ماكان • وماسجله التاريخ • لا يستطيع مكابر أن
يمازى فيه •

وثناء الله الرحيم بعباده أن ينزل القرآن خاتم الكتب على
سيدنا محمد خاتم الرسل • فيبشر به • ويهدى اليه حتى قامت
دولة الاسلام على أقوى ما تقوم دولة من دعائم • أرسى
قواعدها هدى رب العالمين الذى يعلم ما يصلح عليه خلقهم وما
يسعدهم ويثرى حياتهم الدنيا التى جعلها سبحانه معبرا الى
حياة أخرى أرحب وأوسع •

وانتبه التاريخ الراصد الى قيام تلك الدولة التى سجل
لها فى أزهى صفحاته مالم يسجل لدولة من قبل •

ومنتهى اليقين أن التاريخ كان مبهورا وهو يسجل أمجاد
الدولة الاسلامية • اذ كان يسجل فيما يسجل واقعا حضاريا
بأدق ما تحمل كلمة الحضارة من معان وأبعاد •

ذلك أن التاريخ يفقه حق الفقه أن الحضارة فى مفهومها
الصادق تعنى أول ما تعنى تحقيق انسانية الانسان •

وانسانية الانسان فى التحليل الأمين هى كرامته وأمنه
وتفاعل فكره وعقله مع ما خلق الله لاستنباط ما يشبع حاجته •
وانشاء ما يعبر عن وجوده فى سيرة الأجيال على طريق الحياة •

وتوخى هذه المعادلة الرشيدة كانت طابع الحضارة التى
أقامها المسلمون على هدى القرآن • فكانت بحق حضارة
انسانية • كرم فى ظلالها الانسان • وأمن وسعد وأثرى بها
الحياة أيضا •

ولعل المقارنة المنصفة بين الحضارة التي قامت على قواعد القرآن وهداه * والحضارة المعاصرة التي روعت الانسان واضطربت بها حياته وشفيت تنتهي بالمفكرين الصادقين الذين يبتغون خير الانسان وأمنه الى التمهّل المطمئن والتعقل المتزن لاختيار الطريق الأمثل لمسيرة الانسان *

وليس الطريق الأمثل الا طريق القرآن * وقد جرب فسعد *
والتجربة هي المعيار الأصيل ولسان الحق الذي لا ريب فيه *

وكتاب « قيم حضارية في القرآن الكريم » للأستاذ « توفيق محمد سبع » الذي نقدم له يعالج القيم الحضارية في القرآن الكريم * ويبرز أبعادها مادية وروحية *

نسأل الله العليّ القدير أن ينفع به في مسيرتنا الموفقة
بأذن الله على طريق العلم والايمان وهو سبحانه الموفق والهادي
الى أقوم سبيل ٥

دكتور : محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

مقدمة المؤلف

الحمد لله أغنق النعم على الانسان - وعلماء الحكمة والبيان
- والصلاة والسلام على رسول الله - محمد بن عبد الله -
استثمر خصائص الانسان في بناء مجتمع أفضل * * وتأسيس
حضارة أمثل * * تجد فيها الانسانية المعذبة أمنها وسعادتها * *
وتمضى بها قدماً الى صراط العزيز الحميد *

فقد كنت مولعاً منذ الصبا الباكر بقراءة المؤلفات الكثيرة
التي تتناول شرح الحضارة الاسلامية * * ونوازن بينها وبين
الحضارات القديمة والحديثة * * وكنت أحس بالمتعة والسعادة
عندما أقرأ الاجماع الرائع على أن حضارة الاسلام هي حضارة
التقدم الانساني والعالمي * * لأنها تحترم خصائص الانسان -
وتطلق يده في بناء الحياة مستهدياً بمنهج الله - الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه * * ولأنها لم توضع لجنس من
البشر ولا لبقعة من الأرض وانما وضعت للحياة كلها
والانسانية جميعها من غير تمييز ولا تفرق * * ولأنها ليست
حضارة ثرثرة وكلام * * وانما حضارة عمل ونظام * * تجد
فيها البشرية تحقيق ذاتها - وتمثيل ميولها ونزعاتها * *
وشحذ مواهبها وملكاتهما لتملاً رحاب الحياة بالعمل المثمر -
والجهاد البناء * * وكنت أشعر بأن الحديث عن هذه الحضارة
لا يحتاج من الباحثين الى الأدلة الكثيرة ليثبتوا هذه المعانى * *
لأن هذه الحضارة قد تحققت فعلاً في واقع الحياة - وعاشتها
البشرية تجربة خصبة غنية تتطلع اليها الدنيا في تلك الآونة
كما تتطلع الى الفجر المنبثق من خلال الظلام * * أو الى الأمل
النابع من قطوب اليأس *

ومع تقديري لكل الجهود المبذولة في هذا الصدد واستفادتي منها الا أنني كنت دائم التطلع الى كتابة من طراز جديد . .
كنت مشوقا أن أرى عنوانا لكتاب جديد يحدثني مباشرة عن حضارة القرآن . . مقوماتها - عناصرها - آثارها . .
خصائصها !! بحيث يعطى تحليلا وقعيا للعالم الذي صنعه القرآن .

نعم : كنت متحمسا لمثل هذا الكتاب الذي يعالج بالبحث الدقيق - القيم الحضارية في القرآن الكريم - ويبرز جوانبها المادية والروحية ويحل الأسس الكريمة التي قامت عليها - والأخلاقيات السامية التي اتسمت بها - والذوقيات الرفيعة التي صقلت مشاعر البدو الجفاة فصنعت منهم تلك النماذج الفريدة في تاريخ البشرية والتي وصفها الحق تبارك وتعالى بقوله : [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] .

كنت مشغوقا بكتاب يركز الأضواء على تلك الدفعة الحضارية الرائعة التي أمد بها القرآن الحياة والأحياء . . يوم كان الناس عبيدا أرقاء فأصبحوا بفضل القرآن سادة كرماء !!

وكنت أحس بأن على الكتاب أن يستمدوا في هذا الموضوع من كتاب الله الخالد مباشرة ويستقوا من نبعه الطهور - ليقدّموا لتلك الفترة الضالة من حياة البشر نموذج حضارة عصرية متكاملة تقوم على العلم والايمان وتنقذ البشر كما أنقذته أول مرة .

ودراسة كهذه تكون بالغة الأهمية !!

(١) آية ١١٠ آل عمران .

لأن هذه القيم الحضارية - حين تلتبس في القرآن . .
وتستمد منه مباشرة فإنها ستمنحنا الثقة - وتثبت في قلوبنا
العزم ونقبل على تطبيقها بمنتهى الأذعان والحزم !!

وذاك أجدى علينا من أن نلتبس الدراسات في كتب
التاريخ . . فتتوزعنا دوربه ومنعطفاته وتصلنا شعابه
ومنحنياته . . ونعود في خاتمة المطاف بما لا يطمئن قلبا - ولا
يريح ضميرا لأنه - مهما يبلغ من الدقة والتحري - كلام
يصدق أو يكذب !!

وعملية البناء الحضارى - لاتتم كما ينبغى الا يوم تثق
البشرية في صدق التوجيه وسلامة الأساس . . وان منهجا
يضعه رب الناس لهو المنهج الحق . . الذى تتقبله البشرية
بكل الجد . . وتجد فيه مايلئم طبيعتها سواء في غرائزها
الفطرية - أو في أشواقها المتسامية - وصدق الله العظيم اذ
يقول : « هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة في
بطون أمهاتكم » .

هذا العلم الدقيق المستوعب هو الذى يضع للبشرية دستور
حضارتها - ومنهج سيادتها . . لأنه موضوع على علم
وبصيرة . . ولن تستطيع مناهج البشر أن تنهض بهذه
التبعات . . لأنها تجهل طبيعة الانسان - واحتياجاته - كما
تجهل ميوله واستعداداته . . ومايزال هذا الانسان رغم
تطور الدراسات العلمية لغزا عصيا من أين جاءه علم البشر ؟
وجد جهلا كثيفا وحجبا صفيقة - وماخفى من أمر الانسان
أكثر مما عرف .

(1) آية ٣٢ سورة النجم .

ان هذا المنهج الرباني الموثق بكل ضمانات القوة والفاعلية
قد احتواه القرآن الكريم ويوم نتجه اليه لاستجلاء أنواره
وأسراره فسيقضى اليها بالكثير .

ويوم تتجه عزائم المسلمين لتطبيق شريعته وأحكامه
فسيصنع لهم عالما ربانيا موحد القلب والفكر والشعور والعمل،
يسوده نظام واحد وتسرى فيه نغمة واحدة .

وتلك أمنية غالية على قلب كل مسلم يهفو اليها من
الأعماق . . . لتنفذ حياة البشر من التشرذم والضياع . . . وتعيد
الى العالم تلك التجربة الحضارية التي عاشها محمد صلى الله
عليه وسلم والذين معه . . . فاستنقذت حياة البشر من الجاهلية
الأولى وصنعت مجتمعا انسانيا كريما عز فيه الذليل - وطعم
الجائع - وتعلم الجاهل وازدهرت آمال الحياة ، فأشرقت
بنور الله !!

وما أحوج المسلمين . . . بل ما أحوج البشرية جمعاء الى
منهج كهذا . . . في وقت ذلت فيه كرامة الحياة وامتهدت
خصائص الانسان . . . وعاش ظامىء الروح والوجدان بين
حضارة مادية حيوانية . لا ترعى فيه الا ولا ذمة . . . بعد أن
سلبته دينه وعقيدته وتركته نهبا للهواجس والهجوم وفريسة
للقلق والضياع تمزقه الحيرة وتضنيه الحسرة وتعنصره الآلام
وهو يشهد مصرع الحياة على أيدي « المتحضرين » القساسة . . .
بل الغواية الذين راحوا يفزعون البشرية ويؤرقون حياتها
ويشردون وجودها ويضعونها كل لحظة على فوهة بركان تائر
يهدد بالضمم ويقذف بالحمم وينذر بالويل والثبور !!

ولم يستطع ترف الحضارة المادية أن يسرى عن الانسان
. . . بل ان الذين يعيشون في قلب تلك الحضارة قوم تعساء

لأنهم غرباء بين معالم تلك الحضارة يحملون روحا ضالة تائهة
وانهم لفي ظمأ الى سكينه الروح .. وهدوء المشاعر .. انهم
في احتياج الى حضارة القرآن لا الى حضارة الرجل الأبيض
أو الرجل الأحمر !!

وان فطرة الانسان كما برأها ربه مادة وروح فلا بد من
حضارة تنهض بهما معاً ، وتلائم بينهما ملاءمة دقيقة ، أما أن
تطغى المادة على الروح فتلك هي الحيوانية الفاجرة .. واذا
ما طغت الروح على المادة فتلك هي الرهبانية الخائفة التي
تفر من الحياة .. وتأخذ منها موقفاً سلبياً ، وما بهذا أمر الله !!

والاسلام في منهجه السديد ينهض بفطرة الانسان مادة
وروحاً .. فيجعل قلبه دائماً زاخراً بالايمان وضميره موصولاً
بالله ثم يطلق يده في بناء الحياة .. انه يتعهد الانسان ببناء
داخله ليبنى العالم من خارجه .. ويجعل من ايمانه الايجابي
رقيباً عليه وهو يمارس دوره في بناء الحياة .. هكذا الاسلام
في منهجه : ايمان يحرس الحياة .. وعمل جاد يترجم عن
العقيدة وعلم متخصص يخطط لذلك كله .. وبذلك تستجمع
هذه الحضارة خصائص رفيعة من عقيدة تنير القلب - وعلم
يشحذ العقل - وعمل يبني الحياة .. وضمير يراقب الله .

وفي هذا الجزء من الكتاب - وهو الجزء الثاني - تحدثت
عن البعث الجديد وخصائصه .. وكشفت عن أسرار الخالدة
التي تمكنت في أقصر فترة من عمر الزمن أن تنشئ عالماً
ربانياً ترفرف عليه راية الهدى والسلام .. وأن تستنقذ الفطرة
الانسانية من قبضة الشيطان لتعيد اليها صفاءها وبهاءها ..
ثم تطلقها تعمل وتدأب على عين الله !!

ثم انتقلت بعد ذلك الى توضيح معالم حضارة القرآن -
وشرح مقوماتها - وتحليل عناصرها الأصيلة وقيمها الرفيعة ..
التي صنعت انسان القرآن .. ثم عالم القرآن .

وكان لابد لي أن أتحدث عما أحدثته هذه الحضارة من أثر
عالمى .. وما أفادته منها أوروبا بالذات من علم ومعرفة .. وما
أسدته الى العالم كله من سعادة وتقدم .. وكيف أن الحياة قد
وجدت كرامتها الضائعة .. وانسانيتها الضالة .. وايمانها
بالله .. فمضت في ضياء عقيدتها تبني عالمها المثالى على تقوى
من الله ورضوان !! .. وتابعت المسيرة الحضارية الجليلة حتى
فترة التآلق والازدهار .

وبينت بعد ذلك كيف بدأت تلك الحضارة تنزلق عن
مرقاها العالى حين مال أصحابها الى الترف .. واستسلموا
لدواعيه .. ثم ما كان من انقضاض العالم الكافر عليها ..
ليحتجب ضيؤها عن الحياة فتتمكن حضارتهم الفاجرة من
جذب العالم الى الجاهلية مرة أخرى .

لقد فصلت هذه العوامل - التى أدت بالتدريج الى اسقاط
هذه الحضارة المثالية - ثم وضحت بعد ذلك سبيل الخلاص ..
ورددت على مسامح الامة التائهة برنامج عمل حضارى رائع
متمثلا في خطبة الوداع التى بدأ فيها رسول الله - قائد تلك
الحضارة - وكنما يبصر واقعنا المرير اليوم .. ويرى ما تعانيه
حضارتنا من كيد أعدائها .. وضعف أبنائها فأطلقها فى أرجاء
الدنيا وعلى مسامح نحو مائة ألف من المسلمين .. احتشدوا فى
عرفات ليأخذوا عن نبيهم :

« أيها الناس !! انى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم
تضلوا بعدى .. كتاب الله !! » .

نعم أيها الرسول الكريم .. ان محنة المسلمين اليوم تكمن
فى انفصالهم عن كتاب الله .

ومن هنا تبدأ المأساة .. ولن تسترد هذه الأمة مجدها ..
الا يوم ترتبط بكتاب الله .. تطبيقا لنظامه ، وتنفيذا لأحكامه
.. وسيرا على هداه .. ولن يصلح آخر أمرنا الا بما صلح به
أوله بذلك .. وبذلك فقط تبدأ حضارتنا من جديد .. ولن يجد
العالم كله شرقيه أو غربيه أسعد من تحقيق هذه الفرصة
المباركة .. ليعيشوا مع انسانياتهم في وئام !!

وقد يكون من يمن الطالع - أن تخرج هذه الدراسة - في
تلك الفترة الرائعة التي تقوم فيها مصر المؤمنة .. قلب العالم
الاسلامى .. ومهد الفكر المستنير .. ومقر الأزهر الشريف
ببناء دولة العلم والايمان .. وان هذه الدراسة .. اشارة
ضوئية على هذا الطريق .. تقدم المنهج .. وتعطي الدليل ..
عسى الله أن يجعل من بلدنا الطيب .. نواة حضارة قرآنية
عالمية تقوم على العلم والايمان .. وما ذلك على الله بعزيز *

وستظل المملكة العربية السعودية باستمرار عامل جذب
للاسلام وحضارته ..

وأملى في الله كبير - أن ينفع بهذا الجزء من الكتاب ..
على قدر النية الطيبة في تأليفه ونشره .. وأن يؤنس به
وحشتى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم؟

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بجامعة الامام محمد بن سعود

الاسلامية

الأسباب الأولى البعث الجديد

أسراره وعجائبه :

لم يكن معقولا أن تنسدل ستائر الظلام على الكون فتلف الحياة والأحياء - أكثر مما وصلت اليه في تلك الفترة القاسية التي سبقت مبعث محمد صلى الله عليه وسلم * * ونزول القرآن الكريم * * ولم يكن معقولا ولا منصوراً أن تتقلص « انسانية » البشر وتتكشم كما تقلصت وانكشفت في تلك الفترة الرهيبة * * كما لم يكن مستساغاً أن ينطمس نور الفطرة ويختفى وهجها المشع - وتتراكم عليها مخلفات القرون البالية - وتقاليد البيئات الساقطة - وأوزار المذاهب الأرضية كما حدث في ذلك الوقت بالذات * *

لقد تحول العالم كله الى فساد وأسلم زمامه للشيطان يفقد مسيرته ويضلل خطاه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (١) » لهذا كله كانت البشرية تتطلع في شتى الآفاق - وقد شاقها - أن تمارس انسانيتها الهدرة الضائعة - وأن تورد اليها كرامتها السلبية * * منتظرة بزوغ فجر جديد يجيي الآمال المهيضة - ويطلب القلوب المريضة ويضع حدا لهوان الانسان !!

(١) آية ٤١ من سورة الروم *

والله سبحانه قد يترك البشر لأنفسهم في بعض الفترات التاريخية . . تتلقفهم فيها غوائل الحيرة - وتستبد بهم عوامل القلق وتتخطفهم هواجس الشك . . ويقوى نزوعهم وتطلعهم الى هدايات السماء . . ليذكروا نعم الله عليهم بإرسال الرسل ، وانزال الكتب ، وتوضيح السبل ، واعطاء المنهج والدليل . .

وهي نعم جلييلة - تستدعى الشكر - وتستوجب الثناء - وتتقاضى الانسانية أن تظل ذاكرة لا تنسى - شاكرة لا تذهل - عارفة لا تجهل حتى تدوم النعم - وتطرد الامدادات !! ولكن سبحانه - وهو الرحيم بعباده - لا يؤاخذهم في فترات التيه - على ضلال وقع منهم - أو انحراف صدر عنهم - لأنه بهم رؤوف رحيم . .

وانه جل جلاله ليطمئننا على ذلك - ويؤكد لنا تلك الرحمة ليزرع الأمل في النفوس ويقر الهداية في القلوب . . ويملاً الأفق حول الانسانية الضعيفة بدواعي الثقة والرجاء فيقول جل شأنه : [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١)] .

ويقول سبحانه موضحا الحكمة العالية في ارسال الرسل : [ليهلك من هلك عن بينة - ويحيى من حي عن بينة (٢)] . . .

ويصرح القرآن بأن على رأس هذه الحكم كلها - أن تنقطع حجة الناس على الله [لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٣)] .

-
- (١) آية ١٥ سورة الاسراء .
 - (٢) آية ٤٢ سورة الأنفال .
 - (٣) آية ١٦٥ سورة النساء .

وهناك حقيقة كبرى تفرض نفسها على الموقف . . . وهي أن
البشر عاجزون عن ادراك الايمان ككل . . . وبخاصة ماكان
مرتبطا بالجزاء والبعث واليوم الآخر كله وقضاياها . . . والرسائل
هم الذين يقودون البشر قيادة حكيمة - على أساس من الايمان
الصحيح . . . والاعتقاد الجازم في حقائق الايمان كله . . . سواء
منها مايتعلق بعالم الشهادة - أو عالم الغيب . . . قد يستطيع
البشر - أن يتوصلوا الى نظم تكفل لهم الراحة . . . وتقودهم
الى الفضائل وتربطهم بالحق والخير - وقد يستقل العقل
البشرى بفهم هذه الأمور . . .

لكنه يعجز العجز كله عن فهم العالم الآخر . . . وعن معرفة
صفات الله . . . وكلها مسائل على جانب خطير من الأهمية
لتصحيح نظرة الانسان الى الحياة - وتحديد هدفه فيها . . .
فمن أين للبشرية أن تستقنى لتصل الى هذه المعارف ؟ !

لقد ضلت الفلسفة ضلالا بعيدا حين وضعت نفسها في هذا
الموضوع . . . وجاءت بما لا يستقيم في عقل أو يستساغ في
منطق . . . وزادت من شقاء الانسان وحيرته . . . وصاغت له
المعاني صياغة معقدة . . . أما الأديان فانها تقدم المعرفة عن هذه
الامور في بساطة ويسر وبطريقة سهلة مقبولة . . . وبصيغة
نهائية لا تقبل شكاً أو جدلاً . . .

ولو ترك الناس لعقولهم - على المدى الطويل - لانعكست
الحقائق في عالمهم - وضلت تصوراتهم ضلالا بعيدا . . .
أما ترك البشر من غير رسالة لمدة معينة . . . فقد حدثت
بالفعل - وقد يكون من وراء ذلك حكمة أعلى من ادراكنا . . .
وأكبر من عقولنا - فان الانسان عندما ينصهر في جو القلق
والحيرة والشك في تلك الفترات الخاطفة من عمر التاريخ . . .

يدعوه ذلك الى استخدام عقله واستعمال فطرته - والاستنصاء
بفكره - وهى عناصر من نعم الله - وأفضاله لها نصيبها من
ادراك قيم الخير والشر . . وهو نصيب يكبر أو يتضاءل تبعاً
لاستخدام هذه الطاقات وشحذ قواها ونفض الغبار عنها
واستعمالها فى الادراك والفهم :

قد يكون هذا - هو بعض مراد القدر الالهى من ترك الناس
فى فترة زمنية دون رسالة أو رسول . . لتتخسر فيهم قوى
التفكير المهمة وتتحرك طاقات الوعى المعطلة !! ولكنه -
جل جلاله - لا يترك البشر لأنفسهم طويلاً . . الا ريثما
يعرفون قدرهم . . ويدركون حجمهم - ويقدرّون مدى
احتياجهم لعون الله وهدايته . . فاذا استقرت هذه الحقيقة فى
وجدانهم - جاء فضل الله - كما يجىء الغيث المبارك الى
أرض ظامئة - طال تشوقها الى السقى - وتشوقها الى السقى
- وتشوقها الى الماء . . فتكرع من هذا الفيض الغامر
لتزدهر وتخصب . . وتنبت شتى الأزاهير . . وتتحول الى
بستان نصير .

وهكذا الانسانية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .
كانت الجاهلية تلتفها من كل جانب فى الفكر والتصور ، فى
السلوك والعمل ، فى العقيدة والعبادة . . حتى لقد عبدت
البشر من دون الله . . كانت هذه الانسانية تضرب فى تيه
العماء . . وكانت مشوقة الى رحمة الله ننقذها من ضلال -
وتريحها من كلال . . وترد عليها انسانيتها وكرامتها . .
فلم يطل ترقبها وانتظارها طويلاً بعد أن بلغت ما بلغت من
الانحلال والضياع .

وانما تجلى الله عليها فبعث اليها محمداً صلى الله عليه
وسلم رسولا من نفسها - ونبياً من جنسها - تعرف حيااته

كلها - وتقدر فضائله جميعها .. وتراه بعينها بشرا يغدو
ويروح له من صفات الكمال والنبيل ما يعلى شأنه - ويعظم
قدره .. ويجعله معروفا « بالصادق الأمين » وبهذا يطمئن
قلوبها الخائف - ويسكن فؤادها الواجف - وتستمع الى ما
يصدر عنه بكل الاجلال والتوقير .. وتأخذه بمنتهى الانقياد
والطاعة ..

رسول من أنفسكم :

والى هذا يشير الحق تبارك وتعالى بقوله : [لقد جاءكم
رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم - حريص عليكم -
بالمؤمنين رءوف رحيم (١)] .

فهذه الآية الكريمة من كتاب الله .. منارة تضيء فى ظلام
الحياة التى شقها الفسوق وهدها الظلم .. وأوهنها الطغيان ..
ومزقها الفساد ، ولفها الظلام .. وستظل مرفأ الأمن كلما
اعتكرت الظلمات ، وران على الدنيا ظلم وظلام !! ستظل عامل
الانقاذ لهذه الأمة المسلمة كلما انحرفت عن منهج الله - وهدى
رسوله .. تجد فى العودة الى تعاليم ذلك الرسول ما يرددها
الى الكرامة والأمن .. ويثبت زمام الحضارة فى أيديها !!
ولنتأمل لحظات فى احياء هذه الآية وما تمنحه من عطاء !!

« أولا » : قوله سبحانه : [لقد جاءكم] فيه تكريم
للانسانية - ورعاية لحقها فى الهداية - ومغالة بخصائصها -
حيث جاءها الرسول صلوات الله عليه .. ساعيا الى هدايتها -
داعيا الى رشدها وكرامتها - باذلا أقصى الجهد ليحفظ عليها
فيمتها كيلا تتبدد فى ظلام الجهل .. أو تضيع فى ركاب الجاهلية
.. أو تتلاشى فى ظلال البغى والطغيان ..

(١) آية ١٢٨ سورة التوبة .

والتعبير بقوله سبحانه « جاءكم » يعطى كل هذه الايحاءات
•• فهو صلوات الله عليه قد جاء الى الانسانية المعذبة - على
قدر وموعد •• دون أن تجيء هي اليه •• نعم جاءها رسولا من
رب العالمين •• يحقق لها من وسائل العيش الكريم ، ودواعي
الأمن والسلام ، ومقتضيات الكرامة والعزة ما هي في أمس
الحاجة اليه •• حيث كانت مهددة مضيعة في كل مكان من
أرض الله الواسعة •• تحس بالتمزق والفراغ - وتستشعر
اليأس والمذلة •• وتعانى من القهر والاستعباد ما لا يدخل تحت
حصر •• وبينما هي في ذلك الجو الخانق - واذا برحمة الله
تتجلى عليها فتبعث اليها بالهداية الراشدة •• التى تعصمها
من كل فساد وشر •• فهو الرحمة المهداة - والنعمة المزجاة الى
البشرية جمعاء فهى لم تبحث عن القيادة التى تلتف حولها -
ولم تتكلف مشقة السعى اليها •• ولا مؤنة السؤال عن حقيقة
أمرها •• ولا التدقيق فى المنهج الذى جاءت به •• لم تتحمل
المشقة فى شئ من ذلك •• وانما جاءت بالهداية الراشدة ••
بالمهج القويم من لدن رب العالمين !!

فأية قيمة للانسان أغلى من تلك القيمة !

تجيئه الرسالة الكريمة ساعية اليه •• لتبحث عن مواطن
الخلل فى كيانه - وفى العالم من حوله فتصنحها بيد الله - ومنهج
القرآن •• ودعوة الحق ••

وتلك هى أسمى مظاهر الاعتزاز •• ومن هنا تبرز القيمة
العليا للبيرية •• وأنها كريمة على الله •• لا يجوز أن تستنزل
بالنظم - أو تستعبد بالبشاش ، أو تزدرى بالتحقير •• ولطالما
لقيت الانسانية قبيل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم من
ذلك الاذلال والامتهان •• وان أية حضارة لا تحترم خصائص
الانسان لا يمكن أن تخلص ولا أن تعمر لأن الانسان أهم ركن فى
بناء الحضارة •• وهو عزيز على الله بالاستخلاف ••

ولقد حرص صلوات الله وسلامه عليه - أن يكتسب ثقة
الانسانية من أول لحظة .. لا بالخداع والغش .. بل بالحرص
البالغ على هدايتها - والنصح الكامل لها - والسعى الدائب
لاستنقاذها من الظلام .. وبأدله أصحابه أرق المشاعر وأنبل
الأحاسيس وقدموه على أنفسهم وأموالهم وأولادهم . وبهذه
الثقة المتبادلة تم تشييد الصرح الحضارى على أساس من
الوعى الدقيق - والحب العميق - والطاعة الفاهمة .

وما يزال التاريخ حتى اليوم حائرا في فهم تلك الثقة التي
ترزت في كل الميادين .. حتى لو كلفتهم أن يضحوا بأنفسهم ..
ويقف المستشرقون بالذات أمام حجم هذه الثقة موقف المذهولين
.. يجيء أصحاب الرسول من الجهاد الشاق - ليوجهوا الى
جهاد أشق للتو والساعة فلا يتخلف منهم أحد ، ولا يشذ فرد
واحد .

ويضرب الصديق من أعداء الله ضربا مبرحا يسلمه الى
الاعماء - ويحمل الى بيته - ويعتقد عتبة بن ربيعة ومن معه
من زعماء الشرك أنه قد مات لا محالة .. حتى اذا استفاق
شيئا ما آخر النهار تكون أول كلمة ينطق بها : ما فعل رسول
الله ؟ ويرفض أن يتناول طعاما أو شرابا حتى يعرف ما فعل
رسول الله ؟ وحين يجاب الى سؤاله بأنه سالم صالح لا يكتفى
بذلك بل يصر على أن يذهب بنفسه - وهو في تلك الحالة
ليطمئن عليه .. ويخرج بين أم جميل بنت الخطاب - وبين
أمه .. الى دار الارقم بن أبى الارقم - حتى يدخل على رسول
الله .. وحين يطمئن عليه - يعود صحيحا معافى ويتناول
طعامه !!

وهذا خبيب رضى الله عنه - يرفعه المشركون على الخشبة
ويعنون في تعذيبه . ويقولون له أتحب أن محمدا مكانك ..

فيجيبهم لا والله العظيم .. ما أحب أن يشاك بشوكة في قدمه
ليفديني بها .. فيضحكون عليه ويتركونه .. أي أن خبيثا
يؤثر أن يظل على ما هو عليه من الصلب على الخشبة .. ولا
يشاك محمد بشوكة !!

وامرأة من الأنصار تخرج يوم أحد وقد قتل أبوها وأخوها
وزوجها .. فلا تسأل الا عن رسول الله قائله : ما فعل رسول
الله ؟ فيقولون : خيراً فتقول : أريد أن أنظر اليه فلما اطمأنت
عليه قالت : كل مصيبة بعدك جلل !! « أي يسيرة » ..

ولو ذهبنا نستقصى دلائل التفاني في الحب - لفاتنا
الاستقصاء . فلقد وضعه أصحابه في قلوبهم وعيونهم وحل
منهم محل الروح .. فكان الواحد منهم لا يطيق أن يحرم من
مجلسه ساعات .. ومصدر تلك الثقة يكمن في قوله سبحانه :
[لقد جاءكم رسول .. الخ] .

لقد بادلوه حبا بحب ووفاء بوفاء .. ونجلت هذه الثقة في
أحرج الظروف .. ويأبى الايمان الا أن يكون تضحية وحبا
وبذلا لله وفي الله !!

والخطاب في قوله سبحانه : [لقد جاءكم] للعرب لأن
رسالته بدأت فيهم - وانطلقت من أرضهم .. وقد اتخذ
صلوات الله عليه من ذلك منطلقا عاما لهداية البشرية جمعاء لأن
رسالته شاملة لا تقتصر على العرب .. وانما تنساح في بقاع
الأرض .. كما هو الواقع التاريخي لتلك الدعوة .. فقد اتخذ
منها نواة لبناء حضارة عالمية تقوم على الايمان والعلم ..
وتتجلى خصائصها الربانية للعالم بأسره ولطالما هتف في
البشرية النائمة بقوله : [يأيها الناس انى رسول الله اليكم

جميعها الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى
ويميت (١) [فهى بذلك رسالة ذات أفق عالى ..

« ثانيا » تأمل معى قوله سبحانه : [لقد جاءكم رسول]
يتضح لك أن القيادة الحضارية - لا تكون ذات أثر فعال فى
دنيا الناس - الا اذا كانت ربانية على شكل رسالة سامية
تحمل أزكى التعاليم عن رب السماء .. وبذلك تتوفر لها دواعى
الثقة .. وتتضح أمامها معالم الطريق .. وتتجلى مناهج
الاصلاح .. وتتقبل البشرية منها كل ما تنفله عن الوحي ،
وما تحدث به عن الله ويكون لهذه القيادة أثرها فى احداث
تغييرات نفسانية فى المجتمعات الانسانية .. تشبه التغييرات
التي حدثت فى الطين بعد النفخ فيه من روح الله ..

وتتميز مانهج النبوات بمقدرتها الفذة على التغيير سواء
فى داخل النفس أو فى خارج المجتمع وهم يتخذون من الأول منطلقا
الى الثانى .. لأن النفس اذا زكت من الداخل - استطاعت أن
تبني من الخارج - وأن تنشر الصلاح والاصلاح فى البيئة من
حولها ..

وعندما يتم بناء النفس من الداخل - على أساس من
الفضائل والمثاليات - فانها تغدو أصيلة ذات صبغة ثابتة لا
تتلون - ولا تتغير - ولا تتقلب تبعا للمصالح والشهوات ..
وهذا هو المنهج السديد فى التربية .. لا بد من ربطه بالعقيدة
لينشأ عن ذلك قوة تهيم على وساوس النفس واتجاهاتها .. ولا
تصبح قشورا ملصقة تسقط فى مضطرب الرياح .. أو ألواناً
باهتة تذهب فى ضوء الشمس .. أو خداعاً ولوماً تلبس زى
المصلحة .. ومن هنا فان لقيادة الرسل .. أثرا ضخما فى

(١) آية ١٥٨ سورة الأعراف .

تحويل الحياة - و أحداث التغيرات فيها ، ولقد جاء محمد [صلعم] الى الناس . . وكل شيء في الحياة فاسد . . وكل أوضاعها مقلوبة وكل فجاجها ظلام . . فما لبث أن صنع بالتربية المثالية رجالاً أحراراً صادقين ثم انطلق بهم في رحاب الحياة يصلح الفاسد . . ويقوم المعوج . . وينشئ التقدم . . أى أنه بدأ الإصلاح من نقطة محددة . . وهى « الانسان » وبعد أن استوثق من بناء الانسان . . سهل أمامه اصلاح الحياة . .

ولا شك أن النفس الفاضلة تشيع الفضل فيما حولها من الأرجاء . . وتصنع الكمال للحياة والاحياء . . والقاضى الفاضل يكمل نقص القانون بعدله وفضله .

أما النفس الفاسدة فانها تفسد الحياة من حولها . . وتميل بالقوانين مع شهواتها . . وتستغل كل شيء لصلحتها . ومن هنا فان علينا - أن نبدأ في عملية البناء الحضارى بالانسان نكون ضميره وأخلاقه وفضائله . . ثم نطلقه ليعمل بهذه القيم النظيفة . . ولا يتم ذلك الا بمنهج الله الذى استودعه كل ما تحتاجه حياة البشر - ومصالح العباد .

كل ذلك توحىه كلمة « رسول » لأنها تحدد منهج العمل الحضارى . فهو منهج ربانى . . وليس منهجاً من وضع البشر لأن الرسول لا يقود البشرية الا بمنهج الله . .

كما أن هذه الكلمة توحى الثقة . . وأى ثقة أسمى من الثقة في رسول رب العالمين . . وحين تتم الثقة فسيتم النفع - ويحدث التغيير . . ويوم تنعدم الثقة فلا أمل في اصلاح . . مهما كثرت الدساتير . . والقوانين . .

وتوحى الكلمة أيضاً . . بالبصيرة في الاصلاح . . لأن منهجاً يضعه رب العباد لابد أن يكون مستوعباً لكل احتياجات البشرية ملبياً لجميع مطالبها - محققاً لسعادتها وأمنها . .

كما توحى كذلك بالالتزام .. لأن الرسول القائد لا يملك من أمر هذا المنهج إلا أن يسهر على تطبيقه - وتنفيذه .. والارتباط به - لا يخرج عليه ولا يزيد فيه .. تلك كلها إحياءات طبيعية تمنحها كلمة « رسول » في الآية الكريمة ..

« يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك - وان لم تفعل فما بلغت رسالة (١) » .

« ثالثاً » لنتأمل معاً في قوله سبحانه : [من أنفسكم] ولنتدبر إحياءها .. فماذا تعنى ؟

يقول أبو السعود في تفسيرها : [من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء - أى أشرفكم وأفضلكم] اه ..

وأقول : هذا تكريم جديد للبشرية اثر تكريم .. وتقدير لخصائصها بعد التقدير السابق - ورحمة حانية عليها - ونعمة سابغة عليها لا يمكن وصفا بحال .. ذلك أن القيادة الحضارية لم تجيء غريبة عليها - ولا بعيدة عنها .. وانما جعلها الله رسولا من نفسها ونبياً من جنسها تعرف حياته كلها - وتقدر فضائله جميعها وتراه رأى العين يغدو ويروح بينها .. بما يتحلى به من صدق وأمانة وشرف ونبل وتواضع وبما يحظى به من محبة واجلال .. لقد لقب قبل البعثة بالصادق الأمين .. وتبنى المكرمات النبيلة « كحلف الفضول » الذى كان يقول عنه بعد النبوة : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم » ومن ثقتهم به أن حكموه فى أخطر قضية تهدد وجودهم وهى مسألة وضع الحجر الأسود وما أخذوا عليه نقيصة قط .. ولا مغزاً فى خلق أو سلوك ..

(١) آية ٦٧ سورة المائدة .

فاذا جاءهم هذا الذى عرفوه واطمأنوا الى أخلاقه رسولا من رب العالمين * * فسيأنسون به - ويظهئون اليه * * ويقبلون عليه *

وكلمة من « أنفسكم » تحمل معنى التمازج - والتعانق - والوحدة فهو قطعة منهم وبضعة من نفوسهم * * ومن ثم فهو لن يغرر بهم ولن يخدعهم - ولن يضلهم * * وهل يخدع الانسان نفسه ؟ ! * واذا كانت الوشائج متينة والروابط أصيلة الى هذا الحد فلن يطول بحثهم عنه - ولا تعرفهم عليه - ولا يجهلون منزلته وفضله :

ولهذا كان من رحمة الله الكبرى أن يكون الرسل الكرام من بيئات أقوامهم [والى عاد (١) أخاهم هودا - والى مدين أخاهم (٢) شعيبا - والى ثمود (٣) أخاهم صالحا] *

انه الرفق بالبشرية - على امتداد التاريخ * * حتى لا تتورط في الضلالة !!

ومن هنا كان لابد أن تكون القيادة الحضارية من قلب المجتمعات التى تعمل فيها - لا أن تكون طارئة عليها لأن ذلك * * أدعى الى النفرة منها وعدم الانقياد لها * * أو على الأقل فانه يدعو الى تكلف المشاق فى البحث عن (هوية) القيادة وأخلاقها حتى يتم الأخذ عنها * * والثقة بها *

و اذا كان الرسول عربيا - وكان القرآن عربيا - فان مجال دعوته وساحة حضارته هو العالم بأسره * * وليس المسنم

-
- (١) آية ٦٥ سورة الأعراف .
 - (٢) آية ٨٥ سورة الأعراف .
 - (٣) آية ٧٣ سورة الأعراف .

العربي أكرم على الله من مسلم أعجمي . . لأن التفاضل في
الاسلام وعند الله . . ليس باللون - ولا بالعرق - ولا بالجنس
- بل بالتقوى والعمل الصالح . . « ليس لعربي فضل على
عجمي . . ولا لأبيض فضل على أسود الا بالتقوى » « وان
أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » . . ولن تستطبع أية حضارة
بشرية أن تدعى - مجرد ادعاء - بأنها عالمية لأنها تنتهم فوراً
بالاسراف والجهالة والادعاء . . اذ كيف تجترىء على أن تدعى
لنفسها وضع منهج حضارى يلائم الحياة كلها والانسانية
جميعها ؟ !

انه لن يقدر على ذلك الا رب الانسان . . الذى شاءت
ارادته أن يحقق ذلك بالفعل على يد محمد « صلعم » لتظل
تجربته قمة سامية في أفق الانسانية ترنو اليها بالنظر
الرغيب . . لتحاول الوصول اليها - أو الاقتراب منها . .

ويوم يتم تنفيذ المنهج . . فسيتم لا محالة تحقيق هذا
النمط من الحضارة !!

ان كلمة « من أنفسكم في الآية » تشع كل العواطف
الانسانية النبيلة التى تمنح الثقة فى الداعية . وتجذب القلوب
نحوه وتعطف الأفئدة عليه . . وهل يسع الانسان الا أن يثق
بنفسه - ويقبل عليها - ويكرمها ؟ !

انها بهذا التصور كلمة ذات حساسية عاطفية ترمز الى
فضل الله على الانسانية وتحفز الى حسن الاقتداء والامثال !!
والقراءة الثانية « من أنفسكم » بفتح الفاء من النفاسة -
أى أن الرسول من أنفس القوم وأفضلهم وأشرفهم - وهذا حق .

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

وانه ليوحى مع مامر بأصول « القدوة » أى أن القيادة - لابد
أن تكون « قدوة » لتتعلق بها القلوب . . وتألفها النفوس
وتتمثلها فى العمل والسلوك ، وتقلدها فى كل ما يصدر عنها .

ولعل هذا هو السر فى اخفاق القيادات البشرية لأنها لم
تكن « قدوة » يوماً ما . . والرسول لا شك قدوة رفيعة . .
وانه ليحمل وساماً رفيعاً من رب العزة والجلال تتضاءل أمامه
كل الأوسمة وذاك هو قوله سبحانه يخاطبه : [وانك لعلى
خلق عظيم] .

والبناء الحضارى اذا لا يترك للظروف بل لابد من القيادة .
التي تتوفر لها « القدوة » .

« رابعاً » : قوله سبحانه : [عزيز عليه ما عنتم - حريص
عليكم - بالمؤمنين رؤوف رحيم وتلك كلها صفات تحمل فى
مطاويعها صدق الداعية - واخلاصه فى مداية قومه - وحرصه
على ايمانهم ورحمته بهم - ورقته معهم . . وهكذا تكون
القيادات !!

وتأمل معى قوله سبحانه : [ما عنتم] أى وقعتم فى العنت
أى المشقة والتعب . . فالرسول بهذا التصور الرائع . . يحمل
من العواطف الكريمة للبشرية ما يجعله دائماً يرضى بها على
الحرج ، ويحول بيضاها وبين المشقة . . انه لا يدفع بها الى
المهالك ، والحروب ، ليتخلص منها كما تفعل الدول الحديثة
اليوم . . وكما فعلت القيادات التي سيطرت قبل النبوة . .
فقد ثبت أن البشرية كانت قد هانت عليهم - فدفعوا بها الى
حروب لا هدف لها . . ولا غاية وراءها سوى السيطرة والتسلط
- وسعة الملك وقوة النفوذ . . ومنهم من كان يزوج بالجنود

في الحروب ليتخلص من خطرهما ونفوذها • واليوم حين نرى حروب العالم الحديث نرى أنها لا تخرج عن ذلك • • والآية تؤكد لنا أن الرسول - كان رحيمًا بالإنسانية - حريصًا على أمنها وسلامتها - لا يدفعها لحروب شيطانية • • بل لاحقاق الحق وازهاق الباطل • • ويمضى معها قدما الى المعارك وساحات الجهاد • لتتعلم منه الحرب والسلام معا •

وهذه الآية - يوضعها في آخر سورة التوبة - انما تأتي في السياق بعد آيات القتال والجهاد في سبيل الله - لتبرز هذا الجانب الهام • •

وقد نفهم من عموم قوله « ما عنتم » مع ما مر - أن الرسول كان حريصًا على استنقاذ البشرية من العنت والارهاق والمذلة التي كانت عليها قبل مبعثه • • وأي عنت أشق من أن تمتهن كرامة الانسان - وتحترق آدميته - وتستعبد ذاته - فيسجد للبشر - والحجر - والشجر ؟ ! •

فالآية بهذا التصور - توضح لنا ما كان عليه البشر قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه من مأساة البعد عن الله - والخضوع للبشر وهي مأساة تهدد البشرية في قيمتها الرفيعة التي منحها الله اياها • •

وقوله سبحانه : [حريص عيكم] تؤكد المعاناة الشاقة ، والتجربة القاسية ، التي مارسها محمد صلوات الله عليه في سبيل هداية قومه • • لأن هذا الحرص ، على هداية الإنسانية يستتبع بذل أقصى الطاقة لتحقيق الهدف المنشود - ولقد بلغ الرسول في ذلك درجة عالية جعلت ربه يهدىء قلبه بقوله : [لعلك باخ نفسك ألا يكونوا مؤمنين - ان نشأ ننزل عليهم

من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (١) [وبقوله:] ان عليك الا البلغ (٢) *

ويقول: [وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٣)] *

ويقول [ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء (٤)]
ويقول: [فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٥)] *

كل هذا الكم الهائل من آيات التسليية لماذا؟

لأنه صلوات الله عليه - بما طبع عليه من رحمة * * بل انه الرحمة المرسله - كان يبذل من قلبه ونفسه وروحه في سبيل هداية الناس فوق ما يتحمل البشر * * فأراد الله أن يردده الى القصد والاعتدال حتى لا تتلف نفسه * * صلوات الله وسلامه عليك يارسول الله هذا الايجاء كله يمكن أن يستفاد من الآية * * وكم للقرآن من ايجاء واسع ودقيق يمنح الدلالة - ويعطي الثمرة - ويحفظ الطاقات !!

هذا - وما أحب أن أقف بالآية الكريمة عند الدلالة الضيقة للفظ فأجعل كل مراميها للعرب * * ولكني أفهم - بأن الخطاب أن يكن للعرب فلأن رسالة محمد قد بدأت فيهم * * ولكنها كانت نواة مباركة للحضارة العالمية * *

وكذلك لا أحب أن أقف عند المعنى الضيق « للعتت » وانما أجعله شاملا لما يقوله المفسرون من مشقة الجهاد ومن العنت الذي كان يسود العالم قبل محمد - وبما بذله الرسول الكريم في سبيل ذلك من جهد كبير * *

-
- (١) آية ٣ سورة الشعراء .
(٢) آية ٤٨ سورة الشورى .
(٣) آية ١٠٣ سورة يوسف .
(٤) آية ٢٧٢ سورة البقرة .
(٥) آية ٨ سورة فاطر .

نعم : لقد جاء محمد صلوات الله عليه يحمل مدنية العالم كله - وحضارة الحياة كلها - وسعادة البشر أجمعين - فكان « تمدين » العالم مناط رسالته وجوهر دعوته وأساس هدايته - وهل يتم ذلك الا برسول ومنهج ؟ !

قيادة ومنهج

لا يمكن لحضارة القرآن - أن تتحقق في دنيا الناس الا بقيادة حكيمة - ومنهج رشيد * * * وغاية هذه الحضارة : اسعاد البشرية - وتوجيهها وجهة ربانية * * * لتعبد الله وحده ، وتحيا قوية منيعة * * * وقد تم بالفعل تحقيق هذه الحضارة ، وقيامها على يد القيادات الكريمة المؤيدة بالوحي فقد انحصرت القيادة الكريمة المؤيدة بالوحي فقد انحصرت القيادة كلها في رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته * * * فكان قائداً دينياً * * * وسياسياً - وعسكرياً - وادارياً * * * ووجدت هذه المهام في شخصه النبيل مجالا خصباً فازدهرت وآنتت أكلها وقد استعان بأصحابه الذين رباهم على نهج القرآن - وتعهدهم بروحه فحولهم الى « قيادات » لا صلة بينها وبين نفسها أولاً الا في الجسم * * * نعم لقد أصبح أبو بكر وعمر وعلي وعثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص - وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمر بن العاص وخالد بن الوليد وبلال وعمار وصهيب وغيرهم - أصبحوا خلقاً جديداً بعد أن صبهم الرسول المربي في قالب القرآن وصاغهم صياغة فريدة * * * وخلق منهم شخصيات عالمية لا يستعصى عليها شيء من شئون الدين أو الدنيا فهم زهاد ، وعباد ، وقادة ، وعلماء ، وفقهاء ، ومحدثون ، وسياسيون ، ومحاربون * * * لا تعدم فيهم صفة من صفات الجلال والعظمة * * * وتلك معجزة القرآن وعجائب آثاره في

التربية * * * لقد صار أبو بكر مثلاً بهذه التربية القرآنية
رجل حكم وأمير المسلمين ورأى التاريخ منه العجب ، حين ضرب
بيد قوية على حركة الردة - ونهض بأعباء الحكم بعد الرسول
كأحزم ما يكون الخليفة * * * ووجه الجيوش الإسلامية لتأمين
الحدود وقمع التمرد * * * فأين كانت تلك المواهب قبل أن
يمسها الرسول بتربيته الفريدة ؟ !

وهذا عمر بن الخطاب - الذى كان يرعى الأبل لأبيه
الخطاب وينهره * * * ويمضى بين أقرانه فلا يعملون له أى
حساب * * * ويبدد قوته فى العصبية والخمر * * * اذا به بعد
التربية النبوية يفجأ العالم كله بذلك النمط الفريد من الحكام *
فيؤسس الدولة الإسلامية - ويقهر كسرى وقيصر ، ويبتكر من
النظم الإدارية ما يكون معجزة عصره ، ويحقق العدالة فى ربوع
هذه الدولة الواسعة * * * ويسير الجيوش ويخطط لها * * * وترتفع
سمعته ومكانته حتى يغطى على كل حكام الدنيا وعظمائها * *

فأين كانت تلك المواهب ؟ وهذا خالد بن الوليد لم يكن
له من أثر فى بيئته الضيقة الجاهلة سوى أنه فارس القبيلة * *
كل مواهبه الحربية محصورة فى ذلك النطاق المحلى - لكن
التربية النبوية حين تعهدته وصقلته سلطت عليه الأضواء * *
فبرز سيفاً لامعاً من سيوف الله لا يقوم أمامه شىء الا حصده * *
ورأى التاريخ منه عجائب القيادة العسكرية * * * فسجل له
أروع الصفحات * *

وسلمان الفارسي كان ابناً (لموبدان) فى إحدى القرى
الفارسية * * * ثم أخذ يتقلب فى الرق والعبودية اذا به يفاجئ
أمنته حاكماً جليلاً لعاصمتها * * * وقد كان الى أمس القريب
راعياً من رعاياها ويظل بعد ذلك المجد على ورعه وزهادته لا
يغيره المنصب ولا تخدعه الوظيفة لأنه صناعة قرآنية ، وبلال

الحبشي .. يبلغ في الفضل مبلغاً يجعل عمر بن الخطاب يلقيه
بالسيد .. ويصبح وزير اعلام الاسلام .. فيصدق بصوته
الندى من فوق الكعبة مؤذنا بنهاية عهد الجاهلية وابتداء عهد
الاسلام ، وهذا سالم مولى أبي حذيفة ، يتمنى عمر وهو وجود
بأنفاسه أن لو كان حياً لاستخلفه فيقول :

لو كان سالم حياً لاستخلفته ..

وغيرهم - وغيرهم من نأخذ ومن ندع .. وهم في الفضل
حلقة مفرغة .. تحولت بقدر الله الى معجزات التاريخ -
وقيادات العالم كله .. فسحوا كل نقص - وملأوا كل فراغ ..
ونهضوا بما أسند اليهم من الأعمال بكل كفاءة واقتدار ..
وكان منهم الحكماء الذين تتفجر البلاغة من جوانبهم ..
وينصت التاريخ لأرائهم .. وتستجيب الدنيا لتوجيههم ..
لأن محمداً الرسول رباهم على عينه .. !!

وهكذا - في حياة الرسول .. كان عمله بناء الرجال ..
الذين سيقوم البناء الجديد على سواعدهم فلما قبضه الله اليه ..
لم يحدث الفراغ الذي يزعزع الأمور - ويهزم النظام - ويطمع
الأعداء لان القيادات التي رباهها محمد كانت خليقة أن تسد هذا
الفراغ .. ولأن الايمان بالله ساد الموقف فخسعت الاصوات
للرحمن .. ثم بويح الصديق .. ومن بعده توالت تلك السلسلة
الذهبية من الخلفاء الراشدين الذين قادوا الأمة بمنهج الله -
ومبادئ الرسول - فازدهرت بهم الحضارة القرآنية وآنت
أكلها باذن ربها .. والى هذا تشير الآية الكريمة :

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد(١)» وهذا الكتاب هو القرآن

(١) الآية الاولى من سورة ابراهيم .

الكريم منبع الحضارة الخالدة وأساس الهداية الراشدة -
ودستور الخير والنور .. وقد تجلى أثره في تلك النقلة الجبارة
- وهي اخراج الناس من الظلمات الى النور .. وهي تعنى
انقاذهم من براثن الضلال والهمجية والجهالة والوحشية لتزج
بهم في آفاق النور .. آفاق المدنية الفاضلة والحضارة الكريمة
والقيم النزيهة ، وانما يتم هذا الانقاذ .. وتحدث تلك النقلة
« باذن ربهم » أى بإرادته سبحانه ومتسيئته وبقوانين الحكمة
العالية - التى تلائم فطرة البشر - وتتجاوب مع أرواحهم
ومشاعرهم .. مما يكفل لها البقاء والاستمرار صاعدة وصاعدة
لتظل تعمل عملها فى حياة الناس ووجودهم فالقرآن هو المنهج -
الذى تجد فيه الحضارة الانسانية كل آمالها .. وكل مقوماتها
- وكل قيمها الرفيعة . وكل التجارب الانسانية الواعية ..
وكل الخلاصات المباركة للوحى الالهى الموزع على الأمصار
والاعصار والذى تتحقق بقيادته تلك الملازمة الدقيقة بين المادة
والروح .. فهو لجسم الانسان وروحه - لمسجده ومجتمعه -
لدينه ودنياه - لعبادته وقيادته .. لنظام حكمه - وأصول
عبادته .. لقوانين تشريعه وسياسته .. لنظام حياته كفرد ..
ولعلاقاته بأسرته وجماعته .

وهكذا لا يدع القرآن مجالاً الا ازدهر فيه .. فهو كتاب
الحياة الخالد .. تجد متنفسها الطلق فى رحابه .. وتذوى
زهراتها - ويصوح نباتها ان انفصلت عنه .. وتأبى أحكام
القرآن الا أن تطبق فى رحاب الحياة .. وتأبى الحياة أن ترشد
وتسعد الا بكتاب الله .. وما الفصل بين الدين والسياسة الا
بدعة مجرمة تسلطت على المسيحية قديماً لانطوائها على نفسها
واعتزالها حياة الناس وجنوحها الى السلبية .. وفى ظل ذلك
العجز .. مضت الحياة فى طريقها لا تلوى على الدين ..
وانفصل العلم عنها فما يألّفها .. لأنها قهرته وأفسدته

وسلطت على علمائها الحديد والنار!! •• لكن الاسلام لا يفسح
من الحياة الا مرغماً - ولا يشجع العلم فقط بل يوجبه •• ولذا
كانت سمته الدين والدنيا •• العلم والعمل !!

وفي قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] ايماء الى
أن سبيل الحضارة الراشدة هو طريق الله طريق العزيز الحميد
بكل ما يتطلبه هذا الطريق من بذل الجهد - وادمان السعي -
ومقاومة المعوقات •• وانما تتم الاستقامة على هذا الدرب -
درب العزيز الحميد - بهذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله -
وبغيره لا تتم هذه الاستقامة - وانما يحدث الاختلال
والاضطراب والانحراف والضلال !!

وقد يحاول البشر - كما قدمنا - انشاء نظم حضارية -
أو بتعبير أدق ابتكار دستور حضارى يضمنونه كل متطلباتهم
واحتياجاتهم - وبذلك يستقيمون على طريق الحضارة كما
فعلت وتفعل بعض الأمم قديماً وحديثاً •• ونحن نوكد ••
بأن قوانين البشر ناقصة كما أن عقولهم ناقصة مهما بلغوا من
العلم - لأنهم لم يعرفوا ذلك الانسان حق المعرفة - حتى يضعوا
له ذلك الدستور الذى يلائم روحه - وعقله وطاقته واستعداده
وفطرته وميله ويلبى كل هوائفه ونوازعه وأسواقه •• لأن
الانسان كائن معقد وجهاز مركب •• ماخفى من أمره أكثر مما
ظهر •• كل عصب من أعصابه - بل كل خلية من خلاياه فى
حاجة الى تحليل - حتى تعرف معرفة دقيقة •• وأنى للبشر
جميعاً بهذا الأمر ؟ ! •• •• وهناك عوالم خفية فى الانسان لم
يجترأ العلم حتى وقتنا هذا على أن يقول فى أمرها شيئاً
ووقف حياها عاجزاً كليلاً فكيف يطمع فرد أو أفراد أو جماعة -
أو حتى جيل من العلماء - أن تضع لهذا الانسان دستوراً
حضارياً يلبي كل احتياجاته ومتطلباته •• انه لا يعرف ذلك

الا من خلقه وسواه وركب كل خلية من خلاياه واطلع على سره
ونجواه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١) » •

على أنه من جهته الواقع التاريخي لم نظفر حتى الآن
بقوانين بشرية - ولا بنظم حضارية قد كفلت لأصحابها
السعادة • • وعلى الرغم مما يبدو في بعضها من مظهر خادع • •
فإنها مصابة بشتى الأمراض والعلل • • ولو ذهبنا نفتش في
سوات تلك النظم - وفي انعكاساتها السيئة على مجتمعاتها
لوجدنا مالا يوجد نظيره في البلاد المتخلفة • • انها لم تورث
أصحابها الا الشقاء والحيرة بما تضمنت من مأساة البعد عن
الله • • فقد نزعنا منهم ايمانهم • • ووضعت مكانه ترفا ماديا
رخيصاً - لا يبيل أوام الانسان ولا يروى ظمأ • • لقد أماتت
هذه النظم روحه وأحيت شهواته وجعلته حيواناً منطلقاً !!
وهكذا يصنع البعد عن الله • • لا نستثنى من ذلك أى نظام
بشرى ، شرقى أو غربى ، كله فى الشر سواء !! لأن البشرية فى
ظل هذه النظم تسقى بما آسن وملح أجاج !! بعد ابتعادها عن
نبع الله الطهور • •

على أن هذه النظم - من ناحية أخرى - كثيراً ما يصاحبها
الضعف الانسانى • • الذى يجعلها أداة لخدمة طائفة دون
أخرى ولتحقيق مصالح فريق دون فريق • • وهل يصلح البشر
بمطامعهم وشهواتهم أن يرتفعوا عن المصلحية والنفعة !؟

ولنسأل المجتمع الأمريكى الذى يدعى أنه وصل الى قمة
الديمقراطية والحضارة • • كيف يجعلون القوانين فى خدمة
البييض دون السود • • وكيف يسخرون جندهم فى حروب
مجرمة لمجرد اظهار القوة ابراز العضلات ؟ • • كيف يتحيزون

• (١) آية ١٤ سورة الملك •

في ظل هذه الأنظمة للظلم الصارخ * * فيدعمون الصهيونية العالمية بالمال والسلاح والبشر؟ وهكذا مما لا حصر له !!

أيمكن أن تتصور في ظل حضارة قرآنية مثالب كهذه؟
أيمكن أن تكون الحروب مجرد الاستغلال واستعراض العضلات؟ كيف والقرآن يخاطب أصحابها بقوله: « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » أيمكن أن تكون القوانين لخدمة فريق دون فريق * * كيف والقرآن يخاطبهم: « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة (٢) » ورسولهم يناديهم: « الناس سواسية كأسنان المشط » *

ولقد شهد العالم من عجائب هذه الحضارة ما جعله يتجده اليها طائعا مختارا لينعم بالعدل والحرية والاخاء والمساواة * * تلك المعاني التي كان يسمعها نغما ثم يفتقدها تطبيقاً ونظماً لقد وجدها في ظل الحضارة القرآنية حقائق مجسدة يتمثل فيها الكمال الانساني كله *

ان هذا المنهج الالهي هو الذي يرعى خصائص الانسان - ويحترم انسانيته * * وأما ما عداه من نظم البشر فانها تهدر كرامة الانسان وتستعبد روحه وتلغى طموحه وتبدد أشواقه وتدمر انسانيته وتمرغ كرامته في الأوحال - وهل عرفت الانسان حتى تعترف له بكرامة؟! انها اما أن تحوله الى آله - أو الى حيوان لأنها تجهل طبيعة خصائصه العليا - كما تهمل انسانيته حين تجعله عبداً للآلة - أو أسيراً للشهوات * *

ذاك بعض ما يوحيه التعبير الالهي « كتاب أنزلناه اليك » *

(١) آية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية الأولى من سورة النساء .

من خصائص البعث الجديد

يمكننا في عجالة سريعة أن نستنبط من الآية السابقة بعض خصائص هذا البعث الجديد الذي أحدثه الرسول الكريم في الحياة . . . فهياً لها من النظم الحضارية الرفيعة ما عجزت عن تحقيقه في عصور العلم - والمدنية . . . وماهى الآن في أمس الحاجة اليه لتمارس انسانيته كما أراد لها وبها ، ومن عجب أن تتفجر هذه الحضارة من قلب الصحراء كما ينبجس الماء الصافي من قلب الصخر - لتملأ الحياة خصبا وأملا . . . وتنبث فيها أزاهير الربيع وأنفاسه . . . وتتغدى عليها من البركة والخير والحركة ما يجعلها أمل الحياة وروحها السارى ونظامها المحكم الدقيق وهذه الخصائص الرائعة - لها سمات عامة وملامح واضحة نجملها في :

١ - أن هذا البعث الذى أيقظ النيام وبدد الظلام وكافح الجهالة لم يكن ممكناً ولا مستطاعاً فى أى تصور أن يتم فى هذا الظرف الوجيز - وبذلك السرعة العجيبة - وبهذا الشمول المستوعب - وعلى المستوى العالمى الا بدستور سماوى يضع مواده الذى خلق الانسان وعلمه البيان . . . وأى حضارة تقوم على ظهر الأرض لابد لها من دستور يخطط وجهتها - ويحدد غايتها ويوضح مسارها ويبرز خصائصها ومقوماتها ، والا كانت حضارة عشوائية مضطربة - فهل كان ممكناً لذلك الجهل المتفشى فى العالم أن تنقش سحبه بغير دفعة الهية يمنحها كتاب مقدس لا يتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟! وما يزال العالم كله يعجب العجب كله كيف استطاع محمد بهذا الدستور أن يفجر من قلب

الصحراء حضارة عالمية تعايش الانسانية في أجمل المدن -
وأرقى الحواضر بل تنشىء لها وجوداً حضارياً متميزاً لا يشبهه
نظام هنا أو هناك .. ولا يعتريه خلل في يوم من الأيام .. ولا
يحتاج الى اكمال نقص - أو سد ثغرة أو اضافة جديدة تستدعيها
الحياة .. ولا تبلى نصوصه - أو تهرم فتصبح عاجزة عن
الأداء - أو محتاجة الى الرونق والماء كعهدنا بالنصوص
البشرية حين يتناول عليها الزمن .. بل العجيب حقاً ..
أنها تزداد على الزمن جدة ونضارة وتألّقاً واستيعاباً لمشكلات
الحياة !!

وبهذا الدستور العجيب يبني محمد والذين معه هيكل تلك
الحضارة وهم الجفاة الحفاة رعاة الابل والشاة .. كيف انتقل
هؤلاء بوحي الله - وقيادة رسوله - الى أئمة وهداة من رعاة
غنم الى قادة أمم من مفايك وصعاليك قد استعبدتهم شهواتهم
- الى سادة فضلاء يعلمون الناس الحكمة - ويقودونهم الى
الحق والى صراط مستقيم !! كيف رسموا سياستهم ؟ وبنوا
مجتمعهم ؟ وحاربوا عدوهم وعبدوا ربهم وعبروا مع كل ذلك
عن فطرهم البشرية تعبيراً سوياً متزنأً .. لم يكبتوا شهوة -
ولم يعطلوا غريزة - ولم يعيشوا حياة خاصة يصعب ترسمها
أو الاقتداء بها - وانما قاموا وناموا وصاموا وأفطروا وتزوجوا
النساء وزكوا أنفسهم بين صخب الحياة وضوضائها وبرزوا
الى الحياة بكل الطهر - وكل النبل .. لتسطح خصائصهم -
وتنفح عطورهم - فتزدان بهم الدنيا وتنتفع بمواهبهم ابنة
وملكاتهم الصناع !! نعم لقد عاشوا بشراً من البشر - كما عاش
نبيهم وقائدهم - وتكونت منهم باقة انسانية رائعة لكل
زهرة منها عطر ولكل وردة سحر - ولكل واحدة مكانة !! تلك
معجزات الدستور الالهى .. دستور الحضارة الخالدة التي
تستمر وتستقر وتفيض الخير والبركة على الوجود لأنها من

وضع العليم الخبير .. وذلك بعض الايحاء الذى تتركه آية
[كتاب أنزلناه اليك] ..

٢ - قوله سبحانه : [أنزلناه] تترك انطباعاً يقينياً لدينا
بسر هذا البعث وقوته - ومقدرته على احداث الأثر القوى فى
العالم بأسره .. وحركته الدافعة التى جددت نسيج البشرية -
وغيرت مسار الحياة ونقلت العالم نقلة كبرى الى حياة النور
والعرفان والحضارة - وذلك لأن دستور هذه الحضارة من وحى
السماء وليس من افك البشر .. ومن الحقائق الثابتة - وليس
من الأوهام الملققة .. انه دستور « منزل » وليس بملفق ولا
مزيف ولا مستعار ولا مستورد ولا نابت من الأرض ولا نابع
من مطامع الناس .. ولا هو نتيجة لجهلهم - وقصورهم وضيق
عقولهم وعجزهم عن استيعاب الاجيال والانواع الانسانية
والحقب الزمنية المتطاولة - فأهم خاصية لهذا البعث أنه الهى
له منهج منزل من السماء ..

وليس معنى هذا أن نعطل الجهود البشرية عن الاجتهاد
والمعرفة والفقهِ الدائم لأسرار الكون والحياة .. فان هذا
الدستور يشحذ هذه المواهب ولا يعطها بحال .. ويغريها
بالبحث والدراسة والجد لتستمر مسيرتها الحضارية فى تطور
صاعد وصامد .. انه يضع البشرية أمام حقائق التشريع -
وأصول العقائد - وصور العبادات .. وأنماط المعاملات ..
يحل لها الحلال ويحرم الحرام .. وتلك قواعد ثابتة .. وأمور
لا يدخلها التطور .. أما مسائل العلم - ووسائل النهوض
بالمجتمع - وتطبيقات المعارف الانسانية فهى متروكة للعقل
البشرى فى اطار الأصول والمناهج العامة لهذا الدين ..

فهنالك أمور تتغير مع سير الحياة كالنظم السياسية
والاجتماعية ونتائج البحث العلمى المثمر .. فهذه أمور قد

أعطى الإسلام فيها الإطار العام مع أساس من اجمال ما يتغير
مع سير الحياة .. تاركاً للعقل البشرى أن يحدث عملية التكيف
مع زمنه ومجتمعه وبيئته ..

وهناك أمور ثابتة لا تتغير كالعبادات .. والعقائد ..
وتصورات الحياة الآخرة فهذه مسائل ثابتة لا تقبل التطوير ..
وبذلك يستطيع الإسلام أن يتقدم بالحياة على أساسين :
الآصاله التي تحفظ الشخصية والتجديد الذي يخصب الحياة
بالتفاعل المستمر مع الحاضر من أجل غد أفضل ومستقبل
أمثل ..

وبذلك يكون الدين جهداً مستمراً يزيد الحياة نماء وبركة ،
ويزيد الانسان تقدماً .. ويحطم القيود التي تعوق مسيرته
الكريمة نحو الغد المرتقب .

وقد بذل محمد صلوات الله وسلامه عليه من الجهود
الشاقة النبيلة - وهو ومن معه من الصفوة الممتازة حتى أخذت
المسيرة الحضارية خطها الواضح المستقيم فقد عذبوا وشردوا
وتحملوا من المشاق والمتاعب ما لا تكفى موسوعات الكتب
لشرحه ..

وفي سبيل عقيدتهم ضحوا ببلادهم - فتركوها وانطلقوا الى
حيث وجدوا البيئة الصالحة لترتيل آيات العفاف والطهر ..
وبناء الدولة الجديدة .. وهي المدينة المنورة .

وقد خاضوا هناك معارك ضارية وسقط منهم الشهداء
والضحايا .. انها جهود مباركة قد بذلت .. لأن المنهج الالهي
لا يتحقق بنفسه . بل لابد من جهود تبذل ليصبح واقعاً
للبشرية ولكن هذه الجهود التي بذلها محمد - صلى الله عليه
وسلم - وخلفاؤه من بعده جهود موجهة وليست جهوداً

عشوائية •• فهذا الكتاب المنزل قد رسم للمسلمين سبيل الحياة الكريمة - ووسائل الكفاح الشاق - ومعالم الهداية الراشدة •• فهم ان حاربوا فعلى بصيرة - وان سالموا فعلى نور - وان باعوا أو اشتروا أو تزوجوا أو مارسوا أى عمل فى الحياة فان هذا الكتاب المنزل يوضح لهم مسائله ويحدد وسائله ، ولهذا فانه بعث يتميز بالبصيرة - والوضوح ، كل حركة من حركاته موجهة فى خطوطها الكبرى من الله رب العالمين ••

وهكذا يصبح بعث الحياة ونشورها على يد محمد صلى الله عليه وسلم مستمداً من كتاب ثابت ودستور منزل يوضح الحقائق ويبين المعالم - ويضع الأسس - ويعلم الناس - وهو كتاب لا يهمل ناحية من نواحي وجودهم وانما يستوعب مطالبهم فى السلم والحرب ، ويلاحق قضاياهم المتجددة ، ويضع الحلول السليمة لمشكلاتهم المعقدة ••

وفرق كبير بين أن تقاد الحياة الانسانية بمثل هذا الدستور الخالد الثابت - وبين أن تقاد بالتجارب الانسانية - أو الدساتير البشرية التى توقع فى التخبط والجهل - وتفضى الى الشقاء والتعاسة •

٣ - قوله سبحانه [لتخرج الناس] تشير الى الجهد الذى بذله الرسول ومن معه - والذى يبذله كل داعية لتحقيق مشيئة الله فى الأرض - وهو جهد يرتبط بالدستور المنزل فحقق نتائجه الطيبة وأثمر ثمرته المرجوة •• وكأنما الآية تشير الى أن هذا الانجاز الحضارى الذى تحقق بهذا البعث تم بأمرين :

الأول : ارادة القدر •

والثانى : جهود البشر •

وأن الثمرة لا تتحقق إلا بهما معا •• فجهود البشر مهما تبذل ليست شيئاً يذكر ما لم تقترن بالمنهج وتدعمها مشيئة الله ••

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده والمنهج الخالد • لا بد أن يقترن بالجهد البشرى ليتم تطبيقه في دنيا الناس •• والا كان مجرد نظريات لا أثر لها في واقع الحياة •• ولا في سلوك البشر •• وقيمة أى دستور إنما تكمن في تطبيقه تطبيقاً حاداً لا هزل فيه وليس في نصوصه النظرية •

وهذا الكتاب المنزل لا يعمل بطريقة سحرية تبعده عن الواقعية وإنما يعمل طبقاً للفطرة ووفقاً لطاقات البشر - ونظام الكون - وتبعاً للجهود المبذولة مقترناً ذلك كله بتأييد الله وعونه ، واذن فمن خصائص هذا البعث أنه تم بدستور السماء - وطاقة البشر •

ومن هنا - فإن هذه التجربة الرائدة التى تحققت بمحمد وبمن معه - يمكن أن تعود إذا تحقق لها الجهد المبذول - والارتباط بالمنهج - والصدق فى تطبيقه •

وذلك لأن التجربة واقعية مرتبطة بشروط •• ولم تحقق على يد السابقين بسر الاعجاز بل بواقع العمل - وصدق التطبيق والاخلاص فى البذل •

٤ - قوله سبحانه : [لتخرج الناس] يعطى التعبير أهم خصائص هذا البعث •• وهو عالميته وعمومه لجميع البشر •• فليس محمد رسولا اقليمياً - ولا قبلياً - ولا وطنياً ، ولا لأمة ولا لجنس دون جنس • وإنما هو رسول عالمى للناس كل الناس

لا فرق بين أحمرهم وأسودهم وأبيضهم • ولا بين عربيهم
وعجميهم • • ومن ثم فأفق حضارته عالمي • • للانسانية
السادرة في الغي - السابحة في بحر الظلمات • •

وهذا يجعله بعثاً فريداً متميزاً على سائر الرسالات
السابقة والكتب السماوية الأخرى ، فهي كانت لفئة من البشر
في بقعة من الأرض لمدة من الزمن •

ولذا كانت فاعليتها محدودة لأنها لم تزود من الله بما
يجعلها عامة شاملة • •

ان بعث محمد صلى الله عليه وسلم يعطى الدفعة الحضارية
لكل البشرية المعذبة المعناة • • ومن خصائص هذا العموم أنه
بعث يتجاوب مع العالم بأسره ويهز أعماق البشرية كلها لا
فرق في التعاطف معه بين جيل وجيل - ولا بين جنس وجنس -
ولا بين أمة وأمة - ولا بين رجل وامرأة • • انه للناس جميعاً
وصدق الله العظيم اذ يقول : [وما أرسلناك الا كافة للناس
بشيراً ونذيراً (١)] ويقول : [لينذر من كان حياً ويحق القول
على الكافرين (٢)] ويقول : [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (٣)] •

فأية قدرة تستطيع أن تحقق لدستور ما كل هذه
الضمانات ؟ • • وأية خسارة تصيب البشرية عندما تنفصل
عن هذا الدستور ؟ أو تلتمس التقدم في غيره ؟!

٥ - قوله سبحانه : [لتخرج الناس من الظلمات الى النور]
يحدد التعبير القرآني النقطة التي بدأ منها البعث وهي [الظلمات]

-
- (١) آية ٢٨ سورة سبأ •
 - (٢) آية ٧٠ سورة يس •
 - (٣) آية ١٠٧ سورة الأنبياء •

والغاية التي انتهى اليها وهي [النور] فهو بعث محدد البدء
والنهاية وقد تحقق فعلاً وواقعاً كما رسمت الآية الكريمة ..
وتوحى كلمة [تخرج] بالجهد المبذول .. لأن هذا الاخراج
لا يتم الا ببذل الطاقة على نحو ما قدمنا .. من توفر القوة
المنفذة المطبقة المحركة لهذا الدستور ليتحول بالممارسة والعمل
الى تجارب واقعية تحقق الحضارة وتصنع التقدم .. وكلمة
[الظلمات] تشير الى الواقع المرير الذي كانت البشرية تعيش
فيه ولا تجد كلمة تجمع من المساوىء المادية والمعنوية مثل
كلمة الظلمات .. فهي توحى بالوحشة - والتخبط - والجهالة
والضلال - والتميه - وغير ذلك مما كانت تعانيه البشرية قبل
محمد وهي وحشة جعلت البشرية تعبد الصنم - والبشر -
والشهوة - والمال ، والحيوان .. وتعب من معين الشهوات ..
ومن هنا فان كلمة [ظلمات] تحدد أبعاد الجهالة التي كان
عليها العالم كله قبل البعثة النبوية ..

وقوله سبحانه : [الي النور] توحى بالأنس والهداية
والمعرفة والسعادة وهي كلمة جامعة تحمل في مطاويها كل
خصائص البعث الجديد الذى أضاء فجاج الدنيا - وطارد مردة
الانس - وأبالسة الشر وجهالات الناس وأزاح عن الفطرة ركام
القرون البالية ومخلفاتها العفنة .. فأضاءت بنور الله .

ولعلك تلمح أن كلمة [الظلمات] وردت بصيغة الجمع
وكلمة [النور] وردت بصيغة المفرد .. فهل لذلك من سر ؟ ان
كلمة [الظلمات] توحى بأن للشر سبلا كثيرة متنوعة وشعاباً
مختلفة متباينة .. انها طرق ابليس وما أكثرها !!

أما [النور] فيشير الى الحق والخير وسائر المعانى الجميلة
المضيئة .. فليس له الا طريق واحد لا يختلف ولا يتعدد ولا

يبتباين وما أيسر أن نسلك سبيل الحق .. انه سبيل الله ..
وسبيل الخير والرشاد .. ومن ثم فهو مريح واضح مستقيم .

وما أشق أن نسلك الطرق الى الباطل .. انها طرق
ابليسية ضالة موحشة قلقة .. تكمن فيها مخاطر الظلام ..
وشروره .. وما أشد التواءها .. وما أكثر سبلها وطرقها وما
أروع أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى : [وأن هذا صراطي
مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك
وصاكم به لعلكم تتقون (١)] ..

الأول في الآية طريق الله المستقيم .. والثاني طريق
الشیطان اللتوى المتعدد المسارب فلنسلك سبيل الحق -
ولنستضيء بنوره .. فهو سهل مريح وهو واحد لا يتعدد !!

ولنتجنب سبل الباطل فهو شاق ومرهق .. تكمن فيه
الوحشة والمخاطر والضلال ، والآية توحى بأن الاحاد وعر
المسلك لأنه ضد الفطرة فطريقه مظلّم عسوف أما الايمان فسهل
المسلك لأنه تعبير عن الفطرة فطريقه نور وضياء وسبيله سهل
مريح وبهذا نعلل سرعة تجاوب الناس مع البعث الجديد لأنه
تعبير عن فطرتهم التي طالما امتهنت - وتحقيق لكرامتهم
التي طالما وتدت .. ولأن طريقه مستقيم مأنوس مضيء ومن
ثم تقبه الناس - واجتمعوا عليه - والتفوا حوله واستفادوا
به وظهر أثره في الحياة بصورة رائعة ..

٦ - قوله سبحانه : [باذن ربهم] يعطى الخاصية الجليلة
لهذا البعث وهو أنه رباني .. ولولا أنه كذلك لما استطاع
البشر أن يحققوه وما ظنك ببعث يتم بمؤازرة اسماء ؟

(١) آية ١٥٣ سورة الأنعام .

ولعل هذا التعبير يوضح قضية هذا البعث في اطارها السليم
•• فهي قضية - مهما يختلف الناس في تعليل أسبابها قد تمت
[باذن ربهم] وعندما يأذن الله فلا معوق لجهود البشر - لا بد
أن تصل الى غاياتها •• واذا كان الأمر كذلك فما يجوز أن
يخدع البشر عن أنفسهم - ويركبهم الغرور •• لأنه لولا عناية
الله لما تم هذا البعث وكأنما هذا الايحاء لون من التهذيب
الخلقى والتربية النفسية وتعهد للرسول والذين معه حتى
يظلوا مع الله في كل حركة يتحركونها - وفي كل خطوة يخطونها
•• ومع كل ثمرة من ثمرات هذا البعث •• وأنه لا ينبغي أن
يركبهم غرور ولا صلف فيذهلهم عن تلك الحقيقة الكبرى التي
لا يمكن للحضارة أن تستمر الا بها •• تلك الحقيقة هي التوجه
الى الله في كل لحظة •• والمستشرقون الذين ينظرون الى
الأمر على قاعدة الاسباب والمسببات - أو المقدمات والنتائج
•• ولا يلتفتون الى عنصر العون الالهى •• يعجبون العجب
كله عندما يبحثون في أسرار هذا البعث - وعن نتائجه المذهلة -
وسرعه الخاطفة •

يقول ويلز : [لم يعد التاريخ مصلحاً أبقت النفوس -
وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد
وقد امتاز ببسر كلامه ووضوح دينه] وهذا الذى يذكره ويلز
صحيح •• وعندما يذكر الرجل سهولة الدين الاسلامى ووضوحه
فلأنه قد عانى من كهانة المسيحية - وغموضها - واحتكار
أسرارها •• وكثرة التأويلات المربكة التي تكسبها تعقيداً
وبعداً عن الواقع •

أما الاسلام فدين يتميز بوضوح الرؤية وليس فيه كهانة
ولا كهان •• فيه علماء دين - وليس فيه رجال دين يتعيشون
من الكهانة وينقطعون للدير ••

وذلك من الأسباب التي جعلت للبعث الجديد جاذبية
وجمالاً • لأنه يتميز بالبساطة والوضوح •• واليسر ••
والسهولة •• ومعانقة الفطرة السليمة والانسجام مع الواقع ••
ومن ثم انتشر الدين الجديد في أقصر مدة كما يقول ويلز وبأقل
جهد ••

ونقول بأقل جهد •• مع علمنا بما بذله الرسول وصحابته
من جهود صادقة – وبما قدموه من دماء وشهداء وبما خاضوه
من حروب !!

فذلك كله لا يقاس بالنسبة الى ما حققه من آثار عالمية ••
ولا بما يسفك من دماء أو ينصب من مشانق أو يقام من مجازر
عندما يريد البشر أحداث أقل التغييرات في النظم السياسية
والاجتماعية •• فلا تسئل عن الملايين التي يضحى بها – ولا
عن حمامات الدماء التي يغرقون فيها الحياة •• بينما لا تحقق
ثمرة ترجى لأنها تعبر عن التسلط والاعتصاب واللصوصية
والقرصنة !! •

وقد تحقق فعلاً لهذا السبب معنى لم يتحقق لغيره – وهو
ابتعاده عن الغرور وخداع النفس •• لأنه رباني في منهجه –
ومقوماته – وقيمه •• فلم نسمع أن واحداً من أصحاب محمد
[صلعم] •• قد خدعته نفسه ، أو استحوذ عليه مركب النقص ،
فنسب لنفسه شيئاً من هذا البعث العظيم •• أو راح يتبجح
بما أنفق من جهد ومال •• بل لقد كانوا يحبون أن يعيشوا
جنوداً مجاهيل لا تلمع أسماؤهم – ولا تبرق صنائعهم •• وكم
من مواقف رائعة يعرفها الناس ولكنهم لا يعرفون أصحابها
في الاسلام •• فأين هذا من صلف الحضارة الحديثة – وما تدعيه
لنفسها من آثار في الحياة – وما يتبجح به أصحابها من غرور
طائش وكاذب مع أنه لم يثمر الا الشر والشقاء !؟

ولقد كان القرآن حريصاً كل الحرص على أن ينقذ نفوسهم من آثار هذا الغرور الخادع ويكافح كل أسبابه ودواعيه فنسّمعه يخاطب الرسول في غزوة بدر [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (١)] .

وهكذا . . كل فوز أو انتصار أو نجاح فمرجه لله . . وبمثل هذه التربية تنشأ القيادات التي تسود الدنيا - وتعلم الناس . . انها تلتقى في الايجاء والهدف مع قوله سبحانه [لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم] كلتاهما تتعهد أرواح المؤمنين بنوع من التربية المثالية التي تجعلها دائماً مرتبطة بالله مصيراً وقدرأ . . وتنفي عنها الادعاء وحظوظ النفس من الغرور والاستعلاء . . لأنها آفات لو تمكنت منهم لما استطاعوا أن يكملوا المسيرة الرائعة - التي بدأها معهم وبهم محمد رسول الله . .

٧ - قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] التعبير ببيت الثقة - ويشيع الطمأنينة في قلوب البشر - ويؤكد لهم أن طريق هذا البعث يوصل الى غاية واضحة ونهاية قاصدة ونتيجة طيبة متمثلة في صراط العزيز الحميد . . وكلامه [العزيز] توحى بأنه غالب على أمره ومن ثم فهو يدافع عن هذا البعث - ويحرس التغيير الذي يحدثه في الحياة ويرعى جهود القائمين عليه ويدفع عنهم كيد الشيطان .

وقوله : [الحميد] توحى بواجب الشكر على هذه النعم . . التي لا يحمد عليها الا الله . . ومن حقه سبحانه على البشرية أن نحمده على ما أسبغ عليها من نعم كثيرة أهمها : الايمان والهداية وهما قد تحققا للحياة كلها عن طريق ذلك البعث . .

كل تلك الخصائص التي شرحناها تعطىها الآية الكريمة في غير عسر ولا مشقة . .

(١) آية ١٧ سورة الأنفال .

من آثار هذا البعث

استطاع هذا البعث الجديد أن يكتسح في فترة وجيزة تلك النحل الأرضية التي كانت أشبه شيء بأنطفيليات السامة . . وأن يقتلعها من جذورها لينمو النبات المبارك مكانها . . فيملاً الحياة خيراً وبركة . . وكانت تلك النحل قد أغرقت الناس في دوامة الفجور والرذيلة والانحلال وقد استطاع هذا البعث أيضاً أن يكتسح معها بقايا الأشباح المتخلفة التي انحرفت عن الجادة . . وداخلتها بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان - فلا تعليم « بوذا » ولا مراسيم « كونفوشيوس » - ولا مبادئ البراهمة - ولا وثنية الروم ولا إباحية فارس - ولا شهوات الهند استطاعت أن تقف أمام الموج المكتسح الجارف التي نسف الخرافة والكهانة وقضى على المفاسد . . ومكن لكلمة الله في الأرض . . وأضاء معالم الوجود بنوره ورفع رؤوس البشر المنكسة الى السماء . . وأطاح بالمستبدين والغاشمين - والأشراف والنبلاء الذين طالما استعبدوا الناس ، واستذلوا رقاب البشر ليضع مكانهم على أريكة الحكم أناساً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين - ونمكن لهم في الأرض (١) » .

كان الإسلام في عنفوانه - شاباً يزخر بالحيوية فما لبث أن ضرب بقبضته القوية ضربة أطاحت بالفساد من أرض الله . . ثم ارتشفتة البشرية رحيقاً حلوا . . وعصيراً مفيداً تمشى في أوصالها المقرورة فأشاع فيها الدفء ، وبعث الحياة

(١) آيتا ٥ ، ٦ سورة القصص .

من جديد في تلك الأطراف اليابسة التي كانت تكسوها صفرة الموت .. فبث فيها ربيعاً جديداً أنبت ابراعم والأزهار ونضر وجه الحياة بالمنى - وملاً جوها بالعطر فانتعش العاثر وصح المريض وأشرقت الأرض بنور الله وصدق الله وتمت كلمته اذ يقول : [هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١)] .

وهكذا لم يعد للنحل السابقة وجود يذكر في ظل الاسلام ، وصار الناس بنعمة الله اخوانا تجمعهم عقيدة التوحيد - وتظلمهم مبادئه - وتقودهم أحكامه لا يستعلى أحد على أحد ولا يعبدون الا الله ..

بين نظامين :

وعن طبيعة تلك النقلة الرائعة التي أعزت الوجود كله .. وأسعدت البشرية .. وهيات لها مكانة رفيعة تزدهر فيها أخلاقها وخصائصها - يحدثنا ربيع بن عامر رسول المسلمين الى يزدجرد القائد الفارسي في مجلسه حين سأله عن طبيعة هذا الدين الذى يحاربون من أجله وعن الدعوة التى يستشهدون فى سبيلها فيقول :

« ان الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده - ومن ضيق الدنيا الى سعتها - ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » .

ولعل يزدجرد أدرك من خلال الكلمات المضيئة الواثقة أن عهده قد انقضى - وأن بساط الجور والظلم والفساد يوشك أن ينطوى . وأن الاسلام بالغ قصده ومدرك غايته .. حتى لا يعبد الا الله فى الارض ..

(١) آية ٩ سورة الصف .

لقد استطاع ربعمى أن يشرح أهداف الدعوة الجديدة فى بلاغة وقصد ٠٠ وأن يجعل كل كلمة من كلماته سهما مسموماً موجهة الى قلب الدولة الفارسية التى طالما استباحث استغلال البشر ٠٠ وتشويه معالم الفضيلة ٠٠ دون خوف أو تردد ٠

وهذا الفهم الواعى لرسالة الاسلام هو معنى عالميته فهو ليس لجنس ولا لشعب ولا لأمة ولا وطن وانما هو دين البشرية جمعاء ٠ وبهذا تصبح حضارته عالمية الأفق ٠٠ تخرج الناس من المعانى الضيقة الى المعانى الرحبية ٠٠ ومن خصائص الجنس ومميزات اللون والعرق الى خصائص البشر جميعاً ومميزات الانسانية كلها ٠٠ انها تخرج الناس من ضيق الأرض الى سعتها وكفى بذلك امتداداً للساحة الحضارية القرآنية ٠٠

ولنستمع فى اجلال وخشوع الى الفرق بين النظامين - نظام الجاهلية ونظام الاسلام ٠٠ والى طبيعة الانسان الجديد الذى صنعه القرآن :

وذلك على لسان جعفر بن أبى طالب يخاطب النجاشى عندما سأله عن حقيقة دينه ٠٠ وكانت قريش قد بعثت بوفد منها على رأسه عمرو بن العاص ٠٠ تطالب بتسليم المهاجرين الى الحبشة ٠٠ كما تصنع الدول الحديثة اليوم عندما تطالب بتسليم « اللاجئين » وانتهد جعفر بن أبى طالب تلك الفرصة ٠٠ فأخذ يشرح قضية الاسلام ويوضح اضطهاد قريش فقال للنجاشى : « كنا قوماً أهل جاهلية (١) نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا

(١) ابن هشام جزء أول ص ٣٠٤ ، ٣٠٥

منا نعرف نسبه وصدقته وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان - وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا - وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى * * وأن نستحل ما كنا نستحله من الخبائث * *

أى تحليل رائع للفرق بين النظامين كهذا التحليل ؟ وأى فهم متفتح لقضايا الاسلام وخصائصه العليا كهذا الفهم ؟ ولو أن كاتباً معاصراً أراد اليوم أن يكتب في الفرق بين الجاهلية والاسلام لما توصل الى هذا * * مع الاستيعاب والانسجام والانطلاق * * وحقاً لقد أصاب جعفر جاهلية القوم في مقتلها * * وأنصف الدعوة الجديدة ووضعها في المكان العالى * وكانت الموازنة دقيقة يخرج منها السامع بقبح أمرها ، وفساد طبيعتها ، وجلال الاسلام وسمو مكانته * *

فاذا لاحظنا - أن جعفر بن أبى طالب كان تلك اللحظة يقف موقف اللاجئ المضطهد الذى تطالب بلده بتسليمه والقضاء القبض عليه - عرفنا الى أى حد كانت مبادئ الاسلام تضع أصحابها عقيدة وثقافة ووعياً وثباتاً فى أصعب المواقف وأقساها * * لقد شرح جعفر القضية شرحاً موفقاً * * لم يستطع وفد الشرك أن يفنده - ولا أن يطعن فيه - ومن ثم ظفر الوفد بتقدير النجاشى * * الذى استمع اليه بكل الوعى والاهتمام * *

وطرد سفراء قريش رغم محاولوه من رشوته . . . وجذبه الى صفهم بتلك الوسائل الرخيصة . . . ولم تفلح دعاية قريش في تشويه القضية وان كان وفد اعلامها يملك المال والوسائل المختلفة والمغرية . . . لأنه وفد الضلال والكذب . . . ونجح وفد المسلمين - لافي رد الوفد القرشي مخذولا فحسب - ولكن في الدفاع عن موقفهم والدعاية لقضيتهم - ودحض أكاذيب العدو . . . واحداث التوازن في الرأى العام . . . لأن الحبشة كانت تمثل قطاعاً كبيراً من الرأى العام ومن خلال ذلك نعرف كيف أن المسلمين - كانوا ينهضون بكل المهام التي توضح ظروفهم مع أعدائهم . . . ولم تكن هجرة عشوائية - وانما كانت لها - أهدافها القريبة والبعيدة . . . فهي من ناحية : فرار بالعقيدة الى جهة آمنة . . . ومن ناحية أخرى : اعلام رائع بعدالة قضية المسلمين وصدق دعوتهم وكذب المشركين وسوء مقصدهم وقد أدت فعلا هدفها !! .

ولم يكن عمرو بن العاص زعيم وفد المشركين رجلاً قليل الحيلة أو ضعيف البيان وانما كان سياسياً بارعاً . . . ومفاوضاً لبقاً - ولكنه في هذا الموقف لم يكن مدفوعاً بعقيدة صالحة . . . ومن ثم سقط دفاعه وذهب أدراج الرياح !!

حتى اذا مسته نفحة من روح الاسلام فيما بعد . . . واستقرت عقيدته في فؤاده . . . رأى العالم منه الأعاجيب . . . وأصبح شخصية عالمية تسلط الأضواء على مواقفه ، وهكذا الاسلام يصنع الرجال . . . ويكفى أن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر واستخلصها من قبضة الرومان !!

ولنرجع الى صميم الموضوع فنسأل أنفسنا سؤالاً
أيمكن لهذه المبادئ التي شرحها جعفر بن أبى طالب أن يصد عنها أحد !؟ اللهم الا أن تنطمس منه البصيرة - أو تغلبه

شهوة الحرص على مصالحه - أو شهوة النفوذ في قومه - وهم
قلّة على أي حال ومع ذلك . . . فقد جذبتهم روعة المبادئ . . .
فأقبلوا واحداً بعد واحد وفريقاً إثر فريق يدخلون في دين الله .
حتى جاء نصر الله والفتح . . . وهؤلاء الذين دخلوا في الدين
بعضهم قد ضحى بمصلحته - وبالعلاقاته - وبعضهم قد انسلخ
من تبعية غيره دون خوف أو جبن . . . لأن العقيدة تصنع
الأبطال .

يقول ابن حزم : [كانت العرب بلا خوف قوما (١) لقاحا
لا يملكهم أحد كربيعة واياها ومضر وقضاعة - أو ملوكا في
بلادهم يتوارثون الحكم كابراً عن كابر - فانقادوا كلهم لظهور
الحق وآمنوا برسول الله وهم آلاف آلاف وصاروا اخوة كبنى أب
وأم - وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه طوعا بلا خوف
غزو أو اعطاء مال - ولا مطمع في عز . . .] الى أن يقول :
وهكذا كان اسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم
سائرهم قبيلة قبيلة . . . لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم
به من معجزاته . . . وما اتبعه « أي الرسول » الأوس والخزرج
الا وهو فريد طريد قد نابذه قومه حسداً نه اد كان فقيراً لا مال
له ولا أخ ولا ابن ولا ولد ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب - نشأ في بلاد
الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها فعلمه الله تعالى
الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراد قتله] . . .

وهذا التحليل يعطينا انطباعاً كاملاً بأن العقيدة الجديدة
قد جذبت القوم جميعاً . . . ولهذا تحولوا في لحظات مباركة
الى صف الدعوة . . . وصاروا لها جنداً أوفياء . . . يبذلون
أرواحهم من أجلها في سناء . . . بعد أن عاشوا في جاهليتهم

(١) عن تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٤٤
جزء أول طبعة أولى .

تجار حروب ، وأرباب فجور وفسوق . . لقد مستهم نفحة
عامرة من روح النبوة فبعث انسانيتهم الضائعة وردت
خصائصهم المغمورة تحت ركام الجهل . . فاذا هي تدأب
وتسعى بقدر الله !!

لقد استطاع محمد - صلوات الله عليه - أن ينفذ بمنهج
الوحي الى قلوبهم وضمائرهم . . وأن يبعث مواتهم الأدبي .
وأن يعيد بناء شخصيتهم التي عبت بها الشيطان . . وأن
يرتب عناصرها وينظم كيانها . . كما استطاع كذلك أن
يصلح الفاسد من أوضاع المجتمع وأن يرد الى المواهب
الانسانية كيانها . . تلك المواهب المهمة الضائعة . . وأن
يصنع معها وبها عالماً نظيفاً . . قد وضع فيه كل شيء في
مكانه الطبيعي . . :

وقد أنس العالم كله الى هذه الدعوة التي لم تجنح الى
الاقليمية أو العصبية . . ولم يتجه بها قائدها الى جنسه . .
وانما أطلقها عالمية تسوى بين البشر جميعاً في الحقوق
والواجبات وتخرج الناس من جور الأديان الى سماحة الاسلام
ومن تقديس العباد الى عبادة الله وحده ولقد رأى صلوات الله
عليه في مجتمع الجاهلية صورة للعالم الذي لعب به الهوى
وأوبقه الشيطان رأى الانسان وقد هانت عليه انسانيته
فسجد للصنم والوثن وعبد الشجر والحجر . . ورأى عقولا
ضالة تؤمن بالسحر والخرافة والهامة وتفنى في عصبيات
ضيقة ما أنزل الله بها من سلطان ، رأى المواهب البشرية
خامات مبعثرة تنتظر الصائغ الذي يسبكها ويوجهها الوجهة
الطيبة في الحياة . . . رأى الشعراء يرتعون في الأشلاء . .
ويثيرون العداوة والبغضاء ويترنمون على قيثاره النار والحرب
والفتك والضراوة . . . رأى العالم كله جائراً مستعبداً يتخذ

الناس بعضهم عبيداً وخداماً رأى الرذائل الانسانية كلها من
خمر ورباً وخلاعة وفجور وطمع وشهوة ومال وتأليه للبشر . .
نعم رأى ذلك فى أنحاء العالم كله . .

رأى الفساد متغلغلا فى نفوس البشر - وعر المسالك فى
كيانها . . قد اختلط بدمها وجرى فى عروقها . . فكان لابد
ليجنت هذا الفساد من تربية الهية . . تقوم على منهج
سماوى وتنهض على مرونة الربى !! وقد النقى المنهج بالربى
التقاء طيباً مباركاً .

فكان من نتيجة ذلك . . أن أثمر ثمرته وحقق هدفه . .
ولو أن وسائل الدعاية فى العالم كله جندت لمهاجمة الباطل فى
العالم يومذاك ما استطاعت أن تهدم رذيلة . . أو تقيم فضيلة
لكنها التربية النبوية . . ذات الوسائل الالهية التى تتعهد
الضمان فتركز فيها العقيدة . . وتملأ القلوب بدواعى الايمان
وتغرس المبادئ فى أعماق النفوس فتتحول الى قوة رائعة
توجه الشخصية . . وتخلق دوافعها النبيلة !!

واذا تصورنا الظلمات - وما تحمل من جهالة ووحشة
وخوف . . والنور وما يحمل من أنس ومعرفة وطمأنينة
أدركنا أن النقلة كانت كبيرة . . وأنها استغرقت وقتاً
واستنفدت جهداً . . حتى تحقق لها النجاح . . ولقد تحقق فعلا
نقل العالم من الظلمات الى النور واذا قلنا - ان البعث الجديد -
قد تحقق بهذه الدعوة . . فاننا نؤكد أن هذا البعث كان
عميقاً - وواسعاً - وشاملاً - وقوياً . . مما يجعله عجيبة من
عجائب القدر ولقد دافعت الجاهلية عن نفسها دفاع
المستमित . . ولم تستسلم طائفة من أول مرة . . ثم أذعن
للدعوة . . وانقادت لله بعد أن قاومت وتلكأت وأعرضت عن
الله . . .

لماذا سهل تقبل الناس للدعوة الجديدة ؟

تميز الاسلام بالبساطة السمحة المحببة . . . والواقعية
التي لا تستعصى على التطبيق . . . وبالسهولة التي تبتعد به
عن التعقيد - وبالوضوح الذي يجعله أليفاً للروح . . . متجاوباً
مع الحياة . . . وبالملاءمة للعقل في تشريعاته . . . وبالموافقة
للفطرة وحسن التعبير عنها والانسجام معها باعتباره [مادة
وروحا] وليس فيه كهانة ولا رهينة تحتكر المعرفة وتفتتات
على الناس . . .

يقول ويلز (١) : [كان الاسلام في أول أمره خالياً من
التعقيدات اللاهوتية التي طالما ارتبكت بها النصرانية
وأحدثت شقاقاً قسى على الروح النصراني وليس للاسلام
كهنة بل علماء ومعلمون ووعاظ وهو حافل بروح الرأفة
والسخاء والوفاء والاخاء كما أنه ينطوي على عاطفة النجدة
التي تنبت في الصحراء ولهذا جاز الى عقول الناس دون أن يجد
ما يصدده في غرائزهم] . . .

وهذا الفيلسوف الأجنبي يشرح : كيف أن مولد الاسلام
كان حرباً على الكهانة وثورة على الخرافة . . . خلصت الضمير
البشرى من الأوهام ونزهت الذات العلية عن المشابهة -
وعقدت الصلة بين الانسان وربه دون وساطة . . . ؟

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ محمد كرد على .

ومن واقع التجربة القاسية التي عاشها هذا الفيلسوف - وهو يشهد الصراع بين العلم وبين الكنيسة وكيف كان سلطانها وبطشها بالمفكرين الأحرار يتحدث بهذه الحرارة .. لقد تحرر هؤلاء وأولئك بدعوة الاسلام ووجدوا فيها منطلقاً كريماً للحرية - وفتحاً للطريق المغلق أمام العقل الباحث ليكتشف ويرتاد ووضوحاً في تشريعاتها وأحكامها .. وبذلاً سخياً للمعارف الدينية دون ادعاء أو احتكار فمن حق كل مسلم أن ينال حظه من المعرفة - ومن واجب العلماء أن يوضحوا ويشرحوا .. والقرآن .. كتاب مفتوح واضح البيان - مشرق الدلالة يقرأه العام والخاص .. والنبي محمد صلوات الله وسلامه عليه .. يعلم البشرية كلها أمور دينها ودنياها .. يفسر الوحي المبارك ، ويقيم مناسك العبادة .. ويترك للبشرية أن تنقل عنه وتتكلم منه وانه ليقف في معبده الخاشع ليصلى وراءه من أراد الصلاة .. ويتعرف على أسرار الدين ويسأله ببساطة عن كل ما بجهله .. وما هكذا الكهانة !!

ويشير « ويلز » الى خاصية ثانية في الاسلام .. وهي احتضانه للأخلاق الاجتماعية التي تجعل الفرد يحس بأنه عضو في جماعة يسعد بسعادتها ويشقى بشقائها .. ومن ثم فهو يحارب الأثرة التي تجعل المرء منطوياً على نفسه - ويشجع الايثار الذي يدفع الفرد الى الامتزاج بالجماعة .

وهذه الأخلاق الاجتماعية مثل النجدة والوفاء والاخاء والرافة .. أخلاق لا تجد بجسيداً في المسيحية المترهينة التي اعتزلت الحياة وانسحبت من المجتمع - واستقرت في الدير

منطوية على نفسها - كما لا تجد صداها في اليهودية - التي
مسخت كل الفضائل الاجتماعية مسخاً رهيباً - ووجهتها وجهة
نفعية مادية عنصرية !!

ولطالما قاست البشرية من تلك الأثرة الشحيحة . .
قبيل البعثة المحمدية . . حتى اذا جاء محمد بهذا الدين الذي
يحتضن تلك الفضائل اندفع هؤلاء القاطنون اليه !!

وان ديناً يبذل المعرفة في وضوح وسخاء . . ويتبنى القيم
الاجتماعية ليطلقها في الحياة لهو دين العالم بأسره . . ودين
الوجود كله . . في ظله تنمو الذات الحرة - وبتعاليمه تزدهر
الارادة الشخصية . . ويتحرر الضمير الانساني من الانقياد
الأعمى . .

من أقوال المستشرقين

يقول المستشرق الهولاندى هورغورنجه : [من أراد
الاعتصام (١) بعقيدة الاسلام لم يتمكن من طاعة حكومة
مسيحية] .*

ذلك أن الاسلام يربط بين المسلم وربه برباط مباشر .
فليس فى حاجة الى شفيع أو وسيط وبهذا فإنه يتجه بالعمل
الى ربه مباشرة - دون أن يرهق نفسه بترضى الكاهن أو تملق
الكنيسة - أو الخضوع للحكومة المسيحية .*

وفى الاسلام ميزة أخرى رائعة حقاً . وهى مقدرته على
أن يمنح أصحابه آراء نهائية فى الكون والحياة والتشريع
والأخلاق . وبذلك يطبع شخصيتهم بطابع الثبات والاتزان
ويكون لهم ذاتاً رصينة . « يثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل
الله ما يشاء » (٢) .

ومن هنا فإن الاسلام يكره لأبنائه أن يميلوا مع الاتجاهات
المختلفة . وأن يتحولوا مع الآراء المتعارضة ، وفى ذلك يقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يكن أحدكم امعة] « أى
تابعاً لغيره لا رأى له » . انها عقيدة تنبى شخصية المسلم
على أساس ثابت وطيد .*

(١) من كتاب حاضر العالم الاسلامى لشكيب أرسلان .

(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم .

ومرجع المسلم فيما يفتقر اليه من أمور دينه ودنياه كتاب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبجح أهواء الذين لا يعلمون (١)] *

فاذا قارنا بين الشخصية التي تبنيها عقيدة الاسلام .. وبين الشخصية التي تنشئها حضارة الغرب وجدنا الأولى ذاتاً رصينة تستمد المعرفة من دستور خالد ثابت لا يتغير ولا يتبدل .. ووجدنا الثانية ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين شتى النظم والديساتير *

يقول الفيلسوف محمد اقبال : [ان مثالية أوروبا - لم تكن من العوامل الحية المؤثرة في أبنائها - ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف المثل الأخلاقية - وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى - وصدقوني أن أوروبا أكبر عائق في سبيل الرقى الأخلاقي للإنسان - أما المسلم فان له من هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث اثر. الناس من أعماق الحياة (لا من المثالية البعيدة عن الواقع) والوجود وما تعنى به هذه الآراء من أمر خارجي في الظاهر يترك أثره في أعماق النفوس - والأساس الروحي للحياة عند المسلم : هو « ايمان يستطيع أقلنا استنارة أن يسترخس الحياة في سبيله » .. ان هذا الكلام المضيء يؤكد مجموعة من الحقائق عن الاسلام هي :

أن حضارة القرآن تملك المنهج الذي يشرح الحقائق ويرسم الطريق ويمنح المعرفة الثابتة الصحيحة - لأنها مستمدة من كتاب خالد - فهي من أجل ذلك معرفة نهائية لا تتغير ولا تتبدل

(١) آية ١٨ سورة الجاثية .

ولا تتناقض ولا تضطرب .. وان آثارها الفذة لتنعكس على الفرد المسلم ثباتاً في المواقف وتضحية في التصدائد وقوة في الرأي وبصراً بالأمر انها تنتج الذات البصيرة الثابتة المهتدية ...

أما أوربا فقد حاولت بمثالياتها التي تبتعد عن واقع الحياة وتنفصل عن وجود الناس وبحيرتها بين شتى المذاهب الديمقراطية .. التي لا تعطى الآراء النهائية في الكون والحياة والدين .. حاولت أن تصنع شخصية مثالية .. لكنها لم تفلح لأنها لا تستند الى منهج ثابت .. ولهذا أنشأت ذاتاً ضالة تهيم على وجهها بين شتى الآراء ويشير الكاتب الى حقيقة ثابتة في الاسلام .. وهي أن الحضارة القرآنية حضارة واقعية تستمد من كتاب واقعي يتحدث الى الناس من قلب الوجود والواقع .. ولا يستعلي عليهم - ولا يرتفع عن أفهامهم - ولا يقود البشر بالوسائل الصناعية والتجارب البشرية بل بالوسائل الطبيعية والناهج السماوية .. وهو من قبل ومن بعد كتاب الفطرة السليمة السمحة البسيطة التي تجد في رحابه السماح ما يساعدها على الازدهار .. وينشأ عن ذلك كله أن أخلاقيات الحضارة القرآنية واقعية - ترتبط بواقع الانسان وتبنى شخصيته المهذبة - وتحرس حركته في الحياة - وترعى تطوره الصاعد .. دون أن تحلق في الخيال .. أو الأحلام الطائرة الهوجاء !!

أما أخلاقيات الحضارة الأوربية .. فهي المثالية .. التي تقرأها فتسر .. وترى واقعها فتأسى .. انها لا ترتبط بالواقع .. ولا تتحقق في الوجود .. هي شعارات خادعة براقعة لا تجد طريقها الى الحياة الواقعية .. لأنها لم ترتبط بالعقيدة الايمانية التي تشعلها وتضرم وقودها .. وتبعثها قوية في

الحياة ٠٠ وهذا هو السبب في أن الفلاسفات المجردة لم تؤثر في الناس الا قليلا في حين أن الأدياء تستطيع أن تسيطر على قلوب الجماهير ٠٠ وتقود سلوكهم في الحياة وتهيمن على كل قوى الانسان!! ولهذا أحدثت التحول في حياة البشر ونقلت المجتمعات الانسانية من حال الى حال ٠٠

نعم لم يستطع الفلاسفة أصحاب النزعات العقلية - أن يؤثروا في مجتمعاتهم - ولا أن يكونوا جماهير تؤمن بهم - ولا أن يحدثوا التحول في حياة البشر ٠٠ لأن دعواتهم جامدة يعوزها شعاع الروح ، وجافة تفتقر الى رشحات العاطفة ترطب هذا الجفاف ، ومضطربة تفتقر الى سند صحيح يدعمها ، وقلقة لا تثبت على شيء ٠٠ ومتناثرة كلما تكون مذهباً متكامل ٠٠ ومثالية أحياناً ترتفع على الواقع وتسبح في الخيال ٠٠ وتستعصى على التطبيق ، على أن الفلسفة مهما تبلغ من النضج لا تخرج عن كونها طمح عقول بشرية أفسدت مآهات الفروض وشطحات العقول ٠٠ فهي لا تمنح الثقة بحال ٠٠

أما المعارف التي تأتي عن طريق الأديان فمضيئة سمحة تدعم الثقة وتنعش الروح ٠٠ ونجد من الانس بها ما يدفعنا الى تمثلها وتطبيقها ٠٠

وأخيراً هذا البعث قد طهر الحياة من رجسها - وبعث الانسانية من رمسها - وسقاها من رحيق الله السلسل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زرع بهيج - وأشاع في هيكلها الرميم قوة محرقة انتفضت بها فقامت تدأب وتسعى - وانطلقت بقدر الله - وقيادة رسوله - تحرر العالم - وتطهر الوجود - وتبنى الحياة - وتصنع حضارتها على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ٠٠ وهما النبع الصافي لمدينة العالم بأسره ٠٠

الباب الثاني

من خصائص الحضارة القرآنية

١ - استمدادها من القرآن وتجودها المستمر :

الأساس الذي قامت عليه : تقوم الحضارة الاسلامية - على أساس منهج الهى يتمثل فى القرآن الكريم . . فهو كتابها الخالد - الذى يبرز مقوماتها - ويحدد مسارها - ويوضح غايتها . . ويشرح قيمتها . . ويبين أثرها . .

والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية المنزلة فهو كلمة الله الأخيرة الى البشرية ، وافاها بعد أن تطعت شوطا بعيداً فى الرقى المادى والعقلى والروحى . . وبعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة . . واكتملت عاطفياً وفكرياً . . فهو متضمن لكل القيم والمبادئ والنظريات والأحكام التى تلائم هذا النضج وتوازره وتساعد على الازدهار والاكتمال ولقد بدأت رحلة الحياة منذ فجر التاريخ ورافقها فى هذه الرحلة الخالدة رسل وأنبياء وفلاسفة وحكماء - وكتب سماوية - ومعارف أرضية . . لكن ذلك كان يمثل المعرفة البدائية فى طور الطفولة البشرية . . وكما شبت الانسانية عن الطوق . . تدرجت معها تلك المعارف لتسائر تطورها الصاعد . . وتساند تقدمها المطرد :

بين الكتب السماوية والقرآن :

كانت كل الكتب السماوية التى سبقت القرآن كالتوراة والانجيل كتباً اقليمية زمنية . . محدودة الطاقة تمثل فترات من التاريخ . . ثم يجىء غيرها ليحل محلها فى هذه البقعة أو تلك من الأرض ، ، وليس من بين هذه الكتب - ما يصلح

لتأسيس حضارة عالمية ممتدة وصاعدة . . لأنها لم تزود من
العليم الخبير بالطاقة الهائلة التي تجعلها قادرة على الاشعاع
المستمر عبر الزمان والمكان . .

لكنها دائما ملائمة لعقول الناس . . ملبية لسنة التطور
لا تتناقض ولا تتعارض ويصدق بعضها بعضا . . وتتشابه
في أصول الدعوة الى الله . . وكل رسالات الأنبياء على هذا
القانون من الصدق والتطابق وملاءمة ظروف البيئة ومقتضيات
التطور لأنها تمثل المنهج الالهي . . وتصدر عن رب السماء ،

على أن هذه الكتب السماوية - قد نالها من التحريف
والتشويه على يد أصحابها ما أفسدها وأبطل من فاعليتها
وحجب ضيائها وقلل من الثقة بها ، وجعلها ممتهنة ضعيفة
وفي ظلها نشأت عبادة الأشخاص - وعبادة المال - واستباحة
الربا والأعراض ، وقتل الأنبياء - وعبادة العجل . . وتحول
أصحابها الى تماثيل جامدة للكهانة والجهالة والادعاء . .
وفقدت المعرفة البشرية كرامتها في ظل الكنييسة بعد أن
اصطنعت الكهانة - واحترفت الرهبنة ولافت بالدير .

فهل تصلح كلتا الديانتين لاقامة حضارة مزدهرة نامية ؟

ان المسيحية - قد انسحبت من الحياة تماما . . فهي
لا تصلح الا لتأسيس حضارة مريضة .

أما اليهودية : فقد عبتت المال - وأشاعت الربا فهي
لا تصلح الا لتأسيس حضارة مادية تمتهن خصائص الانسان !!

ولكن ينبغي هنا أن نوكد بأن انحراف الديانتين قد نشأ
من عبث أصحابهما وتحريف كتبهما . . فهو انحراف بشري

قاد الى افساد الكتب المنزلة . . . وقد كان من الممكن أن تقود هذه الكتب أصحابها قيادة سليمة . . . لو استمسكوا بها وساروا على هديها فالكتب السماوية في ذاتها قادرة على أداء رسالتها بشرط أن تظل على نقائها وصفائها أما حين تعتكر بفعل البيئة - أو تحرف بيد البشر فليس العيب فيها وإنما هو في طباع الناس ورواسب البيئات الساقطة . . . وهكذا ينزل الحق صافيا من السماء ثم لا يلبث أن يعتكر بأفاعيل الناس !!

ومما ساعد على تحريف هذه الكتب أنها لم تنزل باللفظ والمعنى من رب السماء وإنما هي معان حكيمة - مستلهمة من الله احتفظ لها رسل الله موسى وعيسى بجلالها وتأثيرها ووضاءتها وجاذبيتها . . . وسرت على ألسنتهم نغما مقدسا يلهب العاطفة ويوقظ الروح فلما ذهب الرسل الى ربهم نالها من الأتباع والقديسين ما جعلها فاسدة لا تصلح لشيء وتعددت الأناجيل - والعهود . . . تعددا أفقدها كل قيمة وكثرت التفسيرات والتعقيدات في الديانتين وتحولتا الى كهانة والغاز وأحاجي - كما كثر الدس لجذب الدين الى مصالح الناس . . . وما زالوا كذلك حتى انحرفوا عن عبادة الله الى عبادة البشر :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وماأمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون (١) » .

وتورطت الكنيسة في العصور الوسطى . . . فقامت بحركات القمع والارهاب للعلماء والمفكرين . . . وادعت السيطرة على المعرفة وهي لا تملك منها قليلا ولا كثيرا . . . وسخرت الدين بذلك للشهوات والأغراض . . . مما زهد الناس فيه وبغض

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

الكنيسة اليهم فتركوها تسبح في جهلها ورجعيتها وانطلقوا في مضمار العلم من غير دين . . ومضت حضارتهم منذ ذلك الوقت تستمد من العقل وحده وتتنكر للدين وتنهض على العلم وتخاصم الله .

وانسحبت الكنيسة عن ميادين التوجيه - بعد أن انتصر الالحاد عليها - وتمكن منها - فلم يعد يأبه بها أحد - أو يعرج عليها مخلوق . . ولذا شرعت أخيرا تستدرج الشباب اليها بوسائل الشهوة والمتاع الرخيص . . وتخلط بين الفتیان والفتيات في حفلات مخمورة !! ومما أسقط هيبتها الى الأبد ترحيبها بالعلاقات الشاذة الآثمة . . واصدارها للفتاوى المجرمة فالتقت بذلك مع كل المذاهب الاباحية وزادت فسخرت وسائل الاعلام - وأدوات التوجيه لاثارة الغرائز الدنيا .

تلك لمحة متدرجة عن تاريخ الديانتين السماويتين الكبيرتين . . وما نال التوراة - والانجيل من عبث العابثين . . نوكد من خلالها أنهما لا تصلحان لانشاء أية مدنية فاضلة . .

ومافظائع الصهيونية اليوم وتبنيها لحركات الهدم الأخلاقي - والتقويض العمراني الا انعكاس لما أحدثوه بالتوراة من تشويه . . وأين هم من التوراة - ومن موسى الكليم ؟ ! لكنهم مايزالون يتحدثون عن التوراة - ويحاربون باسمه ويفسقون على حسابه !!

وما المادية التي تجتاح الغرب الا انعكاس لما أحدثوه بالانجيل الذي مايزال القوم حتى الآن يرددون ترانيمه ممسوخة في الكنائس والأحفال الدينية . . وأين هم من الانجيل؟ ومن السيد المسيح !!

أما القرآن الكريم : فقد نزل باللفظ والمعنى من لدن رب العالمين [وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربى مبين (١)] .

فلم يحدث فيه ما حدث في غيره من الكتب المنزلة من تحريف أو تشويه وانما ظل متألفا يرسل النور في كل اتجاه - ويبعث بالضوء في كل أفق - يقرأه الناس جميعا بلسان واحد - لا تترجم ألفاظه لأنها فوق قدرة المترجمين - ولا يتعدد المصحف كما تعددت الاناجيل - ولا تتناقض آياته كما تناقضت آياتها - قد تحرف كلمة واحدة من المصحف فتقوم الدنيا وتقعده لهذا التحريف اليسير . . . وهناك هيئات متخصصة للسهر على سلامة المصحف ، وتلاوة القرآن - وقراءته ليسر لها عمل الا هذا وصدق الله العظيم اذ يقول : [انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (٢)] وكم أرادت الصهيونية العالمية - ومن قبلها الفرق المضللة أن تشوه المصحف - ولو بتغيير حركة أو سكون فما استطاعت الى ذلك سبيلا !!

والعجيب أن القرآن يزداد على الزمن جدة ونضارة كأنما نزل من السماء الآن . . . ويلاحق أحداث الحياة ملاحقة عجيبة - ويرعى تطور البشرية - ويلائم الفطرة الانسانية . . .

ولا يتصادم بحال مع السنن الكونية - ولا مع قوانين العلم التي استقرت وأخذت وضعها . . . أما النظريات التي ما تزال في طور التجربة . . . فهي عرضة للخطأ ومظنة للوهم ولهذا فهي لاتعد قانونا علميا الا حين يستقر أمرها وتثبت

(١) آيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ سورة الشعراء .

(٢) آية ٩ سورة الحجر .

صحتها عندئذ تجد من القرآن ما يشجعها ولا يتصادم معها
بحال . .

ان القرآن لا يتبع الظن - وانما يشجع الحق - ويدعمه
ويمضى معه في طريق واحد ولقد ذم الله أقواما يجرون وراء
الظنون فقال : [ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس - ولقد
جاءهم من ربهم الهدى (١)] .

وهو قول فضل في هذا المقام . . يؤكد بأن القرآن لا يؤيد
الظنون ولا يشجعها . . لأنها تخضع لهوى النفس وضلال
الشيطان . ويوضح أن الحقائق هي طريق القرآن ومنهج الله
. . وذلك هو المعبر عنه بقوله [ولقد جاءهم من ربهم الهدى] .

والهدى : هو الدليل الموصل الى الحق - المفضى الى التوفيق .
وذلك هو طريق الله وطريق العلم الصحيح - اذى يستهدف
الحق لا الباطل . . واليقين لا الظن وبهذا التصوير يصبح
القرآن كتابا عالميا تجد فيه الحياة كلها ما يسدد خطاها ويدعم
تطورها ويرعى قضاياها . . وتجد فيه الانسانية كلها ما يرفع
شأنها . . ويعلى قدرها . . ويسمو بخصائصها ومواهبها
وملكاتها . . وله من قوة الاشعاع - وقدرة الطاقة ما يوازر على
تحقيق هذا الدور الحضارى الكبير . . ولقد قام القرآن فعلا
بذلك الدور الكبير . . وامتدت رقعة نفوذه فشملت العالم كله
ورددته القاصى والدانى . وما زال يردده الى ذلك الوقت رغم

(١) آية ٢٢ سورة النجم .

وحشية القمع ، وعسف الارهاب - وما زلنا نجوب بلادا في
أرض الله .. لا نتوقع أنها تنطق حرفا واحدا عربيا لوطانة
لهجتها - فاذا بنا نسمع القرآن على ألسنة أبنائها عربيا
صافيا واضح النبرات والقسمات والله في خلقه شئون .. ومن
أراد ذلك فليتتبع أفواج الحجيج ويستمتع اليهم .. فسيرى
الأعاجيب في هذا الباب .

ان كل الحقائق التي أفضنا في شرحها - فيما يتصل
بالتفرق بين القرآن الكريم والكتب المنزلة فدنتهم في تقريرها ..
ولكننا عندما نسمعها قوية أخاذا على ألسنة المستشرقين -
الذين تنزهوا عن التعصب والمذهبية ولو لساعات قليلة - نرى
أنها لا مبالغة فيها بل هي الواقع الذي لا يشك فيه ..

ولنستمع الى الخصائص الحضارية التي استودعها الله
كتابته الخالد على لسان رينان الفيلسوف الفرنسي - الذي كان
يعانى ازدواجا في شخصيته حينما ينتصر للحق - وحينما
ينحاز لآراء قومه .

القرآن نبع حضارى متجدد

يقول رينان : [ان القرآن هو أساس الاسلام ، وقد احتفظ
بكينونته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف -
وعندما نستمع الى بعض آياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا
رجفة الوله والوجد - وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع
التي تنطوي عليها بعض تلك الآيات الالهية . . لا يسعنا الا
أن نعظم هذا الكتاب العلوى ونقدسه - وقد دلتنى تحرياتي
العلمية أنه لا صحة مطلقاً لما أريد الصاقه بالنبي محمد من
كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية والعادات
القومية التي أراد بعض المتحاملين مثل [فولتير] أن يوجهوها
اليه . . وهى افتراءات ذميمة وقحة كقولهم : انه كان يميل
الى التسييد والسيطرة مع أن التاريخ يثبت أمانته وصدقه
وتواضعه وأنه لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعة نبيلة وقلبه
طاهراً - رقيق الشعور (١)]

ثم أردف ذلك ببيان أن هذه العصمة تخص القرآن وحده .

وعندما نلقى بعض الضوء على كلام رينان نرى أنه يتضمن
مجموعة من الحقائق الضخمة التي تؤيد ما نذهب اليه - وما
قررناه من أن القرآن الكريم وحده هو نبع الحضارة العالمية
وذلك لأنه أولاً وكما يقول [رينان] - كتاب علوى يحتفظ
بكينونته القديمة - تلك الكيننة التي تجعله قادراً على التأثير
في العقول والقلوب . .

(١) من كتاب بين الحضارات والديانات لطفه مدور ص ١٢٦ - ١٢٧

والتي يظهر أثرها فيمن يقرأ هذا الكتاب الخالد - أو يستمتع
اليه اذ تعتريه انتفاضة التأثير - ورجفة الولد وهزة الوجد
ونشوة الفرح وذلك تبعاً لآياته التي تتوزع على الوعد بالجنة
والوعيد بالنار . . أو وصف أحوال الأمم وتاريخ الدول
وأوضاع الرسل مع أقوامهم وصراع الحق مع الباطل . . كل
ذلك ينتابح في مد متلاحق . . ويرمى بأواجهه في النفس
الانسانية فتتحرك معه انقباضاً وانبساطاً . .

[وريضان] يؤكد - أن تلك الخاصية مقصورة على القرآن
الكريم وحده من بين سائر الكتب المنزلة - لأنه كتاب قد سلم
من التحريف والدس . . واحتفظ بنقائه وصفائه ومقدرته على
التأثير أما نصوص التوراة والانجيل فقد تحولت الى نغمات
سمجة ثقيلة تتردد كالترانيم في الكنائس والبيع بعيدة عن أى
تأثير . . فآخرة باردة لا تورث خشية ، ولا تحدث أثراً . . !!

ولا شك أن المنهج الحضارى يفتقر الى كتاب ثابت
المنهج ، قوى التأثير حتى يندفع الناس به بنائة لصرح
الحضارات على تقوى من الله ورضوان .

والخاصية الثانية : وهى حضارية - تكمن فى روح
التشريع التى ينطوى عليها الكتاب الكريم . . ففيه من
النصوص الحية المتجددة ما يلائم روح التطور وما يدفع بعجلة
التقدم الى الأمام وانها لتشريعات تتناول الحياة كلها ولا تترك
شأناً من شئونها . . وهذه الخاصية النبى يتميز بها الفقه
الاسلامى من حيث نمائه - ومقدرته على الاستيعاب والشمول .
لأنه يستقى الاحكام من كتاب يفيض بروح التشريع ، للعبادات
والمعاملات والعقائد ، ونظم الحكم وأساليب المجتمع وفلسفة
الأخلاق . . فهو بهذا نظام متكامل للحياة الانسانية يرسى

قواعدها على أسس سليمة .. ويخصب العلوم والمعارف التي تستمد منه - وتأخذ عنه فهو يخصب الفقه ويمده بالأحكام .. وهو يخصب علم الكلام ويزخره بالعقيدة الصالحة وما شئت من معرفة حقيقية بالله ورسله واليوم الآخر .. وهو يثرى علوم الاجتماع بما يمددها به من قوانين الحكم - ونظام الحياة - وسير الحضارات .. ويمر التاريخ بأحوال الأمم القديمة وما أصابها من قوة أو ضعف وكذلك سائر المعارف الأخرى ..

أنه بذلك محيط زاخر بالمعارف السديدة - والعلوم الصحيحة .. وقد تمكن بناء النهضة القرآنية من تأسيس علوم ومعارف كلها تستقى من نبع القرآن وتأخذ عنه .

ولكن يبقى بعد ذلك .. أن نؤكد بأن هذه الخاصية تجعل منه أساساً للعلوم والمعارف وتجعله قادراً على العطاء السخي للحياة من جميع نواحيها .. تؤكد العلاقة بين هذا الكتاب الخالد وبين الحياة فهو يمنحها القوانين - والمثل الاخلاقية .. ووسائل التقدم والنهوض ويعكس عليها الجلال والجمال .. ويمضى بها على طريق الهداية والخير ويصب بكل ما فيه من هداية ومعرفة في محيطها الكبير فتزكو وتسمو وتتقدم .

ويوم يسود نظامه - وتطبق أحكامه .. يوم تعز الحياة عنه .. تضل وتميد ويلعب بها الهوى والشيطان ..

فقيمة هذا الكتاب الخالد تكمن في تطبيقه ليكون نظام الحياة المتكامل .. يعبد به الله وتحارب به الجيوش - وتحكم به الجماعة وتساس به الأمور كلها ..

هذه الخاصية التشريعية التي يشير اليها [رينان] لا توجد في كتاب آخر . . . ولا تتوفر الا في القرآن . . . فهو كتاب الحياة - ومستودع الحكمة - ومستقر المعرفة . . . ونظام السياسة والاجتماع . . . كتاب العلم النافع الذي يثير العقل ويحركه . . . لينطلق جواباً في ملكوت السموات والأرض . . . من حكم به عدل - ومن مل به أجر - ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم . . .

وما دام القرآن هو كلمة الله الأخيرة ، فهو يربط الناس بالتطور حتى لا تتقف عجلة التاريخ فحضارة القرآن خصبة ولود تمضي كما صورنا مع ركب الحياة السائر ملبية حاجات البشر متجاوبة مع أهدافهم مستوعبة لمشكلاتهم . . . تجد لكل مشكلة طارئة حلاً موفقاً ولكل سؤال جواباً سديداً . . . فلا تجمد أمام ما ترد به الأعصار والامصار من مسائل جديدة . . . لم تكن في العهد الأول للإسلام . . . بل تقيس الحاضر على الماضي - وتلحق الفرع بالأصل - وتنظر في علة الحكم التي تشملها . . . وتجتهد كذلك في الأقضية والاحكام .

وبهذا يأخذ التشريع الاسلامي سمته الحضاري ويبسط سلطانه على الحياة فلا تتفلت منه - أو تلوذ عنه لانه يلاحقها ملاحقة متطورة ويصدر عليها الأحكام الملائمة وما أجمل أن تتعانق روح التشريع مع قضايا الحياة . . . فتمضي الحياة كلها مسددة الخطا كريمة الأهداف لانها نخضع لله - وتحكم بشرعه . . . وما أقبح أن يلعب الشيطان بالناس فيضلهم عن شرع الله ودينه فيحكمون بغير ما أنزل الله - . . . وكتاب الله بين ظهرانيهم !!

وهكذا يجب أن تتألق حضارتنا في رحاب القرآن وفي جو
الايمان لتزدهر وتونق . . وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها -
وبذلك تضمن التجدد وتمضى في طريق النماء المتصاعد مع آمال
البشر - وتقدم الحياة . وينبض قلبها دائماً بنبض الحياة
ويخفق فؤادها بآمالها ويطرده سيرها على طريقها فتكون حضارة
مؤمنة ربانية - حضارة الرقى المادى والروحى معاً .

ولا يمكن لهذه الحضارة أن تجف أو تذوى أو يصوح نبتها
الاحين تنفصل عن كتابها الخالد . . وما هى الا أن ترتبط به
فتجرى فيها دورة الحياة ويعود اليها النماء والازدهار -
والحيوية والنبض - وبهذا تظل قادرة على مواجهة التحديات
الحضارية الأخرى عبر القرون لانها مزودة بما يكفل لها القوة
والقدرة والصمود والاستمرار والتجدد - وسيظل القرآن يمد
تلك الحضارة بالايمان لتضى جوانب الحياة بالأمل
والخير والحق والعدل والسلام وكل المعانى الطيبة والقيم
النبيلة . . حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

مكانة العقل في حضارة القرآن

لم تعرف الدنيا ديناً يعتمد على العقل كما عرفت ذلك للإسلام - كما لم تعرف كتاباً يعتز بالعقل * * ويطلقه من أساره ويرد عليه كرامته كما عرفت ذلك للقرآن الكريم *

فالعقل - في حضارة القرآن * * هو الذى يتفاعل مع عناصر الكون ليبنى صرح الحياة - وهو الذى ينظر فى ملكوت السموات والأرض ليتدبر آيات الله * * وهو الذى يمضى فى رحلته المباركة باحثاً عن أسرار الطبيعة - مكتشفاً لقوانين العلوم - مدركاً لروح التشريع *

ويكفى أن القرآن الكريم آيات لقوم يعقلون - ولقوم يتدبرون - ولأولى النهى - ولأولى الألباب * * وأن كما هائل من آياته تخاطب العقل وتستحثه وتستثيره ليتحرك فى رحاب الله - ويتدرج فى دراسة آثاره وأساره *

وأحكام الشريعة كلها إنما تستنبط بالعقل الرشيد من كتاب جامع لمعالم الخير - ودلائل الحق * * وبدون العقل يجمد التشريع * *

ويتحجر * * ويصبح الفقه الإسلامى قوالب جامدة وهياكل محنطة * * لا يتزيا بزى العصر ولا يلبس ثوبه الجديد *

وهكذا - نجد أحكام الشريعة لاتزدهر الا فى بيئة تعتز بالعقل - وتعتد باستنباطه وقياسه واجتهاده * * وفى العصور التى تألقت فيها المواهب العقلية - ازدهر الفقه الإسلامى * * واتسعت آفاقه * * وفى العصور التى انكمش فيها العقل * * ضمير الفقه وأصيب بالعقم والهزال *

فالحضارة القرآنية - حضارة العلم - الذى يرتكز على العقل - ويعتز بكرامته .

وحضارة الايمان - الذى يتغذى بآثار القدرة الالهية - ومشاهد الكون ومظاهر الطبيعة . . . التى يجد فيها العقل الانسانى مجالاً للفهم والادراك وتقديس آلاء الله .

وحضارة التقدم - التى تستند الى العقل فى استنباط الأحكام - ومعرفة قضايا التطور فهل هناك اعتداد بالعقل أكثر من هذا ؟

لقد امتهنت كرامة العقل وصودرت أحكامه . . فى ظل الحضارات الأخرى القديمة والحديثة لكن حضارة الاسلام لا تقول بهذا . . بل تمنح العقل صلاحيات يمضى بها قدما ليؤدى رسالته الحرة فى بناء الحياة . . وما نريد أن نكرر مأساة العقل الانسانى فى ظل الكنيسة - ولا محنته فى ظل النظم المادية المعاصرة . . فالويل لمن يفكر تفكيراً حراً أو ينتقد مالا يستسيغ من الأمور فى ظل هذه النظم !!

ومن وسائل تكريم العقل فى الاسلام . . أن المسلم لا يكون عبداً الا لله . . ويتحرر عن كل ما سواه ولنقرأ قوله سبحانه [اياك نعبد و اياك نستعين] وهى آية يرددتها ملايين المسلمين فى صلواتهم مرات عديدة فى اليوم الواحد . . وهى تعنى أن الولاة كله لله - والاستعانة كلها بالله . . وأنه لا خضوع ولا ضراعة الا لجلال عظمته .

ان هذه الآية تعنى تحرير العقل البشرى من الخضوع لغير الله سبحانه . . وتجعله سيداً للكون كله والحياة بأسرارها . . فأى تكريم هذا ؟

ان ذلك كله يعنى - أن الحضارة القرآنية . . تجدد فى العقل الانسانى ما ساعدها على الاستمرار والتجدد والنماء . . وهل الحضارة الا تطور وتجدد ونماء ؟

من آثار العقل في حضارة القرآن

أعظم ما للعقل الانساني من آثار في هذه الحضارة القرآنية
•• هو تمكينه من استنباط الأحكام - التي يصدرها على
القضايا الجديدة والأحداث الوافدة ليظل الفقه الاسلامي
متجددا مرنا يلاحق الحياة ويمضى مع نيارها •• ولا يتوقف
عن ملاحقتها •

وبذلك (١) « يصبح الدين جهدا مستمرا وعطاء دائما يزيد
الحياة خيرا والانسانية تتقدما ويحطم القيود التي تعوق مسيرته
نحو غد أكثر اشراقا وهو جهد يبدأ من الله واليه الرجعى » •

وبهذا يظل العقل الانساني في مكانة مرموقة - من حيث
اعماله في قضايا العصر ليجد حلا ملائما لها في كتاب الله أو في
سنة رسوله - أو في أعمال السلف الصالح - أو في فتاوى
الصحابة والتابعين - وهنا يدخل عنصر الحركة في حضارة
القرآن - فلا تتوقف بل تمضى قدما مع الحياة وهذه الخاصية
تجعل من القرآن كتاب حضارة متجددة •• مستمرة الى ما شاء
الله •• يقول صلى الله عليه وسلم [معاذ] حين بعثه الى
اليمن قاضيا :

« بم تحكم يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله !! قال : فان لم
تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ؟ قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد
رأبى لا آلو - أى لا أقصر - ف ضرب رسول الله في صدره
[استحسنانا لحديثه] وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول
رسول الله لما يرضى الله ورسوله » •

(١) من كلمات الدكتور عبد العزيز كامل « مواقف اسلامية » ص ٦

لماذا استحسن رسول الله كلام معاذ؟

والجواب : لأنه تهدى الى روح التشريع الاسلامى ..
وجعل من اجتهاد العقل أساساً للحكم - وقاعدة للقضاء .. اذا
لم يجد نصاً فى القرآن أو الحديث .

ومن كلمات عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فى عهده لأبى
موسى الأشعري حين ولاه القضاء وقد اعتبره المسلمون قاعدة
للأحكام وأساساً للنظام ودستوراً للقضاء العالى :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا
سنة ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى
أقربها عند الله وأشبهها بالحق » وهكذا - يجد العقل مجاله فى
التشريع الاسلامى - فيقيس ويجتهد - ليصل الى الحق -
ويصدر الحكم الصحيح .. ولاشك أن كلاً من الاجتهاد والقياس
عمل عقلى صرف وهما يأخذان وضعا كريماً فى التشريع على
عهد عمر - وبعده حين تتسع أمور الدولة وتستجد مسائل ..
ليس لها نص فى القرآن أو السند .. فلا يكون لها الا العقل ..
وقد اجتهد أئمة المسلمين فى قضايا عصرهم - واجتهد من بعدهم
فى أمور دنياهم - وكانت حضارة الاسلام فى تجدد مستمر ..
ثم حلت بالمسلمين كوارث ماحقة فى عهود الانحطاط والجمود ..
وكان من آثار ذلك أن أصيب العقل الانسانى بالشلل فأغلق
باب الاجتهاد .. لكن من الذى أغلق هذا الباب ؟

انه الجمود والتخلف - والعجز عن مسايرة الأحداث ..
ومواجهة تيارات الحياة وكان اغلاق باب الاجتهاد ظاهرة
مرضية دلت على عقم الأفكار وجذب القرائح ونضوب الملكات -
وتوقفت تبعاً لذلك حركة الحضارة القرآنية .. وفقدت أعز
عناصرها وأروع خصائصها ..

حركات الإصلاح الدينى :

بعد المد القوى الذى تميز به الفقه الإسلامى فى عصور
الازدهار وبعد عصر الأئمة الاربعة .. وكلها عهود خصبة ولود
.. أثرت الحضارة - ونضرت وجهها .. وكان الدين عامل بعث
- ودعامة تقدم ونهوض .. بما يحمل من قوة دافعة وعقيدة
روحية سامية - وأهداف تقدمية للحياة ..

ولكن الحضارة الإسلامية .. تأخذ فى الانحدار رويداً
رويداً بسبب عوامل كثيرة سنفصلها فى الفصل القادم ان شاء
الله .. ويصبح الدين بمرور الزمن مجرد شكل لا مضمون له ..
فلا حركته تنظم الحياة ، ولا سره يزكى النفس ، ولا عقيدته
تكافح البدع والخرافات ، ولا أحكامه تطرد بالاجتهاد والثياس ..

وهكذا منذ الدولة العباسية يغرق الدين فى المظاهر ..
ويبدو أثره فى المراكب .. وتذور شعاراته حول تأييد الخلفاء ..
ثم يمعن فى هذا الاتجاه .. حتى تتجمد حركته - وتتوقف
نهضته فى عهود الأتراك - وتتأنوشه الفتن والكوارث على يد
المترو والصليبيين .. ويناله من التشويه - والمسح فى تلك
العصور ما يصيره جسداً من غير روح ..

ويغلق باب الاجتهاد .. فلا يوجد من يفتى فى المسائل
الجديدة أو يعالج القضايا الطارئة وتلك آفات كبار ، تعوق المد
الحضارى .. وتتوقف تياره ..

وما من شك فى أن ما أصاب الدين من مسخ وتشويه هو
من أهم أسباب الشلل الحضارى .. وقد تنادت أصوات
المصلحين من هنا وهناك لتحاول رد الشين الى مكانه من الحياة
.. وتحرير العقائد من البدع والخرافات - وتنقية جوها من
الشرك والوثنية ..

والعودة بالشريعة الاسلامية الى مصادرها الأصلية
ومواردها العذبة .. ليرجع اليها صفاؤها وجلالها .. ثم
معالجة الجمود الذي تمكن من الشريعة بفتح باب الاجتهاد
ليتمكن العقل من أداء رسالته في الدين - وفي الحياة البشرية ..

لقد قام لفيف من المصلحين - في حقب متقاربة من هذه
العهود - ينفخون في هذا الهيكل الرميم وينادون بضرورة
الاصلاح ولكن نداءهم كان في الأعم الغالب صيحة في واد ، أو
نفخة في رماد ، وبعضهم أصاب الهدف - وبعضهم اقترب منه
.. ولكنهم جميعاً كانوا مخلصين .. على تفاوت بينهم في
التطرف أو الاعتدال ..

كانوا رواداً دينيين .. يريدون أن يغيروا وضع الدين في
المجتمع ويعيدوا اليه جلاله - وجهاله - ليستطع من جديد في
آفاق الوجود فيبدد حاشية الظلام وعلى رأس هؤلاء جميعاً -
ابن تيمية - وابن القيم ..

ومنهم محمد بن عبد انرهاب شأن متأثراً بابن تيمية -
وقد ازدهرت دعوته في نجد - وأثمرت ثماراً طيبة ولكنها ظلت
اقليمية لم تمتد الى العالم الاسلامي .. وان امتدت روحها في
الحركات الاسلامية الأخرى .. وتهدف الى تنقية الاسلام من
شوائب الشرك والوثنية - ومنع التوسل بالانبياء والاولياء
والصالحين - ومجاربة البدع - والعودة الى كتاب الله وسنة
رسوله ..

وقد لقي هذا الشيخ تأييداً من أمير الدرعية (محمد بن
سعود) فاحتضن دعوته وناصرها وماتزال هذه المبادئ سائدة
في السعودية حتى وقتنا هذا .. وكانت وفاة الشيخ عام ١٢٠٦هـ ..

ثم جاء الأفغانى . . الذى طوف فى العالم الاسلامى كله
يحمل الاصلاح الدينى - ويدعو الى الوحدة الاسلامية . . ليدفع
بها غائلة المستعمر والى الحكومة الدستورية ليفمع ثرة المستبد
. . وكان يرمى الى تحرير العقليّة الاسلامية ليعود اليها صفاؤها
فتجتهد وتقيس . . وتفهم أسرار الوجود - ومراد الوحي المقدس
. . كما كان يأسى لتخلف المسلمين فى مضمار الحضارة وعودهم
عن ملاحقة الركب . . واستكانتهم للمستعمر .

ولقد كان ثائراً شديداً الثورة . . ولكنه كان فصيح المنطق
قوى الحجّة - جريئاً لا يرهب أحداً فى الحق - وكان يحمد الله أن
آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل
ما يقول : ومن امتزاج هذه السمائل فيه ، اتسعت حوله الأرض
وامتد أمامه الأفق وانصرف همه البعيد عن الدار والزوج
والعشيرة الى الوطن الاسلامى كله - وقد آمن بدعوته ايمانه
بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل
شهادة .

وقد أثر فى عصره - وترك من بعده تلامبذ تبناوا مذهبه -
وساروا على نهجه . . ولم يكن تلامبذه فى مكان واحد من الوطن
الاسلامى بل هم متفرقون فى جنباته . . وعندما تقوم دعوة
[جمال الدين] بروح الانصاف . . نقول : انها ذات بواعث دينية
مخلصة - أراد من ورائها أن يبدأ بتغيير نظام الحكم . .
فاتخذت طابع الثورة والعنف وامتزجت بالسياسة منذ أول
لحظة . . واذا لم تكن قد نجحت فيما هدفت اليه فقد أوجدت
مدرسة تؤمن بالعقل - وتناقش بالمنطق - وتركز على الوحدة
الاسلامية . .

لقد أوجد [الأفغانى] فى العالم الاسلامى رأيا عاماً
متفتحاً - يؤمن بالتطور . . ويهتف بالحرية . . ويندد
بالمستبدين . . ومات سنة ١٨٩٧ م .

وجاء من بعده بل من أعظم تلاميذه [الشيخ محمد عبده] -
الذى رأى أن الاصلاح الدينى لا يتم الا عن طريق التربية
الدينية . . فسلك اليه سبيلاً رقيقاً - متأنياً . . وبدأ باصلاح
علم الكلام . . والاعتماد على العقل فى تفسير القرآن وفتح باب
الاجتهاد ومكافحة البدع والخرافات . . وقد اشترك فى
السياسة ثم عاد فاجتواها ولعنها ولم يترك مؤلفات كثيرة لأن
المناصب التى شغلها حالت بينه وبين التأليف . . وله كتاب
الاسلام والنصرانية - وتصدى للمبشرين برود قاطعة وردة
على هانوتو الفرنسى مشهور معروف . . ومات الامام عام
١٩٠٥ م

ولقد قام الكواكبي . . يدعو الى حرية الفكر - وكرامة
العقل - ومكافحة المستبد - وتطهير الدين من الخرافات . .
وهو شامى حلبى ، وكان صحفياً بليغاً ، ومسلماً متحرراً ، وهو
من تلاميذ الامام ، الذين اشتهروا بمقاومة الاستبداد التركى -
ودعوا الى العلم الذى يحرر أصحابه من العبودية والرق .

ومن دعاة الاصلاح والتحرير الدينى ، الفيلسوف محمد
اقبال ، وماتزال كلماته النابهة أجراساً قارعة على دروب
التجديد - وثورة على الجمود والرجعية ، ودعوة صريحة الى
فتح باب الاجتهاد وتطوير أساليب الدعوة الى الله لتساير
منطق العصر :

ومن هؤلاء أبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي • •
وكلهم ينادى بتحرير الفكر الاسلامي من الجمود ليتمكن الدين
من قيادة الحياة ، وتتمكن حضارة القرآن ، أن تسود من جديد ،
ولقد نظر هؤلاء المصلحون - الى جوهر الدين - ورأوا بثاقب
فكرهم أن المسلمين لا يتقدمون في بلادهم الا بدفعة دينية قوية •

ورأوا في اغلاق باب الاجتهاد جريمة شنعاء بعد أن فقهوا
قول ربهم [ان في ذلك لذكر لمن كان له قلب - ان في ذلك لآيات
لقوم يعقلون] وهي آيات كثيرة في كتاب الله تهيب بالعقل
البشرى أن يؤدي دوره في استنباط الأحكام وتطوير الحياة -
وملاحقة أحداثها •

الاجتهاد وأثره في تطوير الفكر

يقول محمد اقبال في كتابه الخالد « تجديد الفكر الديني في الاسلام » :

« ان القرآن هو الأصل الاول للشرعية - وهو ليس موسوعة قانونية - لأن غرضه الاساسى أن يبعث في الانسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله - وبما بينه وبين الكون من صلوات - وليس من شك في أنه يقرر بعض المبادئ والأحكام العامة للتشريع » . .

ومغزى هذا الكلام . . أن على العقل البشرى أن يمضى مع تيار الأحداث المعاصرة مستهدياً بالقرآن والسنة مجتهداً ماوسعه الاجتهاد . . لأن القرآن ليس موسوعة قانونية فيها كل الاحكام - والقوانين . . بل انه يتعرض للخطوط العامة وأمهات المسائل الكبرى . .

ويقول بعض الكتاب المعاصرين الباحثين في الفقه الاسلامى (١) :

« على أن المذاهب الأربعة مع احاطتها وشمولها ليست الا تفسيرات فردية لم يهجم بخاطر واحد من أئمتها الزام أحد بانتباع مذهبه وانما تركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه للناس، وهم الذين أغلقوه بعد أن فشا الجهل وتغلبت الأهواء على

(١) من كتاب تاريخ التشريع واحوال الفقه للمرحوم احمد أبو الفتح

العقول فأجمع الفقهاء على اغلاق باب الاجتهاد المطلق المستقل
وأن يكون العمل بمقتضى المذاهب الأربعة » .

وهذا الكلام يزيد - على ما مر - بأنه وضح لنا سبب
اغلاق باب الاجتهاد وهو تغلب الأهواء وانتشار الجهل - وأن
الفقهاء بسبب ذلك قد أجمعوا على تعطيل الاجتهاد المطلق
المستقل واقتصروا على المذاهب الأربعة .

والحقيقة أننا نرى أن الحاجة ماسة جداً الى نوع من
الاجتهاد وهو الذى يتناول المسائل الجديدة فحسب - تلك
المسائل التى بات الافتاء فيها واجباً . . فقد أوجدت النظم
الاقتصادية المعاصرة ألواناً من المعاملات . . ما يزال الافتاء فيها
خاضعاً لهوى الأفراد ، منهم من يحل ومنهم من يحرم . . ولا بد
من هيئة متخصصة (كمجمع البحوث) تقول رأيها صريحاً
واضحاً لا لبس فيه - وما أكثر المسائل التى تنتظر البت فيها ،
أما الموضوعات التى أفتى فيها الأئمة الأربعة فليس هناك
مقتضى لاعادة النظر فيها الا عندما يظهر عدم ملاءمتها . .

ولأن الاجتهاد هو سر حيوية الفقه ، وازدهار التشريع ،
نسمع مستشرقاً مثل « فون كريمر » يقول معللاً هذه الحيوية :
انما كان ذلك لما تحلى به فقهاؤه من عمق ودقة فى التشريع
واجتهاد فيه [.

ان هؤلاء جميعاً يرون فى الاجتهاد هزية رائعة بالنسبة
لحضارة القرآن فهو الذى يجعلها أشبه بالماء المتجدد لا الماء
الراكد الآسن الذى تتولد فيه الحشرات ويرتفع البعوض .

وهذه الهزية تجعل من هذه الحضارة منطلقاً يمتد ويتنامى
ليغضى احتياجات البيئة المتجددة ويلبى نداءها - ولقد مارسه

الثقافات الأعلام في عصور التاريخ الزاهرة ، اجتهد عمر في الغاء
سهم المؤلفه قلوبهم - بعد أن ذهبت الحاجة اليه لأن الله أعز
الاسلام ولم يعد أحد في حاجة الى تأليف ٠٠ فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر ، كما اجتهد فألغى حد السرقة في عام المجاعة
لأن السارق مضطر ومعرض للموت ، كما أنه جمع المسلمين على
صلاة التراويح عشرين ركعة ٠٠ وأنهى ما كان يسود المجتمع
من خلاف فقد كان بعضهم يصلونها ثمانى ركعات ٠٠ وبعضهم
يصلونها عشرين ٠٠ واشتد الخلاف بين الفريقين فجمعهما عمر
على خطة سواء ٠٠ ورأى في هذا الاجتماع مظهراً من مظاهر
الوحدة الاسلامية ، ولقد اجتهد هذا الخليفة العظيم في كثير ٠٠
وله فكر اقتصادى متميز .

واجتهد غير عمر ممن جاءوا بعده - وما يزال الخير موجوداً
في هذه الأمة الى يوم الدين فهناك علماء قد نجهل أسماءهم
وشخصياتهم ، وفيهم أهلية الاجتهاد ٠٠

ولسنا ممن يقول : لم يترك الاوائل للأواخر شيئاً ٠٠
ولكننا نقول كم ترك الاوائل للأواخر أشياء وهل يطالب الاوائل
باختراع قضايا ومسائل ليست في عصورهم ليوجدوا لها حلولاً
ملائمة ؟ ٠٠ ان لكل عصر سمته ومشكلاته وقضاياها ٠٠ وقد
تعقدت أموره - وجدت مسائل لم تكن من قبل فلنجتهد كما
اجتهدوا وجزاهم الله عنا خير الجزاء أما أن نهدر ملكاتنا ونلغى
عقولنا - ونلوذ بالصمت فذلك جبن عن المواجهة الجريئة -
وتقصير في حمل الأمانة - وخيانة لله ورسوله .

ان خصائص مدنيتنا الاصلية الزاهية تجد حيويتها في
الاجتهاد ٠٠ وانه لشيء مؤلم حقاً أن تزيف تلك الخصائص على
أيدينا فتنكمش وتضمر ٠٠ فهل يعود العقل الاسلامى الى
التمحيص والبحث ويمارس الاجتهاد ؟

يقول المستشرق الفرنسي رينان : [وما يدرينا بأن يعرد العقل الاسلامى الولود - والكثير المواهب الى ابداع مدنية أروع من زميلتها بل ما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوربية الحالية التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم فى خصائصها العليا] .

ان الرجل الأجنبى يذرف الدمع على مأساة التحجر العقلى التى منى بها الفكر الاسلامى ويمنى نفسه بأن يعود العقل الاسلامى الولود الى الابداع والبحث مرة أخرى لينشئ مدنية أكثر ملاءمة للحياة . . ويرى أن حضارة أوربا - قد استمدت خصائصها العليا من الاسلام . . ويتوعد تلك المدنية الأوربية بمصير فاجع عندما يزدهر الفكر الاسلامى ثم يتوسع الرجل الأجنبى فى تبرير الجمود العقلى للمسلمين - ويؤكد بأنه ظاهرة تصيب كل الامم فيقول :

« لا يصح لأوربا أن تطبع الاديان الغير مسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً اذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية . . ان محمداً العظيم - قد أتى بديانة انبتقت عنها مدنية عالمية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرين بالجمود والتخلف ففترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الدول بما فيها أوربا المتعجرفة » .

وهو كلام يدور كله حول تبرير الجمود الذى أصيب به المسلمون - ويستنهض عزائمهم - ليسدوا الثغرات الموجودة فى صرح بنائهم الحضارى . . بالاجتهاد الذى ينشأ عنه تحرر الفكر وازدهار المدنية وانطلاق الحياة بما كان من قبل .

ويقول الشيخ محمد عبده (١) معلقاً على كلمات رينان مبدئياً اعجابه بدفاعه عن المدنية الإسلامية : « تالله لو انبريت أنا بنفسى للدفاع عن الإسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده كما أجاد ذلك العبقرى * * ثم قال : ومما يزيد هذا الدفاع رونقاً وجلالاً صدوره عن لسان أجنبي غريب عن الإسلام ينصفه بهذه الروعة - ثم ينتقد دينه ثم يختتم الامام كلامه بقوله : فمرحى مرحى وعليك السلام يا ابن الكرام !! » * *

وقد نجد لرينان تصريحاً من أجل ما قرأنا في انصاف الإسلام - ومدنيته والاشادة بخاصية الاجتهاد الذى لم يوجد فى المسيحية * * ولا كان سمة من سماتها لأنها يعتمد التحرر العقلى * * والفهم الذكى ومن أين للكنيسة بذلك ؟

يقول : | انه ليس فى الإسلام أساطير ولا خرافات فالمجهود العلمى والمنطقى بارزان فى معظم الأفكار الإسلامية - فاذا درست مذاهبه الأربعة لا تجد غير دساتير أخلاقية منيئة - وشواعر روحية سامية ، وقواعد تعبدية منسجمة - ترمى فى النتيجة الى تحرير الحق من كل باطل - وما البروتستانتية التى نشرها الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون فى أواخر القرون الوسطى بأوروبا الا صورة لتقليد البساطة الإسلامية - سواء فى طقوس العبادة أو فى استئصال عادات الزخرفة المقتبسة من أساطير الاغريق » *

وفى هذا التصريح الأخير يبرز أمران على جانب عظيم من الأهمية :

(١) من مقال نشر بمجلة العروة الوثقى فى حبه .

(أ) الاشادة بالمذاهب الاسلامية - النى حررت الفقه الاسلامى من الجمود وضبطت مسائله وحددت وسائله واجتهدت بالعقل الملم والفكر المتحرر والقريحة الصافية .

(ب) الاعتراف الواضح بنزعة التحرر التى أسبغها الاسلام على المسيحية الثائرة على الجمود الكنسى - الذى امتن كرامة العقل - واحتكر مسائل العلم - ووأد حرية الانسان وهذا الاعتراف الأخير سنرجع اليه بعد قليل لانه فى غاية الاهمية . .

ولقد كان رينان فى أخريات أيامه باحثاً حراً فى الأديان . . بعد أن تحرر من الرهينة التى لم يرض عن نظامها . . وشرع يسدد الضربات الى المسيحية المخرفة . . ويشيد بالاسلام ومناهجه الفذة فى البحث والاستدلال - وكانت عاقبته أن كفرته الكنيسة - ونبذته . .

ولقد نرى الحرارة والاخلاص فى كتابات اقبال والمودودى فيما يتصل بوجوب فتح باب الاجتهاد ليسهم فى انشاء فقه أفضل - ومدنية أمثل . . ونرى هذا الاخلاص يبلغ مداه عند اقبال اذ يقول : « العالم الاسلامى اليوم يتأثر بما يواجهه من قوة جديدة أطلقها من عقالها تطور الفكر الانسانى تطوراً عظيماً فى جميع مناحيه - وانى لا أرى ذلك موجباً للتمسك بهذا الرأى الجائر - اغلاق باب الاجتهاد - والرأى عندى هو ما ينادى به الجيل الحاضر من أحرار الفكر فى الاسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم وعلى هدى ما تقلب من أحداث العصر - انه رأى له ما يسوغه كل التسويغ - كما أن حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقى بالتدريج يقتضى أن نجعل لكل جيل الحق فى أن يهتدى بما ورثه من آثار أسلافه - من غير أن يعوقه ذلك من مشكلاته -

ثم يقول . . ان الطريقة التي اتبعها نبي عالمي كمحمد في التشريع هو أنه يعلم أمة معينة ويتخذ منها نواة لبناء شريعة عالمية - وهو بهذا العمل يؤدي حق المجتمع الكبير « اه .

وهذا الفيلسوف يرمى الى أكثر مما ندعو اليه . . لأنه يريد تجديد أسلوب الدعوة الى الله بحيث تلائم روح العصر وتلبس ثوب الحياة الجديد . . وتفسر المبادئ التشريعية تفسيراً عصرياً يقتنع به المثقفون وأصحاب النظريات الجديدة والعلوم الحديثة . . لا أن تتجمد في قوالب محفوظة نردها ترديداً أبليه . . دون التفات الى مقتضيات العصر . . ولا ربط بين الحياة والدين . . انه يطالب بأسلوب عصري في الفهم والأداء وتفسير التشريع كما أنه ينادى أيضاً بوجوب الاجتهاد في المسائل الجديدة حتى لا يتوقف المد الفقهي ولا شك - أن « اقبال » بهذه النزعة الرامية الى التجديد يعد طليعة فكرية اسلامية رائدة . . ونرى فعلاً أنه لا بد من أن نعيش حياتنا طويلاً وعرضاً وعمقاً . . نفهم أسرارها ، ونستبطن دخالها ، وندقق في فهم اتجاهاتها . . ثم نربطها بالدين لا أن نتحول الى دمي جامدة مكرورة ما تسمعه هنا تسمعه هناك .

لا بد من فهم جديد وتفسير جديد وربط جديد واستيعاب لمطالب العصر . . وكل ذلك يدعو الى ثقافة متكاملة تعين على الادراك السليم - وتطوير المعرفة الدينية لا أن نعيش على هامش الحياة . . وهذا بدوره يؤدي الى فاعلية الدين وربط الناس بمدنيته ويقول أبو الأعلى (١) المودودي مؤكداً فتح باب الاجتهاد داعياً الى استعمال العقل :

(١) من كتابه نحن والحضارة الغربية ص ٢٠٠ بتصرف بسيط .

« من من المسلمين يستطيع أن يجحد فضل الأئمة الفقهاء
والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ؟ ولكنهم على كل
حال كانوا بشراً وكانوا يملكون من اكتساب وسائل العلم ما هو
حاصل لعامة بنى آدم ولم يكن يأتيهم الوحي وإنما كانوا
يستعملون عقولهم وبصيرتهم ليسبروا غور كتاب الله وسنة
رسوله فكل ما تحقق عندهم من المبادئ كانوا يستنبطون منه
الفروع للقوانين والمعتقدات فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون
عوناً لنا ونوراً يسعى بين أيدينا ولكنه بداته لم يكن ليتخذ
أصلاً ومصدراً - وإن الإنسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم
بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فإن اجتهاده لا يمكن
أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للدنيا لأن التعقل
والعلم الإنساني يتقيدان أبداً بقيود الزمان - وإن كان هناك
من يتحرر عن ملابسات الزمان والمكان فهو اله العالم وحده » .

ويتابع حملته قائلاً : [القرآن والسنة هما المنبع الذى
يستنبط منه جميع البشر فى كل زمان ومكان علوماً وأفكاراً
وقوانين بحسب أحوالهم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم
وضروراتهم وما دام العلماء المسلمون يستمدون العلم من هذا
المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند
الى التفكير الصحيح فإن الاسلام سىظل يسابر الزمن ولكنهم
تركوا التدبر فى القرآن - والتفحص فى الأحاديث وراحوا يقلدون
السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى واتخذوا اجتهاد
الفقهاء والمتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يعدل وجعلوا
الفروع التى استنبطها السلف هى الأصل مكان أصول الكتاب
والسنة - ولما حدث هذا كله وقف سير الاسلام بغتة وجعلت
قدمه تتراجع الى الوراء بدل أن يخطو الى الأمام وغدا حملته
وورثته ينغمسون فى شرح وتفسير المسائل القديمة بدل أن
يهدوا العالم فى ميادين العلم والعمل الخ » .

مامغزى هذا الكلام ؟

انه يرمى - كاقبال - الى تجديد شامل - وارتباط بالمنابع
الأصيلة للتشريع - وهما الكتاب والسنة . . . وأن نحزر
عقولنا من الجمود - وأن نطلع عن تناول المسائل القديمة الجافة
- وأن نطور معرفتنا الدينية لنقود المسلمين الى العلم والعمل -
وهذا كلام يوجب علينا - أن ننظر فى أساليب الكتب الدينية . . .
وعباراتها المعقدة - ومفاهيمها البالية - فالحق أن كتب التوحيد
مثلا لا تهدى الى معرفة نافعة . . . ولا تشعل عاطفة القدين . . .
ولا تكسب الدليل الواضح . . . ولا ترد شباب الاسلام من
الجموح الى الهداية الراشدة .

وكتب الفقه والتفسير والحديث ينبغى أن يعاد النظر فى
أسلوبها وشرحها . . . وكذلك البلاغة العربية . . . التى يجب أن
تهتم بالنصوص ونقد الأساليب ، لا أن تسرف فى ارجاع
الضمائر - واخراج المحترزاد والتفنن فى المصطلحات القديمة .

كل ذلك من وسائل الاصلاح - التى ترمى الى تيسير
المعرفة - وفهم مطالب البيئة - وازدهار المدنية الاسلامية . . .
انه الاجتهاد العام الشامل الذى يعود بنا الى الكتاب والسنة
لا التعبد بما قاله السلف - ولا التعصب للأراء التى
استنبطوها . . . فلدينا المصادر التى استقوا منها . . . ومن
حقنا أن نمارس الفهم تبعاً لروح العصر .

ان الاجتهاد - والقياس - والاجماع . . . كلها وسائل تمكن
العقل الواعى من أداء رسالته وتحقيق أهدافه . . . وكلها لابد
أن تستند الى مأخذ صحيح يوجبها ويقتضيها .

يقول الأمدى فى كتاب الأحكام مشيراً الى الاجماع • [اتفق
الجميع على أن الأمة لا تجتمع على الحكم الا عن مأخذ ومستند
يوجب اجتماعها] • •

ومعنى هذا أن الاجماع عمل عقلى يعتمد على مأخذ ويستند
الى موجب ولا شك أن العقل هو الذى يدرك ثم يقره الرأى العام
المتخصص ليكون اجماعاً • •

فالبحت فى الأدلة - ودراستها بروح العصر - قد ينشأ عنه
فهم جديد لحكم من أحكام الله ويرضى عنه أهل الرأى فيصبح
اجماعاً • • فيكون الاجماع بهذا الفهم وسيلة من وسائل
التيسير - ورعاية المصالح • •

والاجتهاد • • ، بذل الجهد للوصول الى الحق • • والمجتهد
قد يتخذ القياس وسيلة من وسائله وقد يجتهد بالفهم من
الدليل • • وبذلك يختلف الاجتهاد عن انقياس • • فالاجتهاد
عمل المجتهد - والقياس وسيلة من وسائله • •

لكن الشافعى رضى الله عنه يجعلها اسمين لمعنى واحد •

يقول فى الرسالة : [هل الاجتهاد هو القياس ؟ أم هما
مفترقان • • قلت : هما اسمان لمعنى واحد] •

على أى حال • • فنحن نرى أن كلا من الاجتهاد والقياس
عمل عقلى يثرى الأحكام ويزيد الحياة العلمية خصباً ونماءً • •
سواء اتفقا أم اختلفا !!

ويقول الشوكانى : [اتفقوا على حجبة القياس الصادر منه
صلى الله عليه وسلم] •

ونحن نقول : وكذلك ان صدر عن غيره - وكان له مساع
شرعى وسلمت وسائله - بأن كانت علة الأصل موجودة في
الفرع فحينئذ يثبت للفرع حكم الاصل .

ومن هنا فانه يجب أن ندرك بأن الفقه الاسلامى قد توقف
منذ زمن ليس بالبعيد - لان المسلمين قد ابتلوا بمصائب هددتهم
في ديارهم - وصرفتهم عن أهدافهم - وانحرفت بخط حضارتهم
.. وعلى رأس .. هذه النكبات - الغزو التتري - والصليبي -
والجمود التركي والاستعمار ، ومن قبل ذلك .. نكبة الأندلس
- ومأساة فلسطين - ومنازعاتنا الداخلية - وتفكك وحدة
المسلمين - واستسلامهم للظروف .. كلها عوامل صرفت جهود
المسلمين عن الابداع والتقدم وحولت العلوم الى مسائل نظرية
وذهنية - وفصلتنا عن ينابيع شريعتنا - فانصرفنا عن
التطبيق الحى - والتوليد المثمر - وفي أثناء توقف الفقه
الاسلامى كان العالم يتطور بسرعة مذهلة - حيث اخترعت
الآلة وأحدثت تغييرات في العلاقات البشرية .. لم يضع
المسلمون مايناسبها من الاحكام .. ولم يدلوا برأى في هذا
العالم الجديد .. وما نشأ فيه من ظروف اقتصادية ..

وعندما نقول بالتنوير : فاننا نفرق بين الشريعة والفقه
.. فالشريعة مصدر ثابت يحتوى المبادئ العامة .. أما الفقه
- فهو القانون المتطور الذى يستقى من الشريعة وهو عنصر لا
ينبغى أن يتوقف عند عصر أو جيل لأننا مرتبط بالحياة
المتجددة ..

والامل معقود على الأزهر الشريف في تحرير الفقه الاسلامى
.. بل الفكر الاسلامى كله .. وفي تحريكه أيضاً ليظل دائماً
ملائماً لروح العصر مستوعباً للقضاء الجديدة بحيث يبرز الفقه

في ثوبه الجديد وهو ثوب عصرى ملائم يجدر فيه القارىء
العصرى ما يبدد شكوكه - ويرضى مطامحه - وتجد فيه
حضارة القرآن ما يساعدها على الانطلاق والتجدد والنماء
المستمر .

(ب) ثبات صبغتها وابتعادها عن أهواء البشر :

ومن الخصائص الكبرى لحضارتنا القرآنية - أنها ذات
صبغة الهية - ما دامت مرتبطة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه . . وهذا يجعلها ذات صبغة ثابتة في خطوطها
الكبرى ومراميها البعيدة . . ويحصنها ضد أهواء البشر
وشهواتهم لأن الحلال والحرام والخير والشر - وما يجوز وما
لا يجوز كلها أمور ثابتة في كتاب الله وسنة رسوله . . وكلها
تطبق على البشرية بطريقة واحدة لا فرق بين كبير وصغير ولا
بين حاكم ومحكوم ولا بين رجل وامرأة . . الجميع أمام
التشريع سواء .

ولو أن تشريعاً بشرياً صدر عن جماعة أو أمة لما أمكن
أن ينزله عن نزعات الهوى الى الحد الفنى بنشئ الثقة فيه أو
العمل به . . لأننا لا نأمن أن يكون هذا الفانون لمصلحة طبقة من
الأمة دون طبقة - كطبقة العمال مثلاً - كما لا نأمن أن يكون
لمصالح جنس دون جنس بأن تراعى فيه مصالح الرجال دون
النساء كما حدث في معظم قوانين العالم حيث اعتبرت المرأة من
سقط المتاع . . أو تستهدف فيه مصالح فئة دون فئة كمصلحة
الجيش - أو القضاة أو رجال الدين دون مصالح الفئات الأخرى
. . ومن هنا يجيء الاختلال وينشأ الظلام ، وماسى العالم كله في
القرون الوسطى ناجمة عن هذا الاتجاه . .

وعنصر الطاعة والالتزام والتوقير انما يتوفر للمنهج
الرباني بخلاف غيره من المناهج البشرية .. فان الناس تنمرد
عليها وتنتقدها وتتهمها ..

وتحليل الحلال وتحريم الحرام في هذا المنهج الالهي من
خصائص المولى عز وجل .. فليس لأحد أن يحرم أو يحلل ..
« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين (١) » .. وعندما يحلل القرآن أو يحرم
.. فانه يربط هذه الأمور بالعقيدة التي تجعل المسلم يبادر
بالامتثال ويسارع اليه .. لأنه بعد أن آمن بربه لا يسعه الا
أن يحل حلاله ويحرم حرامه .. ولا يجد لنفسه حيرة فيما
اختاره ربه .

ومن ثم فقد مكث الرسول ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة
يعلم القوم « لا اله الا الله » وبعد أن استوثق من غرس العقيدة
في أعماق الضمير شرع يبني عليها .. فبدأت الأوامر والنواهي
التي لا يسع من استسلم لله الا أن ينفذها بعد أن لم يعد للمسلم
في نفسه شيء . وبعد أن لم يعد يرى لنفسه اختياراً الى جانب
ربه .. لأن العقدة الكبرى قد انحلت - وهي عقدة الشرك
والجاهلية .. فكل شيء بعد هين ميسور .

لقد نزل تحريم الخمر والكثوس مترعة على أكف القوم ،
والشفاه متلمظة ، والأكباد متقدة ، والفزوات حامية حادة
مستعرة ، فاذا بالقوم يكسرون تلك الكثوس ويريقونها على
الأرض ، ويخرجون بالدنان الى شوارع المدينة وسككها فتسيل
بالخمر وتظل راثحتها الى أمد طويل ، رائدهم في ذلك « واتقوا
الله واسمعوا » .

(١) آية ٨٧ سورة المائدة .

[يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم
لما يحييكم (١)] •

وبهذا التكوين العميق لضمير القوم ، أصبح كل شيء
ميسورا وانطوى بساط الجاهلية وطعنها الاسلام في تقاليدها
الكبرى طعنة نجلاء خرت على أثرها صريعة تتلوى ، لتحل
محلها شريعة الله وأحكامه - ولم تكن الرجعية الجاهلية
لتنازل عن تقاليدها بسهولة وانما استماتت في الدفاع عن
نفسها ، وفي الحفاظ على تقاليدها وشهواتها ، ولما لم تجد
لنفسها مجالا تعيش فيه •• بعد أن استسلم القوم لله -
استسلمت هي وألقت السلاح ودخلت في هذا التغيير الاسلامي -
واعتنقته وآمنت به ، ثم تفاعلت معه ودافعت عنه ، ثم وصل
بها الأمر أن ضحت بالروح والمال والولد في سبيله !!

كل ذلك ، لأن هذا التغيير قام على أسس سليمة ، عندما
تعهد أولا ضمائر القوم فغرس فيها العقيدة ثم بدأ بعد ذلك
يلقى بالتكاليف ••

ان التحليل والتحرير انما يخصصان لأمر خارجة عن
طاقاتنا ومعرفتنا ، قد نفهم سرها في بعض الأحيان • وقد نجعل
من ذلك الكثير ، وقد نجعل السر كله ، وقد يأتي الوقت الذي
نفسر فيه ذلك السر ، بواسطة العلم - أو التجارب •• والمهم
أننا في كل ذلك نستجيب لقدر معتقدين أن الله وحده هو
الذي يعلم مصالح العباد وسعادتهم - وأن في تحريم أمر ما
مصلحة عليا أو حكمة خافية قد استأثر بها علم الله الذي وسع
كل شيء علماً ولقد كنا نسمع حديث البخاري ومسلم [إذا وقع
الذباب في اناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في أحد جناحيه

(١) آية ٢٤ سورة الانفال •

داء وفي الآخر دواء (١) [زاد مسلم] وانه ينتقى بجناحه الذى فيه
الدواء جناحه الذى فيه الداء [• وكم تشكك الناس فى هذا الأمر
- وطعنوا فى الحديث • • لأن غمس الذباب فى الاناء مما تعافه
النفس وتستقذره ••

وظلوا : يتساءلون عن الحكمة •• ثم جاء العلم فأثبت
أن هناك جراثيم موجبة على أحد الجناحين وسالبة على الثانى،
وأن الغمس يحقق المصلحة لأن أحد الجناحين سيبطل عمل
الآخر •

وقد جاء أيضاً تحريم لحم الخنزير ، فتشكك الناس فى
الأمر ، وقالوا : ان قوما يأكلونه فلا يصابون بأذى ؛ وان
صحتهم دائماً لقوية ، ثم ثبت بعد أنه يورث الدودة الشريطية
ثم ما يزال الطب يكتشف أضراره الى اليوم •

ففى جريدة الأخبار بتاريخ ١١/١/١٩٧٢ ، نشرت مقالا
تقول فيه :

« اتضح أن دهن الخنزير يسبب حصوة المرارة ويؤدى الى
زيادة [الكولسترول] وتصلب الشرايين كما أثبت الدكتور
« دام » الدانمركى - وتحدث بهذه النتائج الى الدكتور المصرى
عبد القادر سيد أحمد الأستاذ المساعد بصيدلة القاهرة منذ عامين
وبعد أن كانوا يجهلون التفسير العلمى لهذا الأمر أصبحوا
يعرفون بأن دهن الخنزير مركب بطريقة تخالف سائر
الدهون » ا ، هـ

وهكذا لا يحرم الله شيئاً الا لحكمة ، قد نجهلها فى حينها
ثم يجيء الوقت الذى يكشف فيه العلم عن أسرارها - أو بعض
أسرارها •

(١) رواه أبو هريرة - وفى رواية ابن ماجة اذا وقع فى الطعام ••

والمسلم ينتقاد لأمر الله لا محالة بعد أن يؤمن به الها قادراً
قد أحاط بكل شيء علماً ، وهل كان من الممكن أن يخضع القوم
لقاعدة تحريم الربا وهو كان متغلغلا في مجتمعاتهم ساريا في
دمائهم يستعملونه أضعافاً مضاعفة ؟ ولقد ذقت المدينة
المنورة مرارته على يد اليهود المتخصصين في المعاملات الربوية ،
وبانتت تنتظر الخلاص منه .

لم يكن سهلا أن يستسلم القوم لتحريم الربا ، لو صدر
عن أى ملك أو عظيم ، حتى ولو أعدموا نصف المجتمع ، وجندوا
كل وسائل الاعلام وأنفقوا كل ميزانيتهم ولكنه سر الله الخالد
الذى يستودعه أحكامه ، جعل القوم ينتقدون لأمر الله ،
ويصيخون الى النداء العالى : [يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا
أضعافا مضاعفة (١)] .

وقوله : [وأحل الله البيع وحرم الربا (٢)] ان هذه
الاستجابة لم تنشأ عن سطوة القانون ، ولكنها نشأت عن
خشية الله ، وتلبية دواعى الايمان .

ولنأخذ حالة تحريم الخمر فى الاسلام كنموذج يوضح لنا
الفرق بين قوانين البشر وأوامر السماء :

أخذ تحريم الخمر فى الاسلام شكلا متدرجا ، لتتهيأ
النفوس وتتنقاد ، لأن المجتمع الجاهلى كان غارقا فيها الى
الأذقان يشربها الصبوح والغبوق - ولا يتأثم واحد عن شربها،
حتى عمر بن الخطاب ، يقول طرفة بن العبد :
وما زال تشربى الخمر ولذتى
وبيعى وانفانى طريفى ومتبلدى

(١) آية ١٣٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ٢٧٥ سورة البقرة .

ويقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنى امرؤ أجيب الملة من بابها
لا يتصور في مجتمع هذا شأنه أن تحرم الخمر دفعة واحدة،
بل لابد من تهيئة نفسية تجعل القوم بتجاوبون مع منطق
التحريم ، كانت المرحلة الأولى لتحريمها ملطفة خفيفة ، وهي
قوله سبحانه : [ومن ثمرات النخيل والأغاب تتخذون منه
سكراً ورزقاً حسناً (١)] .

فكانت أول ما يطرق حس المسلم وضع السكر أي الخمر
في مقابل الرزق الحسن ، فكأنما الخمر ليست من الرزق
الحسن ، انها همسة لطيفة تلقى بمضمونها في حس المسلم .

ثم تأتي المرحلة الثانية لتفتى بلسان الشرع بأن اثم الخمر
أكبر من نفعها ، [يسألونك عن الخمر والميسر فبيها اثم كبير
ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما (١)] ولكل شيء في الحياة
نفع ، لكن اذا غلب الاثم على النفع فكيف يستساغ الشيء ؟
انها همسة قوية تترك في وجدان المسلم فكرة ضرر الخمر !!

وتجىء المرحلة الثالثة . كصيحة عالية لتلقى في روع
المسلم التنافر بين الصلاة والخمر . [يأيها الذين آمنوا لا
تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (٢)] واذا
كانت الصلاة خمس مرات في اليوم والليله موزعة في أوقات
متقاربة غالباً - فأين هو الوقت الذي يتسع للسكر ثم الافاقة

(١) آية ٦٧ سورة النمل .

(١) آية ٢١٩ سورة البقرة .

(٢) آية ٤٣ سورة النساء .

بين وقتين .. لقد ضاق أمر الخمر .. وقتلت الفرص التي تتسع لها .. ولعل هذه الآية تكسر عرف الأدمان الذي أطبق عليه العرب .. صباحا ومساء .. وفيه تنفير منها لأنها تتنافر مع الصلاة ..

ثم كانت المرحلة الرابعة صيحة عالية حاسمة بعد أن تهيأت النفوس فلم يعد لها إلا أن تمتثل على الفور [يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١)] .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء فنزلت آية البقرة « واثمهما أكبر من نفعهما » فلما قرئت على عمر قال : اللهم بين لنا بيانا شفاء في الخمر فنزلت آية النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فلما قرئت عياله قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء فنزلت آية المائدة : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . الى قوله سبحانه : « فهل أنتم منتهون » فقرئت على عمر فقال : انتهينا انتهينا .. ولما نزلت آية التحريم هذه في سنة ثلاث بعد وقعة أحد لم يحتج القوم الى أكثر من مناد يطوف على القوم قائلا : [أيها القوم .. ان الخمر قد حرمت] فمن كان في فمه جرعة مجها - ومن كان في يده كأس قذفها - ثم حدثت عملية تطهير عام بكسر الدنان .. وحطم القوارير .. وشق الزقاق .. والالقاء بكل ذلك في سكك المدينة وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر - وكفى تقبيحا للخمر أنها عمل شيطاني - وأنها تذهب العقل - وأنها تسقط الكرامة وتخل بالمروءة .. وتبدد المال وتلقى بالعداوة والبغضاء بين الناس .. وأن في شربها مخالفة لله

(١) آية ٩٠ سورة المائدة .

ورسوله لقوله سبحانه : [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول] تم التعقيب على ذلك بقوله : « واحذروا » فانظر الى الحسم القاطع في التحريم الذى لا يبقى معه شبهة ولا تعلقة . . وكفى أنها رجس وخبث !! لكن ماذا كان موقف القوم ؟ لنستمع الى حزم التنفيذ بعد أن استمعنا الى حسم التحريم وقد مضى أن عمر نطق على الفور بعد سماع قوله سبحانه : « فهل أنتم منتهون » قائلاً : انتهينا يارب وكررها . . وقال أنس رضى الله عنه : حرمت حرمت وما حرم على العرب شئ أشد من الخمر !! ثم قال أنس فأخرجنا الحباب - أى أوانى الخمر - الى الطريق العام فصببنا ما فيها ، فمننا من كسر حبه ، ومننا من غسله بالماء والطين .

وقل أنس أيضا : كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة وما شرابهم الا « ففيخ » أى عصير البسر والتمر فاذا مناد ينادى فقال القوم : اخرج فانظر : فسمعتة يقول : ألا ان الخمر قد حرمت قال : فجرت فى سكك المدينة فقال لى أبو طلحة : اخرج فأهرقها - فهرقتها - وقيل : كان رجل يشرب الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفته اذا بداخل دخل عليه فقراً آية التحريم فانفصلت الكأس من فيه فى الحال ولم يذق لسانه قطرة مما فيها الى الأبد ، وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال أو الجريد أو العصى ثم جلدوه أربعين ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة - لأنه اذا شرب سكر - واذا سكر هذى - واذا هذى افترى - وحد الافتراء ثمانون كما يقول على كرم الله وجهه - وهجرت العرب الخمر هجراً - ثم اتسعت رقعة الاسلام ، فزهده أهل البلاد المفتوحة فى الخمر ونفروا منها اذعاناً لتحريم الله ، والذين يحصون شاربى الخمر فى العالم يجدون المسلمين أزهد الأمم فيها . ثم لا يكاد يشربها شارب الا مستخفياً يهرب من ضميره ومن سجنمه ويؤمن بأنه يرتكب

مُعصية غليظة .. ولننظر هنا في مجموعة من الأمور وهي مستخلصة مما مر :

أولا : أن التحريم قد صدر متدرجا مراعاة لحالة القوم – ثم جاء التحريم الحاسم في النهاية .

ثانيا : أنها حين حرمت الخمر كانت الاستجابة سريعة فأريقت وفاحت بها طرق المدينة .

ثالثا : أن هذا التحريم لم يصدر عن ملك أو أمير تخشى عقوبته ولكن صدر عن اله حكيم ترهب سطوته .

رابعا : أن القوم لم يتكبدوا في التحريم عننا أو ينفقوا عمالا وإنما هو اعلام عام على لسان مناد بسيط .

خامسا : أنه رغم جهالة القوم وأميتهم وتغلغل الخمر فيهم وتمكنها منهم لم يشذ فرد واحد عن الامتثال .

سادسا : أن هذا التحريم قد تم تنفيذه – بشكل لا رجعة فيه ولا ردة الى يوم الدين ..

بعد هذا التحليل نأتى الى تجربة بشرية خاضتها أمريكا في سبيل تحريم الخمر ، فقد قام أولو الأمر فيها بدعاية واسعة ضد الخمر وطاردها في بلادهم . وكشفوا عن أضرارها المادية والأدبية والعقلية بأدلة ناهضة من تعاليم الطب . وعرضوا الافلام على الشعب ثم اجتمع حزب المؤتمر الأمريكى وقرر القطع بتحريم الخمر بأغلبية ساحقة ، وسن لذلك قانونا . واستقرغت الحكومة كل جهودها في تنفيذ القانون زوهى أقوى أمم الأرض ، وحظرت بيعها وشراءها وتصديرها واستيرادها ولكن الأمة الامريكية لم تستطع الصبر على تركها وتحولت الى

شربها سرآ - فارتفع ثمنها وفسد مأؤها بالغش ، وتورط في شربها الفتيان والفتيات لأن كل محظور محبوب ، فاضطرت الحكومة الى التراجع في هذا القانون - وسحبته بعد مضي أربعة عشر عاما - وأحلت ما حرمت بالأمس « ويقدر ما أنفقته أمريكا ضد الخمر (١) بما يزيد عن ستين مليونا من الدولارات - وما نشر من الكتب والنشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة - وما تحملته من نفقات طول مدة التحريم لا يقل عن مائتين وخمسين مليونا من الجنيهات - وأعدمت نحو ثلاثمائة نفس - وسجنت (٥٣٢٣٣٥) نفسا ، وبلغت الغرامات نحو ستة عشر مليونا من الجنيهات وصادرت من الأملاك نحو أربعمائة مليوناً وأربعة ملايين من الجنيهات ، ومع ذلك فلم يزد الأمريكي الا نهما بالخمر وعنادا في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ الى سحب القانون وابعاحه الخمر ابعاحة مطلقة » .

ونجد أنفسنا في بداية الأمر مضطرين الى توضيح كيف حل الاسلام هذه العقدة حلا جذريا في مجتمع غارق في الجهالة بعيد عن ذلك في القرن العشرين . رغم بذل الجهد وانفاق المال ووسائل الدعاية ؟

والجواب : أنه فرق بين أن تصدر الأوامر من البشر وبين أن تصدر عن خالق القوى والقدر !! . فان الله عز وجل لا يقرع آذان الناس لأول وهلة بأوامر الدين ونواهييه ، وانما تساق هذه الأوامر والنواهي بعد تأسيس العقيدة . . ثم يخاطبهم الأوامر والنواهي بعد تأسيس العقيدة . . ثم يخاطبهم سبحانه بعدها عن هذا الطريق - يستجيش في وجدانهم تلك العقيدة .

(١) عن كتاب تنقيحات لأبي الأعلى المودودي .

ويستنهض عزائمهم بداعي الايمان * * ولا شك أن المسلم يؤمن بالله قبل أن يؤمن بالعقل ومقاييسه ، ولهذا فانه يستجيب لنداء السماء ، ويذعن لله ورسوله ، لأنه قد آمن بهما فلا يتصور أن يخالف لهما أمراً أو نهياً * والايمان حافز ايجابي يحدث عند المسلم مناعة ضد المخالفة ويجعله مطيعاً لربه ، وذلك هو مقتضى الايمان [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] * ولن تستطيع قوانين الأرض جمعاء أن تحرك هذا الباعث في الفطرة الانسانية وانما تحركه العقيدة وحدها ، فأنت مخير بين أن تؤمن أو لا تؤمن بادىء الأمر * فاذا اخترت طرق الايمان فعليك أن تنقاد لأمر الله الذى آمنت به ، وأسلمت اليه روحك وقلبك * .

وتلك أهم خصائص المنهج الربانى يستثير الايمان في وجدان المؤمن وضميره فاذا به ينقاد ويدعن من غير مشقة ولا عناء * .

« ومن ذلك يتضح أن بعث الحاسة الخلقية في الانسان (١) وتنشئة الضمير المحاسب فيه - ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة - كل ذلك ليس في مقدور العلم ولا في طوق العقل والمنطق بل هو مما يحققه الايمان نفسه » * .

فهل اعتمدت أمريكا على الايمان في تحريم الخمر ؟

الواقع أنها لم تعرف الايمان حتى تنتفع بثمراته * .
ولذا فشلت في التجربة * * .

(١) من كتاب نحن والحضارة العربية للمودونى ص ٦٩

على أن للحضارة القرآنية سبيلاً آخر في قاعدة التحريم والتحليل وهو ثبات المقاييس وعدم اضطرابها .. وذلك على النقيض من القوانين الوضعية التي تتأثر بالعواطف والميول - وأحكام العقل وشهوات النفس واسترضاء الناس .. فيؤدي بها ذلك إلى الاختلال والاضطراب .. ويخضعها لكثرة التغيير والتبديل بالزيادة أو النقصان لأنها فعلاً تخضع لقوانين مضطربة دائمة التغير متقلبة دائمة التقلب فتتميل معها حيث مالت .. وفرق بين أن أستجيب لأمر ربي الذي آمنت به - وبين أن أستجيب لأمر السلطة التي لا أثق في أوامرها ..

وجميع الأصول الكلية في الإسلام ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق فيه هي من وضع الله وتبليغ رسوله وليس للرأي فيها دخل وإن كان للإنسان أن يستنبط فروعاً جديدة من تلك الأصول مراعاة لأوضاع حياته وظروف مجتمعه فإنها لا بد أن تنسجم مع الإطار العام .. وتتنطبق على أصول الشرع حتماً .. وهما كتاب الله وسنة رسوله .. فإنهما المرجعان الأصيلان مهما اختلفت الظروف ..

ومن بركات هذا المنهج الرباني أن يريحنا من الاعتساف والتكلف فلا نغنى أنفسنا جرياً وراء القوانين المختلفة : التي لا تنشئ إلا ذاتاً ضالة شاردة .. لأننا لا نستطيع كبشر أن نضع المقاييس الثابتة للأخلاق والمدنية التي لا تتزلزل ولا تضطرب ..

بخلاف المنهج الرباني فإن الحرام فيه وكذا الحلال مطردان إلى يوم الدين فما يكون حراماً اليوم لا يحل غداً .. وما يكون حلالاً اليوم لا يحرم غداً .. اننا نسلم مقودنا إلى ربنا ونثق في قضائه وعدله .. فسفينتنا تجرى باسم الله - ومن

أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله .. وان أمة نحكمها
مبادئ واحدة وتسرى في كيانها عقيدة واحدة لخليقة أن تتحد
شعوراً ووجداناً وضميراً .. لأن الدستور الذى تستمد منه
واحد .. وانه ليصنع الأمة كلها بطريقة واحدة لأنها فعلا
تسقى بماء واحد .. وتمارس عبادات واحدة .. ومناسك
واحدة وذلك يؤدي الى تميز شخصية هذه الأمة وبروز طابعها
الحضارى [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] .

[الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (٢)] وتلك
هى عناصر الشخصية لتلك الأمة الحضارية مهما تختلف بها
الديار .. أو الاجناس والالوان ..

وهذا هو السر في احساس كل مسلم باحساس أخيه لأن
العقيدة صنعت للجميع وجداناً مشتركاً .. ومشاعر حية
نابضة .. فما يستقر مؤمن في مضجعه حتى يسارع بتفريج
أزمة أخيه .. وما يقر له قرار حتى يطمئن عليه لأنه منه بمنزلة
العضو من جسمه « مثل المؤمنين في توادعهم وتراحمهم كمثل
الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن
بالحمى والسهر » .

(د) انفتاحها على جميع الحضارات الانسانية :

وهى خاصية تكفل لها النماء المطرد - والازدهار الدائم .

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ١ سورة الحج .

وهي التي كفلت لها بقاءً متجدداً عبر القرون .. فهي حضارة تأخذ وتعطي .. تأخذ تجربة حياة نافعة .. وتعطي غيرها ما يكون لديها من ثمرات .. وبهذا التجاوب المستمر والتفاعل الخلاق - لا تعيش في عزلة عن تجارب البشر .. ان هذه الحضارة تؤمن أن الحضارات الانسانية كلها هيكل ضخمة - قد شيدهته جهود البشر جميعاً .. فلكل شعب فيه لبنة .. وما يستقيم وضع حضارة تنطق الانوار اذ علي نفسها والافهي عرضة للاختناق كما فعلت الرهبنة في القرون الوسطى انها حضارة لا تصد عن تجارب البشر بالتعصب - ولا تبخل عليها بالعطاء .. وقديماً أعطينا فسخونا في البذل .. بيد أنها لا تأخذ عن غيرها قوانين التشريع - ولا مبادئ الأخلاق لانها تملك من ذلك منهجاً أصيلاً وثروة ضخمة .. فهي تنفق منه على العالم بأسره وتمنحه للبشرية جمعاء .. ولكنها تأخذ تجارب الحياة وفروع المعرفة .. وكل ما يرتبط بنتائج العلم التجريبي .. والابتكار المثمر في شئون الحياة .. بشرط أن يكون في ذلك ما يثرى حضارتنا - ويعود على مجتمعاتها بالخير .. أما حين تتعارض هذه الأمور مع عقيدتنا أو تراثنا .. فاننا لا ننقله .. وانما نرفضه .. كما رفضنا فنون النحت قديماً لأنها تنطوي على فكر وثنى *

انه اذن : أخذ بصير يعتمد على النقد ويخضع للتمحيص - وليس نقلاً عشوائياً بلا تبصر ولا روية .. وليس عجيباً - ولا عيباً - أن تأخذ حضارة عن حضارة بهذه المقاييس فتجارب البشر ليست ملكاً لأحد والآخذ اليوم كم أعطى بالامس والعكس بالعكس .. فلا فضل لمأخوذ منه على آخذ *

يقول الأستاذ العقاد : « انه لا يطلب الى أمة أن تبتدع ثقافة جديدة ولا يعاب عليها أن تحج الى المعرفة حيثما وصلت

اليها - وانما يعاب عليها أن تنطفيء، شعلة الثقافة الانسانية
في يديها وأن تنقطع عن السلسلة » .

وعلى هذا الأساس فقد تفاعلت العقلية العربية الاسلامية
مع الثقافات الفارسية ، واليونانية والرومانية تفاعلاً خصباً
• • واستطاعت العقلية العربية بما منحت من خصائصية
الاستيعاب الحضارى (١) - أن تستثمر ذلك كله في اقامة
حضارة رائعة تتمازج فيها عناصر شتى .

ولكن الطابع الذى يسودها ، هو الطابع الاسلامى ••
الذى يصهرها في بوتقة ، وينقيها من الشوائب •• ويجعل لها
اشعاعاً خاصاً حيثما ينعكس على الناس يحسون بالروح
الاسلامى الغالب •• وعندما نقتبس كل مفيد من الثقافات ونافع
من التجارب فاننا لا نتوقف عند حد الأخذ •• ولكننا نأبى الا
أن نتعرف على الأسرار والدخائل معاناة ودأباً ثم نحاول
بالعقلية المبدعة أن نضيف اليه أو نحذف منه •• أو نبتكر
مثله •• انه لا يستغرقنا بحال - ولا يلغى ارادتنا •• بحيث
نظل نستورد الحضارة دائماً •• وانما نحاول أن نضع
الحضارة بروحنا - وعلى أرضنا - مع الاستهداء بتجارب
غيرنا من غير صد عنها - أو فناء فيها وبذلك نحفظ بتوازننا
أمام أى عطاء حضارى •

لقد كان موقفنا من حضارات الأمم الاخرى هو ذلك الموقف
الذى حددناه •• لا نجمد على أفكارنا وانما نتفاعل مع غيرنا ••
فنقبل منه ما يتفق مع شريعتنا - ومع واقعنا - ومع تراثنا -
ونرفض ما نراه ماساً بوجودنا - أو مصادماً لتقاليدنا ••
وعندما نأخذ - فاننا لا نكون نقلة مستعبدين •• بل أحرارا

(١) عن كتاب أثر الحضارة العربية في الغرب ص ١٠٥ .

ناقدين .. نسمح للعصارة الطيبة النافعة أن تسرى في كياننا
ونستبعد النفايات الضارة .. ونطبع كل ذلك بطابع حضارتنا
القرآنية .. ونبتكر من كل ذلك جديداً رائعاً ينفع الناس ويفيد
التقدم ويثرى الحياة *

ان لدينا دائماً المقاييس التى نقيس بها ما نأخذ وما نودع ..
وهي مقاييس حضارية لها أصول روحية ومادية نستطيع
بها أن نأخذ ونودع .. انها تمكننا من عملية التقويم للأفكار
وللأشياء وللقيم وللتخطيطات الوافدة .. ما كان من ذلك كله
ملائماً لهذه المقاييس قبلناه والا رفضناه ونقدناه *

نحن اذن فى عالم الافكار والاشياء نقبل ونودع لنا نظرتنا
الى تاريخنا دون أن نرتفع الى المستوى الذى يحجب عنا أخطاءنا
- أو نهبط الى المستوى الذى يحجب عنا الحسنات .. ولنا فى
رسولنا الرائد أسوة حسنة .. فقد منحنا تجربة النقل
الحضارى بمعيار الاسلام ومبادئه .. فلقد قبل من قيم
الجاهلية وترك وقال على باب الكعبة بعد فتح مكة : « ألا ان
كل مائة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة
الكعبة وسقاية الحاج - ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية
وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم و آدم خلق ، من تراب ؛ ثم تلا
قوله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم
ان الله عليم خبير (١) » *

وبهذا - نتمكن من صناعة واقعنا وبناء حاضرنا - وابرار
ملاحنا .. أما أن نعيش فى عالم كله من صنع الغير ، فنعيش
مستوردين .. نكتفى بالاستهلاك والاستخدام دون الانتاج

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

والابداع فهذا ما لا يرتضيه الشرف وهو موقف لم تسلكه حضارتنا القرآنية في أيام ازدهارها .. وليست عملية النقل الحضارى عملية سهلة - ولا هي مأمونة العواقب .. لأن الحضارات الانسانية ذات عناصر متشاجنة تشاجن غصون الشجر .. فأخذ عنصر وترك عنصر أمر صعب - بمثابة بتر عضو من كيان متكامل .. ويزيد من صعوبته أن النقل مفسد - لأنه تقليد ضرير يلغى الشخصية - ويسقط الكرامة - ويفسد المغزى المستهدف .. ويكون شبيها بالترجمة الحرفية لنص من النصوص دون التصرف فيها .. ولهذا فان شراح الحضارات يحذرون من التقليد وينبهون الى خطورته .. وبالنسبة لأمة كأمتنا - سواء في القديم أو الحديث - تزداد مسئوليات النقل الحضارى لأننا نملك أضخم رصيد - من تراث العقل والعاطفة .. ومدنية الحياة الفاضلة - ولأننا أصحاب منهج ربانى .. قد تلوثه العادات الدخيلة .. فلنكن على حذر فيما نأخذ أو ندع - كما فطن آباؤنا من قبل .. وفي هذا بلاغ !!

وعملية الاقتباس الحضارى تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم .. فكما لا ننقل كمية من الدم من شخص الى آخر الا بعد تعيين فصيلة الدم بالنسبة لهما .. ونتأكد من اتفاقهما ..

فكذلك الأمر هنا - لابد أن نضع في الحسبان : هل ما ننقله يتصادم مع تعاليم ديننا مع أصول حضارتنا - مع قديم تراثنا ؟ فاذا تأكدنا من أنه لا يصادم شيئاً من ذلك قررنا صلاحية الاقتباس - لأنه في هذه الحالة يكون صحيحاً .

ثم ننظر بعد ذلك في أمر آخر قبل ممارسة النقل .. ما الكمية التي نقلها ؟ لأننا لو نقلنا كمية كبيرة من الدم - أو أقل مما ينبغى - فان النتيجة تكون سيئة .. وكذلك هنا لابد من تحديد الجرعة التي تفيدها وتهضمها

حضارتنا دون تخمة أو فراغ ثم نشرع في النقل فيكون مثمرًا
مأمون العاقبة ..

ومن البدائة الواضحة أن موقفنا من حضارة الغرب ينبغي
في كل لحظة أن يأخذ هذا الاتجاه فما كان مفيداً مثمرًا قبلناه -
وما كان ضاراً فاسداً رفضناه ، انه موقف النقد البصير .. لا
موقف التقليد الضرير .. لأن النقل من غير تمييز فناء ومعرفة -
والاعراض التام جمود ومضرة ويجب أن نعترف دائماً بأننا
بشر نخطيء ونصيب - وننهض ونكبو - فلسنا وبخاصة في
عهد الانحطاط - نملك كل حسن - وغيرنا يملك كل قبيح ..
لأن ذلك غلو واسراف وبذلك الشعور الطبيعي - نواجه الحياة
.. لا متعصبين ولا متخاذلين .. بل متواضعين متجاوبين ..
فما كان الكمال يوماً ما وقفاً على فريق .

على أن حضارة الغرب وما فيها من بعض النواحي الطيبة -
انما هي نبتة من أيكتنا - وغصن من دوحتنا .. منا أخذت ،
وعنا نقلت كما تحدث بذلك أصحابها ..

فاذا أخذنا عنها يوماً ما فانها تعطينا بعض ما أخذت منا
وهل الحياة الا أخذ وعطاء !؟

واذا ما نظرنا الى تجربة النقل الحضارى على الصعيد
العملى وجدنا المسلمين قد تفاعلوا مع ثقافات العالم وقرعوا
فلسفة اليونان وهضموها ونقدوها واستوعبوا عصارتهما
النافعة - ونقلوا ذلك كله الى العالم بأسره . وكذلك في عالم
الأشياء كالصنائع والحرف وسائر أنواع النشاط الحيوى قد
نقلت هذه الأمة منه كل صالح .. ونبذت كل ردىء وأعطت
الكثير من هذه « الأشياء » للعالم بأسره .

(1) أى شجرة من حديقتنا .

في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه - لم يصد عن التجارب النافعة، راكتساب الخبرات الجديدة من النير . . . في طبقات ابن سعد عند الكلام على وفد ثقيف ذكر ان عروة بن مسعود وغيلان بن سمة لم يحضرا حصار الطائف لأنهما كانا « بجرش » يتعلمان صناعة العرادات والمجانيق والدبابات - وجرش بلد بالأردن - وبنفس الاسم بلد باليمن وقد استفاد صلوات الله عليه من معرفة عبد الله ابن أريقط النصراني للطرق في حادث الهجرة حيث كان دليل القوم . . . ولم يصد عنه لأنه نصراني .

وبتلك الروح الحضارية - التي بثها محمد صلوات الله عليه في أصحابه - استطاعت هذه الأمة عندما وضعت عن كاهلها عتاد الجرب ونفضت عن وجهها غبار الصحراء، أن تصعد في مراقى الحضارة بسرعة مذهلة - وأن ترفع على أنقاض اليونان والرومانى والنرس حضارة تابنة الأصول باستنة الفروع . . . يتألق في عنصرها فكر الاسلام وثقافة العرب ثم أخضعت لسلطانها حضارات لم تخضع لها من قبل وكان لها خصوم ألداء لم ينالوا منها أدنى نيل . . . لأنها قد أتبتت وجودها في مجال التحدى الحضارى اثباتاً أرغم الخصوم - ونشر المعارف والعنوم وأفاد العالم بأسره وكان السبب في كل ذلك يرجع الى جلال المثل العليا - وقابلية التحضر والتمدين وفقه الثقافات وهى ميزات رفيعة قد اختص الله بها هذه الأمة المساجدة النبيلة لتظل مرفأ الأمن على مر الزمن . . . ومناارة العلم والمعرفة على امتداد التاريخ . وليصدق فيها قول الحق تبارك وتعالى : [كنتم خير أمة أخرجت للناس] .

وقد أثبتنا - أن هذه الأمة ليست كما بصورها أعداؤها
جافية الطبع غليظة المشاعر بعيدة عن أي تقدم - وإنما ذلك
ينطق على البدو فقط - أما العرب المتحضرون فقد كان في الشام
والحجاز والعراق واليمن حضارات رائعة - ومدنية عقلية
وثقافية ووجدانية انعكست على شعرهم - وفي انتاجهم * *
ولغتهم * * ثم جاءهم القرآن الكريم على قدر وموعده ليسمو بهذه
المواهب والملكات * * وينفض عنها غبار الجاهلية -
ويستنفدها من معنى السرف والغلو - ويصحبها في قناب
الحكمة * * وينطلق بها ليؤسس مدنية العالم كله وحضارة
الحياة جمعاء * * *

وانك لتلمح في شهادات الأوربيين - تقرير هذه
الخصائص بكل أمانة ووضوح يقول ويلز في كتابه ملخص
التاريخ : [هب العرب يظهرون ماخفي من مواهبهم فبهروا
العالم بما أتوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد
اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها ونفخوا مياها من روحهم
واستودعوها الحياة والقوة فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة
الحلقات محكمة السرد لا يمسه انقطاع ولا وهن وما جانا
العلم والمدنية الا عن طريق العرب لا عن طريق اللاتين] *

ان خاصية الاستيعاب الحضاري التي يحدثنا عنها هذا
المستشرق لم تلغ شخصية هذه الأمة بل أبرزتها على الصعيد
العالمي - وحققتها وسلطت عليها الاضواء لانها لم تكتف بالنقل
واستيراد الفكر بل عمدت الى الابداع والخلق وصناعة
الحضارة ، والعالم كله يعرف كيف أن الكندي والفارابي وابن
سيناء في الشرق وابن باجنه طفيل وابن رشد في الغرب قد توفروا

جميعاً على فلسفة اليونان فجددوا دارسها وجلوا طامسها
وأكملوا نقصها وطابوها بسمة الحرية والعبقرية والنضج
وبعثوا فيها نبض الحياة . . . ولقد وضع ابن طفيل قصته
الفلسفية « حي يقظان » فكشف عن مواهب فنية في التخيل
والتصور والتعبير وقد نقل هذه القصة الى اللاتينية
(ادوار بوكوك) فظهر أثرها في آداب القوم .

أرأيت هنا كيف تتفاعل الثقافات - ويتم التبادل ؟
وعن تأثير الفكر العربي - و حضارات العالم وآداب
الدنيا بعد الفتح الاسلامي . ، وكيف أن هذه الثقافات قد
اندمجت كلها فيه يقول الدكتور طه حسين (١) .

« تحققت اذن هذه الظاهرة العربية الغربية - واتحاد
العالم بفضل ظهور الاسلام وبفضل انتشار اللغة العربية
والثقافة الجديدة الى امة واحدة متحدة في كل شيء تقريباً
لغاتها العلمية والادبية واحدة هي العربية بها تتكلم وبها
تنشئ الشعر والنثر وجزاً تتؤلف كتبها العلمية - وظلت هذه
اللغة - هي لغة هذا القسم العظيم من العالم القديم وكانت
الآلات السائدة في العالم قبل العربية قوية . . . كانت الديانة
المتنوعة خاضعة لسلطان الادب اليوناني وهو الى الان أقوى
أدب عرفه الانسان . . .

والى جانب هذا الأدب كانت تقوم في الشام والجزيرة
والعراق آداب أخرى سامية - منها آرامية ومنها يهودية وكانت
هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس وأثرت في نفوسهم
وكونتها تكويناً خاصاً ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب كانت
تقوم في الشام والجزيرة والعراق آداب أخرى سامية - منها

(١) مس ١٢ من حديث الشعر والنثر بتصرف يسير .

آرامية ومنها يهودية وكانت هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس وأثرت في نفوسهم وكونتها تكويننا خاصا ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب تلقى الأدب العربي حتى عجزت عن أن تثبت له واندمجت فيه واستحالت الى جداول قوية خصبة ولكنها كانت تنتهي دائما الى هذا النهر العظيم - ولم يستطع الادب الفارسي أن يثبت للأدب العربي في بلاد فارس - فكان الشعر الذي ينشد في هذه البلاد في القرن الاول والثاني والثالث للهجرة هو الشعر العربي - وكان العلم طول هذه المدة عربيا وكانت الفلسفة عربية * * * وكذلك في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا فان الآداب القبطية واليونانية والآرامية لم تثبت للأدب العربي بل قام الأدب العربي مقامها جميعا وانكمش الأدب اليوناني * انكماشاً عظيماً وتفلس ظله في هذه البلاد * * * ولقد قاومه الفرس والترك وقاومته أوربا في اسبانيا وأفريقية الشمالية وماتزال تقاومه ولواؤه مرفوع « ا * هـ

نقلنا هذا الكلام * * * لنؤكد كيف أن حضارة القرآن قد أخذت في عالم « الأفكار » وأعطت ولكنه الاخذ البصير الواعي * * * الذي يستتبع الروية * * * وينتج الابداع * * * كالنحلة تمتص رحيق الزهر * * * ثم تحوله في باطنها الى عسل حلو * * * ثم تقدمه للناس * * * ولم تكن أمتنا كعدسة التصوير تنقل الشيء بلا تصرف * * * ولكنها كانت تثبت وتنقى * * * وتبدع وتبتكر * * * وتأخذ وتدع ثم تصوغ من ذلك كله فكرا عالميا رواء الاسلام وطابعه وروحه * * *

نحن نؤمن بأن الأدب العربي في مطلع عصر النهضة قد انفتح على الأدب الاوربي في مطلع عصر النهضة انفتاحا أثمر القصة والمسرحية * * * ونضوج الشعر السياسي والاجتماعي * * * وتحرر الأساليب العربية من الصنعة * * * كما كان له أعظم الأثر في نضوج النقد الادبي * * * والبحث العلمي

كل ذلك التأثير والتأثر ظاهرة صحية مادام لا يلغى الشخصية
ولا يصادم المثل العليا ولا يتعدى شئون الثقافة والعلم وتجارب
الحياة . .

شخصية الحضارة الاسلامية :

وبهاتين الخاصتين لحضارة القرآن وهما الربانية -
والانفتاح - تبرز شخصيتها التي لا تخرج عن كونها كيانا
انسانيا عاما ذا شخصية معنوية فيها جانب التراث المجيد -
الى جانب عنصر التجديد المتطلع دائما الى التسامى . . الى
جانب الأمل الممتد المشحون بالحوافز الايجابية البناءة لمستقبل
دائم الارتقاء والصعود نحو الافضل لخير الاسرة الانسانية
جمعا . . بحيث ينمى فيها بواعث الخير ويحرك حوافز العمل
ويخطط لكل ذلك بالعلم ليجعل من الانسان خليفة لله في الارض
بينهما بالعمل . . ويخططها بالمعرفة . . ويدعمها بالايمان
ليتصعد دائما ويرقى ، ولا يتأخر فيشقى وليبنى ويعمر ،
ولا يخرب ويدمر ، وليمضى الى ربه على صراط مستقيم ممتد . .
هو صراط الله العزيز الحميد . .

يقول الدكتور خلف الله أحمد : ان الحضارة الاسلامية
هي تلك الحضارة التي قامت على أساس رسالة سماوية هي
الاسلام ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى من القرآن ومن
أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله .

ويقول الدكتور حزين : ان الاسلام قد استطاع أن يضيف
على البلاد التي شملها لونا من الفكر الدينى والحياة والمعاملات
والعلاقات الانسانية والسياسة حتى أصبح هناك قدر
حضارى مشترك بين المسلمين في مختلف أرضهم وديارهم .

ونحن لا نكتفى بماذهب اليه الدكتور حزين من أن الاسلام
- أو بتعبير أدق القرآن يصنع لهذه البلاد قدرا حضاريا
مشاركاً * * ولكننا نقول : انه يوحدنا قلبا ووجدانا وفكرا
وسياسة واجتماعا ويضع لها تاريخا واحدا وأملا وألما واحدا
وطموحا واحدا بحيث يسودها مايسمى في التعبير العصري
« ائتلاف النعمة » * .

وبهذا تأخذ الحضارة القرآنية صبغة الاستمرار
والاستقرار لأنها تصاحب حياة البشر منفتحة على غيرها من
الثقافات والمدنيات تتمثلها حضارة الجنس البشرى كله من غير
تعصب ولا استعلاء ولا جمود ولا تهافت * * وكما أن الاسلام
مصدق لما بين يديه وماخلفه من ديانات الجنس البشرى
مؤمن بجميع النبوات والكتب المنزلة فكذلك حضارته هاضمة
لما بين يديها وما خلفها من ثقافات البشر * * متفاعلة مع
الحاضر - متطلعة الى عالم أفضل * *

وهذا يضيف عليها سمة العبقورية عبقرية الاستيعاب -
والهضم - والابداع والتأثير والتأثر ، واستمداد هذه الحضارة
من القرآن يجعلها ملتقى كريما لكل الثقافات والتجارب الممتدة
عبر التاريخ * * لأن القرآن محيط زاخر تصب فيه روافد الكتب
السماوية الاخرى * * وهي من غير شك تتضمن خلاصة الفكر
الانساني - والتجارب البشرية * *

وكل ذلك ينضح على هذه الأمة الاسلامية علما وفكرا
وثقافة وحضارة وتجربة يجعلها وريثة سرعية لكل تعاليم
الوحي ولكل تجارب البشر * * وكفى بذلك شمولا واستيعابا *
وكفى بذلك جلالا وكمالا !!

وأينما التقى العالم بهذه الحضارة فهو واحد فيها روحه •
وشعوره وطموحه وأمله وفطرته ونظام حياته - وأسس
مجتمعه - وأشواق روحه ومستقر هدايته وسعادته •

(د) ملاءمتها للطبيعة البشرية :

تتميز الحضارة القرآنية بأنها تقوم على أساس منهج
ملائم لطبيعة الانسان وفطرته متناسق مع ميوله وغرائزه -
متكيف مع خصائصه العليا - ينميتها ويحتفظ لها بالتجدد
والازدهار - ويبث فيها من الحوافز ما يجعلها قادرة على أداء
دورها الأصيل - دور الاستخلاف في الارض - بحيث ترتقى
دائما في سلم الصعود بالتفاسل المستمر مع عناصر الكون
والدأب الكادح في بناء الحضارة - وبحيث يظل الانسان
باستمرار - مهما ارتقى حضاريا - سيد الكل ما أنشأه وبناه -
وليس عبدا لهذه الأشياء، لأنه صانعها بيديه • •

ان الحضارة الحديثة - في نشوة انتصارها المادى -
ذهلت عن مركز الانسان في الأرض ومقامه من خلافتها -
زاحت تسخره للأشياء - ولا تسخر الأشياء له، فاحتقرت بذلك
ذاته - وامتهنت خصائصه - واحتقرت مواهبه مع أنه الاساس
الأول لاي نظام حضارى كما مر - فهي بهذا التصور حضارة
مادية تجعل الانسان مجرد آلة للانتاج - ونطبق عليه المنهج
الآلى - أو المنهج الحيوانى • • الذى لا يرعى أية خاصية من
خصائصه كإنسان له مطامح ومطالب وأشواق !!

وانها لماساة رهيبة حقا أن يستذل الانسان وتمتهن
سيادته على الأرض الى هذا الحد في ظل حضارة تدعى أنها قمة
الحضارات •

أما الحضارة القرآنية - فإنها تضع الإنسان في وضعه الصحيح ومقامه الموقر - تقدم له منهج ربه لينطلق به في رحاب الحياة * * وهو منهج من وضع العليم الخبير - الذي يعرف لمن يضع المنهج؟ وكيف يضعه؟ لأنه يعلم كل احتياجاته * * وكل مواهبه وملكاته لا يخفى عليه من ذلك خافية!!

فاذا وضع هذا الخالق العليم منهجاً للإنسان فهو منهج بصير مهتد لأنه وضع على علم ونور * * فهو خليق أن يقود مسيرة الإنسان على وجه الأرض الى غاية فيها سعادته وسيادته ليكون دائماً سيداً للكون من حوله وليس عبداً إلا لربه * .

وفي الإنسان - ذلك العالم المجهول - والجهاز المعقد - نواح لا يعلمها إلا خالقها ومناطق لم يكتشف، العلم شيئاً منها - ومهما تتقدم علوم الحياة فإنها عاجزة عن استيعاب خصائص الإنسان * * وادراك نواحي ضعفه ومعرفة تلافيف مخه ونشاط عقله وافرازات غدده * * وتأثير كل ذلك على كيانه العام * * وعلى أخلاقه وميوله!!

وتتقدم العلوم المادية - لا يعنى أن يواكبه نفس التقدم في علوم الحياة أو بالأحرى في العلوم الانسانية لان التعقيد في هذه العلوم أشد وأصعب منها في الأولى * .

وما تزال دراسة العقل الانساني هي عفة العقد في البحوث العلمية لم يعرف العلم من أمرها الا أقل القليل * * على أن هناك خصائص عامة للإنسانية - وخصائص فردية لكل انسان فمن الذي يستطيع أن يحدد هذه وتلك؟ ومن الذي يلاحظ في منهج التربية كل هذه الفروق؟ ويحيط عاماً بهذا الانسان؟

ان حقيقة الانسان تسير في موكب من الأشباح بحيث لا يستطيع العلم رؤيتها بوضوح ، والذين يدرسون هذه الحياة كمن ضلوا طريقهم في غابة لفاء متشابكة الفروع - متشعبة الغصون أو في قلب دغل سحري لا تكف أشجاره عن تعبير أماكنها وأحجامها على حد تعبير الطبيب الأمريكى المتخصص (ألكسيس كاريل) :

ان الدارسين لهذا الانسان العجيب يعيشون في متاهة فحتى الآن تخفى عليهم أسرار الظواهر الانسانية فيقفون حيالها حيارى مبهورين *

ان لهذا (١) الانسان عوالمه المادية الظاهرة من أعضاء وأعصاب وله عوالمه الداخلية من غدد وأحشاء وأجهزة وله عوالمه المعنوية من أحوال نفسية وحياة وجدانية من الرضا والغضب والحب والكره والانقباض والانبساط كل ذلك لم يكتشف بعد وماخفى منه أكثر مما ظهر وصدق ربنا اذ يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢) » حتى سر النطفة لم يدرس الانسان دراسة معقولة لابد أن تتعاون علوم مختلفة - علوم الطب - والوراثة - والحياة - والنفس - والاجتماع - والأخلاق - والتاريخ وغيرها من كل ماله مساس بالانسان ماديا وروحياً فكيف السبيل الى استخلاص حقائق نهاية تنشأ عن هذه الدراسات ؟ ان الطب مايزال عاجزاً حتى وقتنا هذا عن زرع عضو مكان عضو * * وعن مجرد « تخليق » انسان في أنبوبة اختبار فكيف بمعرفة هذه العوالم ؟

(١) راجع الجزء الأول من كتابنا قيم حضارية في القرآن جزء أول فقد اشبعنا الكلام في هذا الموضوع .
(٢) آية ١١ سورة الذاريات .

ان كل هذه المصاعب في مجال الدراسات الانسانية تجعل من الصعب على أى انسان - أو على أية جماعة - مهما يكن حظها من العلم أن تضع منهجاً لذلك الانسان * * كل الانسان * * ذكره وأنثاه طفله وشبابه وشيخه * * عالمه وجاهله * * حاضره وغائبه * * بحيث يلائمه ويحقق كل آماله على مر الأيام * * وبحيث لا يتغير ولا يتبدل * من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على عاتقه وضع منهج كهذا ؟

لعمري : ان العلماء ليتخصصون في دراسة فترة من فترات العمر الانسانى في جيل مامن الأجيال - كفترة المراهقة أو الطفولة - أو الشباب وتضع كل جماعة منهم منهجاً للفترة التى تخصصت فيها * * ثم تجيء الدراسة بعد استنفاد الجهد والوقت والمال ناقصة صغيرة خرقاء !!

وان الأطباء ليتخصصون في أعضاء الانسان لكل عضو طبيب بعضهم للعين وبعضهم للقلب وبعضهم للأذن - وبعضهم للطفل - وبعضهم للمرأة ، ومع ضيق الحيز الذى تخصصوا فيه فانهم يخطئون التصور وفي تشخيص المرض ووصف الدواء * *

لماذا ؟ لأن كل عضو كالعين مثلاً * * وان بدأ لنا ضئيل الحجم له أجزاءه الدقيقة التى تجعل منه عالماً معقداً * * فكيف بالعقل والغدد والأعصاب ؟ !

وهذا الجهل المطبق بطبيعة الانسان جعل طبيبياً أمريكياً متخصصاً له مكانته العلمية (١) يكتب تحت عنوان : « الانسان ذلك المجهول » يقول : « اننا لا نفهم الانسان ككل * * اننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة * * وحتى هذه الأجزاء

(١) هو الدكتور اليكس كاريل *

ابتدعتها وسائلنا - فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة - وواقع الامر أن جهلنا مطبق فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب . . لأن هناك عوالم غير محدودة في دنيانا الباطنية وما زالت غير معروفة . . اننا لا نعرف مثلا : كيف تتحد جزئيات الموعد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

كيف يقر «الجنيس» - ناقلات الوراثة - في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها مثل الأنسجة والأعضاء ؟ ماهى طبيعة تكويننا النفساني والفسولوجي ؟ . .

اننا لا نعرف مثلا : كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي والسوائل والشعور .

ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . . نحن نرى حاجة الى « فسيولوجية » الخلايا العصبية . . ثم الى أى مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ، اننا نجهل وجوه النشاط العقلي والروحي ومقاومة النعيب والكفاح ضد الأمراض .

اننا لا نعرف كيف يزداد الاحساس وقوة الحكم والجرأة والنشاط الديني ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الانسان واحتطاطه في المدنية العصرية وبتأثيرها . . ؟ !

وهكذا أسئلة ستظل بلا جواب لأن معرفتنا بأديسنا ما زالت بدائية في الغالب .

ثم يخلص الى تلك الحقيقة التي نريد اوصول اليها :
وهي أن علم الانسان أصعب العلوم لأن الانسان نفسه
عقدة العقده في هذا الكون . . اه .

وهذا كلام رجل واجه الحقيقة - وعرف بطلاقة العلم وحدوده
وملك الأجهزة اللازمة ولكنه قرر افلاس العلم في هذا المجال . .
وان هذا الواقع العلمى الذى يتحدث عنه الطب يبرز حقيقتة هامة
هى استئثار الذات العلية بمعرفة الانسان . . ومن ثم فهى
التي تضع له منهجاً يلائم تلك الطبيعة المعقدة . . اذ ليس فى
امكان الانسان أن يضع لنفسه ذلك المنهج الملائم لأنه فوق
علمه وتجربته فمن رحمة الله به ورعايته له أن قام عنه بذلك
العمل وقدمه اليه فضلاً منه وكرماً بينما أطلق يده فى عمارة
الأرض يبني ويهدم ويجور ويعدل ويحال ويركب ويخطئ
ويصيب ويكتشف من خاماتها وعناصرها ويتعرف على أسرار
الكون ويرتبط بها برباط الصداقة ليعيش فى عالم مأنوس
يكتشف مادته ويستبطن ذخيلته لأنه مزود بالطاقات من ربه ،
التي تجعل منه أهلاً لتلك المهمة لكي يتحكم فى المادة على علم .
أما أن يتجاوز الانسان حده فيطمع فيما ليس له فذلك مجور
وبغى !!

ان مجال البحث الانسانى هو دراسة الكون وعناصره . .

فاذا انسجم الانسان مع حقيقة وضعه واكتفى بأداء دوره
فانه يصبح سيد الأرض وعناصرها . . باستخلاف الله اياه
ومنحه العلم بها والخير بشئونها والاستمتاع بطيبانها
وجمالها . . وليست الأرض فقط ولكن السماء تؤازره فى أداء
دوره على وجه الارض فياله من كائن عظيم عزيز على ربه أمين
على هديه كريم فى كل حين .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى الى
السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم (١) » .
ولننظر بتأمل دقيق فى قوله سبحانه : « ولكن أكثر
الناس لا يعلمون - يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون (٢) » .

ان هذه الآية - ونظائرها اشارات ضوئية على طريق
الانسانية تومىء الى قصور معرفة الانسان وجهله بشئون
نفسه وشئون الحياة من حوله وتأثره بالهوى والشهوات
وبالضعف الذى يفقده القدرة على التوازن . . بحيث
لا يستطيع بجهالته - وشهواته . . أن يخطط لنفسه منهجاً
فى الحياة . . لأنه لا يعترف منها الا بظواهرها . . ولا يكاد
يدرك أسرارها . . وان كان مزوداً من ربه بالمعرفة التى
تمكنه من استغلال المادة والانتفاع بثمرات الأرض فى اطار
جليل من مشيئة الله وهداه . . وهذا المنهج الخالد الذى
وضعه ربنا هو منهج الحياة كلها ليس لفترة منها دون فترة -
ولا لفئة من الناس دون فئة - ولا لحزب دون حزب . . ولا
لشعب بعينه - ولا لأمة بذاتها . . وان البشرية اذ تدعن
له - وتعمل به وتتعاطاه هدية مباركة من ربها تجد الأانس
وتحقق السعادة وتحس بالطمأنينة والسكينة . لأنه يرضى
كل نوازعها . . ويتجاوب مع جميع مطامحها ويلبى جميع
احتياجاتها . . ويعتد بخصائسها وملكانها . . وانه ليعطى
الحياة عطاء سخياً - وقد ظل هذا الدستور يحكم الحياة
بالفعل ويعطيها من غير حدود فى جميع المجالات . . تشريعاً -
وادارياً - وسياسياً - واجتماعياً - وعلمياً - وأدبياً . .

(١) آية ٢٩ سورة البقرة .

(٢) آية : ٦ ، ٧ من سورة الروم .

دون أن تظهر فيه أية تناقضات * * أو توجد ثغرات * * في حين أن دساتير البشر تتعارض * * وتتضارب - ويلحقها النقص * * ويظهر فيها الخل وتضاف إليها تعديلات شتى * واضافات كثيرة * *

ولقد استطاع هذا المنهج أن بصيب من الجاهلية مقتلا - وأن يصنع رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وأن يلمس المواهب الكامنة في نفوسهم فاذا هي تنطلق من عقالها لتحدث أثرها في الحياة * * فكان كالغيث المبارك هطل على أرض البشرية الجذباء فأحيا مواتها * * وأنبت فيها كل رائق من الزروع والثمار وهكذا تحولت الحياة بمنهج الله الى بستان نضير فيه من النباتات أحسنه وأزكاه ومن الثمر أطيبه وأحلاه كما استطاع هذا المنهج أن يصنع ضمير الأمة ووجدانها وأخلاقها * * ويحدد لها رسالتها في الحياة * * فأنشأ مجتمعا متناسقا تسوده نعمة واحدة لا نشاز فيها ولا اختلاف وكانت له مقوماتها التي لا يشركة فيها مجتمع سواه * * والعجيب في أمر هذا المنهج أنه أخرج هؤلاء القوم من الصحراء * * فانترع الجاهلية من أعماق نفوسهم - وثبت العقيدة في وجدانهم * * ثم عمد الى أرواحهم فطهرها من كل دنس - وحردها من كل ضعف والى مواهبهم فشحذها وأطلقها تعمل على عين الله * * وتنوعت تلك المواهب وتعددت الكفايات تنوع زهرات الروض لتسد كل ثغرة - وتكفي كل عوز - وتقويم كل بناء وعندما أرادوا أن يقيموا دولتهم - التي كانت أمل العالم كله - لم يستعينوا بدستور من دساتير الأرض - ولم يستوردوا مبادئ ولا نظما - ولم ينتدبوا خبيراً من بلد آخر ليستعينوا به في عملية التخطيط والبناء - وإنما أقبلوا بكل الثقة والحزم على قرآن ربهم - يقودهم نبيهم ورسولهم - ليلتمسوا فيه كل النظم الحضارية التي تجعل بناء دولتهم شامخاً * * فمنحهم

القرآن أسرارہ - وأسبغ عليهم أنوارہ - وأمدهم بكل ما يطلبوا وكانت دولتهم المؤسسة على تقوى من الله ورضوان هي منارة الدنيا في العلم والعقيدة والسياسة وصدق الله العظيم اذ يقول : [أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون (١)] .

انها الدولة النموذجية في العالم كله . . يرى الناس فيها مثلهم الأعلى في العقيدة . . فلقد كان لتلك العقيدة الصافية أثرها في كل حركات الاصلاح التي قامت في أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة عندما أعلنت أن الله واحد منفرد بالسلطان ونزهته عن التجسيد والنقص . كما أنها أعلنت استقلال الانسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون أية وساطة كان لذلك كله أثر كبير في تفتح أذهان الشعوب الى تلك المبادئ الرائعة كما كانت هذه الدولة النموذجية مثل الناس الأعلى في ميادين العلم والفلسفة من طب وكيمياء ورياضة وفلك . . فلقد أفاقت أوربا على صوت علمائنا يدرسون هذه العلوم في مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها . . ولقد ترجم كتاب القانون في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر كما ترجم كتاب الحاوي للرازي وهو أوسع من القانون في نهاية القرن الثالث عشر - أما كتب الفلسفة فان الغرب لم يعرف شيئاً عنها الا عن طريقنا فنحن الذين قدمنا له كتب الفلسفة اليونانية مهدبة - منقحة - وتظل أوربا تنقل عن حضارتنا حتى في عهد نابليون . . حيث تستمد أروع القوانين - وأدقها متمثلة في كتاب « خليل » الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي وقد جاء متشابهاً مع أحكام الفقه المالكي يقول سيديو :

(١) آية ١٢٢ سورة الأنعام .

« والمذهب المالكي هو الذي يستتوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب أفريقية وعهدت الحكومة الفرنسية الى الدكتور بيرون في أن يترجم الى الفرنسية كتاب المختصر في الفقه للخليل ابن اسحاق بن يعقوب المتوفى (١٤٢٢ م) » .

أما تأثيرها في الفنون بالنسبة لأوربا فيكفي أن نسمع الاستاذ ماكسييل يقول : « كانت أوربا مدبنة بأدبها الروائي الى بلاد العرب - والى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوروبية مختلفة روحا وخيالا عن العالم الذي كان يخضع لروحه » .

ولا تسئل عما أحدثته حضارة القرآن من آثار عالمية أخرى في مجالات الحياة . فلذلك فصل يأتي ولأن هذه الرسالة عالمية انسانية [وجدنا أنها عقد ينتظم كل المواهب والمكاف من جميع الأمم والشعوب والعناصر فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ليسوا الا عباقره قدمت حضارتنا في أشخاصهم نماذج انسانية للفكر المتفتح والعقل الخصيب (١)] .

ولقد كان انشاء هذه الدولة الحديثة بجهود الرسول والذين حوله أعجوبة فريدة في الزمن حيث كان رجالها الزهاد والعباد والحكام والقضاة والساسة والمحاربون والقادة والعلماء والفلاسفة والدارسون والأدباء والشعراء . . وغير

(١) عن كتاب من روائع حضارتنا للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي .

ذلك من معجزات الفكر الانساني . . ولقد عاشوا عازفين عن
مناعم العيش - ومزاعم الجاه - ومغريات الشهرة والطين . .
وتجلت الحياة القوية بمظاهرها وخصائصها . . التي لم
تتوفر في عهد من العهود .

لقد كانت تلك المواهب مبعثرة في ظلام الجاهلية ضائعة
في حطامها - مبددة في العصبية - وتثرب الخمر ولعب الميسر
مهذرة في المهاترة والمفاخرة . . تنتظر اليد الصناع والصائغ
الماهر الذي يجمعها من شتات . . ويحيها من موات . .
وينفض عنها غبار الجاهلية ثم ينفخ فيها من روح الله لتتألق -
وتزدهر وتنضئ وتملا الحياة كلها عملا وتستوعبها كفاحاً
شريفاً ونزلاً سامياً من أجل مستقبل ارقى لكل الناس . .

ولم يكن هذا الصائغ الصناع الا مولانا رسول الله الذي
جاءها على قدر وموعد ومعه منهج ربه فاكنسح ركाम الجاهلية
ثم وضع الأساس ثم أقام على البناء على بركة الله . .

من عجائب هذا المنهج

من استعراضنا السابق - للآثار العجيبة التي تركها المنهج الالهي في عقائد القوم . . ومعارفهم وعلومهم نستطيع أن نقطع - بأنه لا يتصور في عقل بشر - أن يتم هذا التحول في حياة القوم - بل في العالم بأسره الا بمنهج الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى . . والا بقيادة النبي العظيم الذي طبق المنهج بكل الحزم . . والصدق والثقة والايمان . . ولذا تمت كلمة ربك صدقا وعدلا فكان من آثار هذا المنهج مجتمع متناسق القوى والملكات على النحو الذي شرحنا من قبل وكان أن انتضت القرائح العربية الخصبه انتفاضة الأرض حين وجودها غيث السماء . . فتنبت من أفانين الزهر والنبات ما لا يدخل تحت حصر - وتعطى من يانع الثمار ما يسد حاجة الناس كذلك حدث بالنسبة للمواهب العربية حين ما زجها هدى الله . .

فقد تحققت كل الكفايات التي كان المجتمع الجديد في حاجة اليها . . التي كان لابد منها لصنع التقدم !! وتمضى هذه الكفايات - مزودة بمنهج ربها - حتى تقطع بعيدا في صناعة الحضارة لا تقتصر منها على جانب واحد . . بل تبرع في شتى الجوانب ففي عالم الأفكار . . وفي عالم الاشياء وفي عالم التخطيط والبناء في هذه الميادين ابداع مثمر خلاق لا يكتفى بسد العوز وانما يفيض خيره وغيثه على العالم الظامى الى قطرة من ماء . .

وتوجد سائر أنواع النشاط الحيوى في هذا المجتمع فالمسلم يعبد الله في المسجد - ويحارب العدو في الميدان ويصرف السلعة في السوق ويحكم بين الناس بالعدل . .

أنه مجتمع العجائب حقاً في كل أموره . . . ولا غرابة في ذلك فإنه يستنقى من نبع الله الطهور !! ولقد كسا العارى . . . وأطعم الجائع . . . وأعطى المحتاج وأوجد العمل لكل قادر . . . وعاقب المنحرف . . . وأقام حدود الله . . .

مجتمع حل التناقضات الموجودة في داخله بكلمة الله وروح الاسلام . . . وكان الرسول حريصاً كل الحرص على أن يحتفظ لهذا المجتمع بكل ضمانات الوحدة . . . وأن يقنلح جذور الجاهلية الأولى فكان لا يفتأ يردد (١) « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من مات على عصبية » وعن جابر بن (٢) عبد الله قال :

« كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الانصاري : يالأنصار !!

وقال المهاجري . . . ياللمهاجرين !! فقال انبى صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها منتنة » لقد أوشكت الحرب الأهلية أن تقوم بين المهاجرين والأنصار ولكن الرسول الذي يريد الوحدة لقومه . . . يردعهم على صنيعهم . . . ويبين لهم أن العصبية منتنة . . . أى قذرة لأنها قد ماتت مع الجاهلية الأولى . . . وهكذا أغلق الرسول كل الأبواب في وجه كل خلاف أو عصبية أو جهالة وهكذا ماتت العصبية أو كادت . . . وتناستت القوى البذائة لتصنع مجتمع الايمان . . .

وكان أصحاب رسول الله أشبه شئ، بباقية زهر نصير . . . لكل زهرة عطر . . . وكانوا كالحلقة المفرغة في الفضل . . . وكانوا نماذج حية في حسن الطاعة والافتداء . . .

(٢) رواه البخارى . . .

(١) رواه ابو داوود . . .

وبذا قامت حضارتهم على سواعد الرجال العظماء . .
فكانت قوية الدعائم شامخة البناء . .

يقول رينان : [أن بعض الأديان قد أسستها أيدي النساء
ولكن الاسلام قام على سواعد رجال أولى عزم كمحمد (صلعم)
يعرف فيه كل منصف أنه قدسى الأهداف - انه دين الحزم
والجد دين البساطة والمساواة والحرية والعدالة] ورغم تعدد
الأجناس والامم والعناصر التي دخلت رحاب هذا الدين فانه
قد استطاع أن يستوعب خصائصها - وأن يفجر ملكاتها - وأن
يصهرها في بوتقة وأن يصوغها صياغة رائعة . . تعطي من
أنفس ما تملك للحياة كلها - وليس لجنس أو عنصر أو أمة
وأصبحوا جميعا بنعمة الله اخوانا . .

ولم يقل واحد من هؤلاء أنا فارسي - أو رومي - أو حبشي
لأن أساس التفاضل في الاسلام هو التقوى التي تستقر في
القلوب والضمائر . . ولا تتغير الاجناس ولا تتلون بتلون
البشرة . .

ولهذا ساد بلال وعمار وصهيب في هذه الدولة الجديدة . .
وأصبحوا رسل حضارة للعالم بأسره . . وفجر الاسلام
مواهبهم فأعطت الحياة علما وخيرا وايمانا وعدلا وكرامة !!

ان هذا المجتمع الطيب قد أعطى من نفسه أكثر مما طلب
منه ، ووصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : « ويؤثرون على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) » .

انه مجتمع الايثار لا الأثرة فقد أعطى من غير أوامر انطلاقا
من الايمان والعقيدة ولهذا جاءت الآية واصفة لا أمرة وهذا من
عجائب المنهج الرباني .

(١) آية ٩ سورة الحشر .

(ه) تكامل جوانبها واتساق عناصرها :

وهو تكامل يعنى انسجاما رائعا في العناصر واتساقا فريدا في الملكات ، واستيعابا شاملا للدين والدنيا - وجمعا رائعا بين المادة والروح وشمولا عاما لكل مناحي الحياة . .

والحقيقة أن القرآن بوصفه منهجا لتلك الحضارة فيه بيان كل شيء كما وصفه رب العزة والجلال فهو لم يدع ناحية من نواحي الحياة الا ذكرها . . بل لم يدع أملا للانسانية الا حققه . . ولكنه مرتبط من قبل ومن بعد بجهد البشر ليحققوا مبادئه - ويطبقوا أحكامه - ويعيشوا نظامه . . وهو نظام متكامل لا يغنى فيه شيء عن شيء ، فينبغي أن يؤخذ كله بمنتهى الطاعة والحزم والانقياد - أما أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض فذلك هو الخسران المبين . . فالعقيدة - والعبادة - والأخلاق - والمعاملات - والحدود - كلها نظام رباني لا ينبغي أن يمس بتعديل أو جرح . . وانما يجب تطبيقه كما أراد الله في جميع الأوقات . . فلا يجوز أن نلجأ اليه وقت الازمات ثم نتخلى عنه أوقات الرخاء ، لأنه مسلك لثيم . . وليس الدين مادة ترف نأخذة حيننا وندعه حيننا آخر ولكنه نظام الحياة والعقيدة معا . . وهذا الكتاب ليس نظريات للحفظ والدارسة - وانما هو مبادئ للتطبيق والممارسة . . وكل آية تطالب بترجماتها في الحياة وبتحويلها الى عمل وسلوك فلا بد من تمكينه ليؤدي دوره في قيادة الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا .

وهكذا . . لا بد من فقه هذه الخطوط العامة . . وتوخيها . ولا علينا في هذا الاطار أن نستفيد من نجارب البشر - ومن غير التطبيق يصبح هذا الكتاب فلسفة نظرية أو رياضة عقلية وقد يتخذة قوم مادة للتغنى - والتجويد أو حجابا يتبركون به

وما لهذا نزل القرآن !! وانما نزل ليكون منهج حياة ونظام
مجتمع وأساس حضارة ولتطبق قيمه ومبادئه ليتحول الى
سداوك تصطبغ به الحياة - ويسير عليه المجتمع . . . وانه
ليؤدى دوره بجهد البشر وبجهودهم ومدى استفادتهم
واستيعابهم . . .

ولا يعمل بطريقة سحرية قط وتلك هى الواقعية العملية ،
ان هذا التكامل بالسواعد الفتية - وروحا تعبد الله بالقلوب
الزكية . . . وهو يمزج بين العنصرين فى كيان المسلم ويلائم
بينهما ملاءمة دقيقة بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر . . .
ويبنى حضارته على أساس من ذلك التكامل - ولعنة
الحضارات المادية أنها أهملت جانب الروح وأنهكت قواها فى
المادة وسخرت نفسها لمطالب المال والدولار وباعت عقيدتها
فى بورصة العقود وغدت جسما منتفخا متورما تراه لأول وهلة
فتظن به العاقبة ويروعك رواؤه بينما هو مصاب فى قلبه بشتى
الأوصاب والعلل . . . ولا يمكن للحضارة الانسانية أن تقوم
على عنصر واحد مهما قوى ذلك العنصر لأن ذلك ضد الطبيعة
والفطرة .

وإذا كانت أعراض الفناء لم تظهر أمامنا بشكل واضح
على تلك الحضارات فانها دفيئة باطنية وانها لتتمثل فى أزمة
الضمير - والأخلاق وسوءات الفجور والعريضة - ومظاهر
الاباحية والاحاد انها حضارة للدنيا فقط . . . بل للحيوانات . . .
وليست حضارة الآخرة ولا الآدميين ويكفى أن تلك الحضارات
المادية صنعت الحضارة بيديها ثم عبدتها من دون الله . . .
فالآلة والانتاج والقيمة الفائضة وما الى ذلك من ثرثرة
الشيوعية كلها آلهة تعبد من دون الله . . .

واستعبدت بذلك قلب الانسان وضميره . . . وكذلك حضارة الغرب باعت أخلاقها في عالم الارقام والاسلحة والمتفجرات . . . | أفرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم (١) | وهذا الضلال الساذج « من غير علم » يمكن حل عقده بسرعة متى اتجهت الفطرة - وانقاد القلب . ووضح الدليل . . . أما الضلال العالم - أو العلم الضال فهو خبيث شرير متعدد المسارب في دخائل النفس متغلغل الجذور في أعماق الوجدان والاحاد في هذا العصر كله من هذا الطراز الخبيث الذي تعنيه الآية الكريمة .

ومن ثم فالجاهلية التي يخوض الناس غمارها في هذا العصر . . . أشد نكرا من جاهلية القرون الأولى . . . لانها جاهلية مغرورة بالعلم ومنجزاته !!

وكما أن التكامل يعنى انسجاما بين الروح والجسد فهو أيضا يجمع بين العقيدة والعمل - وبين القيادة والعبادة - بين المجتمع والمسجد - بين العلم والدين - بين الأخلاق والسلوك - بين الدنيا والآخرة . . . بين النظرية والتطبيق . . . بين الحرب والسلم - كما يعنى تكاملا في الحياة من حيث الفهم السياسى والوعى الاجتماعى والعلاقات الدولية وعلاقات الأفراد ببعضها على صعيد المجتمع وفي رحاب الأسرة ويوضح علاقة الانسان بربه وبنفسه وبالكون من حوله . . . كل ذلك ينسجم ويتناسق ويتلاقى في كتاب كريم لا يكلفنا أكثر من التأمل فيه - والاستمداد منه والمعاشة له والعمل به والثقفة التامة فيه ، فاذا كل أهدافنا تتحقق - وبجميع مشكلاتنا تحل - واذا بأعدائنا يندحرون .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

ولقد انطلق به الرسول وأصحابه فبنوا مجتمعا تميز
بالخلق - وتححرر بالعقيدة - وساد بالايمان ولقد خاضوا
بالقرآن معارك كثيرة ضد الجهل والامية - وأشاعوا العلم
وحذقوا ضروب الثقافات وتقجرت مواهبهم الذكية فملأت الحياة
معرفة وثقافة .

و ضد التخلف : فنهضوا بمجتمعهم - وبنوا قواعده -
وأسسوا اقتصاده - ونشطوا في العمل والتجارة والبيع والثراء
- وأثروا من أعمالهم فتصدقوا على البائسين - وتبرعوا
للجيوش - وأعانوا على صنائع المعروف .

وخاضوا معارك عسكرية : فحاربوا - وانتصروا -
وفتحوا الدنيا وأسسوا أمجد الحضارات .

ومعارك اقتصادية : فزرعوا الأرض - ووزعوا الماء -
وحاربوا الظلم والاستغلال وكافحوا الربا - وطوروا الجيش
المحارب .

ومعارك سياسية : فبعثوا سفراءهم الى الأقاليم لشرح
قضية الاسلام - وتحركوا « دبلوماسيا » ليقنعوا العالم
بعدالة مبادئهم - وهل كانت هجرتنا الحثثة - وبيعة العقبة -
ومكاتبة الملوك الا أعمالا سياسية واعية؟! وهل كان تأمين
الطرق في أول عهد الرسول بالمدينة واصطناع الموده بالنسبة
لن يقيمون على امتدادها الا عملا سياسيا واقتصاديا؟

ثم كان في تأصيل مبدأ الشورى والتلاحم الفكرى الدائم
بين الرسول وصحابته وانشاء « ما يشبه المجالس المتخصصة »
كمجالس الحرب - ومجالس الشورى - وعيئات الافتاء مناهج
سياسية رائدة لم يزل العالم كله يتطلع اليها حتى وقتنا هذا!

ومعارك اجتماعية : ضد نزعات الجهل والحمق والسفاهة والتفرقة العنصرية التي شن الرسول عليها الحرب من أول لحظة . فجعل بلالا مؤذنه يصدح بكلمة التوحيد من فوق الكعبة . . ويلقبه عمر بالسيد . . وهكذا نجحوا فيما فشلت فيه أمريكا الآن وهكذا خلا مجتمعهم من مشكلات العنصرية ومشكلات اللون والعرق والجنس ، وتسابت جميع القوى فيه للبناء والتعمير وأبرزت أنفس مواهبها فنجلت في المجتمع كفاية وعدلا - وخلقا وعقيدة وإيمانا بالله .

وعلى الرغم من أنهم نهضوا بكل هذه الأعباء - فإنهم استعانوا على كل ذلك بتقوى الله - ولم تشغلهم الشواغل عن ذكر الله - ولا عن أداء الصلاة - حتى وهم أمام العدو وفي جبهة القتال [يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (١)] ومع ذلك فالاعداد المادية مطلوب [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢)] وهي قوة متطورة تأخذ شكلا يلائم العصر ويناسب البيئة ولهذا أطلقها القرآن .

هكذا فهموا التكامل - وطبقوه - وأنشأوا على أساسه حضارة قرآنية متكاملة .

وكما يعنى التكامل الجمع بين كل ما مضى فإنه يعنى أيضاً تحقيق مصلحة الفرد من حيث هو فرد ومصلحة المجتمع بوصفه مجتمعاً من غير تعارض بين المصلحتين - فان مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد فما ينبغى أن تطفى واحدة على الأخرى كما فعل العالم الرأسمالى - الذى نزع نزوعاً فردياً ، فترك للأفراد أن يقود زمام

(١) آية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) آية ٦٠ سورة الأنفال .

نفسه - وأن يفعل ما يشاء ويقول ما يريد باسم الديمقراطية - وكذلك لا يجوز أن تطغى مصلحة الجماعة كما فعل العالم الشيوعي حيث ألغى ارادة الفرد ، وزكى النزعة الجماعية . . . فلا أمر ولا سلطان ولا ارادة الا للجماعة أما الفرد فيشبهه الترس في الآلة ، ولقد شقى العالم من جراء هذه التناقضات التي عادت عليه بأوخم العواقب ، وكل سوآت العالم الرأسمالي تتركز في الفردية ، وكل سوآت العالم الشيوعي وما فيه من ارهاب وقمع ودكتاتورية انما ترجع الى النزعة الاجتماعية أما الاسلام وحضارته ، فانه يجعل مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة - وذلك لأنه اذا صلح الفرد صلح المجتمع - وهل المجتمع الا أفراد ؟ ومن ثم نجد القرآن يحث الفرد على الروح الجماعية فيخاطبه كثيراً ضمن الجماعة [يأيها الذين آمنوا - يا بنى آدم - يا عبادى - يأيها الناس] ، وذلك ليكافح في الفرد المسلم نزعات الأنانية ويشعره بأنه عضو في مجتمع يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ونسمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » فالفرد هنا مطالب برعاية شأن الجماعة . . . كما نرى الجماعة مسئولة عن الفرد ، من حيث تقويمه وكبح جماحه ورده الى الحق والعدل | واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (١) | وتقوم قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهى المعروفة برسالة التوجيه المعنوى على هذا الأساس ، والله يقول : | فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولبنذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون (٢) | . . . لابد فى ظل الآية من رأى عام مسلم يمكن أن يسمى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليقوم بواجبه فى الدعوة نحو المجتمع الكبير ، هذه

(١) آية ٢٥ سورة الأنفال .

(٢) آية ١٢٢ سورة النوبة .

المسألة التي يحلها الاسلام حلا طبيعياً ملائماً للفطرة ، ما تزال حتى اليوم تقسم العالم الى قسمين : رأسمالي ، وشيوعي . . . والواقع أنه لا تعارض على الاطلاق بين النزعتين كما مر لکنه، ينبغي التنبيه الى أن الاسلام يجعل الخطيئة فردية - كما يجعل الصلاح فردياً والحساب عليها كذلك فردي لا دخل للجماعة فيه، [من عمل صالحاً فلنفسه من أساء فعليها (١)] . وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء (٢)] فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٣) . فليس هناك في الاسلام ما يعرف بالتكفير الجماعي عن خطايا البشر كما تزعم المسيحية ، التي تدعى أن المسيح قد تحمل الصلب ليكفر عن خطايا البشرية !!

هنا فقط ، يبرز الطابع الفردي فيما عدا ذلك لا تعارض بين مصلحة الفرد ولا بين مصلحة الجماعة .

الرسول ومسئولية الجماعة :

في ضوء الهدى النبوي نستطيع أن نلمح الأساس السليم لبناء مجتمع قوى ، تتحمل فيه الجماعة المؤمنة مسئوليتها كاملة . . . لتحدد الاطار الذي تتحرك فيه حرية الأفراد . . . ولا تترك لهم أن يفسقوا ويفسدوا ويهتكوا الأعراض ، باسم الحرية .

ونرى في الحديث الذي سنسوقه الآن آية الرشد النبوي - وقوة الدلالة على هذا المعنى - وتحديد المسئولية الجماعية - وحدود الحرية الفردية . التي لا مجال بعدها لشرح أو توضيح

(١) آية ٤٦ سورة فصلت .

(٢) آية ١٢ سورة العنكبوت .

(٣) آيتا ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .

فلا نترك للأفراد أن يفعلوا ما يريدون – ويقولوا ما يشاءون ولو كان الحاداً وكفراً باسم الحرية •• ولا نتحامل عليهم من غير مقتضى أو موجب لأن ذلك امتهان لحقوقهم – ومصادرة لحقوقهم •• وهنا تأخذ القضية وضعها السليم وهي أن مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة والعكس •

بين النزعة الفردية والجماعية :

روى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبي [صلعم] قال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً ولم نؤد من فوقنا !! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً – وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » •

بهذا التمثيل الرائع •• يحل رسول الله [صلعم] من وراء الغيب مشكلة ما يزال العالم الحديث متورطاً فيها الى اليوم •• وهي مشكلة النزعة الفردية والجماعية •

والحديث يرسم الاطار السليم الذى ينبغى أن تتحرك فيه حرية الأفراد • فاذا تجاوزوا ذلك هلكوا – وأهلكوا المجتمع كله •• ومجال هذه الحرية ألا تؤذى أحداً وألا تضر بمصالح الآخرين فى اطار الدين والخلق ، فمن حق أى فرد أن يتكلم بحرية ما لم يجرح شعور الآخرين وأن يفعل ما يحب ما لم يسيء الى المجتمع – وما لم يخرج على الفضيلة •

فاذا تجاوز ذلك فعلى الجماعة أن تضرب على يده لصلحته
هو واصلحة المجتمع نفسه لا أن تتركه يعربرد وينزو كما تفعل
أمريكا اليوم ، بل العالم الغربى كله ، ومهما كان المبرر فلا بد
من قمعه ليرتدع !! فان أهملت الجماعة واجبها في تأديب المارق ،
ورد الغوى فلننتظر سوء العاقبة !!

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يختار لتوضيح
المشكلة الاجتماعية أسلوب التصوير الحسنى المألوف ليتضح
المعنى ويبرز الأثر ، وهو يؤثر السفينة وركابها لان أحداً في
الحياة لا يجهل أمرها ، فالأمة في مجموعها الكبير - قاداتها -
وجمهورها ، تشبه بقوم مختلفين ركبوا سفينة ، فأما القادة -
الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - فهم في أعلى السفينة
لأن هذا هو وضعهم ، انهم في الحياة والواقع قدوة فليكونوا في
أعلى السفينة ، لأن هذا هو وضعهم في الحياة وأحكام الشريعة
السمحة التى تتجه بالمجتمع كله الى الخير - اذا أحسن تطبيقها
والسهر عليها هى السفينة التى تتجه بالراكبين الى شاطئ
السلام متى أحسنت قيادتها وهذا التشبيه بجميع عناصره
يلتئم ليكون هيكلًا عامًا تشبه فيه هيئة المسلمين جميعًا - من
يقومون على حدود الله - وهم الحكام - ومن يقعون فيها وهم
العامّة • بهيئة قوم ركبوا سفينة - بعضهم أعلاها وبعضهم
أسفلها - بعد أن استهموا على قسمتها ، كما يشبه مسئولية
قادة الأمة عن عبث العابثين بمسئولية من ركبوا أعلا السفينة
عن ركبوا أسفلها •

ويتمم الرسول شرح الموضوع : فيبين لنا أن هؤلاء الذين
أصابوا أسفل السفينة يريدون الحصول على الماء ليشربوا :
وأنهم يريدون ألا يصعدوا الى أعلى السفينة لان ذلك يؤذى من
في أعلاها وانما يؤثرون الطريق الأسهل • والخطر في الوقت

نفسه ، فتحدثهم نفوسهم أن يستعملوا حريتهم الفردية بأن يخرقوا خرقا في نصيبهم من أسفل السفينة فيشربوا دون ازعاج أحد ، ومادروا أنهم بحماقتهم سيجذبون السفينة كلها الى القاع . .

والامر بعد ذلك يتوقف على همة من في أعلى السفينة - ومقدرتهم على التصدي لهؤلاء الحمقى ومنعهم . . فان فعلوا ذلك فقد أنجوا أنفسهم - وأنجوا من تحتهم والا هلكوا جميعاً لأن الغرق لن يقتصر على جماعة دون جماعة .

ولهذا التمثيل انطباع رائع عن مفهوم الحرية ومسئولية الجماعة فكما أن مستقبل السفينة كلها متوقف على جهود من في أعلاها . . فكذلك شرع الله كله متوقف على نشاط القائمين على الأمر وحكام هذه الامة . . وكما أن على من بأعلى السفينة أن يضربوا على يد من بأسفلها فكذلك واجب القادة والحكام أن يقيموا حدود ويبدروا مفاصد الغرغاء والسوقة . .

وكما أن نفوس السوقة قد حدثتهم بخرق السفينة من أسفل فكذلك حال السفهاء في المجتمعات كلها يريدون أن يجذبوا باجرامهم وفسادهم المجتمع الى الهاوية .

وكما برروا عملية خرق السفينة بأنهم لا يريدون أن يؤذوا من فوقهم فكذلك حال الدهماء يبررون فجورهم دائماً بأنهم لا يؤذون الا أنفسهم . فما شأن غيرهم بهم ؟ انها حرية وكما قالوا : « نخرق في نصيبنا » فكذلك يقول الدهماء اننا نسيء الى أنفسنا . . وانها حريتنا الشخصية . . وكما أن مصير من في السفينة متوقف على قوة الجماعة العليا فكذلك مستقبل هذه

الأمة متوقف على درء الفساد عن مجتمع ومعامبة المنحرفين وكما يأخذ من بأعلى السفينة على يد من بأسفلها لمصلحة الجميع . . . فذلك كبح جماح العصاة فيه سلامة المجتمع كله . . . وأن الحزم انما يتجلى في اقامة حدود الله .

وتبقى نقطة حاسمة في الموضوع وهي أن الذين في أسفل السفينة يفهمون غباوة وجهلا أن المكان الأسفل لهم وحدهم فلمهم حق خرقه أو تركه .

هذا بالضبط - هو مفرق الطريق بين حق الفرد والجماعة . صحيح أنه مكانهم ولكن من قال انهم يستعملون الحرية في حرقه وهل هذه حرية ؟ ان هذا العمل لن يعود عليهم وحدهم بالضرر ولكنه سيؤذى غيرهم . . . فباسم المصلحة العامة يجب أن يضرب على أيديهم . . . ولو أن خرق السفينة لا يؤذى الجميع بل يقتصر على أصحابه لجاز تركهم . . . لكن كيف وحریتهم في ذلك تتعارض مع مصلحة الجماعة ؟ ومن هذا يفهم أن الاجرام لا يهدد المجرمين فحسب بل يهدد المجتمع كله !!

هكذا دائما أصحاب المذهب الفردي يثرثرون بالحرية . . . ولا يتوقفون فيها عند حد . . . ويقولون :

ان هذه الحرية ملكنا . . . أما الاسلام فقد جعل للحرية الفردية اطاراً تتحرك داخله ولا تتجاوزه وهي الا تؤذى الغير - والا فعلى المجتمع الكبير أن يصادرها - وعلى أولى الأمر أن يأخذوا أصحابها بالحزم وبذلك يسلم أمر المجتمع !!

أرأيت الى روعة التشبيه وعمق تأثيره في النفس - وحسن توضيحه لمفهوم الحرية الفردية - ومسئولية الجماعة القيادية .

ذلك هو أساس الفوز في الدنيا والآخرة . . لا مانقراه اليوم من بحوث وكتب حول الحريات العامة . . من أراد التربية الاجتماعية الواضحة في أسلوبها البسيط وقالبها الفطري . . ومغزاهما الواضح فليلتمسها في هدى رسول الله !!

ان هذا الحديث يحدد مساوىء المذهب الفردى . . كما يحدد واجب المجتمع في كبح جماح الأفراد ورد غوايتهم وهكذا يبدو جلياً أن الجماعة مسئولة عن الأفراد . . اذا ما تجاوزوا حدودهم . . وأن مصلحة الأفراد من مصلحة الجماعة - وكذلك مصلحة الجماعة من مصلحة الأفراد فهذا هو حجم المشكلة . . في وضعها المعقول !!

وهكذا نرى أن الاسلام لا يفصل بين الفرد والجماعة ولا يضعهما في معسكرين متصارعين يحاول أحدهما أن يغتال حقوق الآخر فما دام للفرد نزعه استقلالية - ولكنها لا تخرجه عن كونه عضواً في المجتمع فقد روعى في منهج الاسلام أن يوازن بين النزعة الفردية والجماعية دون أن يفنى إحدى النزعتين لحساب الأخرى - ودون أن يسحق الفرد لحساب المجتمع - أو يضرب نظام المجتمع كله لحساب فرد أو أفراد . . انه يهتم بالانسان من حيث هو انسان له خصائصه وقيمه سواء كان فرداً أو عضواً في جماعة وهذا لون من التكامل - الفرد للمجتمع - والمجتمع للفرد - وبهذا تنطلق الحضارة القرآنية من غير عقد ولا ضغائن !!

ولعل في شرح الخصائص البارزة لحضارة القرآن من وحدانية مطلقة - ومن تناسق وشمول - ومن روح انساني نبيل يتجلى في تشريعها وفي واقعها العملى .

وكل ذلك ونحوه .. جعل منها أمل الادمانيين المريضة
المضطهدة المستذلة .. فالتقت بها على قدر وموعد - وكان هذا
اللقاء من اللحظات الحاسمة في التاريخ .. بل من المنعطفات
الكبرى في خط سير الحياة فمن جهالة يملؤها السفه والفجور الى
حضارة يملؤها العلم والنور .. ومن ضلال الخرافات الى
حقائق المعارف - ومن شتات التفرق الى ائتلاف الشمل - ومن
العداوات والثارات الى الاخوة والمودات .. وصدق ربنا
اذ يقول :

[واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار
فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] *

(١) آية ١٠٣ سورة آل عمران .

الباب الثالث قيم الحضارة القرآنية

(١) القيمة الايمانية : عندما ننظر في مجموعة القيم التي تنهض عليها حضارة القرآن - فاننا نوكد من ابدائية أنها ليست قيما متناثرة * * بل هي متعانقة تعانق الأمواج في المحيط الهادئ، * * يمتزج بعضها ببعض ويتشابك اللاحق منها بالسابق في تتابع وانسجام حتى تكون في النهاية هيكلًا ضخماً لأروع حضارة عرفها الانسان * *

ونقصد بالقيمة الايمانية : تلك العقيدة المتكاملة التي يتحرك بها المسلم في مجال الحياة عابداً لربه ومجاهداً في سبيله وساعباً في الخيرات باذنه * * وهذه العقيدة ايمان وثيق بالله لا يتزعزع * * وثقة تامة في عدله وقضائه وتصديق شامل بكتبه ورسله * * ومعرفة يقينية باليوم الآخر على نحو ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة *

فاذا استقرت هذه العقيدة في وجدان المسلم دفعته الى البذل والتضحية وأداء كل واجب يكلف به أو يطلب منه * * يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (١) [٢] *

وبهذه العقيدة تتحرك كل الحوافز الايجابية لدى المسلم * * عندما ينادى بها * * ومن ثم كان السبيل الأمثل الى استجابة

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال *

عاطفته - واستجابة قلبه - وتحريك وجدانه وانقياده الى
اى تكليف شاق .. يبذل فيه روحه وماله أن ينادى بهذا
النداء الحبيب :

« يأيتها الذين آمنوا » ثم تتوارد التكاليف بعده فى سهولة
ويسر ..

ان هذا النداء مفتاح سحرى يفتح قلب المسلم ووجدانه ..
يلقى اليه بكل الوعى وبكل القلب بل بكل الحب .. فيخشع
وينقاد وتصدر الأعاجيب .. وكم للطاعة والانقياد من آثار فى
بناء الحضارات .. لقد أحب المسلمون نبيهم حباً عميقاً صادراً
عن العقيدة .. فأطاعوه فى كل ما أمر .. وصدقوه فى كل ما حدث
به عن الله .. وهكذا ما ان تنزل آية من السماء بتحليل أمر أو
تحريمه الا سارعوا بداعى الحب ودافع العقيدة مهطعين
مستجيبين ..

وتلك هى أكرم ثمرات القيمة الايمانية فى بناء حضارة
القرآن .. انها تملك بهذه القيمة السيطرة الكاملة على أبنائها
.. وقد رأينا كيف حرمت الخمر بكلمات وفى لحظات !! وكيف
انطوى بساط الجاهلية كله باسم العقيدة والايمان ..

وقيمة أى نظام حضارى ليست فى نصوصه المكتوبة -
ولكن فى تطبيقه العملى .. ولقد استطاعت حضارة القرآن أن
تصنع لأبنائها وجداناً - يسالم أو يحارب - ويحب أو يكره -
تبعاً لعقيدهم .. فهم قد أحبوا فى الله - وكرهوا الله - وسالموا
وحاربوا الله .. قاطعوا أبناءهم وآباءهم وأمهاتهم لأنهم على غير
عقيدهم .. وأحبوا الفقراء والعبيد والأعاجم لأنهم على عقيدهم
.. وضحوا بالمال وبالوطن فى سبيل عقيدتهم .. ولم يكن

شيء في الوجود أعز على المسلم من عقيدته فمصيبتته في المال
يحتملها . . وكذلك في الولد والأهل ولكن المصيبة في الدين لا
تحتمل ولا تطاق . . وإذا اختلفت العقيدة فلا أنساب بينهم .

لقد روي أن أبا سفيان قدم المدينة فدخل على ابنته أم
حبيبة - وكان ما يزال مشركاً . . فلما ذهب ليجلس على فراش
رسول الله طوت عنه الفراش فقال يا بنية ما أدري؟ أرغبت بي
عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ ! فقالت: بل هو فراش
رسول الله وأنت مشرك نجس!!

فهل تتصور أن بنتاً تزجر أباهما . . وتنهره وتتصن عليه
بالفراش كهذه البنت؟ . . انها العقيدة فصلت بين الأب وابنته
. . فلم يعد للأبوة بعدها تأثير!!

ولقد أنشأت العقيدة لأصحابها حباً في نبيهم - الى حد
لا يتصوره التاريخ لانه حب يصدر عن الايمان . . بل ان
الايمان لا يتحقق لمسلم ما الا اذا كان الله ورسوله أحب اليه
من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه . .

قال عروة بن مسعود الثقفي بعد رجوعه (١) من الحديبية
يخاطب المشركين: [أي قومي!! والله ما رأيت ملكاً يعظمه
أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً - والله ان تنخم نخامة
الا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم
ابتدروا أمره واذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه . . واذا تكلم
خفضوا أصواتهم عنده - وما يحدون اليه النظر تعظيماً له ،
والله لقد وفدت على الملوك - على كسرى وقيصر والنجاشي
فما وجدت أحداً يعظمه أصحابه كما يعظم هؤلاء أصحابهم] .

(١) زاد المساد جزء ٣ ص ١٢٥ .

وقد كانوا في الحروب يفتدونهم بأرواحهم - ويتلقون عنه
السهام بأبدانهم - ويؤثر الواحد منهم أن يموت ولا يشاك
رسولهم بشوكة * * ويسألون عن سلامته قبل أن يسألوا عن
ذويهم وأهليهم في الحروب فاذا اطمأنوا الى سلامته قالوا : كل
شيء بعد ذلك جمل !!

العقيدة والضمير :

لقد صنعت هذه العقيدة وجدان المسلم - وكانت رقيباً
عليه في روحاته وغدواته ، في يقظاته وهجعاته - سواء وهو
فرد أو ضمن جماعة * * فأوجدت له ضميراً حياً يستحي من الله
ومن الناس ، ونفساً لوامة تؤنب على المعاصي والمخالفات -
وعاش المسلمون الأولون في حراسة ضمائرهم لا تغريهم الدنيا
بكل سحرها - ولا تطرف أعينهم بكل جمالها - قد أخرجها
من قلوبهم فهان أمرها على نفوسهم * * واقتدوا برسولهم في
الصدق والأمانة والعفة والنزاهة والاستقامة والايثار فبلغوا
من ذلك ما لا مطمع لاحد في وصفه * * وقد قرءوا في كتاب ربهم
« ان الله كان عليكم رقيباً (١) » فراحوا وغدوا في ظل هذه الرقابة
وان أحدهم ليظفر بتاج كسرى فيجيء به الى أمير المؤمنين * *
وفاء بحق الأمانة * *

ومما حبيب الناس في هذه العقيدة بساطتها وسماحتها فهي
ليست عقيدة تثليث - ولا كهانة ولا تعقيد وانما هي عقيدة
وجدانية سمحة [انما الله اله واحد (٢)]

(١) آية ١ من سورة النساء .
(٢) آية ١٧١ من سورة النساء .

وهذا السمو في الوجدانية كان له أثره في رفع مستوى
الإنسان . . . وتحرير النفوس من طغيان الملوك والأمراء ورجال
الدين . . . وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين - كما كان
له أثر في خلو هذه الحضارة القرآنية من كل مظاهر الوثنية
وآدابها على مر الزمن .

وهذه الوحدة التي تنادى بها عقيدتنا تطبع كل الأسس
والنظم بطابعها فهي وحدة في تصور الآله - ووحدة في
الرسالة - ووحدة في التشريع . . . ووحدة في الأهداف العامة
ووحدة في الكيان الإنساني وفي أسلوب المعيشة ونظام التفكير .
وأساسيات الحقوق .

وبسبب هذه البساطة اعتنقها القاصي والداني وأشاد
الأجانب بصفاتها وسماحتها . . . ووجدوا فيها سمو العاطفة
وشرف الوجدان . . . فهل حاولت حضارة الغرب، يوما أن تخضع
أصحابها لرقابة الضمير ؟

(ب) القيمة العلمية :

من القيم التي نادت بها حضارتنا : القيمة العلمية . . . وهي
قيمة لا تنفصل عن العقيدة - وإنما ترتبط بها وتصدر عنها ذلك
أن هذه العقيدة تقوم على أساس علمي - وأحكام شريعته
انما تزدهر في الأجواء المثقفة - وهذه العقيدة أيضا تؤكد دور
العلم في الحياة وتهتف بالعقل البشري أن يتأمل في خلق الله
وأن يتدبر في ملكوته وأن يتخذ من هذه المشاهد غذاء لعقيدته ،
وقوة ليقينه وإيمانه [قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما
تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١)] . . . فالكون كله
مسرح تتجول العقيدة في جنباته وتطير في آفاقه عابدة مسبحة

(١) آية ١٠١ من سورة يونس .

مستلهمة من بدائع صنع الله وروائع خلفه معنى العبودية والاجلال والخضوع .. وهكذا نجد العقيدة في هذا المجال عقلا يشتغل وايماننا يشتعل ويقينا يتزايد ويربو .. وبهذا الفيض الدافق والالهام المتجدد تظل الشعلة الايمانية متقدة باهرة الضياء لأنها تستمد من معين لا ينضب يوازرها كون مشحون بكل جليل - وعقل مدرك لكل بديع وجميل !!

والعجيب أن القرآن لا يشجع على العلم الدينى فحسب .. ولكنه يشجع على كل علم يؤدي الى نفع البشرية ويفضى الى تقدم الحياة ورقيا .. وزيادة ارتباطها بالله .. ولنقرأ في ذلك قول الله سبحانه [ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (١)] .

فانظر كيف جمعت الآية أشناتا من المعارف الحيوية وأنماطا من المشاهد الطبيعية ثم طلبت الى المسلم أن يتأمل في كل ذلك بعقل الباحث المفكر وليس بالنظرة العجلى ثم ختمت الآية بما يفيد أن العلماء هي أخشى الناس لله .. واذا نحن نظرنا في تلك اللوحة القرآنية التي تعرضها الآية السابقة وجدنا منها ما يرتبط بعلم النبات (فأخرجنا به ثمرات) ومنها ما يرتبط بأنواع التربة وعلم طبقات الأرض (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها - وغرابيب سود) ومنها ما يرتبط بعلم الانسان (ومن الناس) ومنها ما يرتبط بعلم الحيوان (والأنعام والدواب) .. وهى نظرات فاحصة تقوم على دراسة واعية وتصل الى نتائج محددة ..

(١) آية ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر .

ان هذه الآية تشير الى موضوعات علمية . . . وتترك للعقل
البشرى أن يتجول في رحابها مكتشفا وملاحظا ومجربا . .
ولكن هذا العلم في الجو الاسلامى علم باسم الله لا باسم أحد
سواه . . .

وبذلك يطرد نفعه للحياة كلها وللانسانية جمعاء ولا
يسخر للغواية والشهوات وتدمير الحياة واستعباد الناس . .
وأول آية تنزل على الرسول الأسمى تؤكد هذه المعانى (اقرأ
باسم ربك الذى خلق) وبذلك يأخذ العلم فى جو حضارتنا
منطلقا ربانيا . . . وويل للعلم ان انفصل عن الله - وويل
للحياة منه !! وهكذا يصبح شعار الاسلام هو العلم . . . وشعار
حضارته هو الثقافة والمعرفة الشاملة . . . والقرآن الكريم آيات
لقوم يعقلون لقوم يتذكرون لقوم يتفكرون لأولى الالباب -
لأولى النهى والكون كله فيه آيات لقوم يعقلون - فيه آيات
للموقنين - ا وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١) [ومن آياته
خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك
لآيات للعالمين (٢) ا]

وتأمل معنى هذه الآية الكريمة : [أم هو قانت آناء الليل
ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى
الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب(٣)] .

ماذا ترى ؟ ألسنت معى فى أن مزيجاً رائعاً وصحياً بين
عبادة الله وبين العلم النافع قد التقى فى رحاب هذه الآية !!؟

-
- (١) آية ٢١ سورة الذاريات .
 - (٢) آية ٢٢ سورة الروم .
 - (٣) آية ٩ سورة الزمر .

فهذا القانت العابد لا يرتفع الى قمة التقوى الا اذا صحب
عبادته علم نافع يضيء جوانبها ، ويفسر أحكامها ويوضح
أهدافها . . . وبذلك تكون عبادتنا لله على بصيرة ونور . . .
وليس كعبادة الجهال الذين يؤدونها كيفما اتفق .

فهل رأيت امتزاجاً بين العلم والعبادة أكثر من هذا ؟ . . .

والواقع أنه لا يستوى عند الله عالم بأسرار عبادته
وجاهل بها . . . بل ان مجال التفاضل بين الناس ، والارتفاع
بأقدارهم هو العلم النافع [يرفع الله الذين آمنوا منكم ،
والذين أوتوا العلم درجات (١)] .

ولهذا كرم الله العلماء تكريماً لا مطمح وراءه لرفعة . . .
حيث أضافهم الى نفسه والى ملائكته في الاقرار بربوبيته
ووجدانيته وعلمه :

[شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً
بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (٢)] .

ومن أدبيات العلم في حضارتنا - أن يكون خالصاً لله -
فهو علم عابد - مسبح - موصول بالله ، والعلوم كلها اذا
سارت في هذا الطريق أدت أهدافها وبارك الله خطاها .

[واتقوا الله ويعلمكم الله (٣)]

ومصدر هذا العلم أساساً هو الله .

[وقل رب زدنى علماً (٤)]

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

(٢) آية ١٨ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٨٢ من سورة البقرة .

(٤) آية ١١٤ من سورة طه .

وما يجوز لعالم أن يغتر بعلمه .

ا وما أوتيتم من العلم الا قليلا]

والعلم في جو حضارتنا علم متكامل . . يعبد الله ويبني
الحياة . . ويعتمد على التطبيق . . لأنه ليس علماً نظرياً . .
فالرسول صلوات الله عليه يطبق العلم في جميع المجالات . .
فهو يجعل فكك الأسير في غزوة بدر تعليم عشرة من صبيان
المسلمين القراءة والكتابة . . وهو أول عمل علمي تطبيقي
يبذل في مجال مكافحة الأمية .

ولا يقتصر على ذلك . . بل يخطط بالعلم للمعارك كما
علمه ربه وكما أشار عليه أصحابه .

كذلك يستخدم العلم في مجالات الاقتصاد والسياسة . .
فكلها تعتمد على الأسلوب العلمي فتملك الأرض لزارعيها ،
وتوزيع الماء ، وتحرير المعاملات المالية من الربا كله عمل
علمي في مجال الاقتصاد وكذلك مسائل البيع والشراء والقراض
والتجارة !!

ولقد كاتب الرسول ملوكا ، وعقد معاهدات ، وأعطى
العالم في عصره مفهوما واضحا عن قضيته وعدالتها . . وبعث
بالوفود المختلفة ، واستقبل الوفود المختلفة وأنشأ مع الجميع
حواراً مثمراً حول الاسلام وأهدافه . . وأرسى قواعد التعامل
مع أهل الذمة على أسس من السماحة والبر . . وهكذا نرى
العلم يدخل في جميع الميادين .

ويمضي العلم مع الدين في رحلة البناء والتطوير صديقاً
ودوداً . . وتتميز حضارة القرآن بذلك من بين جميع الحضارات
الأخرى . . ولقد استطاعت هذه الحضارة الفريدة أن تنشئ

نظاما للدولة قائما على مبادئ الحق والعدالة مرتكزا على الدين والعقيدة دون أن يكون الدين عائقا يوماً ما عن رقى الدولة واطراد الحضارة . . بل لقد كان الدين حافزاً على الرقى باعثةً على التقدم لأنه ليس دين خرافة وكهانة . . بل دين حياة وبناء ومن بين جدران المساجد تفجرت ينابيع الحضارة وفاضت أنواع التقدم في بغداد وقرطبة ودمشق والقاهرة وغرناطة . . ثم امتدت الى العالم كله . . ان حضارة القرآن لم تعرف يوماً ما الفصل بين الدين والدولة . . فما جاء دين الله الا ليحكم الحياة . . ويسدد خطاها . . ولابد لدنيا الناس من دين الله !!

ولكن هذه المأساة انما أنشأت في القرون الوسطى وفي ظل الكنيسة عندما انحرفت الكنيسة فامتهدت الحرية ، واحتكرت المعرفة . . واضطهدت العلماء وتبننت رجعية الفكر . . ولهذا انطلق العلم في مضمار الاحاد من غير دين !! لكن ما ذنب الاسلام وهو دين الحياة الذي تذبل الحياة بدونه ويصوح نبتها ؟!

لقد كان رئيس الدولة هو الخليفة ، وأمير المؤمنين ، والحكم عنده للحق والتشريع للمختصين . . ولكل فريق من الناس عمل . . والتفاضل بالتقوى .

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا . . ليس فيه امتياز لأحد . . فالرؤساء أجراء وليسوا أمراء . . وهم هداة وليسوا جباه . . وكاد الفرد المسلم يقول للحاكم أحياناً : السلام عليك أيها الأجير فلا يغضب !!

وفي ظل هذه العقيدة المتفتحة السمحة . . وجد العلم مجالاً للبحث والابداع . . وتفتحت الآفاق أمام العلماء فبحثوا في كل

شيء ، وكتبوا عن كل شيء ، . . . ومارسوا التجربة العلمية
الرائدة في أرقى مظاهرها . . . ووصلوا إلى كثير من النتائج
الرائعة في شتى الميادين ، وأهدوا أوروبا كل ذلك العلم ، فما
وصلهم العلم التجريبي إلا عن طريق حضارتنا ، وما أخذوا
الفلسفة اليونانية إلا عن طريقنا . . . وما عرفوا مناهج البحث
العلمي إلا من وسائلنا !!

وسياتى مزيد ايضاح لما استفادته أوروبا منا وما
أخذته عنا وبخاصة في مجالات « التكنولوجيا » من الطب
والكيمياء والضوء والفضاء !! . . . كل هذه الانجازات العلمية
الحضارية كان يصحبها الهدى ، ويسدها الدين . . . وتنعشها
الروح . . . ولم تكن مادية جافة . . . ولذا كانت مباركة نافعة
لنا وللبنية من حولنا كغيث السماء الذى ينبت الجنات وحب
الصيد .

يقول برتراند راسل محاكما مدنية الغرب : [الحضارة
الحديثة أعمت الاهتمام بالروح والعالم اليوم بحاجة الى دين
جديد يجعل غاية الانسان خارج هذه الحياة] .

وكانما هذا الفيلسوف الانجليزى يعنى رسالة الاسلام ،
وحضارة القرآن . . . ففيهما يوجد الحل النهائى لمسألة
الحضارية القائمة . . . لأن الاسلام يربط فى وجدان المسلم بين
عالم الحياة وعالم الآخرة .

وهذا لا شك أعظم حافز على تصحيح وجهة العلم . . .
لأنها تجعل مناط السعى لليوم الآخر . . . ولا تكون الدنيا هى
غاية الانسان ومبلغ علمه وأمله فيعيش حيوانا منطلقا ، ومن
دعا، الرسول صلوات الله وسلامه عليه [اللهم لا تجعل الدنيا
أكبر همنا ولا مبلغ علمنا] . . .

وقد ذم الله ذلك اللون من العلم الذى ينفصل عن الآخرة
ويكتفى بظاهر الحياة فقال فى شأنه « بعلمون ظاهراً من
الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (١) » .

والواقع أن الآية تنطبق على حضارة الغرب اليوم . .
شبهها بلغت من التقوم المادى . . فانها لا تخرج عن كنهها
مرتبطة بظاهر الحياة لأن علم الانسان بالحياة وبنفسه
محدودة . . فهو مهما يرتق علم ظاهرى . . لم يصل الى
جوهر الحياة . . وهو من قبل ومن بعد منفصل عن الآخرة
تماماً ومن ثم عبدت الحياة . وأهدرت قيمة الانسان فى عالم
المادة والأرقام ودنيا « الدولار » ومنطلق حضارتنا هو الربط
بين الدنيا والآخرة فى وجدان المسلم ليراقب الله فى كل حركة
وفى كل خطوة ، ومع كل انجاز حضارى « اتقوا بقوله تعالى :
« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٢) » . فنحن
نبنى الحضارة لا لنعبدها . ولكن لنكون سادتها - نستمتع
بآثارها ونقر بفضل الله فى كل حين ، ونظل نعبده فى كل وقت
وبذلك تنمو الفضيلة والخير فى ربوع حضارتنا .

يقول الدوس هيكسلى : فى الوسائل والغايات : « ان
الفضيلة والخير لا يمكن أن تنمو أو تعمر اذا لم يكن هناك
ندارة قائمة على التوحيد وعقيدة يكون البشر فيها عباداً لله » .

ويبدو أن القوم فى ظل الحضارة المادية - قد سئمو
الترف - كما سئمو الاحاد والانفصال عن الله فعادوا يطالبون
بحرارة بأن يرجعوا الى حظيرة الايمان - وذلك بعد ما لفحتهم
أعاصير الفجور والكفر فدمرت شخصيتهم وسحقت ارواحهم ،
انها رجفة شوق وانتفاضة فطرة لترتوى الأرواح من نبع الله،

(١) آية ٧ سورة الروم .

(٢) آية ١٣ سورة الزخرف .

وعبابه الداهور ، والاسلام لا شك هو طريق النجاة في محيط
الفتن والأهواء ، بعد حياة الرجس والفجور ، فالى رحاب الاسلام
ياعبدة المادة فماذا يجدى الترف اذا ذهب الايمان بالله ؟
والايمان هو المعتصم القوى الذى تلوذ به الأفراد والجماعات
في قطوب اليأس وخطوب الحياة فيمنحها الثبات والاستمسك
في الخطوب والكروب والملمات ويفيض عليها من سكينه الروح
ما ينعش صدرها ، ويلطف وهجها وينشئ لها الثقة والأمل في
يوم لا بخس فيه ولا ظلم ولا هوان !!

ولا تكتفى حضارة القرآن باصطحاب العلم في رحلة
الحياة ، ولا بتكريم العلماء ، ولا بفتح الطريق أمام العقل
الباحث ليكتشف ويرتاد ويرجع بزااد طيب من اليقين ، ولا
بخلق أجواء علمية تزدهر فيها الثقافة ، ولا بوضع أدبيات
لذلك العلم ، وانما تأبى الا أن تضع أساسات للمناقشة
العلمية الهادفة ، وقانونا للمعرفة الكريمة ، وقاعدة لما يعرف
بأدب البحث والمناظرة - وذلك باستعمال الذوق - والنزاهة
الخلق - والخضوع للحق ، والابتعاد عن التجريح والسباب ،
حتى مع أهل الكتاب « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي
أحسن (١) » ووجهنا ردينا الى دليل المنطق وحكم العقل وقاعدة
الحق « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا
الحق (٢) » « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا
وبينكم (٣) » ويقبح القرآن أسلوب الجدل العقيم الذى يعتمد
على اللجاجة والمراءى من غير استناد الى العقل ، أو الى العلم ، أو
الى منهج السماء فيقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير
علم ويتبع كل شيطان مريد (٤) » وما أقبح الغرور الخادع ،

(٢) آية ١٧١ سورة النساء .

(٤) آية ٣ سورة الحج .

(١) آية ٤٦ سورة العنكبوت .

(٣) آية ٦٢ سورة المائدة .

والاعراض عن الحق والتكبر على الحقيقة» ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانياً عطفه ليضل عن سبيل الله (١) « كما يكره القرآن لأتباعه أن يجمدوا على الضلال القديم ، أو يتحجروا على المعرفة الضارة - أو يهملوا عقولهم في البحث والتقصي ، فيسقطوا في هاوية التقليد الضرير الذي يهدر الكرامة ويلغى الشخصية وذلك قوله سبحانه : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولوا كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير (٢) » ان القرآن في كل ما مضى يضع أساساً كريماً للمناقشة العلمية ، التي تصل بأصحابها الى الحق ، وتقام عليها الأدلة بأسلوب مهذب ولهجة هادئة متزنة ، وفي كل ذلك تحديد لمذاهب المعرفة ومذاهب التفكير ، ولقد تحققت كل هذه الأسس في مجتمع الحضارة القرآنية ، فكم نصبت حلقات العلم - وأديرت فيها مناقشات هادئة وهادفة ، وتحررت فيها العقول من الجمود ، وسطعت الحجج والبراهين ، ولم تترك هذه المناظرات أى اثر للحقد أو الضغينة ، وكانت في واقعها التطبيقى مفخرة من مفاخر هذه الحضارة .

(ج) العمل قيمة عليا في هذه الحضارة :

اذا كان العلم قيمة عليا في مجتمع القرآن . . . سواء منه ما يرتبط بالعقيدة ، أو يتعلق بالتخطيط وثئون الحياة - فان العمل ، هو الترجمة الحية والتجسيد العملى لنظريات العلم ، ذلك أن العقيدة على المستوى النظرى تحتاج الى العمل ليبرز عنها ويبرزها من نية في الضمير الى عمل في الحياة على شكل

(٢) آ.آ. ٨ ، ٩ . سورة الحج .

(١) آية ٢١ . سورة لقمان .

عبادة قائنة من صيام وحج وجهاد وصلاة ولهذا فان العمل هو الجانب التطبيقي للعقيدة ، وتظل العقيدة حبيسة القلب - حتى يترجم عنها العمل - ويصبها في قالب محسوس من جهاد أو صلاة •

وهكذا نظريات العلم المتعلق بالحياة • انها الأخرى لا يمكن أن تثمر في المجتمع وتنشئ الحضارة إلا اذا ترجمها العمل الى وجود مائل ••

فالعلم في الاسلام ليس علما نظريا ، بل علم يترجم الى عمل - وللعمل في القرآن مكانة مرموقة •• وانه لعمل يتسع للحياة ويستجيب لمطالبها - ويتجدد معها وبها - عمل يشمل شئون الخدمات الانسانية كلها ووسائل الانتاج وتطوير أدواتها ، وهو في الوقت نفسه ينظم طاقة الأمة ويوجهها نحو الهدف الكبير •• وهو يشمل الاعداد لملاقاة العدو وتطوير القوة وتصاعدها لتردع أعداء الله وبهذا كله يكون العمل في خدمة الحياة ، وصناعة الحضارة •

ولابد للعمل في حضارة القرآن أن ينتظمه تخطيط دقيق • وبهذا يبرز الترابط بين الايمان والعمل والعلم •

لقد ذكر العمل في القرآن في نحو ثلاثمائة وستين آية تصلح أساساً لأرقى اللوائح العمالية في الحياة ، كما تتناول جوانب مختلفة من هذا الموضوع الكبير •

فالعلم في منهج حضارتنا للذكر والأنثى [فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض (١)] • ولابد أن يتم متقناً بحيث يبذل فيه أقصى الجهد

(١) آية ١٩٥ سورة ال عمران •

(انا لا نضيع أجر من أحسن عملا (١)) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) •

والعامل في جو حضارتنا يحرسه ضميره ويراقبه ربه :
(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٢)) فهذا جهاز متابعة دونه كل أجهزة البشر • لا يستخفى منه ولا يحتال عليه والتفاضل بين الناس يكون بالعمل : (ولكل درجات مما عملوا (٣)) :

وأجر الأجير لا بد أن يتم بوفاء وعلى الفور (أعطوا الاجير أجره قبل أن يجف عرقه والعمل في حضارتنا شرف وكرامة وحياة قد مارسه الأنبياء ، ونهض به العظماء (اعملوا آل داود شكراً) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه :
(انى لا أحب أن أجلس وأنتم تعملون) •

ويقول عمر بن الخطاب • انى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأسأل أله عمل ؟ فان قالوا : لا سقط من نظرى) • ولا بد من العلاقة الانسانية بين صاحب العمل وأعماله حتى ولو كان العامل رقيقاً (لا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون) •

وبهذه المفاهيم الواضحة ، انطلق بناء حضارتنا في الحياة يخططون بالعلم ، وينفذون بالعمل ، ويراتبون الله بالضمير الوازع والخلق الزكى وقد كافحوا البطالة في مجتمعهم فكانت كل الأيدي للبناء ، والتعمير ، وتنوعت أعمالهم • فبنوا المجد وحاربوا العدو وأنشأوا المعازل وحفروا الخنادق وعبدوا الله •

-
- (١) آية ٣٠ سورة الكهف •
 - (٢) آية ١٠٥ سورة التوبة •
 - (٣) آية ١٦ سورة الاحقاف •

ولم يكونوا يحتقرون العمل ، بل كانوا يعدونه شرفاً وكرامة - ولهذا ازدهرت حضارتهم وآتت أكلها ، باذن ربها . .

(د) الجهاد في حضارتنا تعبير عن العقيدة

تترابط القيم الحضارية بعضها ببعض ترابطاً قوياً في وجدان الدارس ، بل في محيط الحياة ، ذلك أن العقيدة على النحو الذي صورناه تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين . . والاسلام نظام عالمي جاء ليغير الحياة ويكتسح ركامها ، فلا بد أن يجد من الأعداء في كل من يتصدى له - ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي العقيدة من كيد المتربصين - وهجمات الجاهلية ، لتأخذ هذه العقيدة مجراها العتيق في هداية البشر ، من غير تعويق ، ولا صد على مر الزمن :

فالجهاد درع تحتمى به العقيدة في مواجهة أعدائها والصادين عنها وليس وسيلة ارغام ولا سبيل قهر (لكم دينكم ولي دين) (أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (١)) (لا اكراه في الدين) ولم يحدث يوماً أن تحولت حروبنا للقهر والارغام أو للطغيان والبغى ، وإنما كانت دائماً حروب تحرير وتطهير ودفاع عن المثل والكيان والكرامة ووسيلة لدفع الظلم ورد العدوان « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظالموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا: ربنا الله (٢) » : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله (٣) » وينهى ربنا عن البغى والعدوان فيقول : (فمن اعتدى

(١) آية ٩٩ سورة يونس .

(٢) آية ٢٥٦ سورة البقرة .

(٣) آية ٣٩ ، ٤٠ سورة الحج .

(٤) آية ١٩٣ سورة البقرة .

عليكم فاعتدى عليه بمثل ما اعتدى عليكم وانفوا الله واعمَلوا أن الله مع المتقين (١) *

وهكذا يأخذ الجهاد في الاسلام دور الدشاع وقرار العقيدة ونصرة المستضعفين « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً (٢) » وذلك لأن العقيدة الاسلامية درع يحمى كل المستضعفين في أرض الله ، لاننا لا نحتكر القوة بل نُسخرها لخدمة الحق ، وحفظ كرامة الحياة ، وارهاب أعداء الله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون » وليس في طبع الاسلام ولا من أخلاقه أن يفسد في الأرض فمن وصايا الصديق لا تقتلوا طفلاً ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة ولا تعفروا ناقة الا لماكله ، وستجدون قوما يعبدون الله في الصوامع فدعوهم وما آخلو أنفسهم له) :

ومتى كان المسلمون مهاجمين أو معتدين ؟

أفي غزوة بدر ؟ ! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطانهم وعلوموا بوحشية فاجرة ؟ أم في غزوة أحد وقد زحف جيش الشرك على المدينة يريد أن يستأصل شأفة المسلمين ؟ أم في الخندق وقد تواطأ الكفر مع النفاق مع اليهود فكوفوا جيشاً ضخماً يريدون غزو المدينة والقضاء على من فيها ؟ أيلام

(١) آية ١٩٤ سورة البقرة .

(٢) آية ٧٥ سورة النساء .

(٣) آية ٦٠ سورة الأنفال .

المسلمون اذا هبوا يدافعون عن بلادهم وعقيدتهم ؟ ! هذه حروبنا . . . أيمكن بعد ذلك أن يقال : ان الاسلام دين القسوة والوحشية ؟

فأين هي الوحشية ؟ وكل أهداف الجهاد في سبيل الله (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (١)) يبقى بعد ذلك قوله صلوات الله عليه « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » انه في شأن المشركين - عبدة الأوثان - الذين يضعون العوائق في طريق العقيدة - ويجسدون عنها . ويتآمرون عليها . أفلا تضع حداً لتآمرهم وكيدهم ؟

وفيما عدا ذلك فان الاسلام يعايش الأديان معايشة طيبة، وتتجدد في كنفه كل مودة واحترام .

وتتميز حضارتنا بهذه السماحة الدينية التي ذهبت مذهب الامثال . ويكفي جداً أن ننقل مايقوله رينان عن حروب الاسلام لنرد على بقية المستشرقين بكلام واحد منهم يقول : | لم ينصف المؤرخون الغربيون الاسلام بانتهاهم اياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الاسلامية المشرقة | .

ومايزال التاريخ يردد قصة السماحة الدينية التي تحلى بها الاسلام عندما جاء وفد نصارى نجران الى الرسول . ان الله عليه وسلم فأنزلهم في المسجد فكانوا يصلون في جانب منه ورسول الله مع المسلمين يصلون في جانب آخر . . . ولما

(١) آية ٧٦، سورة النساء .

أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم كل ذلك برفق وسماحة .

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس من غير تضيق ولا منع . . . ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب :

[لهم مالنا وعليهم ما علينا] .

ومن آثار تلك السماحة أحب النصارى حكم المسلمين وفضلوه على حكم طوائفهم . . . وكانوا دائماً يجدون في الاسلام العدالة والانصاف .

والسلام في الاسلام هو الأصل الاصيل . . .
(ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة (١))
ولكنه السلام العزيز القادر :

(فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم (٢))
ولعل في اشتقاق كلمة : « الاسلام » من السلام ما يوحى
بمنهجه في الحياة .

ولذلك فان الحرب في الاسلام ضرورة لا يلجأ اليها الا اذا
سدت المنافذ محاولات السلام :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم (٣)) .

وهنا نشير الى أن الجهاد يجب أن يستمر وترتقى أساليبه،
وأن يتطور تبعاً لروح العصر وأن تمتلك باستمرار ما يرهب

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة .

(٢) آية ٣٥ سورة محمد .

(٣) آية ٢٢٦ سورة البقرة .

عدونا ليظل لواءنا مرفوعا وصوتنا مسموعا ويوم تغفو هذه الأمة عن أمجادها وتجبين عن مواجهة أعدائها يوم يبتلها الله بالذل والخسف والصغار فما ترك قوم الجهاد الا ذلوا * * ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف سبباً في تفتيت وحدتهم – وتفريق كلمتهم – واسقاط كرامتهم – لانهم فقدوا الحصانة التي يكلفها لهم الجهاد المقدس *

واذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فان توحيد الكلمة هو سر بقائها فهل نتحد كلمتنا ؟ وهل تلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد – وتحرير الارض – وارغام العدو ؟ !

ان حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر الا اذا أمنت عدوها *
ولذا كان علينا أن نأخذ حذرنا :

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً (١)) *

ومع واقع التجربة التي خاضها آباؤنا * * نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلهم ، ولا استناموا على هدهدة الأمانى *
وأنهم خاضوا معارك ضارية ضد أعداء الله ونازلوا أغنى دولتين كبيرتين في العالم فاننتصروا عليهما * * وحكموا بلادهما * *
وهكذا عاشوا بالجهاد أعزة كراما * * والمسلمون اليوم في حاجة الى اجتماع الكلمة على أساس من عقيدتهم – لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم وينقذوا تاريخهم *

ومن ثم تكون لهم الكرامة في الأرض ولينصرن الله من ينصره *

(١) آية ٧١ سورة المائدة .

العبادة وقيم الأخلاق في حضارتنا :

وترتبط العقيدة بالعبادة ارتباطا وثيقا ذلك أن العبادة تعبير عن العقيدة كما مر ومالم ترتبط بها فان العقيدة تغدو سلبية عقيما كبذرة لاتنبت عودا ولاتؤتى ثمرا .

واذا كانت العبادة ترجمة عن العقيدة فان لهذه العقيدة أثرها في حراسة العبادة فهي لها حافظ ايجابي يحرك الباعث عليها . . ويحول دون التقصير فيها ويجعلها متقنة خاشعة رائدها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وان حضارة تدعمها عقيدة سالحة - وتترجم عنها عبادة صادقة ، ويخرسها ضمير حي ويخططها علم نافع . . ويبنيها عمل جاد لهى حضارة خالدة فيها كل مقومات الجلال والعظمة وعندما تسود المجتمع روح العبادة الواحدة يصلى صلاة واحدة - ويحج الى مكان واحد ويؤدى زكاة واحدة ويصوم صوما واحدا ويتجه الى قبلة واحدة ويتعامل مع بعضه بقانون واحد فان نظاما رائعا يسرى في جنباته وهو « وحدة العمل » . . وهكذا - تصنع العقيدة وحدة الضمير وتصنع العبادة وحدة العمل وتصنع القبلة وحدة الوجهة . . وهذا التناسق في مجتمع الحضارة القرآنية سبيل هذه الأمة الى اتحاد المشاعر وائتلاف القلوب . . وهذه الوحدة ليست ظاهرية فحسب - بل انها تنبع من أعماق الوجدان .

ومن ثم فائنا نجد أن الرقعة التي غمرتها حضارة القرآن قد تميزت بهذا التجانس . . وببتلك الوحدة الجامعة - ومادامت كلها تسقى بماء واحد - وهو القرآن . . فلا بد أن تتحد شعورا وقلبا وعملا وحركة . . ولا بد أن يسودها نوع من ائتلاف النعمة .

ولم تقتصر هذه الوحدة على مامر ، بل تجاوزت ذلك الى
التعبير الفنى . . فقد شملته روح واحدة وسرى فيه ذوق
مؤتلف .

[حتى أن الباحثين فى الفنون الاسلامية قد لاحظوا وحدة
الأسلوب والذوق فى أنواعها المختلفة فقطعة من العاج الاندلسى
- وأخرى من السفيج المصرى - وثالثة من الخزف الشامى -
ورابعة من المعادن الايرانية تبدو رغم تنوع أشكالها ذات
أسلوب واحد وطابع واحد] .

وكذلك فن هندسة المساجد وزخرفتها على الطراز الاسلامى،
له أيضا تلك الخاصية .

وهذه العبادات المختلفة تمد الحضارة بأخلاقىات سامية .
لعلها من أهم الخصائص التى تتميز بها حضارتنا . . فما هذه
العبادات فى مضمونها السامى الاوسائل لتعويد المرء على أن يحيا
بأخلاق صحيحة . . ولكل عبادة منها فلسفة أخلاقية متميزة .
تتمازج جميعا لتنشئ الصدق والاخلاص والامانة والعدل وحب
الحق والانتصار له . . وكراهية الباطل والنفور منه . . لأن
من أخلص لله محال أن يكذب على سواه .

ومن هنا كانت العبادات روافد أخلاقية تصب فى الساحة
الحضارية وتقود مسيرة هذه الحضارة على صراط العزيز
الحميد . . وهذه الأخلاق تتسم بالثبات والعمق والوحدة
نتعامل بها فى داخل بلادنا كما نتعامل فى خارجها . . ونتعامل
بها مع المسلمين كما نتعامل مع غيرهم . . ونستعملها فى الحرب
كما نستعملها فى السلم . . ولعل حضارة الغرب التى تكيل ،

(1) عن كتاب الدكتور مصطفى السباعى من روائع حضارتنا .

بكيلين ، وتتعامل بوجهين .. وتطبق الدساتير العادلة داخل بلادها - دون أن تستخدمه في مستعمراتها .. لعلها بذلك تفقد عنصر الوحدة الأخلاقية .. لأنها لم تستمد الاخلاق من عقيدتها .. ولم تستلهمها من عبادتها فغدت هذه الأخلاق نفاقا وخداعا .

نعم : لقد احتبست مبادئ الثورة الفرنسية في فرنسا وحرمت على غير الفرنسيين ..

ولقد أقامت أمريكا تمثال الحرية في نيويورك ليكون أول ما يراه القادم الى تلك البلاد بينما تنطق أعمال أمريكا في خارج بلادها باضطهاد الحرية - وابداء الأحرار .

انها أخلاق للمزايدة - ولاطلاق الشعارات الرنانة .. ولكنها عذد التطبيق لا تعنى الا الفجور والختل .. فأين هذا من أخلاق حضارتنا ؟

لعمري ما فتحنا الدنيا الا بأخلاقنا - وما سدنا العالم الا بأخلاقنا وما حاربنا الا دفاعا عن الأخلاق .. وما كان نبينا الا متمما لمكارم الأخلاق !!

أرأيت كيف أن العبادة هي النبع الفيض الذي يسقى حضارتنا بكل القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ..؟؟ .. وللعبادة في حضارتنا فلسفة أخرى تدعم جانبا من أخلاقها ..

ذلك الجانب هو خلق الطاعة والامتثال ، فهي تعبير صادق عن الالتزام في اجلال وخشوع حتى في تنفيذ الجوانب التي لا يدرك العقل مغزاها .. وهي جوانب تتجلى فيها بطولة الايمان .

ولقد شامتت بنفسى في تأمل واع - وأنا بالمزدلفة - كيف أن الناس - كل الناس رجالا ونساء - على اختلاف أوساطهم الاجتماعية ينحنون على الأرض - تنكأونها بأناملهم

– باحثين عن الجمرات لرجم ابليس رمز الشر والتضليل في هذا الوجود !!

تصورت الناس في ذلك المشهد – فقلت لنفسي : سبحان الله !! أتستطيع قوة من قوى الأرض أن تسخر هذه الجموع الحاشدة لجمع الحصى من الأرض ؟ وهل اذا ضمننا السلطة القاهرة التي تقهرهم على هذا العمل أتراهم يقبلون عليه بتلك الطواعية – وبهذا الشوق ؟!!

حتى اذا تم لهم جمع الجمرات المعدودات وضعوها في حرز نظيف ثم انطلقوا بها بعد منتصف الليل الى منى ليقتذفوا بها حجرا قائما هو رمز لابليس !!

ولو رأيت الناس وهم يقتذفون الجمرات .. بكل قوة وبكل حرارة ليصيبوا بها رمز الشر كله في الوجود – ولو رأيتهم كذلك وهم يزدحمون على الكعبة لتقبيل الحجر الأسود – ولو رأيت تدافعهم في الطواف والسعي ، ولو رأيتهم في عرفات وعلى جبل الرحمة يدعون ويلبون .. وينفذون بكل دقة ووعي ما يطلب اليهم ومن بينهم الشيخ الفانى والمرأة المترهلة والفتاة الشابة .. والأسود الزنجي والابيض المدنى والفلاح القروى .. ومن أقبلوا من أقاصى الارض لو رأيت ذلك كله لعرفت كيف يعبر الحج عن خلق الطاعة والامتنال وكيف يعبر من جانب آخر عن بطولة الايمان الذى يتجلى فى تنفيذ أمور لا يدركها العقل ولكن لا يخالجه شك فى حكمتها .. وان لم تظهر له تلك الحكمة – يكفى أن الدين أمر بها – وأن الرسول فعلها .. فعليه أن ينفذ وينقاد .. ومن هنا ندرك سر الكلمة الخالدة التى أطلقها عمر وهو يقبل الحجر الأسود يعبر بها عن خلق الطاعة والامتنال : [أعلم يا حجر أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك !!] ..

ألسنت تحس الصراع في نفسية عمر بين ما هو واقع من تقبيل الرسول للحجر - وبين ما لا يعقل وهو تقبيل حجر لا يضر ولا ينفع؟! نعم : ولكن الرسول قبله فغدا بتقبيلك شيئا آخر .. غدا عبادة ربانية تؤدي بكل الحزم وبمنتهى الانقياد . بل وبكل الحب والشوق والولاء ولهذا الامتثال أثر حضارى يعرفه كل من يتدبر .. فان مجتمع الحضارة يدين بالنظام .

ويؤمن بالعمل ويعتمد على طاقة الجماهير .. فاذا أمكن بدستور الشريعة أن يعمل الناس في كل أرجاء الدنيا عملا واحدا - يؤدي بطريقة واحدة فما أجمل النظام وما أجمل الطاعة وما أقدرها على خلق مجتمع منظم ينبع النظام عن عقيدته ويصدر عن طبيعته ويعبر عن فطرته .. فيصبح خلتا له وطبعا كامنا فيه .. ولا يكون عملا صناعيا - تتحكم فيه القوانين والنظم .. وخليق بالمسلمين بعد ذلك أن ينطلقوا بهذه القيم لبناء حضارة القرآن ودعم أركانها .. بكل الصدق - وكل الطاعة وكل النظام .

والعبادات من جانب آخر . توحد الشعور - وتحقق المساواة - وتنقش على التطبيقية - وتجعل من البشر جميعا وحدة كبرى .. ولكل هذه القيم أثرها في بناء الحضارات ودعمها ..

يقول الفيلسوف اقبال : | على أننا لا نستطيع أن نتجاهل بأن وضع الجسم عامل حقيقى في تعيين اتجاه العقل - واتخاذ قبلة واحدة لصلاة المسلمين أريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة - كما يكفل الاحساس بالمساواة الاجتماعية .

ويقوى أو اصرها - ويقضى على الشعور بالطبقية - أو تفوق جنس على جنس آخر - ان قوة روحية تحدث لو حمل البرهمى الأرسنقراطى المختال في جنوب الهند على الوقوف مع

المنبوذين كنتفا الى كتف كل يوم خمس مرات ٠٠ ان وحدة
الذات المحيطة بكل شىء التى تخلق جميع الفوات وتكتب لها
البقاء ٠٠ هى التى تصدر عنها الوحدة الطبيعية الضرورية
لجميع البشر ، وانقسام البشر الى أجناس وأمم وقبائل قصد
به سهولة التعارف لا غير - وعلى هذا فان الصلاة الى جانب
مالها من قيمة فكرية تشير بذلك الى وحدة جميع البشر
كحقيقة من حقائق الحياة الكبرى] ٠

وللصلاة فلسفة أخرى حضارية ٠٠ من حيث انها وسيلة
من وسائل استكشاف الذات ٠٠ تؤكد وجودها - وقد تفنى
شهودها في ذات خالقها - حين تذوب شوقا في السجود الخاشع
الطويل - وهى في الوقت نفسه تشحذ ادراكنا الباطنى لشهود
الحقيقة الكبرى حين تتجرد النفس من علائق الطين ٠٠ وتصفو
من أكدار المادة كما أنها تعبر عن مكنون الشوق الزاخر في
الفؤاد ٠٠ وهكذا تتعاون الصلاة مع العقل في البحث عن
الحقيقة ، العقل يمضى في رحلة البحث جوابا منطلقا في الآفاق
يرى ويستكشف ويعانق الحقائق فيعرف ، والصلاة أسلوب
استكشاف رائع ، توجه الهامنا الباطنى نحو الحقيقة الكبرى .

ولنترك اقبال يتحدث الينا بأسلوبه الممتع معبرا عن
الوجد الواله الذى يصبه العابد في صلاته فيقول : [الصلاة
من حيث هى وسيلة للهداية الروحانية فعل حيوى نكتشف به
شخصيتنا فجأة - تلك الشخصية التى تشبه جزيرة صغيرة -
مكانها في خضم الوجود الأكبر للحياة ٠٠ وهى في الوقت
نفسه تكملة للنشاط العقلى الذى يتأمل في الطبيعة تأملا عمليا
يجعله على اتصال وثيق (بسلوك الحقيقة) فتشحذ بذلك
ادراكنا الباطنى لشهود الحقيقة شهودا أوفى وأعمق والصلاة
تعبير عن مكنون الشوق الزاخر في الأعماق الى من يستجيب

لدعائه في سكون العالم المخيف .. وهي فعل فريد من أفعال
الذات تثبت وجودها في نفس اللحظة التي تنكر فيها ذاتها | ..

أى أننا في الصلاة تثبت وجودنا من حيث أننا نحاول
استكشاف الحقيقة الكبرى - في الوقت الذي ننكر فيه تلك
الذات فناء في الله .. وتجرداً له سبحانه .. فلا وجود لنا مع
وجوده ، ونحن إذا تأملنا الزكاة وجدنا فيها اثبات الذات
بالعطاء السخي والبذل الندي ومقاومة الشح .. والصوم بما
يحملة من معنى الصمود في وجه المغريات واللذائذ يحمل معنى
تحقيق الذات أيضاً والحج بما يتجلى فيه من تعويد العقل على
الخشوع لربه حين تخفى عليه وجوه الحكمة انه أيضاً يشهد
سلاح الاستكشاف لأنه تعبير عن خضوع الذات لربها الذي
خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ..

يقول اقبال : [وصور العبادات كلها في الإسلام بما تحمله،
من صدق انطباعها على سيكولوجية المنزع العقلي ترمز الى
اثبات الذات وانكارها] .. لأنها جميعها تقاوم المعوقات فيتم
بها اثبات الذات - وتفنى في الله تعبيراً عن الاخلاص والتجرد
فترمز بذلك الى انكار الذات ولأنها تستسلم لربها وتنفق
لأوامره من غير جدل ولا مرأء ..

ولهذه الآثار التي تحققها العبارة في كيان المسلم - فلسفة
حضارية في طبع الناس على النظام والطاعة والامتثال
وتجاربهم مع القيادات وانجاز ما يطلب اليهم من مهام بعيدا
عن الثرثرة والجدل والمرأء .. كما أن لها حكمتها العالية في
تكوين الشخصية الحضارية التي تتسم بالتجرد والاخلاص ..
وقد عاشت هذه القيم النبيلة في مجتمع الحضارة القرآنية
وتحققت فعلاً أمام العالم .. وكانت سمة بارزة من سمات
حضارتنا .. وتكون معها وبها عالم نظيف ..

بعيد عن كل ثرثرة أو ادعاء - ينكر ذاته في العمل والبناء
ويؤثر أن يعيش جندياً مجهولاً على أن يكون أسطورة تغزو
قلوب الناس كما هو خلق الحضارات المادية ، أو صدرأ بارزا
تعلق عليه الأوسمة والنياشين ..

(هـ) الحرية في مجتمعنا الحضارى :

تنبع الحرية من العقيدة كما ينبع الماء من النبع ..
ومكذا تنطلق من العقيدة قيمة حضارية عليا لها أعظم الأثر في
قوة الشخصية واثبات الذات والفصل في مسائل الحق والباطل
.. ألا وهي الحرية التي هي في الواقع سمة الحضارة المتفتحة ..
أما الحضارة الجامدة فتدين بالعبودية للبشر - وتطبع أبناءها
على الجبن وتسلبهم أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهي نعمة
الحرية .. وللحرية في المفهوم الاسلامى منطلق واسع فهي
تمرح حيث توجد العقيدة - وإذا كان معنى العقيدة ببساطة أن
تدين بالعبودية لله - وتحرر من كل ما سواه - فان معنى
ذلك بوضوح أن النظم والقوانين والدساتير والأوضاع
والاشخاص وقوى الشر كله لا تستطيع أن تستعبدنا أو
تستذل رقبتنا لأننا عبيد لله فقط ..

وفيما عدا ذلك فنحن أحرار ومن امتهن حريتنا سحقناه
ومن ثم فان حضارتنا هي التي أعلنت ميلاد التحرر البشرى ..
وحررت الضعفاء من بطش الأقوياء ، .. بل حررت الحياة من
العبودية والجهل ووضعت للحرية ضمانات قوية حتى لا
تستغل أو تستذل .. وسرت نزعته التحرر منا الى المسيحية
فشارت على العبودية والجهل .. وانطلقت مع العلم تبني الحياة ..

واقترض عمر بن الخطاب من ابن عمرو بن العاص حاكم
مصر لأنه لطم طفلا على وجهه وقال له : أنا ابن الاكرمين

نسباً !! فلما شكوا والد الغلام الى الخليفة لم يسكت على امتهان الحرية ..

وانما أحضر عمرا وابنه وقال لابن الفلاح اضرب ابن الأكرمين نسبا !! ثم التفت الى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !؟

وعقيدة المسلم من جانب آخر تحرره من ضغط الشهوات ومن صراع النفس الأمانة ولا تفتأ تناديه بأن يتحرر من المطامع والمال والشهوات كلها .. وهو يجاهد في هذا الميدان بسلاح الإرادة فاذا استطاع أن يسكت ذلك الصراع في باطنه فقد أتيح لقوى الخير أن تنتصر .. وبذلك يتحرر من الباطن .. ويصبح سييدا لنفسه ومستعليا عليها لا عبداً ذليلا لها يخضع لشهواتها ..

وبذلك الجهاد النبيل .. المستمر لم تعرف حضارتنا ذلك الطراز المتبذل من الناس وهم عبيد الشهوات .. وانما عرفت رجالا أولى حزم وعزم يزدان بهم الوجود وتسمو بهم الانسانية ويعبرون عن الحرية الحققة .. حين يرتفعون على أنفسهم وشهواتهم وكم في حضارات اليوم من عبيد الشهوات !!

ومن تحرر من الباطن .. فمحال أن يستعبد من الخارج .. وبهذا تأخذ الحرية امتدادها في حضارة القرآن .. وتعتبر عن نفسها تعبيرا حقيقيا في شتى الميادين ..

فهى حرية شخصية فى اطار الدين والفضيلة ومصلاحة الجماعة .. وليس لأحد فى هذا الاطار أن يصادر حريتك أو يعتدى عليها ..

وهي حرية الكلمة : التي أخذت امتدادها في حضارة الاسلام
فمكنت كل فرد في ظلها أن يعبر عن رأيه وفكره بأى أسلوب
يرتضيه . . . وجعلت فردا من الشعب ينقد أمير المؤمنين ويسأله
عن ثوبين لبسهما . . . وجعلت امرأة تنقد رأى عمر في مجتمع
عام . . . ومن اعتزازهم بحرية الكلمة . . . ما كان يصدر عنهم
من آراء في مجالس العلم وفيهم المسلم - والمسيحي - والشيعي
- والمجوسى . . . فما كان أحد يصادر حرية أحد وانما كانت
آراؤهم الحرة تأخذ وصفها في تلك المجامع قال خلف بن المثنى :
« لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف
مثلهم في الدنيا علما ونباهة . . . وما كان أحد منهم يصادر حرية
أحد وهم : الخليل بن أحمد وهو سنى - والحميرى الشاعر وهو
شيعى - وصالح بن عبد القدوس وهو زنديق ثنوى ، وسفيان
بن مجاشع وهو خارجى صفرى ، وبشار ابن برد وهو شعوبى
خليع ماجن - وحماد عجرد وهو زنديق شعوبى منحل - وابن
رأس الجالوت الشاعر وهو يهودى ، وابن نظير المتكلم وهو
نصرانى ، وعمر بن المؤيد وهو مجوسى ، وابن سنان الحرانى
الشاعر وهو صابى ، .

كان هؤلاء يجتمعون فيتناشدون الاشعار ويتناقلون
الاخبار ويتجادلون في مسائل العلم فما كان أحد يحاصر أحدا -
أو يصادر رأيه - أو يضطهد حرите .

ان هذا ان دل على شىء فانما يدل على حرية الكلمة في تلك
الحضارة الى أوسع مدى يتصوره العقل . . . ولو أن المسلمين
جماعة متعصبون لصادروا حرية الكلمة وبخاصة حين تصدر
عن غيرهم ولقد كان الخلفاء يجمعون طوائف العلماء مع اختلاف
مذاهبهم وديانتهم - وكانت للمؤمن حلقة علمية يجتمع فيها

علماء الديانات والمذاهب كلها وكان يكفل لهم حرية الرأي قائلًا لهم : « ابحاثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل منكم بكتابه الدينى كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية . . . فهل رأيت الى سمو الحرية فى حضارتنا ؟ » .

وهى حرية العقيدة : التى تجعل لاهل الطوائف الاخرى أن يعيشوا فى ظل حضارتنا آمنين وأن يمارسوا شعائر دينهم كما يحبون - ولا تكره أحدا منهم على الدخول فى الدين - ولا تهدم لهم كنيسة أو بيعة . . . والقرآن فى هذا المجال يعطى انطباعات سمحة ومبادرات سامية . . . فهو يطبع فى وجدان المسلم احترام الأديان كلها . . . والتصديق بالرسالات جميعا وبالكتب المنزلة من السماء لا فرق بين كتاب وكتاب . . . ويؤكد لاتباعه أنها جميعا حق - وأنها تصب فى محيط القرآن والاسلام . . . [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وحيننا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (١)] « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكة وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . . . (٢) »

وفى نطاق الواقع العملى . . . عاشرنا كل الطوائف على امتداد التاريخ فما شكوا منا ولا شكونا منهم - بل لقد كانوا يأتون الينا . . . ويرحبون بحكمنا لما يجدونه عندنا من سماحة ونبل وليس بإمكانى أن أستفيض هنا لأن المحيط واسع . . . ومجال الكتاب ضيق .

(١) آية ٤ سورة المدثر .

(٢) آيتا ٣١ ، ٣٢ من سورة الاعراف .

وفي هذا المجال أذكر هذه القصة الطريفة لأنها أدل على معنى التسامح - وعلى حرية العقيدة في حضارتنا (في كنيسة يوجنا الكبرى في دمشق التي صار أمرها إلى المسجد الأموي الآن - رضى المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ورضى المسلمون أن يؤدوا فيها صلاتهم - فكنت ترى في وقت واحد أنباء الديانتين يصلون متجاورين * * هؤلاء إلى القبلة - وأولئك إلى الشرق) *

فهل بعد ذلك تسامح - أو حرية - ؟ اللهم ان حضارتنا لم تعرف الطائفية يوماً من الأيام ولا كانت من طبيعتها فليسأل أعداؤنا في العالم أنفسهم عن ذبحوا ويذبحون من المسلمين وعن مساوىء الطائفية التي يتورط فيها الجميع مدفوعين بحمق أعمى على الإسلام الذي حررهم وطهرهم وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم من قبل * * وما أكثر المذابح التي أقاموها للمسلمين !! وان الصهيونية الوالغة في الدماء لتحاول اليوم * * وبأسم أمريكا - أن تستعيد الوحشية البربرية بما تمارسه من قتل وابادة واستئصال لغيرهم من أرباب الأديان * * وبما تفعله من هدم للمعابد والكنائس وانتهاك للمقدسات والعقائد * * كل ذلك وهي تدعى انتسابها إلى التوراة وموسى وسليمان !! وانها لتحلم بهيكل سليمان وأرض الميعاد وشعب الله المختار *

وتتخذ الدين شعاراً لكل هذا الاجرام والفساد - ولتحقيق ذلك الأطماع -

وهي حرية للمرأة : في اطار التصون والعفاف وفي حدود رسالة البيت - ونظام الامومة - وانها لحرية تتسع للبيع والشراء والتجارة والملك * * وتتسع لطلب العلم وبذل الجهد

في خدمة المجتمع - ولكنها لا تنتسح للفجور والفوضى . . لقد كانت قبل الاسلام تباع وتشترى وتمتهن بالشذوذ - والاباحية ويحرق جسدها بعد موت زوجها - ويشك في امرها أهى انسان أم شىء آخر ؟ وتستباح بالفوضى وتعصب بالاكراه وتمنع بالعضل - وتورث كالمناح لكنها في ساحة حضارتنا قد انطلقت حرة كريمة تجاهد في سبيل الله . . وتصنع الحياة - وتربى الأطفال ، وتتعلم العلم ، وتفتى في الدين ، وتستشار في الزواج . . وتعصم من الواد ، وتمارس العمل في المجتمع وتمضى في ظلال الفضيلة والخلق لتجلس في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لتسمع منه وتأخذ عنه - ويطول بى الموضوع لو ذهبت أستقصى وأستشهد .

مجتمع القرآن

من بركات المنهج الالهي - أنه كون جماعة من البشر
فصنعهم على عين الله - وصاغهم صياغة فريدة وجعل منهم
نموذجاً يحتذى للعالم بأسره . . . وهذه المجموعة الانسانية
التي قادها محمد صلى الله عليه وسلم لم تتكون بين يوم
وليلة . . . وانما تكونت مشاعرها الطيبة وأخلاقها النبيلة في
أعوام من عمر الرسالة كانت كلها حافلة بضروب التربية
النفسية، والخلقية والاجتماعية ولم تكن لحظة تمر عليهم دون
أن يكتسبوا المعرفة الجديدة وينهلوا من ورد الله الطهور وقد
أراد الله لهذه التربية أن تمضي مع الفطرة في هدوء واتساق
وعلى مهل . . . فكانت واقعية في كل أوضاعها - ولذلك حكمة
عليها - وهو أن تتمكن البشرية من معاودة التجربة كلما أحست
أنها ابتعدت عن الله وسارت مع الشيطان .

لقد كان أول ما فعله الرسول هو القضاء على الجاهلية بكل
مافيهها من ضلالات فأمامات الوثنية والعصبية في وقت واحد
وهي نعرات توهن العزائم وتفتت القوى وترهق المشاعر
وتمتنن كرامة الانسان وهتف فيهم يقول الحق تبارك وتعالى:

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » فكان
هذا ايذاناً بفجر جديد تنطلق فيه الانسانية الى أهدافها موحدة
القوى شديدة القصد ملتئمة الشمل قوية الارادة لا تفرقها
نزعات التعصب ولا مغريات الجاهلية .

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات

وانظر في قوله سبحانه : [ياأيها الناس] فهو يناديهم مجتمعين لأنه يريد منهم أن يعيشوا كتلة مؤتلفة تندفع بمواهبها لتبني الحياة دون تمييز بين فريق أو جنس أو وطن أو فئة أو عرق أو دم .

وقوله سبحانه : « انا خلقناكم من ذكر وأنثى » تعبير عن بواعث الوحدة في الحياة . . فكيف يعقل أن نتفرق ونحن من أب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء مهما اختلفنا شعوباً أو ألواناً أو قبائل . . كلها ظواهر سطحية لا تؤثر في أصل البشرية الواحد فما ينبغي بعد هذا أن يلعب بنا الشيطان فيفرقنا بأبديد باسم الطائفين أو العنصرية - أو القبلية أو الوطنية أو القومية أو ماسوى ذلك من المعانى الضيقة بعد أن أكرمنا الله بالأصل الواحد - وكأنما يؤكد الله لعباده أن هذه الاختلافات لا يجوز أن تتخذ ذرائع للفرقة وعوامل للجفوة ، بل هن في الواقع وسائل تعاون وصفاء لأن الأصل واحد والرب واحد والرجعى اليه سبحانه .

يقول اقبال [ان الاسلام دين غير اقليمي وغايته أن يقيم للانسانية جمعاء مثالا للألفة والانسجام باجتذاب معتنقيه المنتمين الى اجناس متنافرة ثم تحويل هذه المجموعة الى كتلة لها شعور بذاتها ، وكيانها كيان خاص بها - ان الاسلام يميل الى خلق ارادة عامة وضمير جماعى فى هذه الأوفاض من الناس (١)] .

ثم يحدد سبحانه - المعيار الذى توزن به القيم ويتفاضل فيه الناس . . انه ميزان التقوى والعمل الصالح - وكل القيم بعد ذلك هباء لا وزن عند الله . . [ان أكرمكم عند الله أتقاكم] . ولقد تمكن الرسول فعلا من اقامة هذا النظام العالمى العجيب -

(١) الأوفاض : الأخلاط المختلفة من اجناس شتى .

نحت ظل راية واحدة ، ليست راية الجنس ولا القبيلة ولا اللون ولا الرق فكلها رايات زائفة لا يعرفها القرآن - وهتف فيهم بقوله : [من قاتل تحت راية عميه - أى جهل وضلال - يغضب (١) لعصبية أو يدعو الى عصبية فقتل قتل جاهلية] ويقول لهم [كلكم بنو آدم (٢) وآدم خلق من تراب ولينتهين أقوام يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان] ويقول لهم كلما ثارت ريح العصبية السموم : « دعوها فانها منتنة » * * وهذه قاعدة قام عليها المجتمع الجديد والذي تحاول البشرية أن تحققه اليوم فتخفق - لأنها لا تسلك اليه الطريق السديد * * طريق العزيز الحميد ليجتمع الناس تحت رايته سبحانه فيحسوا بانسانيتهم وكرامتهم * * وذلك قوله « لتعارفوا » فهذا التعارف أساس العلاقات الانسانية مهما يتطور الزمن - وتتقدم الأيام * * وهو تعارف يضيف على الحياة ثوبا رائعا من الألفة الانسانية - والاخاء الكريم - ويعين على اكتساب الخبرات وازالة الفوارق بين البشر * * كما يقضى الى التعاون على البر والتقوى * * أما يوم تتصدع وتتمزق الروابط وتطغى العصبية ونسمع (شعب الله المختار - الدم الجرمانى - أبناء الله) فهو اليوم الذى نجد فيه أنفسنا مع الجاهلية وجها لوجه * * ان الله خلق البشر ليتحدوا ويتضامنوا وتأتلف قلوبهم ومشاعرهم لينهضوا بدورهم فى الحياة وهو بناء الحضارة وصنع التطور واستثمار ما خلق الله فى الأرض وهو دور لا يتم بالفرقة والشتات بل يحتاج الى التعاون والالفة وانماء العلاقات الانسانية الفاضلة ويستظل البشرية فى حاجة الى هذا النداء العلوى حتى تكف

(١) رواد ابو داود *

وهو حسن *

(٢) روى بلقاء الناس واد آدم الخ ابن سمعد فى طبقته عن ابي هريرة

عن السفاهة والجهل - وما دام في الدنيا سود وبيض -
وبراهمة ومنبوذون فنحن في حاجة ماسة الى هذا النداء ..
أين هذا الذي نراه اليوم من تفرقة بين الناس من تلك الواقعة ؟
جاء قيس بن مطاطيا - وكان منافقا - الى حلقة فيها سلمان
الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس
والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل - أي محمد صلى الله عليه
وسلم - فما بال هؤلاء ؟ - يريد سلمان وصهيبا وبلال - فقام
اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبي صلى الله عليه
وسلم فأخبره بمقالته فقام الرسول مغضبا يجر رداءه حتى
أتى المسجد ثم نودى للصلاة (نداء الى الاجتماع العام وفي
صلاة العيدين) فخطب في الناس وقال : يا أيها الناس ان الرب
واحد والأب واحد (١) وان الدين واحد .. وهي حادثة واقعية
تدل على مدى اهتمام الرسول بمكافحة تلك النزعات الآثمة -
نزعات التفرقة في المعاني الانسانية ...

وكان اهتمامه بمكافحة التفرقة العنصرية أقوى وأشد ..
ولذا لم يعرف هذا المجتمع تفرقة من أي نوع وسلك أصحابه
من بعده هذا النهج .. فكانت حضارتهم انسانية نبيلة ..
فهو صلوات الله وسلامه عليه لم يرض لأبي ذر وهو أكرم
صحابته أن يسب بلالا فيقول له يا ابن السوداء .. بل قرعه
وقال له : أعيرته بسواد أمه ؟! انك امرؤ فيك جاهلية !! ولقد
استخذى أبو ذر وقال لبلال : قم فطأ على وجهي - أي ضح
قدمك على وجهي تكفيرا عن تلك المقالة !!

وكان عبادة بن الصامت شديد السواد بائن الطول - ولما
جاء المسلمون لفتح مصر وتوقفوا أمام حصن بابليون رغب
المقوقس في المفاوضة فتكون وفد المفاوضة من عشرة فيهم

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

عبادة - وقد جعله عمرو بن العاص رئيساً للوفد - فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة ابن الصامت فهابه المقوقس لسواده وطوله ..

وقال : نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى .. فقال وفد المفاوضة : ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً - وهو خيرنا وسيدنا والمقدم علينا - ونحن جميعاً نرجع اليه - وقد أمره الأمير علينا وأمرنا ألا نخالف له رأياً فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم - انه لا ينبغي أن يكون الا أقلكم ودونكم ؟! فقالوا جميعاً : انه من أفضلنا موضعاً وسابقه وعقلاً وليس يعيبه سواده أو يؤخره .. ما دام عقله وعلمه وفضله يقدمه فلما وجد منهم الاصرار قال : تقدم يا أسود فكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد كلامك ازددت خوفا فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السود : ان فى جيشنا ألف أسودهم أشد سوادا منى !! ألا ترى الى حضارتنا ما أروعها وأسمى انسانيته !! - لقد كان الناس جميعا والى وقتنا هذا يرون السواد منقصه - ويرون الأسود ممتنها حقيراً لا يجوز أن يخالط البيض .. فانظر ما فعلته حضارتنا بالسود ، بلال يؤذن من فوق الكعبة - ويخطب ابنة أحد شرفاء قريش ويلقبه عمر ابن الخطاب بالسيد ، وعبادة بن الصامت رئيس وفد المفاوضة لدى المقوقس .. لأن علم الرجلين وفضلهما يقدمهما ، وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادى فينادى فى موسم الحج ألا يفتى الناس الا عطاء بن رباح امام أهل مكة وعالمها وفقهها .. وكيف كان عطاء هذا ؟! كان أسود أعور أفطس أمثل أعرج مفلفل الشعر - وكان اذا جلس بين تلاميذه فى حلقة الدرس بدا وكأنه غراب فى حقل من القطن .. هذا الرجل الذى وصفناه - تقدمه حضارتنا بعلمه وفضله وتجعل منه اماما يفتى فى دين الله ومدرسة يتخرج على يده الألف من البيض *

وممن قدمهم علمهم وفضلهم في حضارتنا - مع سواد بشرتهم عثمان الزيلعي صاحب شرح الكنز في فقه الأحناف - والحافظ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي (٧٦٢ هـ) مؤلف الراية وكلاهما أسود من زيلع - ومنهم نصيب الشاعر ..

ولقد قام هذا المجتمع على الحب والإيثار .. بعد أن كان يحيا في جاهليته على الاثر والسطو .. وهل يتصور انسان ما أن يجيء اليوم الذي يتقاسم فيه العربي مع أخيه داره وأرضه وماله وأزواجه وكل ما ملكت يده .. برضى نفسى وارتياح ضمير وحسن امتثال لله ورسوله؟! .. فانظر الى عجائب التربية الفريدة .. التى تبلغ هذا المدى فى السماحة والإيثار .. الذى وصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وما دام وزن الدنيا عندهم قد خف وهان فلتنهن عليهم أعراضها .. كانوا أولا يعيشون لدنياهم وينطلقون على هواهم ويحيون لساعتهم فصاروا اليوم يعيشون لآخرتهم - ويجدون الأنىس فى ارضاء ربهم - والسعادة فى البر باخوانهم .. انها القيم الجديدة تجد سبيلها الى أعماق النفوس البشرية فتستحيل الى قوة تهيمن على كل وساوس النفس ومسالك الحس وأعماق الضمير .. وتوجه الحياة وجهة جديدة وهكذا تعاليم السماء - ومناهج النبوات - ليست قشوراً ملصقة ولا تزاويق مفتعلة - وانما حقائق علوية تبني باطن الانسان وتصوغ مشاعره وعواطفه فلا يقر المؤمن قرار بعدها حتى يفرج كربته أخيه - لانه مرتبط به برباط الايمان الذى هو أعلى عنده من الحياة .. ويردد الرسول على مسامعهم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة (١) مثل المؤمنين فى توادهم

(١) رواه مسلم عن ابي هريرة .

وتراحمهم كمثال الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالحمى والسهر | •

فالمجتمع بنية حية تحس وتتأثر ماأصاب عضواً منها
أصاب الآخر وهكذا يتحول الشعور الفردى الأنانى الى شعور
جماعى انسانى فى ظل تعاليم السماء •

وتأخذ التجربة الايمانية امتدادها الرائع حين تصبح
واقعا يعيشه الأفراد وتنتقل من عصر الى عصر تحمل سر الله
وشرف الحياة • • ولا تكون مجرد مثاليات وشعارات تستعصى
على التطبيق فنرى التسابق فى الخيرات والتنافس فى الجهاد
والتبرع بالمال تأخذ مداها فى مجتمع الايمان - ويخلو هذا
المجتمع من كل التناقضات والعقد لأنهم كانوا يستعينون
عليها بالله - وتجد كل الفضائل الانسانية متنفساً طلقاً فى
رحابهم المبارك فتملأ حياتهم بالعطر • • وتضفى عليهم
الجمال والجلال فهم أعفاء - أمناء - أوفياء - كرماء - أعزاء -
صادقون وهم كما وصفهم ربهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً
تتقلب فيه القلوب والأبصار (١) » - ويعمق الرسول صلوات
الله وسلامه عليه تلك القيم فى أعماقهم متذرعاً بالايمان
والعقيدة فاذا بها تصنعهم من الداخل صناعة ربانية • • تضىء
بها الحياة ويزدان الوجود وتسعد البشرية وتتعانق قيم العلم
والعمل و الايمان فى هذا المجتمع فتسرى فى جنباته روح الجد
الحازم والجهاد الصادق والعمل المخلص لله رب العالمين -
ويبنون دولتهم الجديدة على تقوى من الله ورضوانه ويتلقتون
الى أنفسهم فاذا هم جميعاً سواعد قادرة على انجاز ذلك البناء
الحضارى العجيب • كل الكفايات والمواهب قد وجدت فيهم

(١) آية ٣٧ من سورة النور •

وتفجرت منهم . . فلم يحتاجوا الى أى معونة ولم يفتقروا الى
أى مساعدة . . وانما اكتفوا اكتفاء ذاتياً وبارك الله لهم فى
أوقاتهم - وفى مواهبهم فجادت بأطيب الثمرات - وتهديهم
بصائرهم الصافية الى أروع النظم الاجتماعية والسياسية
والى أنبل القيم وأزكاها . . يهديهم اليها قرآنهم - ويقودهم
نبيهم . . وتتوالى توجيهات هذا الرسول القائد حتى يكتمل
بناء الدولة الجديدة وتتأصل مبادئها - تنشئ العلاقات الدولية
على أساس من كرامة الانسان - وتقوى الله الكبير المتعال . .
ويكون لها وجود دولى كريم يصوغ معاهدات السلام ويحارب
أعداء الله ويكاتب الملوك والرؤساء ويستقبل الوفود من كل
مكان وتقبل الدنيا عليهم فما تطرف أعينهم - وما تحول
وجهتهم وانما يستخدمونها فى مرضاة الله .

ويؤصل هذا المجتمع مبدأ الشورى - ويجعلها أساساً
للحكم ويكافح الاستغلال ويزرع الأرض ويقسم الماء ويبنى
المسجد ويكافح الأمية ويطلب العلم وتموج جنباته بالنشاط
الدائب والعمل المثمر الخلاق . .

وهكذا يوجد انسان القرآن ، الذى تتطلع الدنيا كلها الى
عدله وأمانته وأخلاقه وشخصيته والذى تتوازن فى وجدانه
مطالب الدنيا ومطالب الآخرة . . فلا يهمل واحدة منهما لحساب
الأخرى ولنستمع الى وصف هذا الانسان الرائد - انسان
القرآن - على لسان المانى مسلم ومن خلال تصوره يقول :
[ان الاسلام ينظر الى الحياة بسكينة واحترام - هو لا يعبد
الحياة بل يعدها مرحلة يجتازها فى طريقه الى مرحلة عليا -
وبما أنها مرحلة - ومرحلة لا بد منها فليس للانسان أن يحتقرها
أو يقلل من قيمة هذه الحياة الأرضية ، ان مرورنا بهذا العالم
فى سفر الحياة لا بد منه وقد سبق به تقدير الله - فالحياة

الانسانية لها قيمتها الكبرى ولكنها واسطة وآلة - والاسلام
لا يسمح بالنظرة المادية القاتلة - مملكتي ليست الا هذا
العالم - ولا بالنظرة المسيحية التي تزدري الحياة وتقول : -
ليس هذا العالم مملكتي - وهذا هو انسان القرآن « ١٠ هـ

وطريق الاسلام هو التكامل كما مر ونحن ندعو ربنا
فنقول : ا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار (١) / ومحال أن يكون الاسلام حجر عثرة في سبيل
جهودنا المبذولة لانعاش الحياة وهو أيضاً لا يرى فيها خطراً
على جهودنا الروحية .. فالواقع أن مجتمع القرآن قد لاعم بين
الحياتين فقد كانت دنياه زاهرة بالمجد - زاخرة بالعمل -
زاهية بالجمال .. بناها بناء كريما وأرسي دعائمها على تقوى
الله .. وقد كانت آخرته ثابته في وجدانه وقلبه .. لا ينساها
ولا يهملها ولا يغفل عنها مهما منحته الحياة .. وبهذين معاً
تم التنسيق بين مطالب الدنيا والآخرة .. وتم صنع أكرم
حضارة .. هذه حضارة الحق والعدل بناها محمد صلوات الله
وسلامه عليه .. بمؤازرة الرجال المخلصين - الذين صنعهم على
عينه .. فكانت أرفع نموذج حضارى للبشرية جميعها ..
وقد امتد ظاهها حتى شمل الحياة كلها ودخل الناس في دين الله
أفواجا .. فهل نستعيد هذا المجد ؟!

(١) آية ٢٠١ سورة البقرة .

الباب الرابع

ذوقيات الحضارة القرآنية

صياغة الذوق وعجائبها :

من أعجب ما صنع القرآن في هؤلاء الجاهليين - أنه لم يكتف باعلان الحرب على الجاهلية الحمقاء - وطى بساطها الفاجر ووضع قيم جديدة رفيعة مكان القيم البائدة .. وطبع القوم بطابع العقيدة التي صاغت ضمائرهم، وكونت مشاعرهم، وصنعت وجودهم وجعلت منهم نماذج فريدة ولكنه فوق هذا أبى الا أن يصوغ أذواقهم - وأن يجعل من هذه الذوقيات الراقبة قرآنا يتلى - لتظل البشرية مشدودة الى هذه الصفوة الكريمة التي تألقت زمناً ثم غابت عن الوجود .. تاركة فيه عطرها .. وسحرها ..

وان هذا العطر ليسطع فينعش الصدور الحرجة - ويحيى الآمال المهیضة - ويمنح القدوة الفاضلة .

وهذه الذوقيات الرفيعة ربما غاب عن بعض الناس أنها قرآن يتلى - وسنة تدرس - وتجربة حضارية عاشتها البشرية .. تمثلت أولاً في وجود الرسول الكريم - ثم تحققت بمنهجه وسرت في مجتمعه - ثم ما لبثت أن ذاعت في كل أفق - وانتقلت الى كل قطر - وحملها الاسلام على جناحه القوى أينما غدا أو راح .. وزاد من عمق هذه التجربة .. أنها لم تؤخذ عن نظرية مكتوبة - وانما سرت بالقدوة في مجتمع النبوة ..

فان ذوقيات القرآن كلها قد تمثلت في محمد صلوات الله وسلامه عليه - فكان هو الذوق الرفيع في كل قول أو عمل .. فأكله وشربه وكلامه وتعامله وتسامحه وترفعه ونبله وفضله كلها روائع ذوقية ما أحوج العالم اليها اليوم - وعندما تتحول الذوقيات الى نبض حي يسرى في عصب الأمة ويتمثل في معاملاتها - وأقوالها وأفعالها .. فان الفضل يرجع الى الدستور الخالد الذي قذف بالنور في وجدانهم فاذا بها تضيء .. فتصدر عنه أرق المشاعر وألطف الذوقيات والذين يدرسون الحضارات الانسانية - لا يجدون فيها ذلك الجانب الجمالى الا مصنوعاً - أما أن يتمثل في القيادة - ويحويه الدستور فذلك أمر بعيد ..

وهذا جانب من جوانب العظمة في حضارة القرآن .. تأبى الا أن تتكامل .. فلا تدع جانباً من جوانب الانسان الا تدخلت في تكوينه وبنائه على أجمل وضع وأبهى صورة وهذه الذوقيات التي نحن بصدد الافصاح عنها لا تقتصر على الجانب الروحي - ولا على المادى - وانما تجمع بينهما فهي حضارة تستكمل صور الجمال والذوق المادى والمعنوى معاً .. وقد تروق حضارة الغرب - وتبرق في الأعين القاصرة الكليلة لما تستجمعه من حسن ظاهرى مصنوع .. ولكن ذلك لا يخدع أصحاب البصائر النافذة .. فانها تخلو من أى جمال روحى - يضيف عليها الصفاء والوداعة والحب .. تلك الروحانيات التي تنشئ السعادة وتروى عاطفة الانسان وماذا تصنع كل مظاهر الجمال الخالب اذا ذهب الايمان؟! وهو مصدر أنس في هذه الحياة!!

وعندما أدرك القوم افلاس حضارتهم في معانى الروح .. وجمالها أخذوا يتجهون نحو الشرق عليهم يجدون فيه ما يسد فراغهم الروحي .. ويتيح لهم واحة روحية عذبة النسائم شذوية العطور .. تريح أعصابهم المكدودة وتنقذهم من تلك

الحياة المصنوعة .. التي لا ذوق فيها - ولا جمال .. فليس
عجيباً أن نرى من الأمريكيين من يعتنقون البوذية .. أو
البهائية أو الاسلام .. فراراً من جحيم المادة ودوقيات الجمال
المصنوع !!

وهناك مجموعة من الشباب الفرنسي اعتنقت الاسلام ..
وراعها ما فيه من جمال فطرى رفيع .. ومن ذوقيات روحية
آسرة وانهم ليجتمعون ويتدارسون القرآن ويحفظونه ويقودهم
زعيم مسلم روماني .. ويلبسون ثياب الشرق الجميلة
البيضاء .. وبعضهم يطلق لحيته على صغر سنه - بذوق
وجمال - ويقولون : « نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى
الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب والاسلحة وأفقدتنا
انسانيتنا حين أماتت ارواحنا وأحيث شهواتنا .. ولقد
وجدنا في الاسلام كرامتنا واطمئناننا الرحي .. فعدنا بذلك
الى الفطرة الصافية النقية » .

ويقول مستشرق انجليزي اعتنق الاسلام متحدثاً عن
ذوقيات الحضارة الغربية] انها حضارة تفقد الشرف والجمال
.. وفقدانها للشرف أمر لا يختلف فيه الناس - وفقدانها
للجمال لأنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطرى وجمال
الخلق - أما جمال اللباس وجمال الطبيعة وجمال المدن وجمال
البيت وجمال المرأة فانها جميعاً مصنوعة .. تنزع الى المادية
الحيوانية في كل شيء] .

ولعل في ذكر هذا الكلام ما يدعم نظرتنا الى حضارتنا -
ويغير نظرتنا الى حضارة الغرب مهما يكن فيها من بريق
وترف .. فان الذوق السليم يأبى الا أن يصدر عن الفطرة وهم
حرب على تلك الفطرة لا يكادون يرجعون الى حكمها في شيء ..

ولقد تبهرنا حنسارة الغرب الحديثة بما ابتكرت وتبتكر
من « بروتوكولات » ونظم مادية - وبما استحدثت من أساليب
التعامل - وبما أنشأت من ذوق في اطار العلاقات الانسانية !!

تبهرنا « هذه الذوقيات » برفقتها وجمالها - ولطفها ونقف
أمامها مشدوهين مرددين : ما أطفهم ما أرقهم !! حبذا لو كانوا
مسلمين وما درينا في لحظة من لحظات المحاكمة الذهنية لحنسارة
الغرب أنهم نقلوها منا وأخذوها عنا - وسرت اليهم من روائع
حضارتنا .. يوم خالطونا في الأندلس وعاملونا في الشرق ..
فأقبلوا عليها وتشبثوا بها - واستعملوها في حياتهم - أما
نحن فقد تخلينا عنها يوم تخلينا عن مبادئ حضارتنا - ثم
نسبنا التاريخ .. وأصبنا بفقد الذاكرة !!

وساعد علي ذلك انتصار الغرب علينا - فتأصلت هذه
العقدة في نفوسنا .. استحكمت في أذهاننا والمغلوب مولع
بقلب. النال دائما كما يقول ابن خلدون !!

الرسول والتجربة الذوقية

إذا كان العالم كله يعتبر الذوقيات كماليات تزدان بها الحياة وتكتسى جمالا ونظرة . . فانها في حضارة القرآن أيباسيات تستقى من كتاب جامع لأسرار الجمال - وروائع الكمالات . . فهي بهذا التصور عبادة . . ومن ثم فقد تحرك المجتمع بهذه الذوقيات الى العالم كله فبهره بجمالها وكمالها . . فنقلها عنه . . وأخذها منه . . والحق أن القرآن الكريم قد تحول بمحمد [صلعم] الى تجربة حية نابضة تتجسد في عمل . . وتتجسم في سلوك . . فكان يتحرك بين أصحابه بالطهر كله - وبالجمال كله - وبالأناقة كلها . . ولقد امتدت اليه الأعين فسبأها جماله وبهرها جلاله وكماله فنقلت عنه بالقدوة - وأخذت بالناسى واقتبست بالمحبة .

ولقد جمع الله في شخصه كل ما هو ذوق وجمال . . مما يعتبر الآن رقياً وتحضراً . . ولا يكاد يخطر للبشر على بال . . فانظر الى ذلك العربى الأمى كيف صقله القرآن وتعهده الوحي وأدبه الله . . فصار نموذجاً للذوق الرفيع والجمال الباهر . . ولقد جملة ربه بكمال الخلقه وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وسلامة الأعضاء وتناسقها واستنارة الوجه بما تحدثت عنه كتب السيرة ولم تستطع الوفاء به كان ازهر اللون - أدعج نجل [أى واسع العير شديد سواد الحدقة] - أبلج أزج أفلج مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية ليس بالطويل البائن - ولا بالقصير المفرط . . ومع ذلك فلم يكن أحد يماشيه الا طاله مهما كان طويلا - اذا ضحك تبسم - وافتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام - لا يقهقه - ولا يكثر من الضحك . . اذا

تكلم تمهل - وكرر الكامة ثلاثاً في المواضع الهامة - وأسمع بصوته .. وكأنما النور يخرج من بين ثناياه .

قال البراء بن عازب : ما رأيت من ذى لمة سوداء في حلة حمراء، أحسن من رسول الله !

قال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى في وجهه وإذا ضحك تلاً !!

وقال ابن أبي هالة : يتلأأ وجهه كما يتلأأ القمر ليلة البدر !!

وقال على كرم الله وجهه : من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه - يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله !!

وعجيب أن يشتد اعجاب أصحابه به الى هذا الحد .. فقد توجد هذه الصفات في قائد أو ملك أو أمير فلا يلتفت إليها .. وقدموها في هذه الأساليب بكل حرارة وصدق .. فهل يتحمسون في التحدث عنها ولا يقلدونها !؟

أما نظافة جسمه وطيب رائحته وعرقه وتنزعه عن الأقدار فقد خصه الله من ذلك بالكمال الرائع ليكون تأثيره في العالم بأسره قوياً كبيراً .. لأنه قدوة في كل مظهره وكل جوهره .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : بنى الدين على النظافة . ويقول أنس : ما شممت عنبراً ولا مسكا ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ..

وعن جابر أن رسول الله مسح خده قال فوجدت ليده
برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة (١) عطار . . اذا صافح
أحداً ظل يشم الطيب في يده يومه كله . . واذا مس رأس صبي
عرف من بين الصبيان بريحتها . . وروى البخاري في تاريخه
الكبير عن جابر : لم يكن النبي يمر في طريق فيتبعه أحد الا
عرف أنه سلكه من طيبه . . وكان يقول « ان الله جميل يحب
الجمال نظيف يحب النظافة » فأين هذا من قذارة الرهبان -
وما كانوا يعتقدونه أن الاستحمام مناسف للزهد . . وكانوا
يعدون أزعدهم وغلهم في النجاسات !؟ . .

وكان يحدث أصحابه على التجميل ، والامتنشاط ، وتحسين
الهيئة ويشبهه الرأس الثائرة الشعر برأس الشيطان . . لأنها
تصدم ذوقه المرهف وتؤذى شعوره النبيل . .

وطريقته في الطعام هي الآية المثلى في الذوق . . كان
يغسل يديه قبل الأكل وبعده ويبدأ بسم الله . .

ويعلم الصبي الذي يليه كيفية الطعام . . وكان يأكل مما
يليه وما قدم اليه شيء فعابه . .

وقالت عائشة : لم يمتليء جوف النبي شبعاً قط - ولم
يكن يسأل أهله طعاماً ولا يتشبهاه ، ما أطعموه أكل - وما
سقوه شرب وفي صحيح الحديث قوله [أما أنا فلا آكل متكئاً |
أى متمكناً في الجلسة التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته -
وكان يقول : « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد . . وكذلك نومه
كان قليلاً وان عينه لتنام ولكن قلبه لا ينام » . .

(١) جؤنة العطار : الرعاء ، يضع فيه السطر .

وكان انسانا بكل ماتحمله الكلمة من معان . . . وكانت له مهابة وجلالة تبهر كل من يلقاه حتى الأعداء . . .

ولقد روى عن (قليلة) أنها لما رآته أرعدت من الفرق (١) فقال : يامسكينة . . . عليك (٢) السكينة !!

وفي حديث ابي مسعود أن رجلا قام بين يديه فأرعد وخاف فقال له : هون عليك فاني لست بملك وكان يقول لمن يهابه : انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . . . وكانت تقصده العجوز فتنحدث اليه فلا يتبرم بها . . . ولا يتغافل عنها . . . وكانت الجارية الصغيرة تأخذه من يده فتنتلق به الى جهة ما فينطلق معها . . . ولم ير مادا رجيله بين جليس - ولم يكن ينزع يده من يدي مصافحه الا اذا بدأ بنزعها . . . وكذلك كان لا ينزع أدنه ممن يسر اليه بالوسادة التي يجلس عليها - ويفسح له في المجلس - ويرعى كل عزيز قوم ويعطيه حقه يسأل عن أصحابه ان غابوا - ويعودهم ان مرضوا - ويواسهم ان نكبوا - ويساعدهم ان احتاجوا - ولا يترفع عن عمل البيت في أوقات فراغه مساعدة لأزواجه . . .

ولم يكن يشغله شيء عن جانب الضعيف - وقضاء حاجته وذلك لفرط انسانيته ورقة شعوره - جاء عدى بن حاتم الطائي يوما الى المدينة وهو لم يسلم بعد وحضر مجلس رسول الله وحوله أصحابه بعد منصرفهم من إحدى الغزوات يلبسون الدروع ، وعدة الحرب . . . فראה هيبة الصحابة لنبيهم واحترامهم له وبينما هو كذلك اذ جاءت اليه امرأة فقيرة من

(١) الفرق : الخوف .

(٢) ما أجمل الأوق الصياغى في هذه الجميلة يا مسكينة عليك السكينة

وما اللطف الجناس !!

اماء المدينة وقالت : أريد يارسول الله أن أسر اليك شيئاً !! .
فقال لها : انظري في أى سكك المدينة أخلو لك ؟ ! ثم نهض معها
ووقف طويلاً يستمع اليها ثم عاد فلما رأى عدى هذا تملكته
روعة هذه الروح الانسانية . . وبهره ذلك الذوق الرفيع . . في
رسول الله .

وكان سمحاً في كل شئ وفي بيعه وشرايه بنوع خاص -
يعطى من يسأله - ولا يبخل بما يجد - وقد يقول لمن يريد منه
مالاً : مامعنى شئ ولكن ابتع على حسابى !! وقد أوتى خزائن
الأرض ومفاتيح البلاد - وغنائم الحرب وفتح الله عليه بلاد
الحجاز واليمن والجزيرة العربية وما دانى ذلك من الشام
والعراق - وهاداه جميع الملوك فما استأثر بشئ منه ولا أمسكه
لنفسه أو لأهله ومن أقواله : [ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً يبيت
عندى منه دينار الا ديناراً أرصده لدينى] وأتته دنانير مرة
فقسمها وبقيت منها بقية فدفعتها لبعض نسائه لتحفظها حتى
الصباح فلم يأخذه نوم وظل يتقلب على فراشه ولم يسترح
حتى قام فقسمها ثم قال : الآن استرحت [!!] واقتصر فى
ملبسه ومسكنه ونفقته على ماتدعو اليه الضرورة :

وكان أحلم الناس - وأشجع الناس - وأفصح الناس . .
وقد بلغ من خلة الحياة ذروتها . .

قال أبو سعيد الحذرى : كان رسول الله أشد حياء من
العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه وكان
لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره - ولا
ينادى أصحابه الا بأحب الأسماء اليهم - وكان اذا بلغه ما
يكره عن أحد لم يقل ما بال فلان بل يقول : ما بال أقوام ؟

وقال : لم يكن الرسول فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا
بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح -
وكان أصدق الناس لهجة وألينهم عريكة (١) وأكرمهم عشرة
- وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن
أحد منهم بشره لا خلقه - من جالسه أو قاربه لحاجة صابره .
وصفه ابن أبي هالة فقال : « كان دائم البشر - سهل
الخلق - لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ لا صخاب ولا فحاش
ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه » -
قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في
الحق سواء - وكان يمازح أصحابه - ويخالطهم ويحادثهم
ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويقبل الهدية ولو كانت
كراعا ويكافي، عليها ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين
ويعود المرضى في أقصى المدينة .

وقد بلغ الذروة في العفو والصفح والمجاملة وصلة الرحم
وسمو التواضع - والعدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة .
وكان كثير الصمت - يقلل من حجم الكلام ويكثر من حجم
العمل . . . ولهذا أنشأ جيلا يفعل أكثر مما يقول ، يقول ابن
أبي هالة : كان صمت النبي على أربع : على الحلم ، والحذر ،
والتقدير ، والتفكر . . .

ومن خصاله التي تدخل في باب الذوق : نهيه عن النفخ
في الطعام والشراب والامر بالاكل مما يلي والامر بالسواك
ونتنف الأبط وحلق العانة وغير ذلك فقد كان يكره رائحة الثوم
والكرات وسائر الروائح الكريهة . . . وينهى أن يدخل المسلم
المسجد وهو على تلك الحال .

(١) العريكة : الطبيعة والخلق .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله !!
فحياتك كلها ذوق ولقد حاولت أن ألتقط من الدر ما وسعني
ولكن ماذا أصنع وماذا يصنع غيري والدر كثير !! وحياتك
يا رسول الله كلها لطافة ومروءة وحياء وجمال فمن أين يؤخذ
الذوق العالى ان لم يؤخذ عنك ؟ ومن أين تلتمس القدوة ان لم
تلتمس منك ؟ .. يا من ارتفعت مكانتك الى سماء لا يطار لها
غدو ورواح *

على جناح .. وذنوت تواضعا حتى خالطك الناس في كل
دان الى أيدي العفاة (١) وشاسع
عن كل ندى في الندى وضريب (٢)
كالبدر أفرط في العلو وضوءه
للعصابة السارين جد قريب

وتلك يا رسول الله هي التربية في أسمى أساليبها ..
تختلط بأصحابك .. لتؤصل فيهم الذوق والحكمة وتعمق في
وجدانهم الأدب والخلق .. وتغرس في أفئدتهم كل المعاني
النبيلة !!

انه اذا كان الذوق جمالا في النفس الانسانية ورقة في
الشعر وحساسية في الوجدان تجعل الأعمال تصدر عنها في أنهى
صورة - أروع مظهر - وأكرم جوهر فهكذا كان رسول الله رقة
لا عهد لأحد بها - وأناقة لم تصدر قبله عن ملك ولا قيصر -
ولقد تعهدته العناية الربانية من مفرق شعره الى أخمص قدمه
فصباغت منه ذوقا مكتملا يمشى على قدمين بين الناس *

(١) العفاة : انقراء الطالبون للعطاء

(٢) ضريب : نظير *

فكان كما وصفه ربه « وانك لعلى خلق عظيم » ومن أين
جئت وجدت جمالا ورقة !!

ولقد استطاع ان يطبع حضارة القرآن بطابع الجمال فكانت
حضارة الجمال المادى والمعنوى حضارة الطهارة والنقاء -
طهارة الثوب وطهارة النفس وطهارة الوجدان .. ولم يصدر
عن أصحابه الا ما كان جميلا .. والدارسون لفنون الجمال ..
ينظرون الى جمال الروح وكل ما يصدر عنه من صفاء القلب
وسمو الشعور وسلامة الضمير ورقة المشاعر على أنها أعلى في
مستواها من قيم الجمال المادى لأن جمال الباطن يستتبع
جمال الظاهر .. وقد احتفت حضارتنا بهذا العنصر من الجمال
لم تتخل عن الجمال المادى يوما من الايام لانها حضارة
المادة والروح .

وان أروع ما يروعا في هذه التجربة أنها قد تحققت في
سمتها العالى وانتقلت من المصحف الى مشاعر القوم وصارت
واقعا تعيشه البشرية وسلوكا تمارسه وعملا تباشره فتوجت
الصورة الانسانية بأروع تاج - ورصعته بالدر والخلود
ووضعته على مفرق البشرية كلها فازدان جبينها بأجل تاج
وهيا تلها وسائل - التسامى الازدهار .. وهكذا من فدامة (١)
وغلظة - الى رقة وحساسية .. لم يكتفوا بالجلال بل مزجوه
بالجمال فصدرت عنهم الصورة الباهرة التى استقرت في ضمير
الزمان .. وانتقلت الى صحائف التاريخ فراعته مظهرا وجوهرا
ولله في خلقه شئون فمن كان يصدق أن هؤلاء العرب الغلاظ
أولى الخشونة والفظاظة سيعلمون البشرية كلها أفانين الذوق
ويفجرون فيها ينابيع الحكمة وتنقل عنهم أوريا فتجد عندهم
كل جميل وجليل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

(١) الفدامة : الجهالة والخشونة والفظظة والحمق .

وما أحوج العالم كله اليوم - ونحن في نهاية القرن العشرين الى مثل تلك الذوقيات الرفيعة .. بعد أن فقد الاحساس بالجمال بين صخب الحياة وهدير الآلة وقعقة السلاح وأزيز الطائرات وفلسفة (الدولار والمارك) .. وهل يساعد ذلك الجو الهادر الرهيب على تنمية الذوق أو ترقية الاحساس !؟

من الروائع الذوقية في القرآن :

ينضح القرآن الكريم بالأفانين الرائعة من الذوق العالى - والادبيات الرفيعة - لتظل تمد الحياة ونصر وجهها . كلما أمعنت في الغلظة - وأبعدت في المادة - وأوغلت في الفساد .. وتتقف هذه الذوقيات حارساً أميناً يصون ذوق هذه الأمة من كل ابتذال - ويحرسه من تدهور .. ويمده بالتألق والضياء .. ولقد تناول القرآن مسائل ذوقية - هي آية في الحساسية ، فوضحها وبين آثارها .. وكأنما هي غضة جديدة تنزل الآن .. بل كأنما نزلت لتعالج ما نشكوه الآن من فساد الأنواق - وجفوة المشاعر .. حتى لكأنما الجاهلية التي حاربها محمد صلوات الله وسلامه عليه وقضى عليها قد عادت من جديد بكل ما فيها من فظاظة وغلظة ..

وسألتقط من الدر .. بعض ما يسمح به هذا البحث - راجياً أن أتمكن من معالجة هذا الموضوع مرة أخرى تحت عنوان « ذوقيات القرآن » .. وهاك نماذج متنوعة منها :

(١) النظافة والطعام :

يقول سبحانه لنبيه : « وثيابك فطهر (١) » .

(١) آية ٤ ، سورة المدثر .

وقد فهموا منها نقاوة الظاهر فلبسوا أجمل الثياب -
وتطيبوا بأحسن الطيب - ونظفوا أبدانهم وتجنبوا الروائح
الخبیثة - وبرزوا في أبهى منظر وأكرم مظهر .. وكانوا في ذلك
مثلاً يحتذى ..

كما فهموا من الآية أيضاً نقاوة الباطن فتعهدوا سرائرهم
- وطهروا ضمائرهم وترفعوا عن الرذائل كلها .. وبذلك
تجملوا ظاهراً وباطناً .. وتألقوا : مادة وروحا ..

ومن هذا الباب أيضاً : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل
مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قل من
حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. قل
هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك
نفصل الآيات لقوم يعلمون (١) » .

فهموا منها : التزين للصلاة - فلبسوا أبهى ثيابهم ثوقيراً
لربهم - وتعطروا بأزكى الطيب .

كما فهموا منها : الاعتدال في المآكل والمشارب فسلكوا
مسلك « الوسطية » من غير افراط ولا تفريط - وهذا من صميم
الذوق الحضارى .. ألا تخرج الى الناس ممثلاً تتجشأ
وتلهث !! كما أن الامتلاء ينافى الرشاقة - ويؤدي الى التخمة -
والترهل وهي آفات تقلل الجهد - وتضعف الجسم - وتذهب
النشاط - وتدعو الى النوم والتثاؤب .. وتجلب الأمراض
للجسم ومن ثم فالبطنة أساس الداء - والحمية رأس الدواء ..
والأطباء ينصحون بعدم الامتلاء حتى يسلم الجسم ..

(١) آيتا ٣١ ، ٣٢ من سورة الاعراف

كما فهموا من الآية : أن يستمتعوا من الطيبات في حدود ما أحل الله . . . مأكلاً وملبساً ومسكناً . . . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقد تمثلوا هذه التعاليم . . . وطبقوها في مجتمعهم فكانت أساساً لكل ذوق حضارى - وانتقلت عنهم بالقدوة - وقلدهم غيرهم فيها ، وبخاصة بعد اتساع الفتوحات في فارس والروم . . . والاندلس . . . لم يبق في هذه البلاد مجال لأى ذوق اقليمى . وانما شاعت بينهم ذوقيات القرآن . . . ولقد مر أن الرهبانية بتعاليمها الرجعية وقسوتها المهلكة - كانت تعد التمتع بطيبات الرزق والتنعم بما أحل الله ، رجساً من عمل الشيطان كما كانت تحارب النظافة والتجمل لأن ذلك كما زعموا - ضد الروح . . . فلما شاعت ذوقيات القرآن بددت ذلك الجهل واكتسحت هذا الغشاء .

لقد حدثوا عن (مكاربيوس) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه ذباب سام وكذلك « يوسيبس » كان يحمل على ظهره قنطارين من حديد ويقيم أعواماً ثلاثة في بئر قد نزع . . . كل ذلك قصداً الى تعذيب الجسم لتزدهر الروح !!

ووقف الراهب يوحنا على رجل واحدة ثلاث سنين - وكان اذا تعب أسند ظهره الى صخرة .

وبعض الرهبان لا يكتسون (١) - وانما يتسترون بشعورهم الطويلة ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ويسكنون المغارات والكهوف والمقابر ويأكلون الحشائش ويتأذمون من غسل الأعضاء وأزهدهم أوغلمهم في النجاسات . . .

(١) تاريخ أخلاق أوربا « تأليف ليكس » عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للتدوى ص ١٦٨

فأين ذلك كله، مما توحىه الآيات السابقة؟ بل أين ذلك مما طبقت، حضارتنا من نظافة واعتدال وقصد...؟ وابتعاد عن النجاسات والأقذار واستعمال للطيب - واستمتاع بطيبات الحياة؟

هذه ذوقياتنا وتلك ذوقياتهم!! وعندما شاهد العالم تلك الذوقيات الرفيعة، تأثر بها واقتبسها وهجر تلك الوحشية والخشونة... .

(ب) توفير القيادات :

ورد في سورة الحجرات قدر صالح من الأدب مع الله، ورسوله... . والخذ عنهما دون ابطاء، أو تردد وعدم صدور أية بادرة تجعل للانسان حظا معهما... . كما ورد في مطلع السورة أيضا لون من الأدب الرفيع لا عهد للدنيا به... . من خفض الصوت في مجلس رسول الله - وتوقير مشهده - والاستئذان، عليه عند الرغبة في زيارته - وندائه بروح الاجلال والتوقير وتخير الأوقات المناسبة لتلك الزيارة... .

وهنا يبرز معنى كبير هو ما نسميه بالتعبير العصري « احترام القيادات والثقة بها وتوقير أوامرهما » وقد سلك أصحاب رسول الله - بعد هذا التأديب المستمر - وبعد تلك التربية الاجتماعية - مع رسولهم - ومع علمائهم - وجميع قياداتهم، مسالك الذوق الرفيع والأدب الكامل بحيث كان الواحد منهم لا يستطيع أن يملأ عينه من رسول الله استحياء وتوقيراً... . ولنستمع الى صوت الوحي الالهي يحمل الينا تلك الذوقيات الرفيعة فنحس بنداوتها - ونضارتها وجدتها - كأنما تنزل الآية... . كما نحس بحاجة الحياة اليها أكثر من أى وقت مضى يقول جل شأنه : [يأيها الذين آمنوا لا تقدموا

بين يدي الله ورسوله - واتقوا الله ان الله سميع عليم -
يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا
تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم
لا تشعرون - ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك
الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم - ان
الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (١) .

ان هذه الآية تتسامى بجمالها وجلالها - الى أفق رفيع . .
فهي توضح المعالم التي تنشئ، المجتمع النظيف المهذب - مجتمع
له أدب مع الله ومع رسوله يتمثل في توضيح حدود العبد مع
الرب - ومع الرسول المبلغ عن الله - فلا يسبق العبد المؤمن
آلهة في أمر أو نهى ولا يقترح في قضاء، أو حكم ولا يتجاوز
ما يؤمر به أو ينهى عنه - ولا يجعل لنفسه حظاً مع خالقه
ويبرأ من كل حول وطول وقوة أمام حول الله وطوله وعلمه . .
توقيراً وخشية منه وحياء، وأدباً معه . . ولهذا العالم أدب
خاص مع الرسول في خطابه - وزيارته والتحدث اليه . .

وتبدأ الآيات بهذا النداء الحبيب : « يا أيها الذين آمنوا »
وهو نداء الله الجليل الى عباده المؤمنين يحرك به عواطفهم
ويستميل به مشاعرهم ويستجيش وجدانهم بذكر الصفة التي
تميزهم من المجتمعات الأخرى وهي صفة الايمان . . وهي التي
تربطهم به وتشعرهم بأنهم منه واليه . . فهم صناعة ربانية
ومن ثم فهو سبحانه يمنحهم من التشريعات ما يصلح ظواهرهم
وبواطنهم . . ولا يتركهم ليستوردوا مبادئ، أو نظماً أو يهيموا
على وجوههم بين شتى الحضارات الأرضية . . وانما أمدهم
بكل ما يلزمهم حتى الذوقيات وهنا ينبغي أن تزدهر ثقافتهم في
هذا الأفق الرباني وأن تستسلم له في كل شيء .

(١) الآيات اول سورة الحجرات على التوالي .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا - أو لو صح كذا •• فكره الله ذلك •

وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يدي رسول الله •

وقال مجاهد : معنى لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - يعني لا تفتاتوا على رسول الله بشيء حتى يقضى الله على لسانه •

وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ••

وقال علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة •• وعلى أي قول فالآية ترسم منهج التلقى والتنفيذ •• وتصوغ حياة القوم على لون من الخلق العالي والذوق الرفيع •• وقد تأدب القوم بهذا الأدب مع الله ورسوله فما عاد مقترح يقترح على رسول الله بشيء •• أو يذبرع بالادلاء برأى ••

ومن تأثير هذا الدرس فيهم أنهم دائماً كانوا يتخرجون أن يجيبوا عن شيء، يسألهم عنه الرسول •• بل كانوا يقولون : الله ورسوله أعلم - حتى ولو كان ذلك الشيء واضحاً جلياً •• استعملوا للأدب والتزاماً للذوق !!

ولقد بدأ رسول الله فطبق هذا القانون على نفسه •• في أدق الظروف وأحرجها •• بل في أمس الأمور وأشقها - أمر أن يتزوج زينب بنت جحش بعد طلاق زيد بن حارثة لها - فتزوجها •• وقد كان زيد هذا رقيقاً لرسول الله فأعتقه ثم تبناه قبل تحريم التبني ثم زوجه بزينب ابنة عمته وكانت على حظ وافر من الشخصية والجمال •• وقد تمنعت زينب

باديء الأمر . . لكنها سرعان ما أذعنت لله ورسوله . . ثم
أوحى الله الى نبيه - أن يتزوج من زينب بعد مفارقة زيد لها
وانقضاء عدتها منه . . ليبطل مبدأ جاهلياً قد تعودته العرب
وهو تحريم الزواج من زوجة المتبنى . . ولقد أقبل زيد ذات
يوم الى الرسول يشكو له من زينب ، بعد أن وقعت بينهما
جفوة فقال له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . وكان
عليه أن ينفذ ما أوحى الله اليه فيأمره بطلاقها . . فعاتبه الله
في ذلك :

(واذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك
زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس
والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها (١)) .

ولقد كان العرف الاجتماعي قاسياً . . لا يرحم وهو
عرف يحرم الزواج من زوجة المتبنى . . ولهذا استحبنا
الرسول بادية ذي بدء . . ثم ما لبث أن نفذ . . ومن ينفذ
إذا لم ينفذ الرسول ؟

ولقد بين الله الحكمة في ذلك بقوله :

(لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم) .

واذن : فالأمر أمر تشريع . . والله سبحانه يريد أن
يبطل هذا الأمر على يد الرسول وبعمله وتطبيقه .

ولهذا أنزل فيه آيات كريمات . . والقصة تعطى درساً
رائعاً في الالتزام والتنفيذ ودقة التطبيق حتى على الرسول
نفسه - بل انه لأولى أن يسارع الى التنفيذ . دون أن يتردد
أو يفكر بعد أن أوحى اليه ربه .

(١) آية ٣٧ من سورة الأحزاب

ومعكذا القوانين . . لا تطبق على الناس فحسب - ولكن
على القيادات قبل الناس - ليتخذوا منهم قدوة صالحة .

ولننظر الآن في سوات التطبيق الدستوري والقانوني . .
انها تنفذ على الشعب - لا على الحكام . . وأين هذا من قول
رسول الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد
يديها !! » وأين هذا من تطبيق الرسول على نفسه - في أخرج
الظروف - وفي أدق الأمور ؟ !

ولم يقف التشريع عند هذا الحد - وإنما انتقل نقله
جديدة هي حسن الأدب مع الرسول في الحديث . . بحيث
ينعكس على نبرات القوم وكلماتهم : (لا ترفعوا أصواتكم) .

ومن الأمور الاجتماعية التي نشكو منها الآن الصخب
والضجيج المقاطعة في القول وعدم تمكينك أن تدلى بوجهة
نظرك . . يحدث كل ذلك في اجتماعاتنا العامة مع القيادات
ومع الناس بعضهم مع بعض وهذه السمات دليل على
الهمجية . . فكلاما كان المتحدث أخفض صوتاً وأكثر توقيراً
لحديثه وأصبر على الكلام كان ذلك حسناً . . وهو في الوقت
نفسه قمة الذوق الحضاري . . وهو ذوق تؤازره السماء . .
ويتنزل به الوحي مع القيادات المؤمنة . . لكي تصان هيبتها
وتحترم كلامتها . . ولذلك أثره في دعم النظام واستتباب
الأمن وتنفيذ أحكام الله ، أما حين تختل القيادة وتسقط
هيبتها فلا أمل في نظام أو صلاح .

ولقد تأثر مجتمع الصحابة . . ومجتمع الحضارة
القرآنية بهذا التوجيه تأثراً عظيماً وطبقوه في كل وقت .

قال البخارى : فى سبب نزول الآية كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبى حين قدم ركب تميم فى السنة التاسعة للهجرة . . . وقد أراد من رسول الله أن يؤمر عليهم رجلا منهم . . . فأشار أحدهما بتأمير الأقرع ابن حابس - وأشار الآخر بتأمير القعقاع ابن معبد - وفى بعض الروايات . . . أن ابا بكر قال لعمر ما أردت الا خلافى - قال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما ، فنزلت الآيات . . . فلما أخذ ذلك الدرس ووعياهم أم يعودا يتحدثان فى مجلس رسول الله الا السرار أو أخا السرار .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع صوته لرسول الله بعد ذلك حتى يستفهمه وقال أبو بكر بعدها : والله يارسول الله لا أكلمك الا كأخى السرار (الهمس) وروى أن ثابت بن قيس بن شماس كان جهير الصوت أصم فلما نزلت الآية توهم من فرط الحساسية أنها نزلت فيه وقال : أنا الذى أرفع صوتى على رسول الله فأنا ممن حبط عمله . . . وأنا من أهل النار - ثم مكث كئيباً فى بيته منطوياً على نفسه ، وقد أغلق رتاج بابه وأوثقه وأصر على ذلك حتى يحكم الله فى أمره ، فلما افتقده الرسول بعث اليه فانطلق بعض القوم اليه فأنبأهم نبأه فأتوا النبى فأخبروه فقال الرسول : لا : بل هو من أهل الجنة . وفى رواية أخبروه أنه يحيا حميداً ويموت شهيداً ويدخل الجنة ، وقد صح ما أخبر به رسول الله فقد مات شهيداً فى حرب مسيلمة الكذاب بتأيمامة . . . وكان يحمل كفته وحنوطه معه يومذاك ويتأهب للقاء الله .

وقد قال فيه أنس بعد أن أخبره الرسول بأنه من أهل الجنة !! وهذا الكلام من أنس ينطوي على الثقة التامة بكلام رسول الله . . . وهكذا ارتجفت قلوبهم تحت وقع هذا النداء - وكان فيهم من فرط الذوق وشدة الحساسية ورقة الشعور ما يجعلهم دائما يتلمسون مواقع الرضا والسخط من رسول الله حتى لا يفعلوا ما يزعجه من قريب أو من بعيد - فتلك هي التربية المؤمنة . . . وكانت السماء لا تبخل عليهم بالتأديب اذا صدر منهم ما ينافي شيئاً من هذا الأدب الرفيع ، وقد روى أن أبا بكر وعمر بعد أن انتهيا وأعلنا تأديبهما في القول مع رسول الله نزل قول الله سبحانه : (ان الذين يغضون) .

فهكذا تتجاوب السماء معهم رقة كما تجاوبت معهم زجراً لتصلطهم صقلاً كريماً وتطهرهم من كل ما يمس الذوق الرفيع أو يصدم الشعور النبيل . . . وكذلك نلمح في هذه الآية الربط بين التقوى والأدب مع الله ورسوله لانه ثمرتها . . . ومن اتقى الله تأدب مع رسوله لا محالة .

وكأنما القوم لا يرضون الذوق الرفيع فحسب حين يتأدبون مع الله ورسوله . . . بل يتجاوبون مع التقوى ويرفضون رب العزة والجلال . أو قل ان ارضاء الله ورسوله هو الذوق في ذروته العالية - فما أروع أن يثبت القوم عليه فيصبح خلقاً لهم - ثم يستطرد السياق لينتقل بنا الى لون آخر من الأدب مع رسول الله وذلك قوله سبحانه : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات الخ » - ولقد وقع هذا الحادث من وفد تميم حين قدموا على الرسول في العام التاسع وهو عام الوفود بعد فتح مكة . . . حين أقبلت وفود العرب تعلن عن استسلامها لله ودخولها في الدين وكان هذا الوفد من الأعراب

الجفافة - فذهبوا الى بيوت أزواج الرسول في وقت حرج -
ونادوه بصوت مرتفع - وتسلاوا اليه من وراء الحجرات . .
وكانوا ينادون : يا محمد اخرج الينا فان مدحنا زين وسبنا
تسين - فكره النبي منهم ذلك وتأذى منه لأنه أمر يחדش
الحياء ويسبى الى الذوق فنزلت الآيات وهكذا يفرض القرآن
هذا الذوق على القبائل الرافدة دون أن يجاملها أدنى مجاملة -
و ينظر الى أنها جديدة . . لأن توقير الرسول أهم . . والنقطة
به انما تصدر عن توقيره والتزام الأدب في التعامل معه . . مما
ام تكن هناك مراسيم ذوقية تفرضها الآداب العليا - وبخاصة
مع القيادة الكريمة - التي تبذل وقتها كله في العمل من أجل
الجماعة وربما تكون في وقت راحة أو نوم . . فان الأمر يصير
أبى الفوضى . . فكيف تقتحم عليها المدخل ؟ وتنادى بمتل هذا
الذم من وراء الحجرات ؟ . . ولهذا الأمر أثره في صقل مشاعر
القوم وتربيتهم حتى يعرفوا للرسول حقه في أوقات الراحة . .
وتتبعه و يراه المسلمون وفهموا أنه يوحى بالتزام الأدب مع كل
الادات . . فنجاوزوا به شخص الرسول الى كل أستاذ أو
معلم أو خليفة أو قائد لا يزعجونه حتى يخرج اليهم . . وهذا
من أروع الحضارة القرآنية .

يحكى أبو عبيدة : « وهو المعروف بعلمه وذكائه وورعه »
عن نفسه بعد فهم هذه الآيات فيقول : « ما دقت بابا على عالم
قدما حتى يخرج في وقت خروجه » .

وبهذا تصنع السماء أذواق القوم . . فيتجاوبون معها
تأديبا وتنفيذا . ومن ثم فنحن لا نعجب كيف تم صنع
الاجزة ، فتحول القوم من غلظة البداوة الى قمة الذوق ؟ !

« يرتبط بهذا اللون من أدب « القيادات » قوله سبحانه في
سورة الأحزاب : « يأيتها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا

أن ياذن لكم الى طعام غير ناظرين اناء ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتثروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن (١) » ان هذه الآية تضع أساساً لتوقير بيت الرسول فما ينبغي أن يقتحم دون استئذان - كما لا يجوز أن يفرض أحد نفسه على مائدة الرسول دون أن يدعى اليها ، ومن دعى فليجب ، وأن هذه الدعوة ان تمت فما ينبغي التبرير بوقت طويل - وأن الطعام اذا انتهى فما ينبغي أن يطول المكث . . . وتشقيق الحديث بين المدعويين في أمور شتى لأن ذلك يخرج صاحب البيت . . . وانما طعام يعقبه انصراف ليسترىح الداعي - وأن التحدث مع أزواج رسول الله له قاعدة وأدب وهو أن يتم من وراء حجاب لأن ذلك أدعى للطهر وأنفى للشك . . . وأقرب الى روح التوقير والاجلال . . . ولا يحق لأحد أن يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين من بعده لأنها أمه . . . !!

سلسلة من الذوقيات الرفيعة ، تعلم القوم آداب المائدة - وذوقيات الدعوة الى الطعام - وحسن الأدب مع رسول الله . . . ولهذا التعاليم أثرها في بيئة بدوية لم تكن تعرف عنها شيئا . . . لأنها كانت تقتحم وتلح دون استئذان - وتحضر الطعام دون دعوة وهكذا من كل ما يصدر عن جفاوة الطباع . . . وما أحوج المجتمع اليوم الى رعاية هذه الآداب . . . فكم يلقي الداعي من عنق . . . عندما يدعو شخصاً فيبسط في المجدى الى درجة مؤسفه . . . ويظل بقية الضيوف في انتظاره . . . ثم يحضر بعد مضي ساعة من الدعوة . . . وقد يبكر فيحضر قبل ذلك بوقت طويل . . . وقد يحضر اليك من لم يخطر على بالك من غير دعوة وقد يكون الطعام قليلا !! وأقبح من ذلك فتح

(١) آية ٥٣ من سررة الأحزاب .

مجالات الكلام بعد الطعام . . . واذا كانت هذه الذوقيات أساساً
مع مولانا رسول الله فما أحرى أن تكون أدباً ملتزماً مع جميع
القيادات ومع كل الناس لتصبح رصيماً من أدبيات حضارتنا
القرآنية !!

ما أجمل أن نطلق هذه الذوقيات اليوم . . . الدعوة محدودة .
ومقيدة بوقتها . . . ولا كلام بعد الطعام !!

ومن الذوقيات الخاصة بالرسول وحده ألا تنكح نساؤه من
بعده توقيراً وتكريماً . . . ولأن كل واحدة منهن أم المؤمنين فهذا
تشريع يدخل في باب التوقير والاجلال لمولانا رسول الله . . .
ولأمهات المؤمنين !!

(ج) رعاية الحرمات :

للبيوت حرمة يجب أن ترعى - وقداسة ينبغي أن
تصان . . . فلا يحق لمسلم أن يقتحم بيت أخيه من غير استئذان
في الدخول - واذن من صاحب الدار . . . وما يجوز على الإطلاق
أن يفاجأ الناس بدخول الغرباء، خيفة أن تطلع الأعين على
خفايا البيوت وكم فيها من عورات . . . عورات الطعام واللباس
والكلام . . .

ولعل لذلك الاستئذان أثراً في تضيق فرص الغواية ، وقطع
دابر الفتنة . . . والقضاء على عوامل الشك التي يتزلزل لها
كيان البيوت . . . انها « ذوقيات أسرية » للحفاظ على كرامة
البيت المسلم : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم
حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم
تذكرون فان ، لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم
وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون

عليهم . . . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها
مناع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (١) » .

ففى جو هذه الآيات - نستشعر حرمة البيوت - وكرامة
الآدميين . . . فبيوتنا سكن لنا نفىء اليها لنجد الأمن والهدوء . . .
فتستقر الأرواح والنفوس . . . وهى لا تؤدى تلك الغاية الا اذا
كانت حرماً آمناً . . . لا يستباح بالاقتحام . . . ولا يدخل بدون
اذن . . . لان أعين الداخلين قد تقع على ما لا يحب صاحب البيت
أن يعرفه أحد . . . وقد يكون ذلك مباءة للفساد . . . بما يهىء من
فرص الغواية - التى تنشأ عن ذلك الولوج المفاجيء . . . ولقد
كان الجاهليون يفتحمون دون استئذان .

ويقول أحدهم : لقد دخلت . . . وقد تكون ربة الدار
مكشوفة . . . أو مع زوجها فى حالة لا يجوز أن ترى . . . وكان
ذلك يؤذى ويحرج كما يعرض النفوس للفتنة . . .

من أجل ذلك شرعت ذوقيات الاستئذان . . . على هذا النمط
العالى من حسن الأدب وتوقير البيوت والاستئناس فى الآية
والاستئذان . . . وكأنما يوحى التعبير القرآنى بطريقة
الاستئذان وأسلوبه ولطافته . . . حتى لا تفرع النفوس قرب
مستأذن عنيف يطرق الباب بقوة . . . أو يدق الجرس بعنف
وذلك كله ازعاج . . . وكأنما الآية تقول : استأذنوا بلطف
وايناس . . .

فان كان أهل البيت بداخله - وسمحوا لكم بالدخول
فادخلوا . . . فان لم يكن فيها أحد فلا تدخلوا : « فان لم تجدوا
فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة الثور .

فان كان أهلها بها وسمحوا فالفقوا عليهم السلام زيادة في
الأنس . . . وقولوا لهم : السلام عليكم أندخل ؟ فان سمحوا
فادخلوا . . . وان لم ييسمحووا فلا تلكؤ ولا انتظار بل انصراف
فورى « وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركى لكم » .

ولا ينبغي أن تستشعروا في الرجوع غضاضة فللناس أسرار
وأعذار . . . وهم الذين يقدرون ظروفهم « والله بما تعملون عليم »
فهو المطلع على ما في القلوب - من دوافع ونيات . . . وهناك
بيوت عامة كالفنادق - ومنازل الضيافة المنفصلة عن السكن -
فلا بأس بدخولها دون استئذان دفعا للمشقة [ليس عليكم جناح
أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم - والله يعلم
ما تبدون وما تكتمون] فما دامت النيات طيبة والدوافع كريمة
فلا بأس في الدخول والله سبحانه يعلم تلك الدوافع والنيات . . .
فصححوا قلوبكم تصح أعمالكم . . .

وما أجل تلك الذوقيات . . . وما أجدد أن تحييتها بدقة في
مجتمعاتنا الحاضرة . . . فقد يخيل أي أن الناس قد غدوا طفيليين
وكلما تقدم الزمن - قلت أذواق الناس - وقلت رعايتهم لتلك
الحالات الرفيعة من حرمة البيوت وكرامتها . . . وكم في البيوت
من أسرار . . . وأيسرها أنك في بيتك يجب أن تكون آمنا من كل
مباغنة وسطو . . . فكلامك وأثاثك وزوجك وحالاتك كلها
حرمات يجب أن تصان وتحفظ . . . والعجيب أن نلمح دقة
القوم في التطبيق - وحسن الاستجابة لله . . . فما كانت
ذوقيات نظرية - وانما غدت واقعا يعيشه الناس . . . وكم
نفتن بالغرب وحضارته حين نرى مراسيم الاستئذان والدخول
. . . وننسى أن ذلك قرآن يتلى . . . وآداب تلتزم . . . ومنهج
قد حققته التجربة العملية في حياة آباءنا . . . وانستمع الى
دقة التطبيق . . .

أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي عمر الأوزاعي
 بإسناده عن قبيس بن سعد بن عبادة قال : زارنا رسول الله
 في منزلنا - فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد
 خفياً (١) - قال قبيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ؟ فقال :
 دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ثانية : السلام
 عليكم ورحمة الله فرد سعد خفياً ، ثم قال رسول الله الثالثة :
 السلام عليكم ورحمة الله . . . ثم رجع رسول الله واتبعه
 سعد فقال يا رسول الله : انى كنت أسمع تسليماً وأرد عليك
 رداً خفياً لتكثر علينا من السلام قال : فانصرف معه رسول
 الله : وأمره سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصه - أى ثوب
 من خز أو صوف - مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم
 رفسح صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل
 صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . . . فأنت ترى أن
 الرسول سلوات الله وسلامه عليه ينهض بتطبيق الآية فيرجع
 حين لا يسمع الاذن الصريح بالدخول . . . وأنت ترى سعداً
 ظميراً يريد أن يظفر من الرسول بالسلام الكثير حتى تحدث
 البركات . . . وأنت ترى الرسول يدخل حين يلحقه سعد فيبرر
 له الأمر . . . وأنت تحس أن الدعوة الحارة التي صدرت من
 الرسول آل لسعد وآل بيته إنما هي بسبب فقهه ورغبته في دعاء
 الرسول وحياته الذكية التي تجلت في الرد الخافت ليظل
 الرسول يسلم عليه . . . وهكذا بدأت القيادة الكريمة بتنفيذ
 الأمر . . . فكان سلوكاً للقوم .

وقد روي أن رسول الله كان يأتي الدور من ركنها الأيمن
 أو الأيسر ولا يستقبل الباب من تلقاء وجهه وذلك رغبة في
 التوقى كيلا تقع العين على شيء . . . لأن الدور لم يكن عليها
 مستور .

(١) خفياً : أى بصوت خفيض .

وفي الصحيحين : لو أن انسانا اطلع عليك بغير اذن
فحذفته (١) بحصاة ففقت عينه ماكان عليك من جناح - وقال
هشيم - قال مغيرة - قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد
آذاه الرمضاء فأتى فسطاط (٢) امرأة من قريش فقال السلام
عليكم أدخل ؟ قالت أدخل بسلام فأعادت وهو يراوح (٣) بين
قدميه قال قولى : ادخل قالت : ادخل فدخل . انه الاحتياط
والتدقيق . . فهو لم يفهم من عبارتها الأولى الاذن الصريح
ولهذا توقف حتى سمعه .

وجاء في الصحيح عن رسول الله أنه نهى أن يطرق
الرجل أهله طروقاً وفي رواية ليلا يتخونهم (٤) وفي رواية أن
رسول الله قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال : انتظروا
حتى تدخل عشاء يعنى آخر النهار حتى تمشط الشعثة -
وتستحد المغيبة - أى تتطيب من الشعر الداخلى .

فهذا من الذوقيات العالية . . التى لا تفاجىء المرأة وهى
غافلة أو نائمة لأنها تحب أن تتزين لزوجها ومن ثم
فالاستئذان على الأهل والاخوة واجب أيضا لان أحداً لا يجب
أن يرى واحدة منهن عريانة فأين هذا مما نحن فيه اليوم ؟ . .
ربنا ألهمنا الحكمة والسداد حتى نطبق ذوقيات قرآنا . .

لكن الخدم من الرقيق - والأطفال المميزون الذين لم
يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان الا فى أوقات ثلاثة . .
فانهم يستأذنون فيها : هى الوقت قبل صلاة الفجر حيث
يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها فيلبسون

(١) حذفته : قذفته ورمىته .

(٢) فسطاط : خيمة أو شىء يشبهها .

(٣) يراوح : تعبر بفيد التردد لأن الاذن غير صريح .

(٤) يتخونهم : يظن بهم الخيانة كما فى القاموس .

ثياب الخروج - ووقت القيلولة عند الظهر حيث يخلعون ملابسهم عادة ويلبسون ثياب النوم وبعد صلاة العشاء لما مر وسماها القرآن « عورات » لانكشاف العورات فيها - في هذه الأوقات يستأذن الخدم والصغار المميزون لثلاث تقح أعينهم على العورات . . . ولذلك أثره في تربية الطفل سليمة حتى لا يرى ما لا ينبغي فيترسب ذلك كله في شعوره فما أرق التربية وما أنظفها !!

وقد سمي القرآن هؤلاء « طوافون » لأنهم اعتادوا الدخول . . . وترددوا على البيوت . . . وتلك رحمة من الله . . . حتى تطرد الأمور ببساطة . . . ولا يحصل العنت . . . وفي هذا يقول ربنا سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات الخ (١) » .

(د) ادب التحية :

من ذوقيات الحضارة الحديثة اهتمامها بالتحايا - والقائوا في الصباح والمساء، وفي جميع الأوقات بألفاظ معينة . . . وابتكارها لكل جديد من الاساليب وجميل من الكلمات . . . ولاشك ان للتحية أثرها في الدلالة على نضارة العواطف ، ورقة المشاعر - وحيوية الأمة . . . بل ان التحية المتميزة تحمل شخصية الأمة - وتدل على تقدمها الحضارى . . . والاسلام بنظر التحايا كلها على أنها مجاملات تبتعد عن روحه . . . وتتفصل عن طموحه . . . ويشتق من كلمة « الاسلام » تحية كريمة تحمل معنى الحب والأمن والوداد . . . ومن في الدنيا يكره السلام أو يزعج فيه ؟ ! . انه تحية نابضة بكل المشاعر

(١) الآية ٥٨ من سورة النور تحمل هذا المعنى وتؤديه ،

الطيبة زاخرة بشتى العواطف الكريمة ، تحمل خصائص هذه الأمة وروحها . . . ورغبتها في السلام . . . وما أجمل ذلك اللحن العذب . . . والدلالة الكريمة التي تفيض من قلوبك لأخيك المسلم « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . . . انها تفتح مغاليق القلب - وتفجر أغرز ينابيع الحب . . . وهى فى الوقت نفسه تعبير عن شخصية الأمة المسلمة - وعن روحها فى دعم السلام . . . فتحيتها السلام . . . ومسايعها للسلام . . . ووجهتها السلام «بأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة (١)»

« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا (٢) » . . . انها رمز الايمان ودليله . . . وبرهان الحب وسبيله . . . ويكفى أنه اسم من أسمائه سبحانه . . . وهى تحية أهل الجنة . . . وهى اسم للجنة ما أجمل أن نتمسك بهذه التحية . . . وأن نعلمها لأولادنا - وأن نذيعها فى مجتمعاتنا . . . يقولها الرجل للرجل - والمرأة للمرأة - والرجل للمرأة . . . والفتاة للفتاة . . . وهكذا نهتف بأنغام السلام لنكون من أهل الاسلام . . . ولقد كان الجاهليون يقولون فى تحاياهم : عم صباحا - عم مساء - أبيت اللعن - فلما جاء الاسلام طوى كل هذه التحايا وأحل محلها تحيته الكريمة - التى تحمل اسمه - واسم الله - واسم الجنة فما أجلاها من تحية وما أسماها من مجاملة !!

ولقد طبقها الصحابة فى مجتمع النبوة - وبعده تطبيقا حسنا فما كانت هناك تحية تزاحمها . . .

ونبض بها قلب الحياة - وخفق شعورها . . . ولكننا نعيش حتى نسمع على لسان الشباب المسلم اليوم تحايا ما أنزل الله بها من سلطان . . . وهى تعبر عن عقدة الضعف

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة .

(٢) آية ٩٤ النساء

والهزال التي تتسرب الى الشعوب المستعمرة . . أو المنحلة .
ينسون ذوقياتهم الرفيعة ويرددون غيرها ترديدا أبله . .
وفي هذا يعلمنا ربنا لفظ التحية - وأدبها - كذوق رفيع
ينبغي الحرص عليه فيقول سبحانه :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن
الله كان على كل شيء حسيبا (١) »

فالمسلم مهما يلق اليه من التحايا . . يكون رده : وعليكم
السلام ورحمة الله وبركاته . .

بدء السلام سنة ورده فرض . . والزيادة في الرد مطلوبة
قصدا الى الفضل . . فان لم يتيسر فرد التحية بمثلها . .
ولكن شخصية المسلم لا تنمخ ولا تجرى وراء تحايا ما أنزل
الله بها من سلطان وتحيتنا كلها رقة وذوق وجمال من قال لنا :
السلام عليكم قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
أوردنا تحية بمثلها . . وأنت مخير بين العدل - والفضل . .
والفضل أولى وأكرم . . وما دام له فضل لبدء فليكن لك فضل
الزيادة .

(هـ) تفسحوا في المجالس :

من ذوقيات حضارتنا الرفيعة - أن يتفسح المسلم لأخيه
المسلم في المجلس - مجلس العلم - أو مجلس الرأي والفكر -
أو أي اجتماع يكون مزدحما بالناس - وقد طبقها الرسول
وصحابته تطبيقا رائعا على سماحة أرواحهم واتساع
مشاعرهم ورحابة نفوسهم . . فما كان أحدهم يجلس الا حيث
انتهى به المجلس . . لئلا يزحم الناس ويتخطى الرقاب . .
لكن المكان الضيق يمكن أن يتسع اذا اتسعت الأخلاق - ولهذا

(١) آية ٨٦ - سورة النساء .

كانوا يفسحون لآخوانهم - ويجلسونهم بجوارهم - أو يتخلون لهم عن المكان أن كانوا كبارا . . . وعندما يفسح المسلم لأخيه المسلم في المكان فإنه بذلك يحترم إنسانيته - ويوقر العقيدة التي جمعتها في رحابها - ويوقر ربه بامتثال أوامره ويدل بذلك على نبل شعوره وبسطة عواطفه : لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق .

فالمشكلة ليست في الأماكن المادية - بل في الأخلاق النفسية . ولهذا وجدنا القرآن يهتم بها وينزل بشأنها . . . كخلق عام يكون الذوق الإسلامي الرفيع . . . وكم في الإسلام من تشريعات اجتماعية تدل على رقة الذوق وسلامة القلب - ونبل الأحاسيس يقول ربنا :

(يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبير (١)) .

وقد كان القوم يتسابقون في الاقتراب من رسول الله ويزدحمون من حوله في مجالس العلم .

قال قتادة : كانوا إذا أراد أحدهم سبقا جلس - وضمن بمجلسه عند الرسول فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل : نزلت الآية يوم الجمعة - وكان الرسول في الصفة وهي مكان ضيق - وكان من عادته أن يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم وقد سبقوا إلى

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

المجالس فوقفوا حيال رسول الله وقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم وظلوا وقوفا فلم يفسح لهم أحد ، ورآهم النبي ، وعرف ما يحملهم على القيام ، فتولى هو فسح المكان فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهد بدرا : قم يا فلان وأنت يا فلان فلم يزل يقيمهم حتى أجلس الواقفين . . فشق ذلك على من قام . . وعرف الرسول ذلك في وجوههم . . وانتهز المنافقون الفرصة لينفسوا عن حقدهم بالنقد والتجريح فقالوا للمسلمين : أستمتم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ، والله ما رأينا قد عدل مع هؤلاء . . ان قوماً قد أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم فبلغنا أن رسول الله قال : «رحم الله رجلا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لآخوانهم فنزلت يوم الجمعة . .

وهذا السبب معقول . . ولا ينافيه قوله عليه الصلاة والسلام : [لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا (١)] ولا ينافيه أيضاً استقرار القادم حيث ينتهي به المجلس فلا يتخطى الرقاب ليأخذ مكان الصدارة لأن الذي تم في هذا المقام كان بأمر الرسول فهو تشريع . . والواقفون لم يقيموا أحدا ولا رغبوا في ذلك وإنما قام الرسول عنهم بذلك - بما فيه من شفافية ورقة . . والتقصير إنما كان من الجالسين - ولهذا لقنهم درساً في الذوق . . وفي تصرف رسول الله . . ما يوحى بأن الأحفال العامة يجب تنظيمها . . وأن يوجد فيها من يقيم الناس في أماكنهم - وفيه احترام نوى العلم - والفضل - والسنن

(١) في رواية الصحيحين .

بتقديمهم وفسح المكان لهم . . وفيه أن المبادرة بفسح المكان
لو تمت من الجالسين لكان أفضل . . فمتى رجب القلب فقد
انحل الاشكال - ومتى ضاقت النفوس والأخلاق ساد
الشح . . وتشبت كل واحد بمكانه لا يرعى حرمة كبير ولا
سابقة أولى الفضل ولا كرامة أهل العلم . . وانظر معى في
قوله سبحانه : [تفسحوا يفسح الله لكم] انها تعد بتواب
رائع وهو توسيع الله عليهم توسيعاً عاماً في القلب والنفوس
والخلق والدنيا والآخرة . . وكذلك قوله : [يرفع الله الذين
آمنوا منكم الشح] يعد أيضاً بالرفعة والسمو لمن يترك مكانه
لأخيه فأما قوله : [والذين أوتوا العلم] فمعناه أن العلم ينبع
سرخى للذوق السليم - وأن مبادرة القيام لشخص ما . .
لا تصدر الا عن علم ومعرفة . . فأما الجهالة فليست مصدر
ذوق بل مصدر فظاظلة وغلظة .

وبنزول الآية . . تبطل كلمات المنافقين . . كما تأخذ
المسألة وصفاً اجتماعياً ذوقياً له خطورته لأنها أصبحت
تشريعاً وقانوناً . . وهنا لابد أن نشير الى أن التعاليم
الذوقية التي تصقل مشاعر المسلمين لها أعظم الأثر في خلق
مجتمع موحد تتجانس ذوقياته ومثالياته وتنطبع شخصيته
بطابع واحد فاذا كان أفق الحضارة عالمياً كما وضحنا فمعناه
أن ترتبط الأسرة الانسانية عالمياً بتقاليد ذوقية محددة تصنع
منها وحدة رائعة على المستوى العالمى - وقد توحدت فعلا
مشاعر القوم وأذواقهم وأعمالهم حين توحدت مصادر الهامهم
فصدر عنهم العلم والفن والحكمة والفلسفة والجمال بشكل
متجانس - وأسلوب متشابه . . لا تجد فيه عوجاً ولا أمتاً . .

يقول الفيلسوف اقبال : [ان ثبات العرف الذى ليس له
خطر اجتماعى كبير كالعرف المتعلق بالأكل والشرب والطهارة

والنجاسة يكون له في تطور مجتمع كالمجتمع الاسلامى قيمة حيوية خاصة تجعل له حياة نفسية متميزة - لأنه يكفل لأفراده الانسجام والوحدة في الظاهر والباطن حتى يقاوم عوامل الفرقة بين أوقاض شتى من مجتمعات متنوعة مختلفة ومن هنا يجب فهم مرمى التجربة الاجتماعية التي يرمى اليها الاسلام من حيث قصدها الأكبر الذي يسرى في الانسانية عامة حتى الذوقيات تصبح وحدتها مظهراً اجتماعياً رائعاً يؤلف بين هذه العناصر تأليفاً متناسقاً ينفع ولا يضر | •

أقول : فكيف اذا كانت ذوقيات الاسلام تشريعاً صادراً عن الله • • وتجربة عاشها رسوله ومن معه من الصحابة انها حينئذ تأخذ من عمق التأثير أكبر مما ذهب اليه اقبال من انها تنفع ولا تضر • • بل انها حتما تنفع وتوحد - وتخلق عالماً راقياً نظيفاً • • له طابع واحد • • وتسرى فيه نغمة واحدة وهو مجتمع متجانس الروح والمادة - متشابه الخلق والسلوك - متناسق الظاهر والباطن • • متمثل الأعمال والعادات والتقاليد والذوقيات • • فاذا جئنا بعد ذلك الى الحضارات الحديثة - وجدنا أنها تعطى هذه الأمور عناية كبرى • • وتجعلها مراسيم مرعية - وذوقيات واجبة • • فاذا قارناها بذوقيات حضارتنا اتضح أننا نملك من التشريعات الذوقية مالا يملكه سوانا • • وأنها تصدر عنا على أنها عادة ودين ، وتصدر عن باعث العقيدة والايمان • • وتحصل القدوة برسول الله وكفى بذلك قوة لها وتجديداً واستمراراً في الحياة - على أن معظم ما يروقنا من مظاهر ذوقيات الغرب مأخوذ منا يوم اختلطوا بنا هنا وهناك • • ولم يكن لديهم تقدم ولا ذوق • • بل كانوا يتسترون

بشعورهم ويمشون كالأنعام على أيديهم وأرجلهم – ويعدون
النجاسات زهداً وورعاً . . . في هذه الحقبة من حياة القوم
اتصلوا بنا . وأخذوا عنا . . . ثم طوروا التجربة . . . ونموها
. . . فازدهرت ثم أثمرت عندهم !!

أما نحن فنسينا . . . واستمرأنا النسيان فأصبنا بشيء
من فقد الذاكرة ثم جئنا نقلد القوم . . . وما شعرنا أنها
بضاعتنا ردت إلينا . . .

كم كنت مشوقاً إلى أن نمضى مع تشريعات الذوق في
حضارتنا حتى أترجم عن معظمها . . . ولكن الوقت لا يتسع –
والبحث لا يحتفل . . . وحسبى أنى أشرت إلى كتاب يأخذ
هذا العنوان « من ذوقيات حضارتنا » ثم يقدم إلى الحياة التي
فقدت ذوقها في غمرات الصراع المحموم . . . وللمسلمين على
اختلاف ديارهم ليعلموا أن رصيدهم ضخم في هذا المجال وكم
أحب أن يترجم كتاب كهذا ويقدم للغرب ليذكر ان كان ناسياً
أن مايعده اليوم حضارة ذوقية هو من رصيد المسلمين ومن
وحي كتابهم المنزل . . .

وقد يعيننى الله فأقوم ببعض هذا الواجب !!

الباب الخامس

الحضارة القرآنية بين المد والجزر

عهد البقاء والتأسيس : عاش المسلمون عهد النبوة ببناء لهذه الحضارة القرآنية يشيرون صرحها بالجهد والعرق - ويحملون حماها بالنفس والروح ، ويخودون عنها بالسواعد الفتية . . . ويلتفون حول رائدهم العظيم ليتلقوا منه عن الله أزكى التعاليم . . . فاذا نزلت آية سارعوا فتمثلوها . . . ثم أقبلوا على أنفسهم فطبقوها - وعلى الحياة من حولهم فجسدوها . . . لا يشذ منهم أحد ولا يتخلف انسان .

وكان هيكل حضارتهم يكتمل رويداً رويداً على أناة ومهل . . . حاربوا الشرك حتى تزلزلت أقدامه ثم انطوت أعلامه . . . وتحملوا في سبيل بناء حضارتهم ضروبا من الأذى والعذاب دون أن يفتنهم ذلك أو يصرفهم عن دينهم . . . تحملوا حرب التجويع بأقصى مايحتمله الأنام . . . حتى أكلوا ورق الشجر . . . وصمدوا لحرب الأشاعة والتضليل . . . حتى قذف الله بالحق على الباطل . . . واتجهوا الى أقاصى الدنيا فراراً بعقيدتهم وتفرقوا في أرض الله فجمعهم الله بفضله وحوله . . . وهانت عليهم في سبيل عقيدتهم أموالهم وأرواحهم وأولادهم فباعوا كل ذلك لله - رائدهم قول ربهم : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم (١) » .

(١) آية ١١١ سورة التوبة .

ثم تحركوا في العالم كله لدعم قضيتهم فاكتمست قوة . .
ووضح حقهم بعد أن كان باطل قريش سائداً . . ذهبوا الى
النجاشي وشرحوا أصول دينهم . . فقبل منهم . . واقتنع
بحديثهم . .

وطرد وفد قريش الذي جاء ليتسلمهم . . ويردهم الى
قبضة الشرك . . ثم كانت بيعات كريمات لدعم القضية ثم
استقبل الرسول الوفود . . وكاتب الملوك . . لتوسيع قاعدة
الاسلام وبسط رقعته . .

وكسب أنصاره . . وقد أثرت كل هذه الأمور في دعم
القضية . . ولم تكن هجرة الرسول الا ضربا من التضحية في
سبيل العقيدة . . وما كانت هجرة أصحابه الا تطبيقاً لذلك
المبدأ . .

ولقد ضحوا . . حتى بالوطن . . لأن أوطانهم في نظرهم
حيث تعز عقيدتهم . . ولم يكن ترك مكة سهلا عليهم . .
فقد وقف رسول الله يودعها بالعاطفة الجياشة يقول [أعلم
يامكة أنك أحب بلاد الله الى . . ولولا أن قومك أخرجوني
ماخرجت] . .

ولقد مرض الصحابة المهاجرون . . وبدا عليهم الضيق
النفسي . . فدعا لهم الرسول بأن يحبب اليهم المدينة كما
حبيب مكة . .

والواقع أن الهجرة عمل ايجابي . . حتى يتم بناء قاعدة
الاسلام بعيداً عن الشرك والوثنية . . ولم تكن مسلكاً
هروبياً . . ولا سلبياً - لأنها تحمل من بطولة النفس فوق

ما يعرف الناس . . وكيف تكون هروباً أو جبناً . . وقد
ضحى القوم فيها بديارهم وأرضهم وممتلكاتهم . . وأموالهم
. . حتى ليروى أن صهيباً . . عندما أراد أن يهاجر قالت
قريش : جئتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك واليوم تريد أن
تتركوننى ؟ قالوا : نعم قال : فانى قد تركت مالى . . فتركوه
يهاجر هكذا تهون الأموال والانفس فى سبيل العقيدة . . ثم
هى احتمال فوق المعقول من حيث ان القوم معرضون للحاق
قريش بهم . . وتمزيقهم كل ممزق . . حقاً انها لتضحية
تمنح القدوة لأصحاب المبادئ والمثل والرسالات . . ان
الهجرة عمل بطولى يخضع كل شهوات النفس لحكم الله . . .
وتمضى الهجرة بأصحاب رسول الله فى مد متتابع لا تتوقف
ولا تتلبث . . لأن عقيدة القوم قد نزع الخوف من قلوبهم
وبهذا تم الاستيطان فى بلد آمن . . يمكن للعقيدة أن تتنفس
فيه . .

ويمكن للدولة الجديدة أن تشهد ميلادها على أرضه . .
ويمكن كذلك بناء الجيش وتمهيد السبل وتخطيط المجتمع . .
والاستعداد للفتح الأكبر بالانقضاء على مكة عاصمة
الوثنية . . وتخليص الضمير البشرى من الشرك والجهالة وهذا
هو الذى حدث . . وما كان الرسول ليدع مكة يتبجح فيها الباطل
. . ويتوقح الكفر . .

وتترعرع الجاهلية . . ولكن اقتضت خطته الحاسمة
بل حكمته أن يعاجل الوثنية بضربة قاصمة حين زحف عليها
فى العام الثامن الهجرى فدخلها مسالماً . . ولم يقتل . . ولم
يسفك دمآ . . وأعلن الرحمة العامة لا الملاحمة الدامية . . ثم
وقف على باب الكعبة يعلن العفو العام ويقر مبادئ الاسلام
والواقع أن حضارة العالم كله قد تفجرت عن المدينة . . فقد

شهدت تجربة الاسلام الكبرى تتحول على أرضها الى واقع وسلوك . . . فمنها زحفت جيوش الايمان لتضع حداً للعتاة المجرمين . . . ولتقر العقيدة في أرض الله . . . ومنها تفجرت قيم الحياة وأسس المعرفة - وفي مسجدها تم تهذيب جند الله على الجهاد . . . هكذا شهدت الحياة ألواناً من النشاط الحضارى يدب في هذه البقعة من الأرض . . . ورأت نوراً ينبثق من ذلك المكان . . . ثم مالبت النور أن ترامى ومالبتت التجربة أن انداحت واتسعت لتغمر العالم كله بل الحياة بأسرها .

وقفة أمام السواعد الفنية :

والمهم أن نقف ووقفة تأملية أمام أروع ظاهرة اجتماعية في الوجود لنرى كيف بنيت أول مدنية في العالم لتنقذ الحياة من الجهالة . . . ولتضع حداً للاستبداد والطغيان ولتعظن أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله . . . نعم نقف ووقفة خاشعة أمام القوم الكرام وهم يبنون حضارتهم بسواعدهم وايمانهم - ويترجمون كل آية تنزل من السماء الى عمل مثمر خلاق - ويحدثون أثراً عملياً تهتزله الدنيا . . . انها محاولة التغيير الرائد في مجتمع المدنية أولاً ثم الانطلاق بتلك التجربة الى مكة وغيرها من بلاد الله الواسعة لتسترد الحياة كرامتها - وتلتقط البشرية أنفاسها وتتحرر ارادتها من قبضة الجبارين فلا خضوع الا لله ، ولا سلطان الا لحكمه ، ولا تفاضل الا بالتقوى ، ولا مجد الا بالاسلام . . . لاعصبية - ولا طائفية - ولا جاهلية . . . بل مجتمع متساند ترعى فيه الحقوق وتؤدي الواجبات ويحكم القرآن .

ولقد مارس أصحاب رسول الله بناء هذه التجربة بهمة واقتدار بدعوا فأسسوا المسجد - وبنى فيه رسول الله بنفسه -

وقاد أصحابه بحزم العمل والقيادة معاً • • وكان ذلك ايذاناً
بانطلاق المدنية الجديدة من المسجد • • لتغمر العالم كله • •
وقد اتخذ الرسول معبداً للصلاة ، ومجمعا للتشاور ، وملتقى
لدارسة • • ومعهداً للعلوم • • ومنطلقاً للجيش • • ومقراً
للتشاور في كل أمر خطير • • ثم أصلوا مبدأ الشورى فكانت
سياستهم تقوم عليها وتستند اليها • • ولعلها أول تجربة
« ديمقراطية » يعرفها العالم وقتذاك • • وهل كانت الشعوب
من قبل تستطيع أن تدلى برأيها • • أو تشير على قاداتها
وزعمائها ؟ ! لقد كانوا عبيداً للملوك • •

ولقد شاءت تجربة الشورى أن تجعل القوم أحراراً يدلون
بآرائهم مع رسول الله • • ثم مع القيادات المؤمنة من بعده • •
وبذلك تحررت الحياة من رق الرؤساء والزعامات المستبدة •
•

وقد قاموا بعمل اقتصادي رائع حيث وزعوا الأرض ،
وحرروا التعامل من الربا الذي أشاعه اليهود • • ووزعوا الماء
بالتساوي وملكوا الأرض الزراعية لمن يزرعها • • وأطلقوا
نظام التعامل الاسلامي ليأخذ وضعه في مجتمع المدنية فالبيع
والشراء ، والتجارة والقراض يترجم الى نظام اقتصادي رائع •

ثم أعلنوا الحرب على الجهالة فتعلموا • • وتهذبت
مشاعرهم يذكىهم رسولهم • • ويتقفهم نبيهم وتصدر عنهم
الروائع في هذا الباب •

ثم يحلون كل المشكلات في هذا المجتمع بروح القرآن • •
 واجتهاد الرسول وصحابته •

فلا استغلال ، ولا ظلم ، ولا احتكار ، ولا تعطل • •
السواعد كلها تعمل ، والأيدى تتحرك • • ويجعلون العمل هو

شعار المجتمع . . فيقبل الجميع عليه ، يدفعهم نبيهم ،
ويستحثهم قرآنهم فتزدهر الحياة بجهادهم . . ويصبح
الكسل عاراً والقعود عن العمل مهانة . . ويأخذ العمل وضعه
في هذا المجتمع . . فهو حياة وهو كرامة وهو شرف .

ويكافحون الفقر والجهل والمرض وكل المشكلات بسماحة
الايمان وسخاء النفوس ، ودافع العقيدة . . ولقد اعطى
المجتمع الجديد أكثر مما طلب منه فتقاسم الأنصار مع
المهاجرين الدور والثمار والنساء مما لم يسبق له وجود في
التاريخ .

ويصف رسول الله نبلهم وسماحتهم بقوله : [ان
الأشعريين كانوا (١) اذا أرملوا في الغزو أو قتل طعامهم بالمدينة
جمعوا ما عندهم في ثوب واقتسموه بينهم بالسوية فانا منهم
وهم مي] .

وكم من تجربة حديثة تريد أن تهتدى الى حل لمشكلة
الفقر . . فلا تستطيع . . لأنها لا تعتمد على العقيدة ، ولا
ترتكز على سماحة النفوس . . ولنتلفت من حولنا لنعرف
ماذا فعل العالم الحديث بمشكلاته الاجتماعية - وعلى رأسها
الفقر - والبطالة ؟ !

واتسعت تجربة القوم لتشمل الشئون العسكرية فقد
ارتفعت قوة الجيش المحارب من نحو ثلاثمائة في غزوة بدر الى
ثلاثين ألفاً في تبوك العام التاسع للهجرة ، وارتفعت قوة
الفرسان من اثنين في بدر الى عشرة آلاف في تبوك . . ثم

(١) أرملوا : فرغ زادهم أو قارب ، والحديث مروري عن ابي موسى
وهو متفق عليه ورواه النسائي .

تتطور القوة وتتصاعد الى جيش قادر قوى على الردع والتأديب والقمع . . . ويتسع مجال الخبرات فيتحرك الشباب الى جرش لتعلم استعمال العرادات والمجانيق ، والدبابات ، ثم تمضى التجربة حتى تأخذ حجمها الكبير في عهد عمر ، وقد سيطر القوم على طرق القوافل كلها ما بين الحجاز واليمن جنوبا وما وراءه في أرض الحبشة والشام ومصر في الشمال الغربى وأرض فارس في الشمال الشرقى .

انها دراسة تخطيطية منتظمة لما تتطلبه الدولة العصرية الرائدة من وسائل واستحكامات لتنتقل منها القرارات الهائلة الى عالم أرحب يقوم على الايمان والعلم .

مع أبى بكر :

جاء بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه رجال عظماء . حملوا عبء الجهاد . . . ونهضوا بكل الواجبات . . . لأن الرسول قد رباهم على القرآن وصنعهم على عين الله . . . وهم خلفاؤه .

فنهض أبو بكر بالتبعية واستقام معه سير الحضارة وانطلقت جيوش الاسلام في عهده تقضى على المتمردين - الذين فهموا أن الفرصة سانحة بموت الرسول . . . ليتحللوا من الزكاة أو يعطلوا أحكام الله ويرتدوا عن الاسلام . . . أو تراودهم المطامع الخسيسة أن يكون لهم الأمر - أو يكون لهم من الملك شيء . . . كما فهموا . . .

وكانت هذه الانتفاضة الشرسة بل الردة المجرمة من بعض العرب اختباراً قاسياً لصلابة البناء الحضارى الذى أسسه رسول الله . . . وامتحاناً لقدرات العهد الجديد . . . ولكن

الحقيقة الكبرى أن هذه الحضارة لا ترتبط بالأشخاص بقدر ما ترتبط بالمبادئ « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل (١) » ولئن كان محمد قد أسس وأنشأ . . فقد جاء تلاميذ محمد ليتموا البناء . .

ان سير الحضارة الالهية لا يرتبط بموت أحد ولا بحياته فالشريعة باقية - والله حي لا يموت وماهو الا أن نهض أبو بكر بالأمر . . يقوده حزم الايمان - وحزم السياسة والرأى . وعبقرية القيادة فيمضى جيش أسامة كما قرر رسول الله قبل مماته . . مهما تكن الظروف ويقول في اصرار في مواجهة من يعارضه : والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو أن الطير تخطتنى والسباع من حول المدينة - ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين جهزت جيش أسامة ! « وبهذا الاصرار . . نفذ بعث أسامة .

ثم ودع أسامة بنفسه وهو ماش على قدميه . . وشيع تلك البعثة . . وانه لمنظر عجيب حقاً . . الخليفة يمشى . . وأسامة يركب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجوار الصديق .

ويقول أسامة متحرجا : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن فيقول الصديق : والله لا تنزل ولا أركب وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة !!

ثم يقول لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ولا تنصرن ولقد كان الصديق على حق في توجيه تلك البعثة التي كانت تعبر عن خلق الطاعة والالتزام بما أقره رسول الله ولئن

(١) آية ١٤٣ سورة آل عمران .

كان أسامة صغيراً وفي الجيش من هو أكبر منه فان رسول الله هو الذى وضعه ذلك الوضع . . فلا بد له من حكمة !!

ولئن كان بقاء الجيش بعد موت الرسول بالمدينة واجباً لدفع خطر الردة فان تسييره أيضاً واجب لدفع خطر العدو الخارجى . .

واذا كانت الدولة تستقبل بعد وفاة الرسول عهداً جديداً فما ينبغى أن تظهر أمام العدو بالضعف لابد أن تلقى الرهبة فى قلب الروم . . وتقمع المرتدين فى وقت واحد لذا كان كلا الأمرين لازماً . الاول لتأمين سلامة الدولة من الخارج والثانى لقمع الفتنة من الداخل . .

أما حرب المرتدين فقد واجه معارضيه بقوله : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال [. . ولقد سككت الأصوات المعارضة بعدها ومنها صوت عمر وثابت الى الرشد . . ثم كانت الانتصارات فى الميدانين كليهما . . جيش أسامة يعود وقد أدى رسالته من القاء هيبة الدولة - وحروب الردة تكمل بالنصر .

يقول الأستاذ العقاد : | واذا حسبت (١) لابي بكر بعوث أسامة وبعوث فارس والروم فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل فى باب البعوث ولكنه أقوم للدولة الاسلامية من جميع البعوث لأنه دستور هذه الامة الذى لانتقوم لها قائمة بغيره وهو جمع القرآن . .

ويقول : « خلاصة ما يقال فى سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال

(١) ص ١٥١ عبقرية الصديق العقاد طبعة دار المعارف مصر .

الذى يصغى (١) الى النصيح ممن يرون التصرف والتمييز
والاقتداء . . فهو ليس اقتداء الضعف بل ربما اقتدى بالرسول
ليفعل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعية من أعمال
المتصرفين « - وهكذا اكتسب الاسلام سمعة سياسية ونال
مكانة عالمية . . وشاع أمره بين الروم والفرس . . واتجهت
الجيوش صوبهما . . وثبتت قوة البناء الجديد الذى لم تهزه
عواصف المرتدين . . وهى خليقة أن تهز أعظم الدول وأقوما . .
وبذلك ترجم الاسلام عن شعار رائع . . هو أنه دين
القوة فعلا . .

مع عمر : أوقمة الحضارة :

وفى عهد عمر تأخذ التجربة الحضارية امتدادها الرائع . .
وتبلغ قممتها . . فالفتوح تتسع والرقعة تنداح . . والحضارة
الاسلامية تفرض نفسها على الحياة . . وحضارة الفرس
والروم تتهاوى أمام ضربات الدولة القوية . . وتأخذ الشريعة
وضعها من التطبيق الواعى . . لتقود عالمًا فسيح الرقعة
واسع الجنبات . . وتأتى الغنائم من هنا وهناك بعد أن يفتح
الله على المسلمين . . ويأخذ الاجتهاد وضعه فى الحضارة
القرآنية ليلاحق قضايا العصر ومطالب الحياة الجديدة . .
ويضيف عمر الى الفقه الاسلامى ثروة من اجتهاده وفكره . .
ويكون المجالس المتخصصة . . وهو عمل حضارى سابق
لأوانه . . فهذا مجلس حرب يتبع القيادة العسكرية - وهذا
مجلس للاجتهاد فى الأحكام . .

وهذا مجلس قيادة - وهذا مجلس الشورى . . ومجالس
الحسبة . . الخ . . ما استحدثه عمر وتتحول الأمة كلها الى

(١) ص ١٥٠ المرجع نفسه .

جيش مقاتل وينشط عمر بذكائه ومافيه من استعداد للقيادة ليكافح الفساد في كل موقع ويوجه الأمة في كل اتجاه . . فهو يضع خطط الحرب بنفسه الى الحد الذي يجعل رستم قائد الفرس يعترف بأنه يهزم بخطط عمر . . وهو يحاسب الولاة ويطلبى عليهم قوانين صارمة لتستقيم الأمور في تلك الدولة العريضة . . وهو حيناً يقاسم الولاة - وحيناً يصادر أموالهم التي جمعوها ويعاملهم بمبدأ من أين لك هذا؟ وهو يؤمم أرض السواد ويضع نظاماً للأعطيات . . ومجلساً لرعاية أسر الجنود . . ومن أقواله في ذلك يخاطب الجند : [أنا أبو العيال حتى ترجعوا] .

وينشئ بعقريته مايقترب من « بنك الاقراض والتنمية » فيمنح أموالاً للتجارة ثم يستردها بعد أعوام تيسيراً على الناس ودفعاً لعجلة التنمية . . كما فعل مع هند زوج أبي سفيان عندما أعطاهما أربعة آلاف درهم وتقاضاهما اباهما بعد أربع سنوات . . فلم تف لأن التجارة لم تربح ، فهم أن يسجن أبا سفيان زوجها لأنه ضامناً . . وكان من أقواله : لو كان المال لعمر لتنازل عنه . . ولكنه مال المسلمين . . فلم يسع أبي سفيان الا الدفع !! وقد جعل للجندى المحارب مدة معينة من ثمنه يربها عن زوجها يرجع بعدها حتى لا تضار !! وأمر سعد بن أبي وقاص ببناء مساكن صحية للجند - تدخلها الشمس وكانت وصاياهم للجند تدور حول تقوى الله والابتعاد عن المعاصي . . وكان يضع الخطط بنفسه تاركاً للقيادة الحربية أسلوب التنفيذ على أن تطلعه على الأمور أولاً بأول . . وكان يقول لهؤلاء القادة : « نفقوا بما ترون فانكم ترون ما لا أرى » ويقول لقائده : [أنا الغائب وأنت الشاهد والشاهد يرى ما لا يرى الغائب] .

والحق أن عمر من بناء الحضارات بطبعه . . . ولقد أتيح
له وقت طويل في الخلافة يتسع لتنفيذ مشروعاته العمرانية . .
ويترجم فيه عن أفكاره الحضارية . . . أنشأ الدواوين - ورتب
العمال من الفرس والروم والقبط - وقسم الولايات - ومصر
الأمصار - وضرب الدرهم ووضع التاريخ الهجري وأنشأ
نظام الحسبة وهي تشبه [رقابة المكاييل والموازين والاشراف
على الأسواق وتنظيف الطرق - ورعاية الآدب العامة] - وعين
القضاة - وكان نظام القضاء العالي على عهده مفخرة عالمية . .
بما أمره به من فكر حضارى - وفقه تشريعى . . كعهده لأبى
موسى الأشعري في القضاء . . وقد اتفق الجميع على أن ذلك
العهد من أسس القضاء العالمى . . الذى تقتبس منه دساتير
العالم . . وأهم ما كان يتميز به عمر قريحة صافية ومعرفة
دقيقة بروح الاسلام ومقدرة على مواجهة الأمور بشجاعة
الجندي . . وعبقرية فذة في الاستيعاب الحضارى . . وتفنن
عجيب في ابتكار الأساليب العسكرية والعمرانية . . ومبادرات
رائعة في كل ميادين الحضارة ويعتبر عهده قمة المد الحضارى .
الذى اتسعت فيه الفتوح وسادت روح الجندية . . وفتح
الله على الاسلام والمسلمين . . واتسع المجال لتطبيق الشريعة
وتنفيذ أحكامها . . وبناء المؤسسات الاجتماعية في ظلها . .
واقامة لون من العدالة مايزال حديث الدنيا حتى الآن . . هذا
الى جانب الزهد والانضباط والابتعاد عن الترف ومحاسبة
المنحرفين والفاستدين والضرب على أيدي العابثين مما يجعله
عهد الجلال والعظمة . . ولم يأت بعده من الخلفاء من مضى
بالحضارة الى غاية رشيدة سوى الخليفة الزاهد عمر
بن عبد العزيز الذى اقتفى أثره واقتدى به . . فقد سادت
الدولة في عهده . . واستقامت أمور الناس . . ولم تجد
الصدقات من يأخذها لأن الامة قد استغنت بمواردها واستتب
الامن . . وغلب التدين والورع

وقد وضع حدًا لأطماع الأمويين من أقاربه وكان قدوة للجميع في الزهد والورع والعمل المخلص لله ورسوله ويعتبر أعظم خليفة نهض بالأمر - وتحمل العبء - وأدى الأمانة لله ورسوله ولذا يعد خامس الخلفاء المهديين .

مع عثمان وعلى أو فترة الجمود

بدأ اصراع يأخذ دوراً عاتياً في عهد الخليفين العظيمين . وتوقفت تلك الانطلاقة الحضارية الرائعة . . لأن المسلمين قد تفرقوا بين مؤيد ومعارض ، ثم كانت الفتنة الكبرى التي أوقفت المد الحضارى وضللت خطا الأمة على طريق الحضارة . ثم كان هذا الانقسام المروع في الأمة . وهو انقسام بين على ومعاوية . وانصار كل فريق . ولقد قضى ذلك على آمال التقدم والازدهار . وتوقف سير الحضارة وجمدت في مكانها . وكان كل فريق يكيل السباب للفريق الآخر . ويرميه بكل نقيصة وكفر ، ولقد كانت فترة قاسية حقاً أرادها الله لهذه الأمة ليصهر معدنيها في لهيب الأحداث . وقد أتيج لهذه الأمة أن تخرج (في مجموعها الكبير) بدينها وعقيدتها ولكنها لم تصعد في سبام الحضارة - قليلا ولا كثيراً - ولو ذهبنا نتتبع سير الأحداث بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، لوجدنا مايؤسف ويديكن ، والحمد لله : أن الحضارة في هذه الحقبة قد احتفظت بسماحتها وان جمدت في مكانها .

السيرة الحضارية بعد الخلاء :

جاء عهد الأمويين - فتميز بالحفاظ على الصبغة العربية - والإعتزاز بالعرب ، وظهرت في هذا العهد أمور أشرت في الحضارة الإسلامية تأثيراً سيئاً ، ولكنها لم توقف مد الفتوح - بعد فترة الجمود في الفترة السابقة ، منها أن الخلافة قد تحولت

الى ملك عضوض يفرض بالقوة ، ومنها احتقار العناصر غير العربية . . . ومنها كثرة الأحزاب الدينية السياسية ، ومنها سياسة التفرقة التي كان يتخذها خلفاء بني أمية ، ومنها الذرف الذي أصاب الدولة ، لكن مهما نذهب في تعدد أسباب الضعف والبعد عن روح الاسلام فقد كان ذلك بالنسبة الى الخلفاء وفي بلادهم لكن موجة الفتوح تمتد وتترامي ، وبخاصة في عهد الرايد بن عبد الملك الذي ظهر في عهده قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير - وطارق بن زياد وطريف الشيباني ، ولكل واحد من هؤلاء قصة مجد ، وسجل فخر فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاء الحجاج على خراسان سنة ٨٦ هـ فخرج الى بلخ ، ثم عبر النهر حيث غزا بلاداً خلفه - وأخذ منها الهدايا وقابلة ملوكها ، ثم واصل فتوحاته في كرمينية بين سمرقند ونجاري ثم سار الى بخارى ففتحتها بعد عناء واضطار أهلها على الصالحة . . . ثم فتح مدائن خوارزم سنة ٩٣ هـ وما يزال يفتح حتى وصله كتاب من الرايد يقول فيه [أتمم (١) مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك كآني أنظر الى بلادك والثغر الذي أنت فيه] ولقد سار بهذا الطميح حتى وصل الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . . . وبينما هو سائر جاءه نبأ وفاة الوليد فام يحقه ذلك وسار قريبا منها وأرسل الي ملكها وفد برئاسة عبيد ابن الشجرح الكلابي وبعد مراسلات بينهما قال ملك الصين [انصرفوا الي صاحبكم فقولوا له ، يندرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا أبعث من يهلككم ويهلكه] .

فقال هبيرة القائد المسلم : | كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ | فأجاب

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٦

ملك الصين وماذا يرضى صاحبك ؛ فرد عليه : « انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطا أرضكم ويختتم ملوككم ويعطى الجزية » فلما وجد الملك ذلك الاصرار بعث اليه بتراب من تراب أرضه فوطئه - وبعث ببعض رجاله فختمهم - وبعث اليه بجزية ترنسيه فاستحسن قتيبة ذلك التصرف وفعل ماأشار به الملك .

أما محمد بن القاسم فقد سار الى بلاد الهند سنة ٨٩ هـ فافتتحها وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة وهكذا اطرده سير الفتوحات الاسلامية وبدأ نبض الحياة في جسم الحضارة . وعاودها النشاط ، ثم جاء عصر العباسيين . وقد تميز بالاعتماد على الأعاجم ، وبدأ بالخلفاء ذوي الهيبة والنشاط والجد . وبخاصة عهد الرشيد والمأمون . ولكن الترف قد تجاوز مدهاه . وانتشمت الدولة الاسلامية في آخره الى دويلات وأخذت الحضارة ينحسر . بتوقف الجهاد في سبيل الله الذي كان في عهد بنى أمية ، والاغراق في الترف ، حقاً لقد ازدهر العلم والأدب وترجمت المعارف والعلوم ، وكثرت مجالس الحوار والمناظر وشجع الخلفاء كل ذلك ، ولكن لايمكن أن يكون الترف المطغى وسيلة استمرار حضارى ، فقد أخذ يعمل في جسم الدولة الكبيرة ، وكان ذلك تمهيداً للضعف أمام الأعداء فيما بعد ، ويأبى الله الا أن تقوم الحضارة الاسلامية في افق جديد هو الاندلس الاوربية فتقوم دولة بنى أمية عن العرب والمسلمين في الشرق بنشر رسالة العرب والاسلام ومنع أروع حضارة في هذه الآفاق :

أعداء طامعون - وقيادات مؤمنة :

ثم تبثلى الأمة الاسلامية بعد ذلك بنكبات شديدة حيث يعتدى عليها أعداء طامعون . منهم التتر . والصابلييون

• • ولا تستسلم الأمة لصروف الزمن وانما تقاوم بعقيدة
الايمان ويمن الله عليها بمن يجدد لها امر دينها ودنياها من
وقت لآخر كالمك المظفر قطز الذى انتصر على التتر بعقيدة
الايمان وتوحيد الجيوش - وبصلاح الدين الايوبى الذى هزم
الصليبيين واسترد بيت المقدس وجدد فى الأمة عقيدة الجهاد -
وقاد جيوش المسلمين قيادة مؤمنة ووحدها بينها • • وكان
أعجوبة الأعاجيب فى ايمانه - ومقدرته • • ثم أصيب العالم
الاسلامى بعد صلاح الدين بفقر فى القيادة المؤمنة وفى فترة
الحكم التركى - أو بتعبير آخر فترة الخلافة الاسلامية بدأت
الأمة عهداً جديداً من التماسك - والاعتزاز بحضارة الاسلام
وكانت الدولة التركيه فى بادىء الامر قوية الجانب لها
جيوشها • • ولها خلفاؤها • • وكانت روح الجهاد مشتتة
فيها - وكانت تملك وسائل الحرب الحديثة - وكان لهم
أسطولهم القوى الذى يزيد على ألفين من المراكب الحديثة -
وكان فى حوزة هذا الأحمر وفارس وكان الأتراك بما تجمع
لديهم من وسائل روحية ومادية يستطيعون أن يتفوقوا على
أوروبا • • لكنهم لم يسيروا فى خط التطور • • فسرعان ما جمدوا
وتدهوروا - وقد كان أذكى عقل لديهم - هو محمد الفاتح -
ولقد كان فتح القسطنطينية التى استعصت على المسلمين
ثمانية قرون دليلاً على كفاءة الأتراك يومذاك فى العلم والعمل
معاً •

ولقد صار الأتراك الى لون من الجهل والجمود والتوقف
عن الاعداد للحرب • • وانطفأت فيهم جذوة الجهاد • • بل
حاربوا كل جديد من الفكر ونصت البلاد الاسلامية بالشروح
والحواشى والمتون وكلها تتقيد باللفظ - وتتفنن فى التعقيد • •
وتتجمد على الغباوة والجهل • • ثم سرى الفساد الخلقى فى

كيانها وأخذ الشعب الى الدعة والراحة ودب اليهم داء الأمم قبلهم من الحسد والبغضاء والاستبداد والجور والغلظة وسوء التربية وفساد الطبع مما جعل دولتهم وقبضتهم نهى . .

ثم كان أن صارت تركيا الى « الرجل المريض » وتآلب الاستعمار عليها . . وكانت هي قد مكنت له بما فعلته في العالم العربي من تذبيح - وتترك - ومن ظلم ووحشية ومن جمود وطمع وجشع . . فأدت كل هذه الانحرافات الى انتهاء الخلافة والقضاء عليها . .

ولست بصدد « تقويم » هذه الخلافة - ولكنى لا أتردد في أن أضم الأتراك الى أعداء الحضارة الاسلامية - الذين مكنوا للغرب بأفعالهم الشاذة من التدخل . . ودفعوا العرب بحماقتهم « وطورانيتهم » أن يتخلصوا منهم . . لأنهم فعلا قد أوقفوا مد الحضارة القرآنية - حين تخلوا عن روح الجهاد في سبيل الله . . وانحدروا أخلاقياً - وتعصبوا قومياً - فهل يمكن للحضارة أن تزدهر في هذه الأجواء ؟

ورد في مقدمة كتاب حضارة الاسلام لجوستاف النمساوي [ومن أسف أن هذه الحضارة لم تعمر طويلا فما هو الا قربان او ثلاثة حتى خمد الشرق كله - وأطبقت عليه سحائب الخمول والتأخر والانحطاط على حين نهضت أوروبا تبحت عن هذه الدنيا فشرعت السيف في وجهه أروع حضارة عرفها التاريخ] . .

[ويرى جوستاف أن العرب قد أعطوا العالم الاسلامي عقيدته وقرآنه ولغته ثم تناولوا مابتلك البلاد من ثقافات فامتصوها وهضموها وأخرجوها للناس في قالب عربي رائع] . .

ونقول تعليقا على الفقرة السابقة لجوستاف . . بل ان العالم العربي في الواقع لم يقتصر في العطاء، على العالم الاسلامي . . بل سخا في العطاء حتى سمح لأوربا ان تنهل من معين حضارته . . وتنشط في صنع الحياة نم تكافي، المسلمين بالانقضاض على عقيدتهم وحضارتهم وبلادهم . . وماتزال تتآمر عليهم حتى وقتنا هذا .

هل انتهت الحروب الصليبية بعد صلاح الدين ؟

التاريخ يقول لنا : انها لم تنته في نفوس الغربيين بل بقيت جذوة الحقد متقدة تلتهب في أعصابهم يتوارثونها ويؤججون نارها كلما وجدوا فرصة سانحة .

ولقد أثر عن اللورد النبي أنه توقف عند قبر صلاح الدين يوم احتلال سوريا في أعقاب الحرب العالمية وخاطبه جهاراً : اليوم ياصلاح الدين انتهت الحرب بيننا . . وعدنا من جديد !!

كما أن الجنرال غورد عند ما جاء لاحتلال سوريا سنة ١٩٢٠ ركل قبر صلاح الدين بقدمه معبراً بذلك عن غيظه . . ثم مالبت الاستعمار ان أنشئ مخابه في جسم هذه الحضارة وهو أعرف بخطرهما على مطامعه . .

ووقعت معظم بلاد الاسلام كلها في قبضته . . فأخذ يعمل فيها جميعاً بمخطط واحد . . هو القضاء على تلك الحضارة . . مع اختلاف الأساليب فعبث بالمناهج - وأفسد الثقافة - وبت أفكار حضارته . . وقلل من شأن القرآن واللغة . . وأغرق

البلاد الإسلامية في تيار الإباحية والانحلال . . حتى أصبحت
الحضارة الإسلامية جسماً بلا روح . . وعجزت عن تجديد
الحياة .

يقول مكدونالد : [ما من أحد يشك في أهمية عقيدة مسلمي
اليوم وان كانت تلك العقيدة لم تعمل على تجديد الحياة ولا
خرجت بأصحابها إلى طور الحركة] .

كان ذلك الحكم على حضارتنا عام سنة ١٩٠٦ - وهو
حكم مسيحي في جملته .

ولقد كان العداء دائماً ضد الإسلام . . وحضارته وقرآنه
. . وهو عداء يجمع بين الصهيونية والاستعمار في كل وقت . .
فكل هؤلاء يعمل ويعمل ضد هذه الحضارة .

ولن تسكت مؤامراتهم على الإطلاق . . فقد تمكن المستعمر
من زرع اليهود في فلسطين كجسم غريب يستنزف كل جهود
المسلمين في تلك البقعة . . وما يزال يمدّها حتى اليوم . .
لتقوم بدورها في تفتيت وحدة العالم الإسلامي . . وامتصاص
كل جهوده وخيراته . .

وما يزال يخرقنا بما يسميه بالأراء الحديثة ويغرق
أسواقنا بالبضائع . . لنذهل عن وجودنا ونظل عالة عليه . .
ولم تحدثنا أنفسنا أن ننافس مايرد إلينا عن طريق الغرب
كقيم ولم يعد في إمكاننا صنع الحضارة فاكتفينا في معظم
بلاد الإسلام بالاستيراد .

ويبدو أن المستعمر قد اطمأن إلى النتيجة التي توصل
إليها فما هو ذاكا مغماير الأستاذ بجامعة برلين يقول :

[هل يستطيع الاسلام أن يستعيد وحدته الداخلية في ظل التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الثقافة الغربية والآداب العصرية - وهل يكون عند ذاك عدواً أم صديقاً ؟ أم أن الاسلام في سبيله الى التفتت الى وحدات قوية تعكس كل واحدة منها التأثيرات الأوروبية على طريقتها الخاصة وبأسلوبها المستقل . . هل ستكون هناك حينئذ ميول مشتركة بين الشعوب الاسلامية ؟ وهل سيقوم احساس بوحدة العمل ؟ ووحدة الهدف أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة العصرية ستنتج آخر الأمر في تشتيت المجتمع الاسلامي وتحطيم وحدته وبعثرة قواه ؟] .

هل يكفي هذا الكلام الحاقداً لتشخيص آمال العدو المتربص وبيان أهدافه ؟

وهل يعقل العالم الاسلامي الآن أن الاستعمار يعمل جاهداً لضرب حضارته وازهاق روحها بأساليب الغزو والثقافي ؟ وباسم الآراء العصرية والتقدمية . . ليخلق أجيالاً منحلة تؤمن به - وتهتف بحضارته . وتنسى مبادئها وتقاليدها .

سموم قاتلة « ومانخفي صدورهم أكبر » .

أريد أن أتتبع هنا كلمات المستشرقين - وآراءهم - التي تعكس مطامعهم - وتوضح أهدافهم ضد الاسلام وحضارته وقرآنه . . وسنتبين أن التخطيط مشترك بين الصهيونية والغرب . . وكل العناصر الحاقدة ستعرف ذلك من تصريحاتهم . . التي هي سموم قاتلة لمقومات حضارتنا . . وكلها تنفذ اليها عن طريق الغزو الثقافي . . ووسائل الاعلام - وتيارات التغريب المختلفة .

هل يجهل أحد أن الغرب قد استغنى عن الدين ؟

هل يجهل أحد موقف هذا الغرب من حضارتنا ؟ • انه يعمل جاهداً منذ وطئت أقدامه الدنسة بلادنا على تذيب المقومات الحضارية لنا - وعلى اغراق بلادنا بآرائه وأفكاره التقدمية ؟ !

وهل هناك من يجهل موقف الصهيونية العالمية منا بالذات ؟ من ديننا ومقوماتنا وبلادنا • • • وهي التي تحتل أرضنا • • • وتنتهك مقدساتنا • • • وتخطط مع أمريكا للقضاء علينا ؟

السنا نسمع كل يوم أنباء الدعم الأمريكي للصهاينة المعتدين علام يدل هذا ؟

وقد يختلف أعداؤنا في الظاهر • • • ولكنهم كشقى المقص - ونحن دائماً الجزء الذى يراد شقصه الصحافة - والمذيع - والمجلات وكل وسائل الاعلام وسيلة ناجحة في ترويض مبادئهم فلنستمع الى آمالهم - ووسائلهم في تلك الأدوات التي تصنع الراى العام •

يقول جب :

1 ان الصحافة هي أقوى الأدوات الاوربية وأعظمها نفوذاً في العالم الاسلامى لأن معظم مديرى الصحف من التقدمين - ولذا كان معظم الصحف واقعا تحت تأثير الآراء والأساليب الأجنبية بشكل يكون الراى العام المطلوب - ويبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة الى التعليم وضرورة الاقتباس من الغرب أن يعود الاسلام الى مكانته الأولى من السيطرة • • • ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت رسمياً والثقافات الغربية

قد أخذت وضعها في المدارس والفوارق الاجتماعية قد عدت أكثر وضوحاً . . . وحصرت الثقافة الدينية في عدد قليل مع ذلك فالمعاهد الدينية ماتزال قائمة ومايزال حفاظ القرآن ودارسه لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين - ثم يتابع كلامه - ان الحركات الاسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة وتنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أمارتها ما يدعوهم الى الاستجابة في أمرها وهي اليوم لا ينقصها الا الزعامة والا ظهور صلاح الدين من جديد [. . .

ونحن لا يسعنا الى أن نشكر لهذا المستشرق . . . فقد أبان أولاً عن أعز أمانيه بالنسبة للقرآن وحضارته . . . وتتمنى أن يزول القرآن . . . وتذهب المعاهد الدينية . . . وتأسف لأنها ماتزال موجودة ثم كشف عن وسائله وهي استخدام التقدميين في وسائل الاعلام ليقوموا عنه بمهمة الترويج للغرب وعلومه وآدابه وأعرب في النهاية عن تخوفه من الحركات الاسلامية التي تنفجر فجأة . . . ومن ظهور زعامة اسلامية جديدة تجمع الشمل وترأت الصدع ، . . .

هل يعتبر المسلمون ؟ وهل يتدبرون أمرهم ؟ ويعرفون أن أهم وسائل الدعم الحضاري هو مكافحة من يسميهم « جب » بالتقدميين في وسائل الاعلام . . . وهل يتداركون الأمر بوحدة مفاجئة - وزعامة مؤمنة - وانتفاضة سريعة ؟
هل يتجمعون ضد عدوهم الذي يحتل قلوبهم - وأرضهم - وهل يتنبهون للغزو الثقافي - والأخلاقي والصناعي الذي يميته فينا كل جوائز التجديد والابتكار ويجعلنا نكتفي باستيراد الحضارة . . . ولا نهتم بصناعتها . . . وأخيراً . . . هل

ندرك أن كل كلمات الحاقدين تنتجه فقط الى الاسلام والقرآن
• • ولا تنتجه لشيء سوى هذا ؟

الاسلام هو العدو الأول لهم لانه عدو الاستبداد والرق
والتخلف والظلام • • وهم يريدون لنا هذه المعاني ليسرقوا
حياتنا •

وانستمع الى عدو لثيم منهم هو كامغماير السابق حيث
يقول :

ا ان السبيل الى التغريب الحقيقي هو أن نتبين الى أى
حد يجزى التعليم على الأسلوب الغربى - وعلى المبادئ
الغربية على أن هذا لا يكفى بل هو الخطوة الأولى - ولا بد من
التسلط على قيادة الاتجاهات السياسية والادارية] •

والك أن تتبين أهداف هذا العدو من خلال كلماته • • انه
يريد أن ينفذ الى وسائل التعليم وأهداف التربية وطرائقها •
حتى ينجح في أسلوب تغريبنا • • ونحن في بلادنا • •

ووسيلته النهائية بعد هذا • • هو التسلط على
السياسة - والادارة عن طريق العملاء والذبول •

المعركة ضد الاسلام :

لم أجد لمن قرأت لهم من أعدائنا تصريحاً واحداً ضد
قومنا • • أو عروبتنا • • الجميع يصوب سهامه الى
الاسلام • وهم متفقون على الوسائل التي بها ينفذون الى
قارب الاسلام • • ويحطمون بها وحدته • • انها ليست
وسائل بدائية يمكن أن نحاربها بقوة السلاح • • ليست
استعماراً ظاهراً لأن العصر لم يعد يساعد عليه • • انهم
سروا التسرب الى مناهج التعليم - وطرائقه وكذلك الى
د. حفنا ومجلاتنا ووسائل اعلامنا • ليصنعوا الرأى العام

الذى يؤمن بهم . . ان عنصر تغريب المسلمين هو أنجح وسيلة
لديهم . . ولاشك أن الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى من أخطر
الوسائل على كياننا . . والتخلص من الفكر الدينى فى بلاد
الاسلام أمر يهتمون به جداً . . يعنيه أن يقل حفاظ القرآن
لتذهب نغمته المؤثرة وحرارته القوية من العالم الاسلامى - كما
يعنيهم أن تتناقص المؤسسات الدينية . . لتزول المناعة
الفكرية التى يستحيل معها التغريب . . يعنيهم ألا يوجد عالم
دينى واحد فانه من وجهة نظرهم حجر عثرة فى سبيل
التغريب . . ومن عوائق التقدم . . ولأنه يعرف فلسفة الاسلام
وأساليب أعدائه . . ويكشف خطط « التقدميين » .

ولم يعد التبشير مجدياً . . لأنه أسلوب مكشوف . .
وانما المهم تفتيت وحدة المسلمين ليظلوا على وضعهم من الفرقة
والشتمات . . والكيان الكبير اذا تجزأ ضعفت فاعليته وأمكن أن
يتقبل الأفكار الوافدة - وأن يخضع للفكر الاستعمارى . . وأن
يرتبط به فى كثير من شئون الحياة - ان بقاء الفكر الاسلامى فى
عزلة بعيداً عن تيار الفكر الأوربى أمر يزعج الغرب له لان
الفكرة الاسلامية ستحتفظ بصفاتها وحرارتها وقوة تأثيرها .

ولذلك يجب من وجهة نظرهم أن تحتك بالأفكار العصرية
لتنماع ويبطل تأثيرها . . ثم تحاط من كل جانب بفكر العدو
وأسس حضارته كما نحاط قطعة أرض بالأسلاك الشائكة . .
كلهم يتنادون . . الاسلام . . الاسلام . . يجب ابادته -
واغراق أبنائه فى الفساد والترف ليسهل اخضاعهم . . بعد
تأثير الحضارة الخادعة فيهم . . وصرفهم عن واجباتهم -
وتحويلهم الى قطعان شاردة لا تعرف لها ربا ولا عقيدة . .
فهل تحذر أساليب أعدائنا ! ؟ . .

يقول مسيو شاتلييه . . . واضعا الخطة التي يسهل معها
القضاء على الاسلام داخل حصونه :

« لا شك أن ارساليات التبشير تعجز عن نزع العقيدة
الاسلامية من نفوس منتحليها . . . ولا يتم ذلك الا ببث الأفكار
التي تتسرب مع اللغات الاوربية فبنشرها تحيك الاسلام
بصحف أوروبا . . . وتتمهد السبل لتقدم اسلامى مادي ، وتقضى
ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية
التي لا تحتفظ بكيانها وقوتها الا بعزلتها وانفرادها . . .
والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام لاتهميد السبل
لأعمال المدنية الاوربية اذ من المؤكد أن الاسلام يضمحل من
الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير وقت قصير حتى يكون
الاسلام فى حكم مدنية محاطة بالأسلاك الاوربية - ولا ينبغي
أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامى أن يتخذ له أوضاعاً
وخصائص أخرى اذ هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه
الاجتماعية - لأن الضعف التدريجى فى العقيدة الاسلامية -
وما يتبعه من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف يقضى
بعد انتشاره فى كل الجهات الى انحلال الروح الدينية من
أساسها لا الى نشاطها بشكل آخر » .

أسمعت ؟ كم مرة تناول هذا الكاتب فكرة اضمحلال
الاسلام ؟ وكم مرة كررها ؟ وكم وسيلة ذكرها لذلك ؟ والى أى
حد استطاع العدو أن ينفذ هذا المخطط الاجرامى ضد دين أول
عمله (تمدين الحياة وتحضيرها) بل تمدين أوروبا بالذات
وتحضيرها ؟ !

أهذا هو الجزاء ؟ وتلك هى المكافأة ؟ أن يمهد السبيل
للتبشير بتقسيم العالم الاسلامى واهدار خصائصه - والغاء

عقيدته واحاطة مدنيته الفاضلة بأسلاك الحضارة المادية
الحيوانية ؟ لعمري ان الانسان ليتمزق قلبه أسى ولوعة على
ذلك العقوق الفاجر الآثم في حق مدنية اشاعت الثقافة والفكر
في ربوع العالم كله . . وان المسلم ليأسف ويبكى بحرارة
عند ما يرى أن هذا المخطط ينفذ بكل دقة ، فتقسيم العالم
الاسلامي أمر حاصل - واغراقه في شهوات الحضارة المادية
وصرفه عن دينه وعقيدته والغاء خصائصه الحضارية . .
ومقاومة الفكر الديني . . والنفاذ الى وسائل الأعلام . . كل
هذه أمور حدثت وتحدث . . فهل يعرف المسلمون اليوم . .
أن وحدثهم . . وعقيدتهم ودينهم هن عوامل الانقاذ . . فهل
نتجمع ؟ . كيف السبيل الى أن نستخلص أنفسنا من الغزو
الفكري . . والغزو المسلح ؟ كيف نحرر القدس - والأرض
العربية ؟ كيف نحول بين الاستعمار المتواطىء مع الصهيونية
والشيوعية لا نستثنى واحداً منهم - وبين التأثير علينا -
والاندماج فينا . . ان فلسطين اليوم في أيدي اليهود . .
وكذلك الأراضي العربية . . وبالإمساك ضاعت الاندلس من
المسلمين والمخطط واحد والأسلوب واحد والقوم يصرحون
ويوضحون وكأنما يثقون في السكر الغليظ الذي ألم بالعالم
الاسلامي فحال بينه وبين التفكير - او مناقشة هذه التصريحات
المسمومة . . وبالله لو كان الاسلام أعدى أعداء هؤلاء لما كان
جديراً بكل هذه المؤمرات . . أما وهو الذي أنقذهم - وعلمهم . .
وأخرجهم من الظلمات الى النور ولماذا لم تلق النحل الفاسدة
منهم أي مقاومة - أو أي حرب ؟ لماذا الاسلام وحده في
المعترك ؟ ولماذا يحارب بتلك الضراوة والوحشية والشراسة ؟
. . أسئلة يجب أن يتدبرها المسلمون ليتدبروا مصيرهم
ويتداركون أمرهم أمام عدو لا يغفل ولا ينام .

وأخيراً لنستمع الى الصهيونية الشرسة تتلاقى مع الغرب في اعلان الحرب على الاسلام والقضاء على حضارته . . على لسان كاتب صهيوني هو (ايرل بوغر) في كتابه العهد والسيف الصادر عام ١٦٦٥ يقول بالحرف الواحد : [المبدأ الذى قام عليه وجود اسرائيل منذ البداية هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم الى التعاون معها ولكى يصبح هذا التعاون ممكناً يجب القضاء على جميع العناصر التى تغذى شعور العداة ضد اسرائيل فى العالم العربى . . وهى عناصر رجعية رجال الدين - المثايخ - السياسيون القدامى - وغيرهم ممن يخسرون كثيراً اذا سادت فى المنطقة اشتراكية اسرائيل النموذجية وقد كان ابن غوريون منذ عام ١٩٥١ شديد الايمان بالقضاء على هؤلاء جميعاً عندما طلب الى الكنيست فى هذا العام أن يتحلى بالصبر لان السلام لن يكتب لاسرائيل مادام العالم العربى فى قبضة الرجعيين والحل الوحيد الذى يؤدى الى عقد صلح مع اسرائيل هى أن تحل محل الحكومات الرجعية ديمقراطيات شعبية اشتراكية] .

نفس الكلام الذى يردده شاتلييه وحده ، والكفر كله ملة واحدة . . ومن السهل أن نقارن بينهم جميعاً . . « تفتيت الاسلام ، القضاء على الدين ، استدراج أنباء الاسلام الى المروق والاباحية ، الغزو القذر ، الانقلابات ، خلق جبهات متقاتلة متباغضة تتقاذف السباب فى عالمنا - انها المعركة بين أعداء الله وأنصاره على أى حال .

كيف السبيل ؟

السبيل واضحة أمام المسلمين لاستنقاذ مابقى من مقدراتهم . . « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا

السبل فتفرق بكم عن سبيله (١) « ألم أعهد اليكم يا بني آدم
ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين - وأن اعبدوني هذا
صراط مستقيم (٢) » *

انه لاخلص من هذا الوضع الا تجمع المسلمين السريع
من جديد على أساس صادق من كتاب ربهم وسنة نبيهم -
وأن تكون لهم سياساتهم النابعة عن عقيدتهم . . . والقرآن
الكريم قادر على أن ينشئ هذه المعجزة - وعلى حد تعبير
أعدائنا قادر على أحداث انتفاضة مفاجئة لا يعرف العدو كيف
بتوقاها . . . وليس هناك أي رجاء في تقدم أو قوة ونحن مفتتون
تتخطفنا المطامع والأهواء . . . ولا مجال للشيطان في شريعة
الرحمن . . . والشيطان رمز الى قوى الشر كلها التي تتربص
بنا . . . والقاء الزمام اليها عبادة لها . . . وانصراف عن الله . .
فهل نتخلص - والأمر جد خطير ؟ ! لقد توحد العالم القديم رغم
جهالته وضلاله وانحرافه بالقرآن . . . وصنع به حضارته
نريد عالمنا قرانيا يحكم شريعة الله في كل شئ، ويعايش
مبادئ القرآن في كل حين وليس تقى من نبعه الطهور في
ثقافته - وبرامج تعليمه - وتقويم مجتمعه - وأصول سياسته
- بهذا نكون على صراط الله . . . ومع رحمته وهداه ، والارتقاء
في أحضان الأجانب عبادة صارخة للشيطان .

كذلك ينبغي أن تعود الينا قوتنا القادرة كما أراد الله لنا
دائما - لنظل نؤثر في الاحداث ونعيش على مستوى الحياة . .
وسبيل ذلك خلق نهضة صناعية في العالم الاسلامي ليديب فيه
النشاط وتزدهر قوة أبنائه . . . لابد من النهضة المادية في كل
مرافق الحياة توأزرها نهضة روحية نستطيع بها أن نعيد

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .

(٢) آيتا ٦٠ ، ٦١ سورة يس

قصة حضارتنا المثالية فما يليق أن نستورد كل شيء ونعجز
عن صنع الحضارة . . . وعالمنا الاسلامى والحمد لله مستودع
الخير كله والثروات كلها .

كما أنه ينبغي أن نصحى وسائل اعلامنا من كل الحركات
والافكار الواردة اليها من العدو . . . لاننا نملك رصيماً ضخماً
من الحكمة والمعرفة والثقافة . . . لان ذلك هو سبيل التعريب كما
يجب فوراً أن يعاد تخطيط المؤلفات الدينية بلغة العصر وأسلوب
الحياة بحيث نستطيع أن نعطي الفكرة الصافية عن عقيدتنا
وحضارتنا . . . ومجدنا العالمى . . . ونبتعد عن العقد . . . والألغاز
والامعان فى المصطلحات القديمة . . . وتلك مهمة الازهر الشريف .
والاجتهاد يجب أن يعود من جديد ليلاحق قضايا العصر
ويفتى فى المسائل الجديدة وبعث روح الجهاد على المستوى
الاسلامى كله . . . الجهاد فى سبيل الله . . . ليتكون الجيش
الاسلامى القادر المدعم بالسلاح والخبرة . . . والوحدة أقوى
سلاح : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (١) » . . .
ولن يعجز القرآن عن تحقيق تلك الأمانى . . . فليست حياتنا
اليوم أشد جهالة من حياة الجاهلية الأولى . . . وقد استطاع
القرآن أن ينشئ من هذه الجاهلية - تقدماً وعلماً وحضارة
ومجداً وقوة . . . وعاشت البشرية أسعد أوقاتها فى ظل حضارة
القرآن : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنهم
لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا
يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم
الفاستقون (٢) » ويوم نعود الى مكاننا من قيادة ركب الحياة لن
نسمح للحياة بأن تنحل . . . ولا للوجود بأن يكون مسرحاً

(٢) آية ٥٥ النور

(١) آية ٩٢ الانبياء .

للتشيطان سننقود الحياة باسم الله الى طريق الخير والرفاعيا
والسلام . . ولن نقف من الغرب كما يقف الآن منا لأننا لانعرف
الحقد ولا نؤمن به . .

آفات الحضارة الغربية « من كلامهم » .

سيقول قائل وكيف السبيل الى التجمع واستعادة مجد
القرآن . . والعدو جاثم - وأمره غالب . . وحضارته مزدهرة ؟ .
وسأرد على هذا بشهادة رجل أمريكي عرف الكثير عن
حضارة الغرب ودرس عناصر ومقوماتها دراسة تمكنه من نقدها
ومحاكمتها وذلك هو الرجل الدكتور ألكسيس كاريل :

يقول : « ان الحضارة العصرية لا تلائم الانسان كإنسان
لأنها تكونت دون معرفة بطبيعتها الحقيقية وعلى الرغم من
أنها أنشئت بمجهوداتنا الا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا -
انا نقوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . . ان الجماعات
التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي الآخذة
في الضعف والتي ستكون عودتها الى الوحشية والهمجية أسرع
مما سواها - ان العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالة
الانسان الراهنة وانما نحن المسئولون لأننا لم نميز بين
المنوع والمشروع . . يجب علينا أن نعيد انشاء الانسان في
تمام شخصية ذلك الانسان الذي أضعفته الحياة العصرية
ومقاييسها الموضوعة » .

وبعد هذا الكلام العلمي - يمكن في ضوءه أن نجيب على
السؤال السابق - وهو أن المدنية العصرية جسم ضخم عملاق
لكنه متورم مصاب بأمراض القلب وأوجاع الباطن - ويجب
أن ننظر اليه على هذا الأساس . . وأعراض المرض بدأت
تظهر . . بل أخذت تغزو المجتمع هناك .

لا بد أن نفرق بين الشحم والورم كما يقول أبو الطيب :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما اغترار أخى الدنيا بناظره إذا استوتت عنده الأنوار والظلم

والصراع بين العالمين الرأسمالي - والشيعوي يستدعى
تأملاً فاحصاً . . هذا الصراع مع مانراه من سوات المدنية
الغربية يهيب ، الفرصة لاقامة مدنية تستكمل أسباب التفوق
المادى وتدعمه بتفوق روحى . . ولن تكون هذه الحضارة الا
حذسارتنا . . ويوم نبدأ العمل الجاد سنغرف الى أى حد
يتشوف العالم الينا . . لنقوده الى مرآشده . . ونعيد اليه
كرامته وسعادته . .

ويكفى ان (كاريل) يعترف بأن العالم الصناعى سيعود
الى الوحشية والهمجية قريباً . . لأنه عالم لا يتناسق مع
الانسان . . عالم لا مجال فيه لو مض الروح وأشواقها . . كله
ضجيج وصخب وآلات ومعدات فأين يجد الانسان راحته . .
وكيف يروى أشواقه الظمأى ؟ انها حضارة لا تناسب الانسان
ومن ثم فانهبها قريباً !

وعندما نحلل الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية
الحديثة نرى انها قامت على أساس الفلسفة اليونانية واتجاهها
المادى الوثنى وطابع الابتعاد عن الدين . . وفصله عن الحياة .

وتحت تأثير هذين العاملين كانت تصد آراء المفكرين
الغربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . . وفى ظل هذين
العاملين نمت المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى ظلت حتى الآن
مسيطرة على عقول الغربيين - ولقد فهمت هذه الحضارة - أنها
بعد أن نبذت تعاليم الكنيسة الرجعية تستطيع أن تمضى فى

رحلة الحياة من غير دين . . . وقد أخطأت في ذلك كل الخطأ لأن
للدين أثره في طبع النفوس على المحبة وازالة القلق وكبح جماح
الشهوات . . . كما أن للعقيدة الالهية أثرها في تحرير النفس من
الخوف وتحريك بواعث الخير في داخلها . . . وربطها باليوم
الآخر . . . الذى يخفف من حدة الصراع في هذه الدنيا لأنها
ليست مطمح آمال المؤمنين وان كانت حقلًا خصبًا تزدهر فيه
أعمال الانسان وقدراته الابداعية . . . لكنها ليست غاية بل
وسيلة دعم لليوم الآخر . . .

كما أن لهذه العقيدة أثرها في التوازن بين مطالب الجسد
ومطالب الروح . . . فهي كالمنظم الحرارى الذى يحفظ توازن
الموقد فلا ينفجر . . . فكما جمحت بالانسان شهوات جسمه
ونزوات بدنه وقفت العقيدة حائلًا دون التردى والسقوط . . .
وأعدت التوازن الى كيان الانسان كذلك كلما حاول أن يغرق في
الروحانيات أوقفت اتجاهه ورددته الى التوازن ، انها تحقق
انسانيته . . . وتحرر وجوده من ضغط الشهوات . . . والنظم
والتقاليد وتجعله عبدا لله ومتحررا من كل ماسواه . . . فهل
تذهض الحضارة المادية بكل هذه التبعات ؟

لقد أطلقت الجانب الحيوانى من الانسانى ينزوى ويعربد . . .
أمانت مشاعره الطيبة وأحيت شهواته الرعناء فعاش ليومه
وانطلق على هواه وغرق في الاباحية والفجور . . . وسلك مسالك
الرفض والشذوذ . . . وعاش حياة بوهيمية حيوانية . . . ليس
فيها حدود ترعى . . . ولا حرمان تصان وغرقت الكنيسة في هذه
الأجواء . . . بعد أن نبذها الشباب . . . فصارت اليوم تتملقهم . . .
وتقيم لهم الاحفال الراقصة في نواديهها . . . وتتهيب ، الحفلات
للرقص والمخاصرة والشراب تحت اشراف الراهب أو الأسقف . . .
وهكذا غرق القوم في اللذة والاختلاط الجنىسى . . . وهم يعتبروننا

مترمتين لأننا ندخل العنصر الاخلاقي في موضوع اللذة الجنسية - انها عندهم مسألة « بيولوجية » فالحصان والفرس والثور والبقرة والكبش والنعجة والديك والدجاجة لا تفكر احداها في مسألة الأخلاق وهي تحصل متعتها ولذا تمضى حياتها بسيطة سهلة بلا عقد *

ومن تصريحات فتاة أمريكية مثقفة : [ان حياتنا على الأرض قصيرة وليس هناك وقت نصيحه أكثر من الرابعة عشرة] تريد الاستمتاع بلا حدود لأن حياتها قصيرة * *

وانها لحضارة تبيح الحرية للخاطئات - كما تبيح العلاقات الجنسية اذا وقعت بالتراضى وكذلك الشذوذ *

ويرى براترند راسل الفيلسوف البريطانى أن الاتصال الجنسي واجب قبل الزواج فان أثبت تجاوباً أبرم الزواج والا نقص *

وتقول سيمون دى بوافوار الكاتبة الوجودية انه يجب اطلاق الحرية للخاطئات ففي ١٩٧٢/١/٨ نشرت أخبار اليوم تقول :

1. بدأت الحكاية عندما أضربت مائة وخمسون من الأمهات اللائى لم يتزوجن عن الطعام فى الملجأ الحكومى المخصص لهن - لأن المديرية لا تسمح لهن بالخروج الا فترة قصيرة وتعاملهن بشدة وطالبت الامهات الخاطئات وأعمارهن بين ثلاثة عشر وأربعة عشر عاماً بمزيد من الحرية [حرية التسول بالطبع] فى الدخول والخروج والملابس القصيرة * * ورفضت ادارة الملجأ فتدخلت سيمون وطالبت بالحرية الكاملة للخاطئات *

وتصرح سيمون هذه باباحة الخيانة الزوجية . . وحرية
اللذة الجنسية لأن أقراص منع الحمل تسهل الامر . . وتشيد
بثمرات العلم الحديث لأنها تمكن المرأة أن تفجر وهكذا تفقد
الحياة شرفها وحضارتها على يد الغرب وفي ظل حضارته يقول
السيد محمد أسد في كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » (
واسمه ليوبولد فايس) في الأهل وقد أسلم وتسمى بمحمد
أسد :

ان قضية معنى الحياة والغاية منها قد فقدت منذ زمن
بعيد في نظر الأوربي الحديث جميع أهميتها » .

ويقول : « ان الاتجاه الدينى مبنى دائماً على الاعتقاد بأن
هناك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً واننا كبشر مجبرون على أن
نخضع لمقتضياته ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الخضوع
الا لمقتضيات اجتماعية واقتصادية وقومية أن معبودها
الحقيقى ليس من نوع روحانى ولكنه الرغابية - وان فلسفتها
المعاصرة انما تعبر نفسها عن طريق الرغبة والقوة وكلا الأمرين
موروث من المدنية الرومانية القديمة » .

ويقول : ان هذه المدنية لا تجحد الله - ولكنها لا ترى
مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكرى الحالى ا .

وهذا جانب جديد من جوانب الشر في تلك الحضارة
المادية . . أنها منافقة تدخل الكنيسة . . وتقيم الحفلات
الدينية وهي لا ترى لله فائدة ولا ثمرة . . وتستغنى عنه
بنظامها الفكرى ودستورها الموضوع . كما أنها تعبد القيم
المادية من مال ولذة وقوة . . وكلها منطلقات للفجور والبغى
والعدوان . . ولا يمكن لعباد المادة أن يبنشوا نظاماً يعد
الانسانية . . ومن ثم كثر في ظل هذه الحضارة - بل أرقى

مدن أوروبا | السويد والنرويج | الانحراف - والاباحية -
والاجرام * * كما كثرت الانتحارات في هذه الأجواء المادية
وساء الملل وتمنى القوم الخلاص من حياتهم * * ولا تسئل عن
التمزق الشبابى وحياة (الهيبز والخنافس) المتمرد على نظام
الحياة هناك *

ومشكلة البطالة في أمريكا اليوم تهدد بكوارث ماحقه
رغم الغنى والترف ففى تصريح لنيكسون منذ ثلاثة أسابيع
على التحديد يقول : « ان البطالة ستظل المشكلة التى تهدد
الاقتصاد الأمريكى وان حجمها يتزايد عاماً بعد عام » * *
وأخطر من ذلك أن أغنى دولة فى العالم تتلقى المعونات الغذائية
من اليابان ففى ١٥/١/١٩٧٢ نشرت أخبار اليوم تقول :

ألقى السناتور الأمريكى « فلان » خطاباً بدأه بقوله :
« أصبحت أغنى دولة فى العالم تتلقى المعونات من الدول
الأجنبية » وقدهاجم الحكومة بأسلوب غاضب وكلمات لاذعة *

هذه تقدمية القوم * * فسق وعهر ودعارة وانطلاق حيوانى
آثم - ومشكلات لا عدد لها - وتزيف لفطرة الانسان وسحق
لخصائصه واهمال لروحه الضامئة الى الهداية والنور ولعل من
العجب حقاً - أن تكون فى أمريكا أزمة بطالة - وأن يكون فيها
فقر وحرمان - وتناقضات عجيبة ومن الغريب أيضاً أن الرجل
الأوربى لا يشعر بالامن رغم الرفاه المادى والمستوى الرائع
الذى وصل اليه * ربما لأن مصدر الامن هو الدين * الذى
يعتصم به الأفراد فى الشدائد * وماذا تصنع كل وسائل
الترقى - اذا سلب من الانسان دينه ؟ !

والحضارة الأوربية منحت الانسان ترفاً وسلبته ديناً يلوذ
به فى الكوارث والملمات من أجل ذلك نرى ظاهرة القلق والخوف
تسيطر على الحضارات المادية فى الشرق والغرب *

نشرت جريدة الاخبار بتاريخ ١١/١/١٩٧٢ تحت
عنوان - الأمريكيون لا يشعرون بالامن نقول :

[أعلن ٧٨٪ من بين ٤٣ ألف قارىء رداً على أسئلة نشرتها
مجلة لايف الأمريكية عن الجريمة . . انهم يشعرون أحياناً
بأنهم غير آمنين داخل بيوتهم وقال ٣٠٪ انهم يحتفظون
ببنادق للدفاع عن أنفسهم وأوضح ٨٠٪ من سكان المدن الكبرى
أنهم يخافون السير ليلاً في الشوارع وقال ٤١٪ انهم يعتبرون
حماية البوليس غير كافية] .

ولعل هذه الاحصائية تؤكد أن الجريمة قد غدت أمراً
طبيعياً في ظلة حضارة القطيع حضارة القتل والسفاحين ،
والعجيب أن هذه النسبة تقل بل تكاد تتلاشى في البلاد ذات
المستويات المتخلفة مادياً لا توجد عصابات ولا توترات ولا
انتحارات كما توجد في قلب أغنى دولة في العالم ! ! فانظر كيف
هيأت هذه الحضارة الشيطانية مسارح للرذيلة والاباحية
والجريمة ؟ وكيف غرقت في الخمر - وتاهت في الهلوسة
والمخدر . . وكيف اقترب القوم من الجنون ثم لننظر كيف
عجزت أمريكا - أن تكافح نزعات التعصب العنصرى فما زالت
تحتقر الرجل الأسود وتنشئ الاحياء الخاصة والمدارس
والمشافي والمطاعم للزنج . . وتعاملهم بقوانين ظالمة . .
وتحاكمهم في محاكم خاصة . . أهذه حضارة ؟

ومن منطلق الجريمة . . تنبعث كل النزعات البربرية
والوحشية . والاستعمارية وكل الشرور في العالم . . فقوة
أمريكا تستخدم كلها في الشر . . ويكفى أنها لم تعدل يوماً
ما ، بهذه الفترة تعيش اسرائيل - وتعربد - وتفتك المقدسات
والقيم وتسخر بمجلس الأمن والمنظمات الدولية - وعلى هذه
القوة تعتمد في احتلال القدس - والأرض العربية . . تؤازرها

أمريكا أولاً • • وكل قوى الشر • • لان هذه القوى هي التي
أنشأت اسرائيل وأحلتها أرض فلسطين • وجعلتها وطناً قومياً
للبعث الاجرامى المرتقب •

من أنشأ اسرائيل ؟ هذا سؤال يجب أن نفهم جوابه لنعرف
من هم أعداءنا متكاملين ولا نخطئهم في ساعة من ليل أو نهار !!
ومن خسائس هذه الحضارة أنها لم تستطع صنع الذات
الاصيلة الثابتة • • وانما أنشأت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها
بين شتى الديمقراطيات • • وأنها صنعت الاشياء ثم انكفأت
تعبدتها وذهلت عن الله • • ولا تستقيم حضارة تعبد المادة •
ومن ثم فالانسان في الوسط الامريكى • • يجد في بيته المدفأة -
والثلاجة - والمروحة - ووسائل التكييف • • ويجد السيارة
وكل الوسائل المريحة التي هيأتها له الحضارة • • ولكنه رغم
ذلك ظامى ، قلق ، ضائع ، شقى ، معذب يود الانسلاخ من
حاضره ليفر الى عوالم طبيعية • • يجد فيها ريا لهذا الظمأ
الذى يوشك أن يحترق له جوفه • • ويجد أنسا من هذا الشقاء
الذى يوشك أن يجتاح روحه • • ويجد أمناً من هذا القلق الذى
يملأ نفسه • • فهو ظامىء والماء من حوله زلال !!

وعندما تخلى القوم عن الدين - وعبدوا الشهوة والمادة
والقوة • • نبتت أخلاقهم فى تلك الأرض النكدية « والبلد الطيب
يخرج نباته باذن ربه والذى خبت لا يخرج الا نكدا (١) » •

فصارت هذه الأخلاق متخصصة فى النفاق والخداع
والادعاء • • والكذب • • تعتمد على الازدواج والثنائية فلديهم
أخلاق محلية وأخلاق للتصدير • • ومن ثم تحولت وسائل
اعلامهم الى أدوات للكذب والدس والادعاء تنشر سمومها وتنفت

(١) آية ٥٨ الاعراف .

حقدما في بلادنا لتزيدهما تمزيقاً واضطراباً . . . وتأبى حضارة
الايمان الا أن تخضع الحياة كلها لله . . . فالأخلاق عليها رقيب
منه سبحانه - والمنشآت مرتبطة به جل جلاله : « سبحانه
الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١) » .

هذا منطق المؤمنين وهم في ذروة الانتصار الحضارى . .
يذكرون ربهم ليذهب غرورهم . . ويفر الشيطان من آفاقهم . .
فلا يعبد من دون الله . .

وفي ضوء ما مضى كله نستطيع أن نوكد بأن الاسلام قادر
على أن يسترد مجده - ويستعيد حضارته . . ويعيش أبنائه
كراماً في وطن اسلامى عزيز . . بالرجوع الى الله ورسوله . .
ونفض اليد من الأجانب - والاعتماد على الله وعلى أنفسنا في
تخطيط حياتنا - وتنمية مجتمعاتنا - وأن نستشعر في كل
لحظة أن الرجعى الى الله - وأن حياتنا قصيرة . . فعلينا
جميعاً أن نحقق مشيئة الله في الأرض ونتنازل عن حظوظ
أنفسنا - ونصفى قلوبنا من كل ضغينة وحقد . . ونضع أيدينا
في يد بعض كى يتم البناء - وينهض الصرح . . وما ذلك على
الله بعزير .

ولا قوة ولا مناعة ولا هيبة لأى حضارة تنسلخ عن الله . .
لأنها من عمل الشيطان وكيد الشيطان ضعيف جداً ضعيف فما
ينبغى أن ترهبنا كل قوى الشر من حولنا فهى سراب . . وقد
خاب من افترى !! وهى حضارات بشهادة أبنائها مزيفة
حيوانية سريعة الانهيار . . « ففروا الى الله انى لكم منه نذير
مبين (٢) » .

(١) آية ١٣ الزخرف .

(٢) آية ٥٥ الذاريات .

ماذا قدمنا للحياة ؟

يطيب لنا ونحن في لحظة المحاكمة لما أحدثته حضارة الغرب من خلق عالم فاجر بعيد عن الله أن نشاءل بانصاف ماذا قدمنا للعالم وللحياة . . . وبتعبير أدق ماذا قدمت حضارة القرآن للحياة ؟

والذين يقفون على الفصول الأولى من هذا الكتاب ووصف عالم ما قبل القرآن ثم يتابعون النقلة الرائعة التي انتقلت اليها الحياة يدركون جيداً ماذا قدمنا للحياة ؟

لقد أصبحت الجاهلية بعد نزول القرآن حركة رجعية في العالم كله - تدل على الجمود والغباوة - بعد أن أحدث الاسلام أثره في النفوس كما يحدث الربيع أثره في الحياة فغير عقائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم الى الكون والى الطبيعة والى الحياة ونقلهم من صميم الظلمات الى منطقة الضوء والاشعاع وانتشلهم من وهاد الفساد الى قمة الصلاح . . . وصيرهم أساتذة العالم وسادة الوجود كما اختنقت الكهانة وأصبحت حركة مهينة بعيدة عن روح الحياة والعلم . . . ورأى العالم منا الأعاجيب فعلمنا الجاهل - وأعززنا الذليل وقومنا المعوج . . . وعالجنا المريض وأهدينا الى البشرية الخائفة المذعورة أمنها وسلامها واستقرارها وكرامتها . . . وأطلقنا مواهب الانسان وخصائصه لتصنع التقدم وتتفاعل مع الكون - وتعبد الله ، كما أفضنا على العالم حرية طلاقة . . . لا تستذل رقاب البشر ولا تخضعهم الا لله . . . وسرت هذه الحرية منا الى الكنيسة والى المجتمع المسيحي فثار على الجمود والرجعية

ونشأ من احتكاك هؤلاء، بحضارتنا أن ترجموها الى مجتمعاتهم ، يقول الأستاذ أحمد أمين : | ظهر بين النصارى نزعات تنعكس عليها آثار الاسلام - من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادى ظهر في مقاطعة سمبتيانيا في جنوب فرنسا جماعات تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسيس . . وأن ليس للقسيس حق في ذلك وأن الضراعة لله وحده الذى يملك غفران الذنوب | .
وفي سنة ٢١٣هـ قام الأسقف الاندلسى « تورين » باحراق الصور والصلبان ونهى عن عبادتها بأسقفيته - ووجدت طائفة أخرى من النصارى تشرح التثليث بما يقترب من الوجدانية وتنكر تأليه المسيح . . وكان من آثار الاسلام أيضا تلك الدفعة الثورية التى جعلت لوثر وصحبه من رجال الإصلاح يشتغلون فى مهاجمة الكنيسة ويتهمونها بالرجعية والفساد ويعلنون الانفصال عنها - ولعل ما ساد العالم بعد نزول القرآن من احترام المرأة - ومنحها حقوقاً كريمة - انما كان أثراً من آثار الاسلام . . وهكذا ما من ناحية من نواحي التقدم والفكر والفلسفة والتدين والعلم سادت أوروبا الا وللعرب فيها يد بيضاء وفضل مشكور وقد أقام العرب بالاندلس قرابة ثمانية قرون . . وتعاقب عليها ملوك عظام، لهم طموحهم وفقهم الحضارى على رأسهم تسعة عشر خليفة من أولاد عبد الرحمن الداخل وحفدته فى أربعة وثمانين ومائتى عام . . نشروا فيها من العلوم والمعارف والثقافات ما ألهم أوروبا وعلمها يقول دوزى المؤرخ : | ان عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى | ويقول ستانلى لاين بول : | ان حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب خمسين سنة أدخل على أحوال أسبانيا تجديداً لا يلم الخيال على أجمع ما يكون بحقيقة فحواه | .

وان حنين الوطنيين الغلاة من أبناء أسبانيا ليشتمد ويتزايد الى تلك الفترة المتألفة التي عاشوها في أحضان الحضارة القرآنية . . فهذا الكاتب الموهوب بلاسكوا أباينز الذى توفي منذ سنوات يقول : [لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا اليها من القارة الافريقية وأسلمتهم أزمته من غير مقارنة ولا عداة فما هو الا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب احدى البلاد حتى تفتح لهم أبوابها وتتلقاهم بالترحاب - وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ - ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستعد معه تلك الثقافة الفنية الموحدة الأركان نابضة بالحياة بعيدة الشوط ولدت منتصرة - وبث فيها النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) حمية قدسية واجتمع اليها أفضل مافي وحى بنى اسرائيل وعلم بيزنطة وتراث الهند وذخائر فارس والصين وهكذا تسرب الشرق الى أوروبا على نهج غير نهج داردا وزركسيس من قبل أثينا الذى قاومته خوفا على حريتها - وفي خلال سنتين استولى العرب على ملك قضى مستردوه سبعة قره ن كاملة في استرداده ولم يكن في الواقع فتحاً فرض بقوة السلاح بلى حضارة جديدة بسطت شعابها على كل آفاق الحياة ولم يتخل أبناء هذه الحضارة عن فضيلة حرية الضمير ، هي الدعامة التي تقوم عليها عظمة الشعوب فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصراني وبيع اليهود ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته فعرف لها حقاً واستقر الى جانبها غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى . وكان سكان أسبانيا يتزايدون وتنمو فيهم عناصر التقدم وتنسجم جميع العناصر البشرية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية » . .

وهذا حديث منصف يغنى قليله عن كثير مما نقول . .
فانها شهادة القوم . . وهي تعطى الصورة الصحيحة لواقع
حضارتنا على الأرض الاندلسية وندناول مفاخر سنتي من
تسامح ديني ، وازدهار علمي ، وفقه حضاري ، وحب للسلم ،
وايثار للمعرفة والعلم ، وايثار للمعرفة والعلم ، ونشاط في
الاجتماع وهكذا . .

ويقول المسيو ليبرى : | امج العرب من التاريخ تتاخر
نهضة الآداب في أوربا قرونا طويلة . . | . .

ويقول ملر في كتابه ملخص التاريخ : | هب العرب
يظهرون ماخفي من مواهبهم فبهروا العالم بما أوتوه من
معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم
من مراقدها ونفخوا فيها من روحهم الحياة والقوة فجعلوا بذلك
سلسلة العلوم متصلة الحلقات محكمة الرد لا يمسه ومن ولا
انقطاع . وما جانا العلم والمدنية الا عن طريقهم لا عن طريق
اللاتين « .

وبعد فماذا نأخذ وماذا نددع من روائع تلك الحضارة
وآثارها العالامية . ان لذلك كتباً معينة قد تكفلت بتوضيح تلك
الآثار ؟ !

أنتحدث عن الطب والكيمياء والخصو، والفلك وعلوم
الحياة وكيف أخذها الغرب عن طريقنا ؟

أنتحدث عن الفلسفة والعلوم الأدبية . وآثارها في أوربا
والحياة كلها ؟

أنذكر تلك الظاهرة الرائعة التي جعلت أوربا تتلمذ على
العرب في كل شيء، في جامعات الأندلس ؟ ، وكيف أن القوم

حذقوا العربية ونظموا الشعر وألفوا القصص باللغة العربية
ونسوا لغة آبائهم - وزهروا فيها !! حتى لم يوجد بينهم من
يتكلم باللاتينية * *

وكيف أن التقليد قد تجاوز ذلك الى اللباس ونظام
الأكل وطريقة الحديث وأساليب الحياة * * لعمرى ما يستطيع
هذا الفصل القصير أن يلم بكل ذلك وحسبنا أن نؤكد بأن هذه
الحضارة من قبل ومن بعد حضارة القرآن تنعكس أنواره عليها
وتمتد قوته دائماً اليها * وتفويض معارفه وثقافته فيها * *
وتسقى تقاليدها وآدابها بمائه فهل يجف لها زرع أو يصوح
نبت أو يجذب وجود ؟

ذلك رهن بتمسكنا بالقرآن وتطبيقنا لشريعته واعتزازنا
بمبادئه وان القرآن الذى بدأ التجربة أول مرة والحياة مظلمة
والجهل غامر والغي سادر لقادر على أن يعيدها من جديد وهو
أهون عليه !!

من وراء أربعة عشر قرناً

لكانى أسمع الصوت الجهير - وهو يتردد واثقاً بين الجماهير المؤمنة - هناك فى عرفات عند جبل الرحمة يحذر هذه الأمة عوادى الانقسام والفرقة ، وأسباب النزاع والبغى ويؤكد لها تلك المعالم الحضارية لتمضى على نور فى صنع حضارة القرآن •

انه صوت النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهو يلقي خطبة الوداع فى نحو مائه ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم •

كان ذلك فى العام العاشر للهجرة • • وكأنما أحس الرسول باقتراب أجله فأحب ألا يلقي ربه الا وقد أدى حق البلاغ لهذه الأمة الكريمة التى صنعها على عين الله • • لتستمر المسيرة الحضارية على صراط العزيز الحميد • • وقد أكد صلوات الله وسلامه عليه على مجموعة من القيم الحضارية • • وكأنما كان ينظر من خلال الغيب الى مستقبل هذه الحضارة • • وما سينالها من أصحابها • • قال : يا أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ! أيها الناس أن دمائكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا • • ألا هل بلغت • • اللهم فاشهد • • ومنها : ان ربا الجاهلية موضوع وان مآثر الجاهلية موضوعة • • أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم • • ومنها :

أيها الناس : ان لكم على نساءكم حقاً - ولهن عليكم حقاً ، لكم
علمهم ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين
بفاحشة مبينة واستوصوا النساء خيراً .

أيها الناس : انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مال
أخيه الا عن طيب نفس منه اللهم فاشهد فلا ترجعوا بعدي
كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان
أخذتم به . . لم تضلوا بعدي أبداً . . كتاب الله ألا هل
بلغت !!

أيها الناس أن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم
وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل
على عجمي الا بالتقوى الا بلغت ؟ ! اللهم فاشهد [.

اقتطفنا من هذه الخطبة الكريمة تلك المعاني العظيمة
التي تشير كل فقرة منها الى قيمة حضارية لها أثرها في حياة
الجماعة الانسانية - ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان
أصحابه الذين احتشدوا لسماع الخطاب . . لأنها قد وردت
في القرآن وتأكدت بتطبيق الرسول ولكنه أحب أن يركز على
هذه القيم بالذات قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل متوجهة
ساطعة لا يتسرب اليها اهمال أو نسيان . . ونحن نستطيع
أن نسجل بعض انطباعاتنا عن تلك الموضوعات فيما يلي :

١ - حرمة الدماء البشرية - وقداسة الحقوق الانسانية
فلا تنتهك هذه الحقوق ولا يعتدى عليها وبهذا تتأكد كرامة
الحياة وتمضي في طريق الأمن ويتجه الانسان لاداء دوره
الحضارى في الحياة . . موفور الكرامة - عزيز الجانب -
مرفوع الجبين لا يستذل ولا يستغل ولا يعتدى عليه قد ضمن
له الرسول حقوقه المقدسة وركز عليها لأن الانسان أهم ركن في

بناء الحضارة . . . وكانما كان الرسول ينظر من خلال الغيب الى تلك الحضارات التي امتهنت خصائص الانسان وأذلت كرامته وحولته من عبادة الله الى عبادة الآلة وأنشأت له حضارة صناعية عاش بينها غريباً مبتذل الكرامة مستبعد الروح . . .

انه الحرص البالغ - من الرجل العظيم - الذي أرسى بيده دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ . . . الحرص على كرامة الانسان وحقوقه ليعيش عبد الله سيداً لكل عناصر الكون مرفوع الجبين . . .

٢ - أشار صلوات الله وسلامه عليه الى عنصر أساسى له أثره فى استمرار الحضارة الربانية - وهو عنصر منع الاستغلال - ومكافحة الربا - ليتحرر اقتصاد المجتمع من البوائق والآفات التى تهدد وجوده . . . فاذا رأينا اليوم تلك المعاملات الربوية التى تشيع فى الحضارات العالمية وكيف تخلق المنازعات - وتحريك المؤامرات - وتسيطر على الحكم عرفنا سر العظمة فى تلك التوجيهات الرائدة . . . التى يهدف الرسول الكريم من ورائها الى تطهير المجتمع الإسلامى من أضرار الربا وشروره !! ولقد تأصل الربا فى حضارة الغرب حتى صار قاعدة الاقتصاد هناك وطفح بشور الاحتكار والمضاربة وبرزت آثارها المادية فى تلك المجتمعات . . .

٣ - أكد صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك الموقف الرهيب متانة البناء الحضارى الذى صنعه مع أصحابه على عين الله - وأنه لم يعد الشيطان سبيلاً عليه بعد أن أتم الله النعمة وأكمل بناء الدين - وكانما يرمز صلوات الله وسلامه عليه الى أن هذه الحضارة فى مأمن من أعدائها على مر الأيام مادام أصحابها

متمسكين بها . . مطبقين لأحكام الله فيها . . ملتزمين بأوامره
ونواهيته حتى اذا انحرفوا عن الجادة . فقد فسحوا للشيطان
طريقاً ينفذ منه اليهم . . ويتمكن من القاء العداوة والبغضاء
بينهم . . وما أكثر قوى الشر وعملاء الشيطان التي تتربص بنا
الدوائر على مر الأيام !! وما أقل ما تنتبه لها - أو نسد الطريق
عليها . . قبل أن تمزقنا كل ممزق .

٤ - أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم « حقوق المرأة
لأنها قد لقيت من قبله ضرباً من العنت وألواناً من المهانة . .
فجاء ليرد عليها كرامتها - ويحفظ آدميتها . ويبين لها حقوقها
التي لا ينبغي أن تتجاوزها . . وحقوق زوجها عليها وحقوقها
عليه . . بما لا يدع مجالات للبس أو خفاء وكأنما كان ينظر من
وراء الغيب الى تلك الحضارات المنحلة التي عبثت بكرامة المرأة
. . وأطلقتها لتسابق الشيطان . . ونفخت فيها روح الغرور
فخدعتها عن نفسها فاذا هي تحتقر رسالتها في الحياة وتتمرد
على البيت وتنطلق في ميادين الإباحية والسهرات المبتذلة . .

يقول بعض الأساتذة الجامعيين السويديين واصفاً حال المرأة
في تلك البلاد المتحضرة : | اننا نعلم أبناءنا في المدارس الثانوية
وفي سن مبكرة كل شيء عن الجنس واضحا صريحا ليست
لدينا مشكلة جنس ، ان المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذة
والملابس الأنيقة والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل
الزواج أمر طبيعي وعادى وما يباح للشباب يباح للفتاة] .

اذا قرأنا عن تلك الحالة المتدهورة للمرأة في أرقى بلاد العالم
اليوم عرفنا الى أي حد كانت وصية الرسول رائعة وملهمة
. . لتظل المرأة في ظل حضارتنا نظيفة كريمة تؤدى رسالتها .
وتحتفظ بحيويتها وترعى الأطفال وتصنع البيت المسلم . .

وتتلقى من العلوم والمعارف ما ينير عقلها ويحفظ عليها دينها
وشرفها لئلا تصير يوماً الى هذا المنحدر السحيق فتصبح لعبة
للسيطان وملهاة للمجتمع .

٥ - ثم يهتف صلوات الله وسلامه عليه بتلك الحقوق
الانسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية : « كل المسلم
على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

هل وعيت ايحاء تلك الفقرة الرصينة المتماسكة التي
تؤكد حرمة الأعراض الانسانية فلا تنتهك ، والاموال
فلا تستغل ، والدماء فلا تسفك و آدمية البشر فلا تمتهن !!
وخصائصهم العليا فلا تزيف . . ؟ !

وعندما تقرأ هذه الحقوق . . الموثقة . . في كلمات
الرسول الصافية . . وننظر في واقع الحياة التي عاشها مع
أصحابه نرى أن هذه المعاني قد ترجمت الى عمل ، وتحولت
الى سلوك ، ونفذت بكل دقة . . وأنها لم تكن عبارات
مرصوفة للاستهلاك ، ولا كلمات براقية للعرض - ولا شعارات
ردائة للتباهي !! بل تحولت بتطبيق الرسول الى واقع حي
مأموس . . يظهر أثره في قوله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد
سرقتم لقطع محمد يدها » .

وعندما نقارن بين حقوق الانسان في واقع حضارتنا - وبين
حقوق الانسان في حضارة الغرب - وفي دساتير العالم المتحضر
نرى أن هناك شعارات ، مجرد شعارات صنعت بلباقة
وفطنة ، وليس وراء ذلك شيء . . هل رأيت النور يوماً من
الأيام ؟ هل طبقت في واقع الحياة ؟ مبلغ علمنا أن الانسان
كله ضائع هناك فهل تكون له حقوق ؟

انهم فقط يختلفون بها كل عام ويجعلون لها عيداً * *
يلتقون فيه الخطب والكلمات !!

أما حقوق الإنسان عندنا وفي حضارة القرآن فواقع
عاشته البشرية تجربة حضارية رائدة أحس فيها كل فرد
بكرامته فانطلقت مواهبه تبني الحياة وتبدع في صنع
الحضارة *

وما أروع نداء الرسول المجلجل في آفاق الحياة *
(أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد الخ)

هكذا في فقرة رائعة يعلن الرسول المساواة العامة بين
البشر في الحقوق والواجبات ، ويقرر أن أساس التفاضل بين
الناس ليس هو الحسب أو النسب أو المال أو اعتبارات الدم
أو العرق أو الجنس أو الوطن أو القومية * * وانما التقوى التي
تسند في الضمائر والقلوب أية ديمقراطية من ديمقراطيات
العالم قد أكدت علم تلك القيمة العليا ؟ وصاغت لها لحناً عبقرياً
بجز القلوب و المشاعر ؟ ثم طبقتها تطبيقاً عملياً أحس فيه كل
فرد بقدمته في الحياة فانطلقت القوى البناءة في ظل هذه
الكرامة تبني المجد والحضارة - لعمرى - لكأنما كان الرسول
الأخلم ينظر من وراء القرون الى تلك العنصريات المرفولة
الطائفية الحاقدة - والإقليميات الضيقة وخرافات العرق
والجنس واللون !! كأنما كان يرصد بمنظاره الثاقب ما
تعاينته البشرية في عصر الذرة والصاروخ * والصعود الى
القمر ونزه الفضاء من تفرقة عنصرية تمارسها أرقى الدول
وأعرقها في الديمقراطية وصرنا نسمع كل يوم مشكلات
الإنسان وكرامتهم الضائعة - وحقوقهم المتهنة * * في عالم
يعتبرهم حيوانات ليس لها حق الوجود الحر والكرامة العزيزة

• • وصرنا نسمع حكومة الأقلية البيضاء، في روديسيا
وحضارة الرجل الأبيض وخرافة الدم النقي والعنصر الذكي
وشعب الله المختار !!

يارب الناس : أين حقوق الانسان في ظل هذه التفرقة
المهينه ؟ وأين كرامته في ظل المنظمات الدولية ؟ • نم هانئاً
يارسول الله يارسول الكرامة والحرية وشرف الحياة •

لقد هتفت بصوتك الجهر من أعماق التاريخ في أفق
البشرية كلها معلنا أن لا استغلال - ولا استغلال - ولا بغى ولا
امتهان لكرامة الانسان « الناس سواسية كأسنان المشط » •
وقد تركت أمتك على المحجة البيضاء بعد أن قررت وأكدت
وطبقت وسارت أمتك بقيادتك على الدرب ، فحررت العبيد
وصنعت كرامة الحياة واستنقذت شرف الانسان وكرامته من
النبلاء والأشراف ورجال الدين • • وصنعت عالماً متكافئاً ،
الملك فيه لله - والكرامة للبشر - ولا تفاضل الا بالتقوى
والعمل الصالح •

نعم ما أروع قولك يارسول الله ألا هل بلغت ؟ تكررهما
عقب كل فقرة وتشهد الله على ذلك • ، نعم بلغت يارسول الله
وأديت الأمانة وحملت أعباء الرسالة ! ؟ وتحملت من الجهد
الواصب فوق ما يتحمل البشر • • وانك لحريص على أن تؤكد
تلك القيم لتظل في وعى أمتك • • تقاوم بها عوامل الشر -
وتصد غوائل الشيطان • • وتستعصي على الفرقة والضياح !!
أنت يارسول الله حريص على أن تسمو مشيئة الله - وتتحرر
ارادة الانسان ويعيش في عالم نظيف بعيد عن الشرك والفساد
• • ولهذا وقفت وخطبت وأشهدت الله • • نم هانئاً يارسول
الله • • فقد أديت أمانة ربك وصنعت أمة هادية نقلتها بوحي

الله من سفح الجهالة فوضعتها في قمة الايمان ولم تكثف بأن
تصرغها على هذا النحو - وانما جعلت منها أمة رائدة معلمة
ترشد الناس وتهديهم الى سواء السبيل *

فعليك من ربك صلوات وتحيات بقدر ما أخلصت في حمل
الرسالة وأداء الأمانة ، وبقدر ما تحملت من عناء وأذى * *
وبقدر ما أنت حريص علينا بالمؤمنين رعوف رحيم *

وقفت أمام ضريحك الطاهر في لحظة من لحظات الحياة
المباركة * * خاشع القلب دامع العين تموج نفسى بشتى
الاحاسيس وينبض قلبي بمختلف المشاعر وازدحمت في خاطري
ذكريات غالية ذكرياتك يا رسول الله وأنت تبني دولة الايمان
بالجهد والعرق * * وأنت تؤسس مجد الاسلام ترفع
مع أصحابك قواعد أكرم حضارة عرفها الانسان * * ذكريات
الأمجاد الاسلامية الطامحة يوم انطلقت كتائب التحرير تسحق
الباطل وتدمر الشرك وتمكن لكلمة الله في الأرض * * وتحرر
الحياة من قبضة الجبارين ذكريات الصحابة الذين هجعوا على
مقربة منك في البقيع * * وكيف ارتفعوا بايمانهم وجهادهم
الى مستوى كريم لا يدركه سعى ولا تلحقه همة وكيف صنعت
منهم باقة زهر نضير ملأت جو الحياة بالعطر ونضرت وجهها
بالجمال فأسرعت بالخصب وجادت بالربيع !! ذكرياتك
يا رسول الله وأنت قائم في مسجدك المبارك تتلو آيات الله
وترددها في أفق الحياة لتطهر الوجود وتصنع الرجال وتعلم
الحياة الجاهلة *

قلنت لنفسي وأنا في موقفى هذا :

من هنا تفجر نبع الحضارة الانسانية ومن قلب هذا
الرجل العظيم تدفق الهدى والنور من قلب محمد محرر
الوجود صانع الأبطال رائد الانسانية محطم الوثنية، وبسواعد

أصحابه الهاجعين على مقربة منه قام ذلك البناء الكبير وكتب
للوجود شأن آخر وقلبت في سجل الحياة صفحة مشرقة
بيضاء !!

يا صناع الحشرات !! أين تقع حشراتكم من حضارة
قوم عاشوا لك وتجردوا من مظاهر الجاه - وكانت قيمهم
ومبادئهم ومثلهم رصيذا مباركا لكل الناس ولجميع البشر . .
لأنها سادت وازدهرت فأنت أكلها ضعفين !

يامسلمون في شرق الدنيا وغربها !! هذا نبيكم محمد عزيز
عليه ما عنتم حريص عليكم ، لكانما ينظر اليكم حزينا وقد
لعب بكم الشيطان فمزق وحدتكم وفرق كآمتكم وصيركم أعداء،
متنابذين يضرب بعضكم رقاب بعض . . أنسيتم ما حذركم
إياه في خطبة الوداع من ان يلعب بكم الشيطان ان قوني الشر
تتألب عليكم - وان حضارة الشيطان افترست حضارتكم . .
لأنكم ذهلتكم عن وجودكم . . ونمتكم عن أمجادكم . . وأسلمتم
زمامكم للشيطان !!

لكأني أسمع صوت النبوة الهادر وأنا واقف أمام الضريح
انطاهر يناديكم أن اجتمعوا فهذا القران معكم وامامكم . .
وهو قادر على أن يصنع وحدتكم ويرجع مجدكم فهيا عيشوا
نظامه وطبقوا أحكامه تكن لكم العزة في الحياة : (تركت فيكم
ما ان تمسكنتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله) .

هكذا تماوجت الخواطر في وجداني وهكذا نقلتني الى
عالم أكرم ثم ردتني الى واقع مر فهل نستجيب ؟

وانطلقت أدعو وأدعو !!

اللهم يارب محمد يارب الكعبة يارب هذه الجموع
البشرية التي يموج بها المسجد بصر المسلمين بدينهم -
من سبائهم - واجمعهم على كتابك لتعود اليهم أمجادهم *

اللهم اكتب لنا النصر على أعدائك حتى نسترد القدس
ونستعيد الأرض * * ونظهر الوجود كله *

اللهم ألف بين قلوب المسلمين - وأذهب عنهم كيد
الشیطان ليعزوا دينك وينشروا هداك *

اللهم ان يهلك هؤلاء فلن تعبد في الأرض *

اللهم ألهمنا الحق - ودلنا عليه - وقدنا الى الخير
ووجهنا اليه حتى نؤسس دولة العلم والايمان على تقوى من
الله ورضوان *

والحمد لله أولا وآخرا له المجد كله وله الحمد كله وهو على
كل شيء قدير *

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ۞

توفيق محمد سبع

كلمة ختامية

أحمد الله عز وجل - أن أتاح لي تلك الفرصة الهادئة
الطيبة لأحقق أملاً عزيزاً طالما صبوت إليه - وهو الكتابة في
موضوع « قيم الحضارة القرآنية » - وإبراز أسرارها الرائعة
- وآثارها العالمية من وجهة نظر معينة . . . تختلف عما كتب
في هذا الموضوع من قبل . . . وهو الاستمداد من القرآن الكريم
مباشرة . . . والأصغاء إلى سر الأيحاء الكامن في ألفاظه وتراكيبه
. . . لاستنباط ما يدعم الحياة وينفع الناس .

وقد ركزت الأضواء على مجتمع الإيمان الذي أسسه
سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه . والذين معه بالجهد
والعرق . . . ووضحت كيف استطاعوا بقدراتهم الطبيعية -
ومواردهم المحدودة أن يملأوا كل فراغ . . . وأن يسدوا كل عوز
. . . وأن يقدموا للعالم كله نموذج حضارة إنسانية رائدة
تملأ الحياة بالأمل والنور . . . وتومض في جنباتها المعتمة كما
تومض المناره في ظلام المحيط . . . ووقفت طويلاً أمام السواعد
الفتية التي صنعت تلك التجربة . . . مستهدية بمنهج الله
وقيادة رسوله العظيم . . . وبيّنت كيف امتدت تلك التجربة
وترامت حتى شملت العالم . . . وأضأت الحياة بنور الله . . .
وكيف عاشت الإنسانية أسعد أيامها في أحضان تلك الحضارة
الربانية وكيف تفجرت مواهبها الخصبة لتبنى الحياة وتصنع
التقدم وترعى كرامة الإنسان !!

ثم وضحت كيف استتقت أوروبا من نبعنا الطهور وكيف
كافأتنا على ذلك في النهاية ؟ !

وربطت بين أطماع المتربصين بتلك الحضارة . . . وأكدت،
أنهم لا يستهدفون إلا الإسلام ومهما تختلف وجهاتهم أو
مظاهرهم فهم يجتمعون على الكيد للقرآن وحضارته كأن لم
ينهلوا يوماً من معينها ولم يتحرروا بمبادئها .

وكنت حريصاً على أن أستنطق المستشرقين الحاقدين -
وأدعهم يتحدثون عن آمالهم في القضاء علينا . . . ووسائلهم في
تحقيق هذه الغايات . . . وذلك حتى تعرفهم أمتنا المجاهدة .
ولا تخدع بحركاتهم وظواهرهم .

وقد اكتملت فيما أعتقد - صورة حية ونابضة لقيم
حضارتنا الخالدة - أود أن أكون قد وفقت في عرضها والتعبير
عنها .

والله أسأل أن يمنحنا الصدق في القول والاخلاص في
العمل . . . انه ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ۞

توفيق محمد سبع

مراجع الكتاب

أولا : كتب التفسير :

- (١) تفسير الكشاف
(٢) تفسير الفخر الرازي
(٣) ابن كثير الدمشقي
(٤) المنار للسيد رشيد رضا
(٥) تفسير أبي السعود *

ثانياً : كتب التاريخ :

- (١) عصر ما قبل الاسلام للاستاذ مبروك نافع *
(٢) قصص الأنبياء، للاستاذ النجار *
(٣) تاريخ الاسلام السياسي للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن *
(٤) السيرة النبوية للاستاذ الخضرى *
(٥) سيرة ابن هشام (٦) مروج الذهب للمسعودي
(٧) تاريخ العرب قبل الاسلام للاستاذ جورجى زيدان *

ثالثاً : من كتب الحضارات :

- (١) الاسلام في المعترك الحضارى الاستاذ عمر بها، الدين نقله محمد عاصم حداد *
(٢) أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة للاستاذ أبى الأعلى المودودى *
(٣) أثر العرب في الحضارة الأوربية للاستاذ عباس محمود العقاد *
(٤) القرآن والعلم للدكتور جمال الدين الفندى *

- (٥) بين الديانات والحضارات للاستاذ طه مرور .
- (٦) الاسلام والطاقت المعطلة ظلام من الغرب للاستاذ محمد الغزالي .
- (٧) من روائع حضارتنا للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي .
- (٨) المستقبل للاسلام للاستاذ مالك بن نبي .
- (٩) الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على .
- (١٠) حضارة الاسلام لجوستاف النمسواوى ترجمة الاستاذين عبد العزيز توفيق جاويد و عبد الحميد العبادى .
- (١١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام للفيلسوف محمد اقبال ترجمة عباس محمود ومراجعة الدكتور مهدى علام .
- (١٢) تعليقات الأستاذ شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامى .
- (١٣) الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين للاستاذ محمد الغزالي .
- (١٤) الحضارة الاسلامية لابي الاعلى المورودى .
- (١٥) نحن والحضارات الغربية لابي الاعلى المودودى وكذلك كتاب نظام الحياة فى الاسلام لنفس الكاتب .
- (١٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ لأبى الحسن الندوى ،
- (١٧) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد .
- (١٨) تاريخ الادب العربى للاستاذ أحمد حسن الزيات
- (١٩) انسانية الاسلام للاستاذ أحمد عبد الغفور .
- (٢٠) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .
- (٢١) عبقريتنا الصديق وخالد للاستاذ عباس محمود العقاد
- (٢٢) مواقف اسلامية للدكتور عبد العزيز كامل .

محتوى الكتاب الجزء الثانى (قيم حضارية)

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
	تقديم لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (شيخ الأزهر فيما بعد)
٨	مقدمة المؤلف

الباب الأول

١٨	البعث الجديد
٢٢	رسول من أنفسكم
٣٤	قيادة ومنهج
٤١	من خصائص البعث الجديد
٥٣	من آثار هذا البعث
٥٤	بين النظامين !!
٦١	لماذا سهل تقبل الناس للدعوة الجديدة ؟
٦٤	من أقوال المستشرقين

الباب الثانى

٦٨	من خصائص الحضارة القرآنية
٦٨	(أ) استمدادها من القرآن وتجديدها المستمر
٦٨	بين الكتب السماوية والقرآن
٧٥	القرآن نبع حضارى متجدد

الصفحة	الموضوع
٨٠	مكانة العقل في حضارة القرآن
٨٢	من آثار العقل في حضارة القرآن
٨٤	حركات الاصلاح الدينى
٨٩	الاجهاد وأثره في تطور الفكر
١٠٠	(ب) ثبات صبغتها وابتعادها عن أهواء البشر
١١٢	(ج) انفتاحها على جميع الحضارات الانسانية
١٢٢	شخصية الحضارة الاسلامية
١٢٤	(د) ملاءمتها للطبيعة البشرية
١٣٥	من عجائب المنهج القرآنى
١٣٨	(هـ) تكامل جوانبها واتساق عناصرها
١٤٤	الرسول ومسئولية الجماعة
١٤٥	بين النزعة الفردية والجماعية

الباب الثالث

قيم الحضارة القرآنية

١٥١	(أ) القيمة الايمانية
١٥٤	العقيدة والضمير
١٥٥	(ب) القيمة العلمية
١٦٤	(ج) العمل قيمة عليا في هذه الحضارة
١٦٧	(د) الجهاد في حضارتنا تعبير عن العقيدة
١٧٢	العبادة وقيم الأخلاق في حضارتنا
١٧٩	(هـ) الحرية في مجتمعنا الحضارى
١٨٥	مجتمع القرآن

الباب الرابع

الصفحة	الموضوع
١٩٤	ذوقيات الحضارة القرآنية
١٩٤	صياغة الذوق وعجائبها
١٩٨	الرسول والتجربة الذوقية
٢٠٦	من الروائع الذوقية في القرآن
٢٠٦	(أ) النظافة والطعام
٢٠٩	(ب) توفير القيادات
٢١٨	(ج) رعاية احرمات
٢٢٣	(د) أدب اتحية
٢٢٥	(هـ) تفسحوا في المجالس

الباب الخامس

٢٣١	الحضارة القرآنية بين المد والجزر
٢٣٤	وقفه أمام السواعد الفتية
٢٣٧	مع أبي بكر
٢٤٠	مع عمر أو قمة الحضارة
٢٤٨	هل انتهت الحروب الصليبية بعد صلاح الدين ؟
٢٥٣	المعركة ضد الاسلام
٢٥٧	كيف السبيل ؟
٢٦٠	آفات الحضارة الغربية (من كلامهم)
٢٦٩	ماذا قدمنا للحياة ؟
٢٧٤	من وراء أربعة عشر قرنا !!
٢٨٤	كلمة ختامية
٢٨٤	مراجع الكتاب
٢٨٨	محتوى الكتاب
٢٤٣	المسيرة الحضارية بعد عهد الخلفاء

رقم الايداع ٤٢١٦ / ٨٤

دار الفتح الاسلامى للطباعة
٧ شارع خالد بن الوليد ارض اللواء — المهندسين

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	دوربه	دروبه
١٦	٨—	وكنما	وكانما
٢١	١٠—	محمد	محمد
٢٢	٢—	فيمتها	قيمتها
٢٣	٦—	للبريه	للبشرية
٢٤	٩	ترزت	برزت
٢٥	٢	خبيثا	خبيبا
٢٦	٨	تنفله	تنقله
٢٦	١٢	مانهج	مناهج
٢٧	١	حاء	جاء
٢٨	٦	رساله	رسالتة
٣١	٦—	بيضها	بينها
٣٢	٧	يوضعها	بوضعها
٣٥	١	النربيه	النربيه
٣٦	٧—	فخسعت	فخشعت
٣٩	١٥	بما	بماء
٤٣	١٠	ولا يعطلها	ولا يعطلها
٤٤	١٠	وبذك	وبذاك
٤٩	٥—	تقبه	تقبله
٥٠	١٠—	ابقظ	ايقظ
٥٤	٢	ابراعم	البراعم
٥٦	٣	احديث	الحديث
٥٨	٨—	اد	اذ
٦٢	٢—	بجسيدا	تجسيدا
٦٦	٢—	نرتسط	ترتبط
٧١	٣	للدين	للدين
٧٢	٢	الامين	الامين
٧٢	٦	جمبعا	جميعا
٧٣	٦—	مضياها	مضاياها
٧٦	٥	النى	النى
٨١	٣—	الفرآنية	القرآنية
٩٣	٩—	مئينه	متينه
٩٤	الأخير	ذلك	ذاك
٩٥	١١	أبضا	أيضا
٩٥	٧—	مكوره	مكوره
٩٧	١٠—	المحترزاد	المحترزات
٩٧	٧—	منا	بنا

رقم الصفحة	المصدر	الاشتقاق	الصواب
١٠٠	٥	أهواء	أهواء
١٠٥	٥	ببجوابون	ينجابون
١٠٥	٩	واليرحل	والميسر فل
١٠٦	١٢	عيله	عليه
١١٠	٧—	التصوير	النصير
١١١	٢	انسطابها	انطرا بيا
١١٢	١	نحكمها	نحتمها
١١٣	١٣	ناخذ	ناخذ
١١٦	الآخر	السي	السي
١١٧	٧	نصرف	نصرف
١١٨	١٤	واروساني	والرومان
١١٨	١—	نقدم	نقدم
١١٩	١	ينطلق	ينطلق
١١٩		الأر. طر — ٧ — ٨ — ٩ — ١٠	الأر. طر — ٧ — ٨ — ٩ — ١٠
١٢١	١٢	نقلين	نقلين
١٢٣	٣	قلبا	قلبا
١٢٤	٩ —	راحت	فراحت
١٢٥	١٠—	تأثير	تأثير
١٢٥	٧—	بالأخرى	بالأخرى
١٢٦	٤	تعير	تعير
١٢٦	٤—	نهية	نهية
١٢٨	٦	الموعد	المواد
١٢٨	١٢	سطر	سطر
١		والأعضاء	والأعضاء
١٢٨	٢—	بأنفسنا	بأنفسنا
١٢٩	٦	حقيقة	حقيقة
١٢٩	١٣	وينعرف	وينعرف
١٢٩	٤—	بجوابها	بجوابها
١٣٣	٧	مدينة	مدينة
١٣٣	١٠—	والملكات	والملكات
١٣٥	١٠	انتذرت	انتذرت
١٣٦	١٢	فقال النبي	فقال النبي
١٤١	٤	وتتمجرت	وتتمجرت
١٤٢	٧	فنجالت	فنجالت
١٤٥	١٤	نؤذ	نؤذ
١٤٨	١١	أن	أن
١٤٨	١٢	شرب	يشرب
١٤٨	٢—	وحسن	وحسن
١٥٠	الآخر	فأنقذكم	فأنقذكم
١٥٤	١١	الدنيا	الدنيا

رقم الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٥٦	١	خلفه	خلقاه
١٦٢	٦-	نطره	مطره
١٧٤	الاخير	تتعاونها	يتعاونها
١٧٦	٩-	رقبنا	رقابنا
١٨٢	(١)	الهامش آية ٤ سورة المدثر	آية ١٣ سورة الشورى
١٨٢	(٢)	الهامش آيتنا (٣١/٢٢٦)	
		سورة الأعراف	وصينا
١٨٢	١٣	وصنيا	آية ٢٨٥ سورة البقرة
١٨٣	٦	انباء	انباء
١٨٧	٨-	العصبيات	العصبيات
١٩٤	١٠	الراقبه	الراقبه
١٩٦	٣	ودوقيات	ودوقيات
١٩٦	١٣	الرص	الروص
١٩٦	١٥	اعنق	اعتنق
١٩٨	٥-	العيد	العين
٢٠٠	٩	وغلهم	أوغلهم
٢٠١	١٢	من يسر اليه الا اذا بدأ هو . .	يؤثر القادم عليه بالوسادة
٢٠٣	٥	لا خلقه	ولا خلقه
٢٠٦	٩	ونضر	وتنضر
٢١٠	١١	الهه	الهه
٢١٣	٥-	استقباب	استتباب
٢٢٥	١١	لا تنمع	لا تمنع
٢٣٦	١٣	مي	منى
٢٣٧	٧-	سانجا	سانحة
٢٣٨	١١	تخطنتى	تخطفتنى
٢٤٢	١٥	ع ييب	عجيب
٢٤٣	٦	اسراع	الصراع
٢٤٤	١٣	سهرقيد ونجارى	سهرقند وبخارى
٢٥٢	٧	امارتهم	أمر اتهام
٢٥٢	٩-	وترات	وتراب
٢٥٢	٢-	جوافز	جوائز
٢٦٢	١١-	عبدا الله	عبدا لله
٢٦٦	٥	آمين	آمين
٢٦٦	١٠	ظله	ظل
٢٦٩	٣	نشاعه	نسل
٢٧٥	٢	هاهم	عليهن

* إذا سبق رقم السطر علامة (-) يبدأ العد من أسفل الصفحة .
* أذى الكريم نرجو أن تصحح نسختك من هذه الأخطاء المطبعية .

